كيف ربى المسلمون أبناءهم



محمد شعبان أيوب

مؤسسة اقرأ
للنشر والتوزيع والترجمة

كيف ربّى المسلمُون أبناءَهم؟!

رحلةٌ في تاريخِ التربيةِ الإسلاميةِ

محمد شعبان أيوب
باحث مصري في التاريخ والتراث
mshabanayob@yahoo.com



الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٢٤٧١٦

بطاقة الفهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

شعبان ، محمد.
كيف ربى المسلمون أبناءهم/ تأليف/محمد شعبان - حلوان
مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٠
(٣٣٦ص)، ٢٤ سم تدمك: ٣-٠١-٨٠١-٤٤١ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ - التربية الإسلامية ٢ - الإخلاق الإسلامية
أ – العنوان ٢١٢

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط

القاهرة ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول:٠١٠٥٢٢٤٢٠٧ - ٠١٢٦٣٤٤٠٤٣

E-mail:iqraakotob@yahoo.com

www.iqraakotob.net

إهْدَاءٌ ولمحةٌ

إلى أَبِي وَأُمّي:

هَذَا الكِتَابُ ثمَرَةُ غَرْسِكُمَا،

وَبِدَايةُ تحقيقِ أَمَلِكُمَا؛

سَائلاً المولى عَزَّ وَجَلَّ أن يجمَعَكُمَا

على خَيْرٍ وسَكِينَةٍ فِي الدُّنْيَا

وفِي مُسْتَهَلّ رَحْمَتِهِ فِي الفِردوْسِ

الأعْلَى مِنَ الجنّةِ.

لمحـــــة

إنَّ نَظْرةً ثَاقِبةً في مُؤلَّفَاتِ التَّارِيخِ وَالطَّبَقَاتِ وَالتّراجِمِ وَالسِّيَرِ، واستجْلائِهَا

بَلْ وَمُحَاوَلَةِ استِنْطَاقِهَا لَتُؤكّدُ لَنَا أَنّ الإنْسَانَ هُو الإِنْسَانُ عَبْرَ مَسِيرةِ الزَّمَنِ فِي العَوَاطِفِ والمشَاعِرِ وطَرَائِقِ التّعْبِيرِ وتَحْقِيقِ الآمَالِ والأَهْدَافِ والغَايَاتِ، ثُمّ إنَّ هَؤلاءِ

الذين سَدّوا ثغْرَاتِ الحيَاةِ مَا لَبِثُوا أَنْ رَحلُوا، وأَضْحَوْا تَاريخًا يُقرأ، وسِيرَةً يُعتبرُ بها، فالموتُ قَدَرَ عَلَى استِحْصَادِ أَرْوَاحِهِم، وَتَفْرِيقِ شَمْلِهِم، وإِذْهَابِ رِيحِهِم وَقُوّتِهِم، والنّتِيجَةُ أنَّ الموتَ باقٍ، والإنسَانَ فَانٍ، وَمَعَ ذَلِكَ يجبُ أَنْ يَكُونَ.

الموتُ وَقُودَ العَمَلِ!

وصَدَقَ ابنُ الجَوْزِيُّ حِينَ قَالَ:

سَتَنْقُلُكَ المنَايَا عَنْ دِيَارِك	وَيُبْدِلُكَ الرَّدَى دَارًا بِدَارِك
وَتَتْرُكُ مَا عَنيتَ بِهِ زَمَانًا	وَتُنْقَلُ مِنْ غِنَاكَ إِلَى افْتِقَارِك
فَدُودُ القَبْرِ فِي عَيْنَيْكَ يَرْعَى	وَتَرْعَى عَيْنُ غَيْرِكَ فِي دِيَارِك

المقدمة

بسم الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، والصلاة الدائمة الموصولة على نبينا ومولانا ومصطفانا وشفيعنا بإذن الله تعالى محمد ﷺ، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان وإخلاص إلى يوم الدين، وبعدُ

فلكل قصة بداية، ولكل حادث حديث، ولكل كتاب باعث، وباعثُ هذا الكتاب يبدأ حينما قدّر الله لي أن ألتقيَ بكتاب العلامة الألماني آدم متز «الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري»، فإذا بي أستمتع بقراءة الكتاب، وأجول في فصوله وموضوعاته جولة المتلقف المتلهف، المستظرِف لما فيه، المستمتِع لما يحويه.

ومرت الأيام، فإذا بي أجد الكتاب ذاته أمامي مرة أخرى، فيزداد تعجبي ودهشتي فقد أحاط مؤلفه بنواحي الحضارة الإسلامية من سكان ومال وإدارة وتجارة وعلم وفن وسياسة واجتماع، وكشف ببحثه عن نواحٍ غامضة أخذ يُعالجها في صبر وأناة حتى جلاّها، وكانت طريقة معالجته تكاد تقتصر على جمع النصوص الكثيرة المتعلقة بالموضوع من مصادر كثيرة متنوعة، من غير أن يُدخل شخصيته وآراءه في المسائل إلا في القليل النادر.

وقد تأثرتُ بهذا الأسلوب الجذاب المبهر، الذي يتميز بالجِدة والأصالة، والظُّرف والجمال، والأسلوب العلمي والمنهجي الرائع والراقي، فعاهدتُ نفسي أن أسير على دربه في مؤلَّف يسدُّ بعض الثغرات التي لاحظتُها في هذا الكتاب، وكانت أكبر ثغرة رأيتها إهماله للجانب التربوي في الحضارة الإسلامية، هذا الجانب الذي يُطالعه الباحثُ والمُنقّب في التاريخ والتراث الإسلامي فإذا به يجده عن يمينه وشماله وبين يديه، صارخًا مستصرخًا لهذا الباحث لكي يُخرجه من براثن الظلمات، وتيه المؤلفات، وبُعد الشُّقة بينه

وبين القراء العاديين الذين لا يُطالعون مصادر التاريخ والتراث الإسلامي إلا عَرَضًا ونادرًا.

كما لاحظت على كتاب «آدم متز» بعض المآخذ الأخرى التي تؤخذ على قطاع لا بأس به من المستشرقين والمؤرخين الغربيين منها عُسر النص عليه، فيفهمه على غير وجهه، وأحيانًا بتر النص العربي واجتزائه من موضعه بما يُخل المعنى العام للموقف والحدث، وأحيانًا نراه - بحكم عقيدته ودينه - يعتمد على النصوص فقط، دون فهم الروح والذوق والجو الإسلامي والوسط العربي الذي ذكرت فيها هذه النصوص، كل ذلك حفّزني وقتئذٍ على إتمام ما عزمتُ عليه.

لكن جذوة الحماسة التي اصطليتُ بها سابقًا، سرعان ما كانت تخبو، فنُسي مع هذه الحماسة التي كانت تفتُر تباعًا إخراجُ هذه الفكرة التي أردت أن تكون استكمالاً لما بدأه «آدم متز»، هذا فضلاً عن الكسل، والتذرع بضيق الوقت، والإرهاق الناتج عن العمل اليومي وغير ذلك من ذرائع النفس والشيطان.

وكنتُ قد أخبرتُ صديقي محمد إلهامي بهذه الفكرة، فإذا به يُحفّزني لإتمامها دون مقدمات بعد صدور كتابه «التأمل»، فقلتُ ذلك من توفيق الله وإلهامه، فزاد ذلك من إصراري وعزمي، ثم توكلت على الله لإخراج هذا الكتاب، الذي أسأله أن يكتب له القبول والتوفيق.

وبدأت الرحلة، رحلة البحث عن المادة العلمية ووضع الهيكل الملائم، والغوص في أعماق المصادر التاريخية التي استمتعتُ بها كثيرًا كثيرًا، حتى منّ الله علي بإنهائه وإتمامه وإخراجه إلى العلن.

وهذا الكتاب أيها القارئ العزيز، لا يُعنى بالاستقصاء المُغرِق، وجمع التفاصيل المملة، ولا يُشبه المؤلفات الأكاديمية الموضوعية التي يُتحرّى في كتابتها القواعد والأصول الصارمة، ثم هو لا يُنظّرُ للتربية الإسلامية، إنه حالة من الكتابة الحضارية التي لم تتقيد بقيد أو شرط، كتابة أُبعدُ فيها نفسي عن التدخل والشرح إلا ما يستدعيه الموقف، لأفسح لعلمائنا ومؤرخينا وأدبائنا وفقهائنا المجال للحديث عن التربية التي عايشوها، والتأديب

الذي لا أساسوه، ثم لحضارتنا التي لا زلنا نجهل كثيرًا من معالمها الغائصة في المصادر والمظانّ، أو الشائهة في بعض المراجع التي لا تُسمن ولا تغني من جوع!

ولا أدعي أنني أتيتُ بأفضل مما أتى به غيري، وأحسن ما جاء به سواي، ولكنه عملٌ أُفسح بالفعل المجال للكتابة الحضارية أن تتحدث وتقول ما تشاء فيه، ولذلك لا يستغرب القارئ من الطول في بعض الاقتباسات التربوية أو التاريخية فإنما هو مقصود لإجلاء الغبار عن المقصد التربوي المراد إجلاؤه وتبيانه، ثم لا يندهش من المفهوم الرحب للتربية في الحضارة الإسلامية الذي طال كل ما يتعلق بالإنسان المسلم!

وقد ابتدأت الرحلة بالحديث عن أصالة التربية في العصر النبوي والراشدي، وعرضت فيه لبعض أقوال النبي ﷺ وأفعاله وعلاقته بالأطفال والصبيان، ثم العصر الراشدي الذي يتضح للقارئ فيه التطور الحاصل في المفهوم التطبيقي التربوي، سواء على المستوى الرسمي أم المستوى الشعبي والمجتمعي، وقد أكدتُ في هذا الفصل أن هذا العصر هو عصر الانطلاقة التربوية المنهجية والحضارية التطبيقية، وهو الأصل الذي ينهل منظّرو وعلماء الإسلام منه في كل زمن لاحق المفاهيم والمعاني التربوية التي جاء بها الإسلام.

ثم كان الفصل الثاني عن التربية في العصر الأموي، هذا العصر الذي يتسم بجانبه العربي القبلي ثم فتوحاته في الاتجاهات الأربع، وقد لاحظتُ في هذا العصر ظهور معان ومصطلحات جديدة سواء في العملية التربوية التطبيقية أم المنهجية التنظيرية.

ثم جاء الفصل الثالث وهو بعنوان نضوج التربية في العصر العباسي، وبالفعل فقد نضجت التربية ووصلت للذروة في الفكر والتطبيق، وهو عصر إنشاء الجامعات والمدارس والمكاتب المتخصصة في التربية الإسلامية.

وأما الفصل الرابع فجاء بعنوان «عظمة التربية في العصر المملوكي»، ويلمس القارئ العظمة التي توصلت إليها التربية الإسلامية في ذلك العصر على جميع المستويات، وأصبح العلم أصلاً واضحًا من أصول التربية الإسلامية، وأيضًا يتجلى في هذا العهد نوع جديد من أنواع التربية وهي التربية العسكرية التي أفردت الحديث لها.

ثم أنهيتُ فصول الكتاب بالفصل الخامس والأخير وهو يتناول «سحر التربية في المغرب والأندلس» وهو أكبر فصول الكتاب، وحُقّ له، ولو كان بإمكاني أن أستزيد فيه لأزدتُ؛ وذلك للروعة والإبهار والجمال والأصالة التي يلمسها القارئ للتربية في هذا العصر.

والله أسأل أن يوفقنا للخير، ويجعل هذا العمل ابتغاءً لوجهه ومرضاته.

محمد شعبان أيوب

حلوان في غرة المحرم ١٤٣٢هـ/ديسمبر ٢٠١٠م



الفصل الأول

أصالة التربية في العصر النبوي والراشدي



إن العصرَ النبوي والراشدي هما العصران المؤسسان للتربية الإسلامية، وكما أظهرتُ في المقدمة فإن مفهوم التربية في هذا الكتاب لا يتوقَّف عند الدلالات والمصطلحات والتنظيرات التي أقرَّها علماء التربية الحديثة؛ فالتربية الإسلامية في هذا الكتاب هي رصد للحالة الحضارية الإسلامية عبر تاريخها الممتد منذ العهد النبوي حتى الآن.

لقد حرص النبي ﷺ على إنشاء الجيل النموذج الذي تأتي الأمة من خلفه مستمسكة متطلعة له، صحيح أن الحضارة الإسلامية شهدت تطورًا بعد ذلك كلما تقدمت في الزمن، وابتعدت عن العصر النبوي، لكنها انطلقت من الأصول التربوية التي وضعها النبي ﷺ والقرآن الكريم، وابتكرها صحابته ﷺ.

وهذا الباب رصد للحالة التربوية التي كان عليها المجتمع الإسلامي لا سيما أولاده وبناته، وسنرى كيف أن هذا المجتمع الأول الذي لم يكن يملك من المقومات المادية الشيء الكثير غرَسَ في نفوس هؤلاء الأطفال روحًا جديدة لم يعهدوها من قبل، ولم يروا نماذج في التربية والتعليم والتثقيف مثلها؛ لينطلق هؤلاء الصغار في آفاق الحياة، كلٌّ بحسب تخصصه وتطلعه، ثم يحملوا على عاتقهم مهمة بناء الحضارة الإسلامية والأمة المسلمة.

الرفق النبوي بالأطفال

قبل الشروع في إيضاح الأساليب التربوية التي انتهجها النبي ﷺ في تربية الأطفال، يجب أن نؤكد أن النبي ﷺ كان ينتهج هذه الآليات ويحرص على أدائها بغية تصحيح مسار الفرد المسلم منذ الطفولة، لقد كان النبي ﷺ خير قدوة وأسوة للناس في كل شيء، بما في ذلك التربية والتقويم، وكان نهجه ﷺ التربوي مع الكبير والصغير يتكئ على دعامة الرحمة والرأفة والرفق، وصدق أَنس ﷺ حينما قال: «**كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالصبيان**»[1]. وهذه شهادة من غلام عايش النبي ﷺ عشر سنين متصلة!

---

(١) مسند البزار ٢/ ٣٥١ ح٧٣٥٦، وأحمد بن حنبل: الزهد ص٢٣، والمتقي الهندي: كنز العمال ٧/ ١٥٥ ح١٨٤٩٠.



هذه الرحمة المتدفقة ما كان النبي ﷺ يكتمها بل يحرص على إظهارها وإجلائها، فعن أنس ﷺ قال: رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين من عُرسٍ فقام ﷺ قائلاً: «**اللَّهمَّ أنتم من أحبِّ النَّاس إليَّ**». قالها ثلاث مرات[١].

هذه رؤيته لأضعف الناس في هذه الأمة: الأطفال والنساء، رؤيةٌ تقوم على الرحمة والرأفة المتدفقة التي لا تنحصر معانيها أو مشاعرها بين جنبات نفسه، وفي طيات صدره، ولذلك كان نهجه في التعامل مع الأولاد الصغار قائمًا كليته على المداعبة والتبسم، بل والحنو الزائد وإن كان هذا في صلاته!

فهذه حفيدته أُمامة بنت زينب -رضي الله عنها- كان ﷺ يصلي وهو حاملها، «**فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها**»[٢]. وزاد النسائي في هذه الرواية بسنده عن أبي قتادة قال: بينا نحن جلوس في المسجد، إذ خرج علينا رسول الله ﷺ يحمل أمامة بنت أبي العاص بن الربيع وأمها زينب بنت رسول الله ﷺ، وهي صبية يحملها، فصلى رسول الله ﷺ وهي على عاتقه يضعها إذا ركع، ويُعيدها إذا قام حتى قضى صلاته يفعل ذلك بها[٣].

وهذا لعبه ﷺ مع الحسين بن علي ﷺ على مرأى ومسمع من الصحابة، وفي مجتمع المدينة الذي كانت تحوطه قبل الإسلام النزعة الرجولية المتشدِّدة، فعن يعلى العامري أنه: خرج مع رسول الله ﷺ إلى طعام دُعوا له، قال: فاستقبل رسول الله ﷺ أمام القوم، وحسين مع غلمان يلعب، فأراد رسول الله ﷺ أن يأخذه. قال: فطفق الصبي ههنا مرة وههنا مرة، فجعل رسول الله ﷺ يُضاحكه حتى أخذه. قال: فوضع إحدى يديه تحت قفاه والأخرى تحت ذقنه، فوضع فاه على فيه فقبَّله وقال: «**حُسَينٌ مني، وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينًا، حسين سبط من الأسباط**»[٤].

وسار صحابته ﷺ مسار المنهج النبوي، فمثل هذا الموقف يفعله الخليفة الراشدي

---

(١) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي ﷺ للأنصار: «أنتم أحب الناس إلي». (٣٥٧٤).
(٢) البخاري: أبواب سترة المصلي، باب إذا حمل جارية صغيرة على عنقه في الصلاة (٤٩٤)، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز حمل الصبيان في الصلاة (٥٤٣).
(٣) النسائي: كتاب المساجد، باب إدخال الصبيان المساجد (٧١١). وقال الألباني: صحيح.
(٤) مسند أحمد ٤/ ١٧٢ ح ١٧٥٩٧.

والصحابي العظيم أبو بكر الصديق ﷺ، فعن عقبة بن الحارث قال: صلى أبو بكر ﷺ العصر ثم خرج يمشي، فرأى الحسن يلعب مع الصبيان، فحمله على عاتقه وقال: بأبي شبيهٌ بالنبي لا شبيه بعلي، وعليٌّ يضحك[(١)]. وهذا دليل على مقدار الحب الكبير الذي كان يجمع صحابة النبي ﷺ فيما بينهم، لا سيما علي وأبي بكر رضي الله عنهما.

ومن رحمته ﷺ بالصبيان، وحبه لهم ما رواه عبد الله بن جعفر -رضي الله عنهما- قال: كان رسول الله ﷺ إذا قَدِمَ من سفر تُلقي بالصبيان من أهل بيته. قال: وإنه قدم مرةً من سفر. قال: فُسبِقَ بي إليه. قال: فحملني بين يديه. قال: ثم جيء بأحد ابني فاطمة إما حسن وإما حسين، فأردفه (أركبه) خلفه. قال: فدخلنا المدينة ثلاثة على دابة[(٢)].

وكانت آية حب الأطفال عنده ﷺ التقبيل؛ فقد قال أبو هريرة ﷺ: قبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبَّلتُ منهم أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**مَنْ لا يَرحم لا يُرحم**»[(٣)].

لقد جاء الهدي النبوي بمشاعر تختلف كل الاختلاف عن البيئة الجاهلية التي كانت تئد البنات، وتحطُّ من شأن النساء والصبيان؛ حتى إن الأقرع بن حابس ﷺ اندهش من هذا الفعل الذي لم يره في آبائه وأجداده، ولم يكن يعمله -أيضًا- مع أولاده، فيُذَكِّره النبي ﷺ أن أصل هذه المشاعر الفياضة هي الرحمة.

وثمة أعرابي آخر جاء إلى النبي ﷺ فقال: تقبّلون الصبيان فما نقبّلهم؟ فقال النبي ﷺ: «**أَوَأَمْلِكُ**[(٤)] **لك أن نزع الله من قلبك الرَّحمة**»[(٥)].

(١) البخاري: كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ (٣٣٤٩).
(٢) مسند أحمد ١/ ٢٠٣ ح ١٧٤٣. قال شعيب الأرناءوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٣) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٥٦٥١)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٨).
(٤) أو أملك: والهمزة الأولى للاستفهام الإنكاري، ومعناه النفي؛ أي لا أملك، أي: لا أقدر أن أجعل الرحمة في قلبك بعد أن نزعها الله منه. ابن حجر: فتح الباري ٤/ ٢١٧.
(٥) البخاري: كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله (٥٦٥٢)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك (٢٣١٧).

وحتى الأطفال الرضَّع الخُدَّج، الذين لم يمر على ميلادهم في هذه الحياة إلاَّ سويعات قليلة، كان ﷺ يحرص على مشاركة آبائهم وأمهاتهم فرحة مجيئهم وقدومهم، فعن أسماء -رضي الله عنها- أنها حملت بعبد الله بن الزبير، قالت: فخرجتُ وأنا متمٌّ[(١)]، فأتيتُ المدينة فنزلتُ بقُباء، فولدته بقُباء، ثم أتيتُ به النبي ﷺ فوضعته في حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها، ثم تفل في فيه، فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بتمرة، ثم دعا له، وبرَّك عليه، وكان أول مولود في الإسلام[(٢)].

ومثله ما روته عائشة -رضي الله عنها- قالت: كان النبي ﷺ يؤتى بالصبيان فيدعو لهم، فأُتي بصبي فبال على ثوبه، فدعا بماء فأتبعه إيَّاه ولم يغسله[(٣)].

ومثل هذه السعادة، وذاك المرح مع الأطفال، كانت رحمته ودموعه تنهمر عند خروج روح طفل أو طفلة، فعن أسامة بن زيد قال: أرسلَتْ إلى رسول الله ﷺ بعض بناته أن صبيًّا لها - ابنًا أو ابنة - قد احتضرت. فأشهدنا. قال: فأرسل إليها يقرأ السلام، ويقول: «**إنَّ لله ما أخذ وما أعطى، وكلُّ شيءٍ عنده إلى أجلٍ مسمًّى، فلتصبر ولتحتسب**». فأرسلَت تُقسم عليه، فقام وقمنا، فرُفع الصبي إلى حجر أو في حجر رسول الله ﷺ ونفسه تقعقع (تخرج)، وفي القوم سعد بن عبادة وأبي (أي زيد بن حارثة ﷺ) أحسبُ ففاضت عينا رسول الله ﷺ، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «**هذه رحمةٌ يضعها الله في قلوب مَنْ يشاء من عباده، وإنَّما يرحم الله من عباده الرُّحماء**»[(٤)].

ولعلَّ سبب تمنُّع رسول الله ﷺ في أول الأمر من عدم ذهابه لابنته لئلَّا ينزعج من هذا الموقف، ولكن المشهد ذاته نراه مع إبراهيم ابنه ﷺ؛ فعن أنس بن مالك ﷺ قال:

---

(١) أي أتمت مدة الحمل الغالب وهي تسعة أشهر.

(٢) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٦٩٧)، ومسلم: كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته (٢١٤٦).

(٣) البخاري: كتاب الدعوات، باب الدعاء للصبيان بالبركة ومسح رءوسهم (٥٩٩٤)، ومسلم: كتاب الطهارة، باب حكم بول الطفل الرضيع وكيفية غسله (٢٨٦).

(٤) البخاري: كتاب المرضى، باب عيادة الصبيان (٥٣٣١)، ومسلم: كتاب الجنائز، باب البكاء على الميت (٩٢٣)، ومسند أحمد ٥/ ٢٠٤ ح ٢١٨٢٤، واللفظ له.

دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سيف القَيْنِ[١]، وكان ظئرًا[٢] لإبراهيم، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيم فقبَّله وشمَّه، ثم دخلنا عليه بعد ذلك وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف ﷺ: وأنت يا رسول الله؟ فقال: **«يا ابن عوفٍ إنَّها رحمةٌ»**. ثم أتبعها بأخرى فقال ﷺ: **«إنَّ العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلاَّ ما يَرْضَى ربُّنا، وإنَّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»**[٣].

ومن رحمة النبي ﷺ أنه كان يأخذ للصبيان والفتيات حقوقهم، ويقتصُّ لهم ممن آذوهم واعتدى عليهم، فعن أنس بن مالك: أن جارية وُجِدَ رأسها قد رُضَّ[٤] بين حجرين فسألوها: مَنْ صنع هذا بك؟ فلان؟ فلان؟ حتى ذكروا يهوديًّا فأومت برأسها، فَأُخِذَ اليهودي فأقرَّ، فأمر به رسول الله ﷺ أن يُرَضَّ رأسه بالحجارة[٥].

ومثلها ما رواه أنس ﷺ قال: كسرت الرُّبَيِّع - وهي عمة أنس بن مالك - ثنية جارية من الأنصار، فطلب القوم القصاص، فأتوا النبي ﷺ، فأمر النبي ﷺ بالقصاص، فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك: لا والله لا تكسر سنها يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: **«يا أنس كتاب الله القصاص»**. فرضي القوم وقبلوا الأَرْشَ[٦] فقال رسول الله ﷺ: **«إنَّ من عباد الله مَنْ لو أقسم على الله لأبرَّه»**[٧].

ولم تكن الرحمة النبوية للصغار منتهاها الدنيا وما فيها، بل كانت تنظر بعين ثاقبة لحُجب الغيب، وما يُخَبِّئه هذا الغيب لمن لم يؤمن بالله ﷻ من هؤلاء الفتيان الصغار، خاصة إذا كانوا مخالفين في العقيدة، فعن ثابت عن أنس ﷺ قال: كان غلام يهودي يخدم

---

(١) القين: هو الحداد ويطلق على كل صانع. ابن حجر: فتح الباري ١٣/ ٢٧٤.

(٢) أي زوج مرضعة إبراهيم.

(٣) البخاري: كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ: «إنا بك لمحزنون». (١٢٤١)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال (٢٣١٥).

(٤) أي دُقَّ وكُسر. انظر: لسان العرب، مادة رضص ٧/ ١٥٤.

(٥) البخاري: كتاب الديات، إذا أقر بالقتل مرة قتل به (٦٤٩٠)، ومسلم: كتاب القسمة والمحاربين، باب ثبوت القصاص في القتل بالحجر وغيره من المحددات والمثقلات وقتل الرجل بالمرأة (١٦٧٢) واللفظ له.

(٦) الأَرْش: دية الجراحة أو الأطراف. ابن منظور: لسان العرب ٦/ ٢٦٣.

(٧) البخاري: كتاب التفسير، باب سورة المائدة (٤٣٣٥)، ومسلم: كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب إثبات القصاص في الأسنان وما في معناها (١٦٧٥).

النبي ﷺ فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: «**أَسْلِمْ**». فنظر إلى أبيه وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ. فأسلم فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الَّذي أنقذه من النَّار**»(١).

ولقد تجلت هذه الرحمة النبوية في أبسط الأشياء وأدقها، فعن أنس أن النبي ﷺ قال: «**خير ما تداويتم به الحجامة وَالْقُسْطُ البحريُّ، ولا تعذِّبوا صبيانكم بِالْغَمْزِ**»(٢). قال الإمام المناوي في شرح هذا الحديث: ولا تعذبوهم بالغمز، الغمز هو عصر الأصابع وشدتها على الشيء(٣). ومنها ما رواه ابن عمر عن النبي ﷺ «**أنه كره القزع(٤) للصبيان**»(٥).

هذه هي فلسفة التربية النبوية التي كانت تقوم على الرأفة والرحمة وقبول الأطفال في مجتمع الإسلام، بعدما كانت نظرة المجتمع الجاهلي: إن كانوا صبيانًا فهم مجرد وقود زائد لنار الحروب، وإن كانوا بناتٍ فهنَّ مجرد فرش للتمتع، أو سببًا من أسباب اسوداد الوجه والعيرة بين القوم؛ ومن ثَمَّ الوأد في نهاية المطاف.

والحقُّ أن هذه الرحمة النبوية هي رحمة ربانية في منطلقها ومبتداها، فقد أيقن رسول الله ﷺ أن أفضل السبل لتربية هؤلاء الصغار لا يكون إلاَّ بالرأفة والرحمة، وبالرحمة بدأ النبي ﷺ في تربية هؤلاء الصغار وفق ما يلي:

الإيمان أولاً!

تميزت التربية النبوية بميزة خاصة جدًّا، تمثلت في الإيمان بالله ﷻ أولاً وقبل أي شيء آخر، هذا الإيمان الذي كان مفتقدًا منذ أعوام قليلة بين هؤلاء الرجال والنساء، الذين رُبُّوا على حب اللات والعزى وهبل ومناة، وغيرها من الأصنام والأوثان التي كانت من

---

(١) البخاري: كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام (١٢٩٠).

(٢) البخاري: كتاب الطب، باب الحجامة من الداء (٥٣٧١)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب حل أجرة الحجامة (١٥٧٧).

(٣) المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير ٣/ ٦٥٣.

(٤) القزع: أن يُحْلَقَ رأسُ الصَّبيِّ ويُتْرك منه مواضعُ مُتَفَرِّقةٌ غير محْلوقة.

(٥) مسند أحمد ٢/ ١٥٦ ح٦٤٥٩. قال شعيب الأرناءوط: صحيح.

بين أيديهم وعن أيمانهم وشمائلهم في بلدانهم ومساكنهم، أبدلهم هذا الإيمان من النقيض إلى النقيض.

والرائع أن منهج التربية الإسلامية لم يُفَرِّق بين كبير وصغير، بل حرص النبي ﷺ على زرع الإيمان في نفوس أولئك الصغار بغية إشراكهم في النهضة بالدين الجديد، ولم يكن نوم علي بن أبي طالب ﷺ -وهو فتى لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره- في فراش النبي ﷺ في عملية جهادية لم يكن من المستبعد فيها موته واستشهاده، إلاَّ ثمرة من ثمرات التربية النبوية الإيمانية، التي لم تعرف في الوجود إلاَّ الله ربًّا معبودًا خالقًا وحده لا شريك له، ولا نِدَّ ولا قوة تجاريه ﷻ.

الإيمان إذن كان أُولى درجات النهضة المنشودة، والتربية المستهدفة في هذا الجيل، ولقد أمدتنا كتب الحديث الشريف وسيرة النبي ﷺ بمعلومات ومواقف وحوادث كثيرة يضيق المقام عن استيعابها، أو حتى ذِكْر طائفة كبيرة منها، لكن بحسبنا أن نأتي بمواقف وأحاديث تُدلل على الآليات والوسائل التي اتبعها النبي ﷺ في زرع وغرس الإيمان في صدور أطفال وبنات المسلمين.

لم يكن النبي ﷺ ينتظر كثيرًا، فحالما يصل الولد إلى مرحلة «الإفصاح» والكلام والفهم إلاَّ ويُسرع ﷺ في بنائه إيمانيًّا بناء جديدًا، وهذا ما يرويه التابعي الجليل عمرو بن شعيب (ت١١٨هـ) بقوله: «كَانَ الْغُلامُ إِذَا أَفْصَحَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَلَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ هذه الآيَةَ سَبْعَ مَرَّاتٍ؛ وهي قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]»[(١)].

فالنبي ﷺ يخاف على هؤلاء الأشبال أن يُرَبَّوْا على ما رُبِّيَ عليه آباؤهم وأجدادهم من قبل، بل يُسرع ﷺ ليُعلمهم آية من كتاب الله ﷻ فيها معاني الوحدانية المطلقة لله ﷻ، والكبرياء والعظمة والإحاطة.

وهذا ما يُؤَكِّده أحد صغار الصحابة الذين عاصروا منهج التربية النبوية الشريف في

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١/ ٣٤٨ ح٣٥١٧.



إحكام العقيدة الصحيحة في قلوب الأطفال، وهم صغار لا يفقهون من الإسلام والحياة شيئًا، وهو جندب بن عبد الله البجلي الذي قال: كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة[(١)]. فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن، فازددنا به إيمانًا»[(٢)].

وهذا دليل آخر على وجوب تعليم الفتى والفتاة الإيمان والتوحيد بصورة مُيَسَّرة مبسطة؛ فيها النقاش والعيش في عالم هذا الطفل الصغير، ثم تأتي مرحلة حفظ كتاب الله ﷻ، وهي المرحلة التي قال عنها الصحابي الجليل جندب بن عبد الله: فازددنا به إيمانًا. أي: ارتقوا من مرحلة التعرُّف على الله ﷻ إلى مرحلة اليقين به والتوكل عليه.

ثم تأتي مرحلة الحوار الجاد الذي يُكلِّل المرحلتين السابقتين بالغرس الصحيح، وهي مرحلة الاقتراب من هذا الصغير وإشراكه في العملية الإيمانية والعقدية بالنقاش والتوجيه من خلال القدوة والأسوة، وهذه المرحلة يمثِّلها بكل وضوح الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، الذي يقول: قال لي رسول الله ﷺ: «**يا غلام! احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف بالله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، واعلم أن الخلائق لو اجتمعوا على أن يُعطوك شيئًا لم يُرد الله أن يعطيك لم يقدروا عليه، أو يصرفوا عنك شيئًا أراد أن يصيبك به لم يقدروا على ذلك، فإذا سألت فسل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، واعلم أن القلم قد جرى بما هو كائن**»[(٣)].

وثمة رواية شهيرة لهذا الحديث، ذكرها الإمام الطبراني في معجمه، قال: بينما أنا رديف رسول الله ﷺ قال لي: «**يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فسل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[(٤)].

والمدهش حقًّا أن النبي ﷺ قال هذا الكلام لفتى صغير، فبعضنا اليوم إذا أراد أن

---

(١) جمع الحَزَوَّر: وهو الغلام إذا اشتد وقوي وحزم.

(٢) سنن ابن ماجة: كتاب الإيمان، باب في الإيمان (٦١). صححه الألباني.

(٣) الطبراني: المعجم الكبير ١١/ ١٢٣ ح١١٢٦٥، والبيهقي: شعب الإيمان ٧/ ٢٠٣ ح١٠٠٠١.

(٤) الطبراني: المعجم الكبير ١١/ ١٨٧ ح١١٤٤٠، ومسند ابن الجعد ١/ ٤٩٤ ح٣٤٤٥.

يُهَدِّئ من روعه أو روع وخوف وحاجة أحد أحبابه استدلَّ بهذا الحديث، الذي قاله النبي ﷺ لأحد أطفال المسلمين، فما بال كبار الصحابة الذين قدروا الله حق قدره ومقداره العظيم... لم يكن من الغريب إذن أن يفتح هؤلاء الفتوح، ويُقيموا الإسلام في دولة كبيرة تحتضنه في آحاد السنين، وحُقَّ للغرب والشرق أن ينبهر بهذا الجيل الرباني الذي تعلَّم منذ نعومة أظفاره أن الله رجاؤه ومنتهاه، وكل ما خلا الله باطل وعاجز وقليل.

التربية بأركان الدين:

حرَصَ النبي ﷺ وأكَّد على أن الأطفال جزء أصيل من الأمة المسلمة، وكما أسرع ﷺ في تعليم الإيمان والعقيدة الصحيحة في صدور وقلوب وحواس هؤلاء الأطفال، حرص -أيضًا- على تربيتهم وتعليمهم أركان الدين.

وقد جعل الصلاة جزءًا أصيلاً من الكيان العام للطفل المسلم؛ فكان تأكيده ﷺ بالقول والعمل، وكلاهما تشريع نبوي متَّبع، قال رسول الله ﷺ: «**مروا الصبيان بالصلاة لسبع سنين، واضربوهم عليها في عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع**»[(١)].

وشارك الصحابةُ النبيَ ﷺ هذا الحرص، من حيث معرفة وقت صلاة الطفل، والعمر المناسب، وأثر هذه الصلاة عليه، حتى إن النساء كانت أعلم من الرجال في هذا الشأن في بعض الأوقات، فهذا معاذ بن عبد الله الجهني أحد التابعين المشاهير وهو حفيد الصحابي الجليل خبيب الجهني ﷺ، يدخل عليه مجموعة من طلبة العلم يسألونه عن الوقت المناسب لصلاة الصبي، فيسأل امرأته: متى يصلي الصبي؟ قالت: نعم كان رجل منا يذكر عن رسول الله ﷺ: أنه سُئل عن ذلك فقال: «**متى عرف يمينه من يساره فمروه بالصلاة**»[(٢)].

وبلغ حرص النبي ﷺ بهذه الفريضة أنه كان يُرَتِّب بنفسه ويُخَصِّص أماكن للصبيان في المسجد؛ فعن أبي مالك الأشعري أن النبي ﷺ أقام الرجال يلونه، وأقام الصبيان خلف ذلك، وأقام النساء خلف ذلك[(٣)].

---

(١) المستدرك للحاكم: كتاب الصلاة، باب في مواقيت الصلاة (٧٠٨)، وسنن البيهقي الكبرى ٢/ ٨٤ ح٤٨٧١.
(٢) سنن البيهقي الكبرى ٣/ ٨٤ ح٤٨٧٢.
(٣) الطبراني: المعجم الكبير ٣/ ٢٩١ ح٣٤٣٧.

ولم تكن مشاغل الدعوة والحياة تُنسيه ﷺ أن يطمئن على حال غلمان المسلمين مع ربهم من خلال الصلاة، وامتحانهم على ذلك، وسؤاله المتكرر؛ فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: بتُّ عند خالتي ميمونة (أم المؤمنين رضي الله عنها) فجاء رسول الله ﷺ بعد ما أمسى فقال: «**أَصَلَّى الغلام؟**» قالوا: نعم. فاضطجع، حتى إذا مضى من الليل ما شاء الله، قام فتوضأ، ثم صلى سبعًا أو خمسًا أوتر بهن لم يُسَلِّم إلاَّ في آخرهن(١).

فهذا الغلام الحصيف عبد الله بن عباس ﷺ -الذي كان تجربة حيَّة لحياة الطفل والشبل المسلم- يروي لنا من خلال نومه الزائف، كيف -رغم تعب النبي ﷺ- كان ﷺ يسأل أول ما يسأل عن حال هذا الصبي مع الصلاة.

وكان للصبيان نصيب في صلوات السنن المؤكدة كصلاة العيد والجنائز وغيرها، فعن ابن عباس ﷺ قال: خرجتُ مع النبي ﷺ يوم الفطر أو أضحى، فصلى ثم خطب، ثم أتى النساء فوعظهن وذكَّرهن وأمرهن بالصدقة(٢).

وحتى في صلوات الجنائز كان رسول الله ﷺ يُشرك هؤلاء الصغار في تشييع موتاهم، وكان لهذا الإشراك أثره في اللحمة الاجتماعية التي كانت تربط بين الصغار وبين مجتمعهم، فضلاً عن الجانب التربوي الذي كان يعود على هؤلاء بالنفع من خلال التربية على التقوى والخشية؛ فهي إحدى ثمرات صلاة الجنائز، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ مرَّ بقبر قد دُفن ليلاً فقال: «**متى دفن هذا؟**» قالوا البارحة. قال: «**أفلا آذنتموني**». قالوا دفناه في ظلمة الليل فكرهنا أن نوقظك. فقام فصففنا خلفه، قال ابن عباس: وأنا فيهم فصلى عليه(٣).

بل واشترك الصبيان في الصلاة على النبي ﷺ حين توفي، قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: لما صُلِّيَ على رسول الله ﷺ أُدخل الرجال فصلَّوْا عليه بغير إمام أرسالاً(٤) حتى فرغوا، ثم أُدخل النساء فصلين عليه، **ثم أُدخل الصبيان فصلوا عليه**، ثم أُدخل العبيد

(١) سنن أبي داود: كتاب الصلاة، باب في صلاة الليل (١٣٥٦). وصححه الألباني.
(٢) البخاري: كتاب العيدين، باب خروج الصبيان إلى المصلى (٩٣٢).
(٣) البخاري: كتاب الجنائز، باب صفوف الصبيان مع الرجال على الجنائز (١٢٥٨).
(٤) أي أفواجًا وفرقًا متقطعة. انظر ابن منظور: لسان العرب، مادة رس ١١/ ٢٨١.

فصلوا عليه أرسالاً لم يؤمهم على رسول الله ﷺ أحد[١].

ولعلَّ من أعظم الوسائل التربوية التي أقرَّها النبي ﷺ أنه كان يُوافق على إمامة الصبي الحافظ، وثمة رواية طريفة يحكيها لنا الصحابي الجليل عمرو بن سلمة الجرمي ﷺ حين قَدِمَ على النبي ﷺ في أعوام الوفود- تُبيِّن كيف أنه ﷺ رفع قدر الأطفال الذين لم يكن يُؤْبَه لهم، أو يُهتم بهم، قال: «كُنا على حاضر، فكان الركبان يمرون بنا راجعين من عند النبي ﷺ، فأدنو منهم فأسمع حتى حفظتُ قرآنًا. قال: وكان الناس ينتظرون بإسلامهم فتح مكة، فلما فُتحت جعل الرجل يأتيه فيقول: يا رسول الله أنا وافد بني فلان وجئتك بإسلامهم. فانطلق أبي بإسلام قومه، فلما رجع قال: قال رسول الله ﷺ: «**قَدِّمُوا أكثركم قرآنًا**». قال: فنظروا فما وجدوا فيهم أحدًا أكثر قرآنًا مني. فقدَّموني وأنا غلام، فصليتُ بهم وعليَّ بُردة[٢] لي، فكنتُ إذا ركعتُ أو سجدتُ فتبدو عورتي، فلما صلينا، تقول لنا عجوز دهرية: غطوا عنا إست قارئكم. قال: فقطعوا لي قميصًا من معقد النحرين. فذُكر أنه فرح به فرحًا شديدًا[٣].

وهناك رواية أخرى تبين أن صلاة الصبي عمرو بن سلمة لم تكن تقتصر على المفروضة، بل على بقية الصلوات الأخرى، قال ﷺ: فما شهدتُ مجمعًا من جُرم (قبيلته) إلا كنتُ إمامهم، وكُنت أصلي على جنائزهم إلى يومي هذا[٤].

وبعيدًا عن اختلاف الفقهاء في مسألة إمامة الصبي، وأنها يجب أن تكون عند البلوغ والأهلية، إلاَّ أن هذه الرواية تبين لنا إلى أي مدى وصل الاهتمام بالأطفال والصبيان في العهد النبوي، فبمجرد أن رجعت قبيلة جرم بعدما أسلمت وهداها الله للتوحيد، لم تستنكف من إمامة صبي لها، وهم عرب أقحاح نالت التقاليد العربية منهم كل منال، لكن هداية الإسلام وتربيته القويمة أخذتهم من تلك السفاهات البالية إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

---

(١) سنن البيهقي الكبرى ٤/ ٣٠ ح ٦٦٩٨.

(٢) البردة: كساء مربع أسود فيه صفر كانت تلبسه الأعراب. ابن منظور لسان العرب، مادة برد ٣/ ٨٢.

(٣) صحيح ابن خزيمة: كتاب الصلاة، باب إباحة إمامة غير المدرك البالغين إذا كان غير المدرك أكثر جمعًا للقرآن من البالغين (١٥١٢).

(٤) سنن أبي داود: كتاب الصلاة، باب من أحق بالإمامة؟ (٥٨٧). صححه الألباني.

وفي زمن الخلفاء الراشدين سار المجتمع على الهدي النبوي؛ حتى إن بعض الصحابة قَدَّم بعض الأطفال للإمامة، ومنهم الأشعث الذي لما قدَّم غلامًا عاب الحاضرون ذلك عليه، فقال: «ما قدَّمته، ولكنِّي قدَّمت القرآن»[١].

بل إن أم المؤمنين عائشة ﷺ كانت تقف خلف الصبيان الحافظين للقرآن، وتأتمُّ بهم، وتعطيهم الهدايا، قالت رضي الله عنها: كنا نأخذ الصبيان من الكُتَّاب ليقوموا بنا في شهر رمضان فنعمل لهم القلية والخشكنانج[٢].

أما تربية الآباء للأطفال على حفظ الأذكار والمداومة عليها، فيتجلى ذلك فيما رُوي عن سعد بن أبي وقاص ﷺ الذي كان يُعَلِّم أولاده هؤلاء الكلمات كما يعلم المُكتِّب الغلمان، ويقول: إن رسول الله ﷺ كان يتعوذ بهن دبر الصلاة: «**اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا وعذاب القبر**»[٣].

هذا عن الصلاة، أما الصوم فقد حرصت الصحابيات على تعويد أبنائهن على تحمل الصوم، وكنَّ يقمن ببعض الحيل لشغل أبنائهن وبناتهن عن التفكير في الإفطار، من ذلك ما روته الصحابية الجليلة الرُّبَيِّع بنت مُعَوِّذ التي قالت: أرسل النبي ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار: «**من أصبح مُفطرًا فليُتم بقية يومه، ومن أصبح صائمًا فليصم**». قالت: فكنا نصومه بعد ونُصوِّم صبياننا ونجعل لهم اللعبة من العهن[٤]، فإذا بكى أحدهم على الطعام أعطيناه ذاك؛ حتى يكون عند الإفطار[٥].

وكان الغالب على صبيان وبنات المسلمين الصيام في مواعيده وأوقاته، ومن الطريف أن عمر ﷺ حينما كان أميرًا للمؤمنين جاءه رجل سكران يُدعى نشوان، أُتي به إليه

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١/ ٣٤٩ ح ٣٥٢١.

(٢) سنن البيهقي الكبرى ٢/ ٤٩٥ ح٤٣٨٩. والقلية والخشكنانج أنواع من الحلوى.

(٣) سنن الترمذي: كتاب الدعوات، باب في دعاء النبي ﷺ وتعوذه دبر كل صلاة (٣٥٦٧). وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح من هذا الوجه. وصححه الألباني.

(٤) العهن: الصوف.

(٥) البخاري: كتاب الصوم، باب صوم الصبيان (١٨٥٩)، ومسلم: كتاب الصيام، باب من أكل في عاشوراء فليكف بقية يومه (١١٣٦).

فاندهش عمر منه، وقال له: في رمضان؟! ويلك وصبياننا صيام. فضربه[(١)]. ثم نفاه إلى الشام.

وكما رُبِّي الأطفال على حب الصلاة والصيام وتحمُّل مشاقِّها، أشرك الصحابة أبناءهم معهم في القيام بفريضة الحج، وكان ذلك على مرأى ومسمع من النبي ﷺ، فعن عبيد الله بن أبي يزيد قال: سمعت ابن عباس -رضي الله عنهما- يقول: بعثني أو قدَّمني النبي ﷺ في الثقل[(٢)] من جمع (أي المزدلفة) بليل[(٣)]. وعن السائب بن يزيد قال: حج أبي مع رسول الله ﷺ وأنا ابن سبع سنين[(٤)]. ورواية الإمام الترمذي تُؤَكِّد على أن السائب ﷺ حج -أيضًا- مع أبيه، فعنه أنه قال: حج بي أبي مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع وأنا ابن سبع سنين[(٥)].

وحتى المسلمون الجدد الذين لم يروا رسول الله ﷺ ولم يرهم من قبل كانوا يحرصون على سؤاله عن حج الصبيان عند اللقاء؛ وقد حكى لنا ابن عباس -رضي الله عنهما- قصة رائعة فيها مشاهد تربوية جمَّة رغم قصرها، قال: لقي النبي ﷺ ركبًا بالروحاء[(٦)]، فقال: «من القوم؟» قالوا: المسلمون. فقالوا: من أنت؟ قال: «**رسول الله**». فرفعت إليه امرأة صبيًّا فقالت: ألهذا حج؟ قال: «**نعم ولك أجر**»[(٧)].

أي عظمة من السائلة والمسئول هذه! فهذا النبي ﷺ بتواضعه وعدم اختلاف موكبه عن موكب العامة، تسأله إحدى المسلمات عن حج صبيها الصغير، فيُجيبها النبي ﷺ بقَبُول حجِّه، بل ويُبَشِّرها ﷺ بالأجر!

وانطلاقًا من هذا التبشير النبوي بقبول شعائر الأطفال، قام الصحابة بتربية أبنائهم

---

(١) البخاري: كتاب الصوم، باب صوم الصبيان ٢/ ٦٩٢.

(٢) أتباع المسافر وحشمه وآلات السفر وأمتعة المسافرين.

(٣) البخاري: كتاب أبواب الإحصار وجزاء الصيد، باب حج الصبيان (١٧٥٧)، ومسلم: كتاب الحج، باب استحباب تقديم دفع الضعفة من النساء وغيرهن من مزدلفة إلى منى (١٢٩٣).

(٤) البخاري: كتاب أبواب الإحصار وجزاء الصيد، باب حج الصبيان (١٧٥٩).

(٥) الترمذي: كتاب الصوم، باب حج الصبي (٩٢٥).

(٦) مكان على ستة وثلاثين ميلاً من المدينة.

(٧) مسلم: كتاب الحج، باب صحة حج الصبي وأجر من حج به (١٣٣٦).

على حب هذه الفريضة والقيام بها؛ فقد كان ابن عمر يُجَرِّد صبيانه عند الإحرام ويقف بهم المواقف، وكانت عائشة -رضي الله تعالى عنها- تفعل ذلك، وفعله عروة بن الزبير، وقال عطاء (ابن أبي رباح، أحد التابعين): يُجَرَّد الصغير، ويُلَبَّى عنه، ويُجَنَّب ما يجتنب الكبير، ويُقضى عنه كل شيء، إلاَّ الصلاة فإن عقِلَ الصلاةَ صلاها، فإذا بلغ وجب عليه الحج[1].

الالتزام بالآداب العامة

لما كان الأطفال -في الرؤية النبوية- جزءًا من المجتمع المسلم، فقد نالهم شمول الرؤية النبوية في الآداب والأخلاق والسلوك، وكان النبي ﷺ يحرص أشدَّ الحرص على مشاركة هؤلاء الصغار عالمهم، وهذا أمر عجيب حقًّا؛ فكيف بقائد الدولة والدعوة أن يترك كل هذا الجهد الضخم، وينخرط مع هؤلاء الصغار في عالمهم الحالم، بل ويُساعدهم في تصحيح مسار أخلاقهم وسلوكهم، وظهر هذا جليًّا في صحابته -رضوان الله عليهم- فهذا حذيفة ﷺ يقول: كُنا إذا حضرنا مع النبي ﷺ طعامًا لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ، فيضع يده، وإنا حضرنا معه مرَّة طعامًا، فجاءت جارية (طفلة صغيرة) كأنها تُدفع (مسرعة)، فذهبت لتضع يدها في الطعام، فأَخذ رسول الله ﷺ بيدها، ثم جاء أعرابي كأنما يُدفع (مسرع)، فأخذ بيده فقال رسول الله ﷺ: «**إن الشيطان يستحل الطعام أن لا يُذكر اسم الله عليه، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحلَّ بها فأخذتُ بيدها، فجاء بهذا الأعرابي ليستحلَّ به فأخذتُ بيده، والذي نفسي بيده إن يده في يدي مع يدها**»[2].

وكما رأينا توجيه النبي ﷺ لعبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- في أكثر من موضع، ورأينا توجيهه ﷺ لغلامه أنس بن مالك ﷺ، برقته ورأفته وحنوِّه ﷺ، قال أنس ﷺ: أوصاني رسول الله ﷺ قال: «**يا أنس أسبغ الوضوء يُزَد في عمرك، يا أنس صلِّ صلاة الضحى؛ فإنها صلاة الأوَّابين من قبلك، يا أنس سلِّم على أهل بيتك تكثر حسناتك، يا أنس سلِّم على مَنْ لقيتَ من أمتي تكثُر حسناتك، يا أنس أكثِر الصلاةَ بالليل والنهار يُحبُّك حافظاك، يا أَنس بِتْ وأنتَ طاهرٌ، فإن متَّ متَّ شهيدًا، يا أنس وقِّر الكبير وارحم**

(١) بدر الدين العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري ١٦/ ١٣٩.

(٢) مسلم: كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامها (٢٠١٧).

الصغير»[١].

والجميل أن النبي ﷺ كان يُقَدِّم المثل والقدوة في غرس هذه الآداب والقيم التربوية في نفوس أبناء المسلمين؛ منها: إلقاؤه السلام على الصبيان؛ فعن أنس بن مالك ﷺ: أنه مرَّ على صبيان فسلم عليهم، وقال: كان النبي ﷺ يفعله[٢]. وفي رواية الإمام مسلم عن أنس بن مالك ﷺ: أن رسول الله ﷺ مرَّ على غلمان فسلَّم عليهم[٣].

وقام الصحابة -رضوان الله عليهم- بالدور التربوي ذاته مع أولادهم، وكانوا ينتهجون أساليب لطيفة في توصيل المغزى والغاية؛ وقد كانوا يعلمون أن «حفظ الغلام الصغير كالنقش في الحجر، وحفظ الرجل بعدما يكبر كالكتاب على الماء»[٤]؛ دلالة على ثبات هذه الآداب في عقولهم وأنفسهم مهما طال العمر بهم.

ولكيما يصل الطفل للسلوك الجيد الذي يرضونه له، حرصوا على استخدام تلك الأساليب اللطيفة، فهذا أبو بردة قاضي الكوفة[٥] يقول: كنتُ عند أبي موسى ﷺ فعطست ابنةٌ له وابنٌ له، فشمَّت[٦] الجارية ولم يشمِّت الغلام، فقالت أمُّها: لم شمَّتَّها ولم تُشمِّت أخاها؟ فقال: إنَّها ذكرت الله فذكرتُه، وإنَّه نسي الله فنسيتُه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من عطس فحمد الله فشمِّتوه، ومَنْ لم يحمد الله فلا تشمِّتوه**»[٧].

وكان اهتمام الصحابة بالصبيان والبنات على السواء، ولم يكونوا يُفَرِّقُون بين أولادهم في المعاملة أو على أساس الجنس أو الحب؛ وإذا ما حدث هذا التفريق وشهده النبي ﷺ كان يُنَبِّه إليه، ويُحَذِّر منه؛ فهذا النعمان بن بشير ﷺ يقول: انطلق بي أبي يحملني إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! اشهد أني قد نحلتُ (أعطيتُ) النعمان كذا وكذا

(١) مسند أبي يعلى ٧/ ٢٧٣ ح٤٢٩٣، والطبراني: المعجم الأوسط ٥/ ٣٢٨ ح٥٤٥٣.
(٢) البخاري: كتاب الاستئذان، باب التسليم على الصبيان (٥٨٩٣).
(٣) مسلم: كتاب السلام، باب استحباب السلام على الصبيان (٢١٦٨).
(٤) المتقي الهندي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ١/ ٦٠٤ ح٢٧٥٨.
(٥) عامر بن أبي موسي عبد الله بن قيس الأشعري، أبو بردة: قاضي الكوفة. كانت له مكارم ومآثر وأخبار. الزركلي: الأعلام ٣/ ٢٥٣.
(٦) التشميت: دعاء للعاطس بالرحمة إذا حمد الله.
(٧) مسند البزار ١/ ٤٧١ ح ٣١٢٥.

من مالي. فقال: «**أكلَّ بنيك قد نحلتَ مثل ما نحلت النعمان؟**» قال: لا. قال: «**فأشهد على هذا غيري**». ثم قال: «**أيسُرُّك أن يكونوا إليك في البر سواء؟**» قال: بلى. قال: «**فلا إذًا**».

وكان ﷺ يحرص على تأديب وتربية البنات تربية قويمة، ويُبَشِّر أصحابه بالأجر العائد عليهم من وراء ذلك، فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**من عال ثلاث بنات فأدبهن ورحمهن وأحسن إليهن فله الجنة**»[١].

وقال ﷺ: «**من كانت له أنثى فلم يئدها ولم يهنها ولم يؤثر ولده عليها -قال: يعني الذكور- أدخله الله الجنة**»[٢]. دلالة على مكانة البنات في المجتمع فهن كما قال ﷺ: «**شقائق الرجال**»[٣].

طلب العلم

أيقن النبي ﷺ وصحابته من بعده أن أحد دعائم النهضة في الأمة المسلمة -التي ترفع لواء: الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد ﷺ نبيي ورسولي- هي العلم؛ ولذلك ربّى ﷺ صبيان وشباب المسلمين على طلبه والحض عليه، وثمة أحاديث كثيرة تبين أهمية العلم وفضله في مصنفات الحديث، منها ما رواه الترمذي وغيره قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سلك طريقًا يلتمس به علمًا سهَّل الله له طريقًا إلى الجنة**»[٤]، ولذلك لم يكن من المستغرب كما -سنلاحظ في هذا الكتاب كله- أن العلم أحد أُسس التربية الإسلامية.

وكانت أولى الأمور التي حرص النبي ﷺ على تعليم وتربية أبناء الأمة عليها - كبارًا كانوا أم صغارًا - تعلُّم وحفظ القرآن الكريم، فقد ورد عن النبي ﷺ قوله: «**بلغوا عني ولو آية**»[٥]. ومنها ما رواه عبد الله بن عمرو ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**يقال لصاحب**

---

(١) مسند أحمد ٣/ ٩٧ ح١١٩٤٣. وقال شعيب الأرناءوط: حديث صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف.

(٢) سنن أبي داود: كتاب الأدب، باب في فضل من عال يتيما (٥١٤٦)، ومسند أحمد ١/ ٢٢٣ ح١٩٥٧. ضعّف إسناده الألباني والأرناءوط.

(٣) سنن الترمذي: كتاب أبواب الطهارة، باب ما جاء فيمن يستيقظ فيرى بللاً ولا يذكر احتلامًا (١١٣)، وقد حسَّنه الترمذي، وصححه الألباني.

(٤) الترمذي: كتاب العلم، باب فضل طلب العلم (٢٦٤٧).

(٥) البخاري: كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٣٢٧٤).

القرآن: اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها»[١].

وقد بعث الرسول ﷺ أصحابه في البوادي والأمصار ليُعَلِّموا الناس أمور دينهم، بدءًا بمصعب بن عمير أول سفير ومعلم للإسلام في المدينة، ومثله أبي عبيدة بن الجراح ﷺ إلى أهل نجران، بناء على طلب وفدهم أن يبعث من يعلمهم السنة والإسلام[٢]، ثم أرسل إليهم عمرو بن حزم ﷺ بعده، وهو شاب عُمره سبع عشرة سنة ليُفَقِّههم في الدين ويُعَلِّمهم القرآن ويأخذ صدقاتهم، وذلك في السنة العاشرة للهجرة[٣].

وسار الصحابة على الدرب النبوي؛ فهذا عكرمة تلميذ ابن عباس -رضي الله عنهما- يروي عن أستاذه أنه قال لرجل: «ألا أُطرفك بحديث تفرح به؟! قال الرجل: بلى يا أبا عباس رحمك الله. قال: اقرأ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١] واحفظها وعلمها أهلك **وجميع ولدك وصبيان بيتك** وجيرانك؛ فإنها المنجية، وهي المجادلة تجادل وتخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها، وتطلب له إلى ربها أن ينجيه من النار إذا كانت في جوفه، وينجي الله بها صاحبها من عذاب القبر»[٤].

وعن سعيد بن جبير قال: إن الذي تدعونه المفصل هو المحكم[٥]. قال: وقال ابن عباس ﷺ: توفي رسول الله ﷺ وأنا ابن عشر سنين وقد قرأتُ المحكم[٦].

وقد نقل العلامة الكتاني المغربي في كتابه القيم «التراتيب الإدارية» ما ذكره الحافظ أبو نعيم الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ) عن آداب طالب العلم في زمن النبوة والخلافة الراشدة، وقد استنبطها الإمام أبو نعيم استنباطًا جيدًا من سنة وسيرة النبي ﷺ، قال: «بابٌ في

---

(١) سنن أبي داود: كتاب سجود القرآن، باب استحباب الترتيل في القراءة (١٤٦٤)، وقال الشيخ الألباني: حسن صحيح. وسنن الترمذي: كتاب فضائل القرآن (٢٩١٤).

(٢) الصالحي: سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد ١١/ ٣٦٧.

(٣) الصالحي: سبل الهدى والرشاد ١١/ ٣٦٧.

(٤) مسند عبد بن حميد ص٢٠٦ ح٦٠٣، وأحمد بن أبي بكر البوصيري: إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة ٦/ ٢٩٠ ح٥٨٧١.

(٥) المفصل: السور التي كثر الفصل بينها، وعند الجمهور من سورة الحجرات حتى آخر القرآن، وقيل غير ذلك، وفسره ابن جبير بالمحكم، وهو الذي لم ينسخ وكان واضحًا في لفظه ومعناه.

(٦) البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب تعليم الصبيان القرآن (٤٧٤٨).

آداب طالب العلم المنصوص عليها لأهل القرون الأولى، ومنها تعلُّم الآداب المعروفة لطالب العلم في زمن النبوة، وعقد لذلك بابًا في آداب المتعلم ذكر فيه أمورًا: **أولاً**: ملازمة السواك وهو أول ما ندب إليه من هذه الخصال؛ قال ما نصه: وليعلم أنه لا يخلو إذا غشي المجالس من مجالسة العلماء ومخاطبة الحكماء، ومذاكرة المتعلمين، ومجادلة المخالفين، فليتعاهد نفسه بما يُصلحه ويزينه، وليبدأ بالسواك فليلزمه؛ وخرج لذلك عن ابن عباس رضي الله عنه قال: كانوا يدخلون على النبي ﷺ ولا يستاكون، فقال: **يدخلون عليَّ ولا يستاكون، فلولا أن أشق على أمتي لفرضت عليهم السواك كما فرضت عليهم الصلاة. ثانيًا**: قص أظفاره إذا طالت؛ لما أخرجه عن أبي أيوب الأنصاري -رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن خبر السماء، فقال: **أتسألني عن خبر السماء وتدع أظفارك كأظفار الطير فيها الخباثة والتفث. ثالثًا**: تنقية براجمه ورواجبه؛ لحديث ابن عباس أن جبريل أبطأ على النبي ﷺ فذكر ذلك، فقال: «**كيف لا يبطأ عليَّ وأنتم حولي لا تستنقون، ولا تقلمون أظفاركم، ولا تقصون شواربكم، ولا تنقون رواجبكم**»[1]. رابعًا: اغتساله مهما أحسَّ من نفسه ريحًا أو عرقًا يتأذى به؛ لما رواه عن عائشة، قالت: كان الناس يأتون الجمعة من العوالي، فيأتون في الغبار والعرق، فيخرج منهم الريح، فأتى إنسانٌ منهم النبي ﷺ وهو عندي، فقال رسول الله ﷺ: **لو تطهرتم لهذا اليوم. خامسًا**: تسكينه من شعره إذا كان ذا شعر؛ لما رواه جابر أن النبي ﷺ رأى رجلاً أشعث الرأس، فقال: «**أما يجد هذا ما يسكن به شعره**». **سادسًا**: أن لا يغفل الترجل والتدهن؛ لحديث جابر قال: كان لأبي قتادة وفرة، فسأل النبي ﷺ عنها، فقال: «**ادهنها وأكرمها**». **سابعًا**: اجتهاده في نظافة ثوبه وحرزه من الوسخ عليه؛ لما رواه أيضًا عن جابر، قال: أتى النبي ﷺ فرأى رجلاً أشعث، قال: «**أما كان يجد هذا ما يغسل به ثوبه ويلم شعثه؟!**». ورُوي عن أبي صالح قال: ما كنت أتمنى من الدنيا إلا ثوبين أبيضين أجالس فيهما. **ثامنًا**: أن يمسّ من الطيب إذا وجد إليه سبيلاً؛ لما روته عائشة قالت: كان النبي ﷺ يكره أن يخرج إلى أصحابه ثقيل الريح، وكان إذا كان في آخر الليل مس طيبًا. **تاسعًا**: اجتنابه للطعام الذي فيه رائحة كريهة؛ لما رواه عن عطاء،

---

(١) الرواجب: مفاصل الأصابع وقيل هي قصب الأصابع، والبراجم: رؤوس عظام ظهرا لكف، إذا قبض القابض كفه ظهرت.

قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: قال رسول الله ﷺ: «**من أكل من هذه البقلة فلا يغشانا في مساجدنا**». **عاشرًا**: غسله ليده إذا أكل. حادي عشر: أن لا يلبس من الثياب ما لا يجوز لبسه؛ لما رواه عن عبد الله بن عمر قال: رأى رسول الله ﷺ عليَّ ثوبين معصفرين، فقال: «**يا عبد الله بن عمر هذه ثياب الكفار فلا تلبسها...**»(١).

وثمة آداب سار على نهجها المعلمون والمؤدبون لا سيما من يُحفِّظون الأطفال كتاب الله ﷻ؛ فقد سُئل أنس ﵁: كيف كان المؤدِّبون على عهد أبي بكرٍ وعمر وعثمان وعليٍّ ﵃؟ قال: كان للمؤدِّب إناءٌ فيه ماءٌ طاهرٌ يمحو به الصِّبيان ألواحهم، ثمَّ يصبُّون ذلك الماء في حفرةٍ من الأرض فتنشف. قال القابسيُّ (أحد فقهاء المالكية): وينبغي أن يصبَّ ذلك الماء في المواضع البعيدة عن النَّجاسة، وكان معلِّمنا يأمرنا بصبِّه في حفرةٍ بين القبور»(٢).

وبدأ العهد الراشدي بالتشديد على ضرورة طلب العلم، واستيفاد المعلمين والمؤدبين الأكفاء، فقد كان هناك ثلاثة معلمون بالمدينة يعلمون الصبيان، وكان عمر بن الخطاب ﵁ يرزق كل واحد منهم خمسة عشر درهمًا كل شهر(٣).

كما استقدم سعد بن أبي وقاص ﵁ رجلاً من العراق يعلم أبناءهم الكتاب بالمدينة ويعطونه الأجر(٤).

وكان بعض كبار الصحابة مديرين لمدارس ومكاتب لتعليم الأطفال في المدينة؛ مثل عبد الله بن مسعود (ت ٣٢هـ) ﵁، الذي كان يحرص أشد الحرص على أطفال مكتبه كأنهم أولاده؛ «فعن عبد الله بن يسار: أنه كان لابن مسعود صبيان في الكُتَّاب..»(٥).

أما طريقة التعليم في هذه المكاتب (المدارس)؛ فقد كانت متنوِّعة وجميلة؛ فقد كان «سليم بن عامر (من كبار التابعين) ممن سباه خالد بن الوليد من حاضر حلب. قال: فلما قدمنا على أبي بكر ﵁ جعلني في المكتب، فكان المعلم يقول لي: اكتب الميم. فإذا لم أحسنها

(١) الكتاني: التراتيب الإدارية ٢/ ٣٢٩- ٣٣٢.
(٢) أحمد بن محمد الصاوي: حاشية الصاوي على الشرح الصغير ٤/ ٣٥.
(٣) سنن البيهقي الكبرى ٦/ ١٢٤ ح ١١٤٥٨.
(٤) ابن سحنون: آداب المعلمين ص٣٧.
(٥) أحمد بن محمد الطحاوي: شرح معاني الآثار ٣/ ٥٠ ح٤١١٢،



قال لي: دورها، اجعلها مثل عين بقرة[١]. فرغم كون الصبي الصغير من جملة السبي والغنائم التي أتى بها خالد بن الوليد ﷺ، إلاَّ أن ذلك لم يكن يمنع الخلافة الإسلامية من الاعتناء بهم وتعليمهم وتربيتهم تربية قويمة.

ومن أشهر مجالس العلم في العصر الراشدي مجلس الصحابي أبي الدرداء ﷺ؛ فقد كان يُعَيِّن مساعدين (عرفاء) له ليستطيع تقديم خدمة تعليمية وتربوية جيدة للجميع: «فقد كان أبو الدرداء ﷺ يُنظم طلابه، ويُوَزِّعهم في مجموعات؛ لكثرتهم واستحالة قيامه بتعليمهم بطريقة مباشرة، وراعى تدرُّجَهم في العلم عند تقسيمهم، فكانت المجموعات متباينة المستوى. قال سويد بن عزيز: كان أبو الدرداء ﷺ إذا صلى الغداة في جامع اجتمع الناس للقراءة عليه، فكان يجعلهم عشرة عشرة، وعلى كل عشرة عريفًا، ويقف هو في المحراب يرمقهم ببصره، فإذا غلط أحدهم رجع إلى عريفهم، فإذا غلط عريفهم رجع إلى أبي الدرداء ﷺ فسأله عن ذلك، وكان ابن عامر عريفًا على عشرة، فلمَّا مات أبو الدرداء ﷺ خلفه ابن عامر. قال مسلم بن مِشكم -أحد تلاميذ أبي الدرداء-: قال لي أبو الدرداء ﷺ: أُعدد من يقرأ عندي القرآن. فعددتهم ألفًا وستمائة ونيفًا، وكان لكل عشرة منهم مقرئ، وأبو الدرداء يكون عليهم قائمًا، وإذا أحكم الرجل منهم تحوَّل إلى أبي الدرداء ﷺ»[٢]؛ فهذا نظام تربوي وتعليمي جديد ابتكره الصحابي الجليل أبو الدرداء ﷺ، وقد استمرَّ بعد ذلك ليصل إلى ما نلمسه ونراه الآن في الجامعات والمدارس.

وحُرِصَ في هذه المكاتب على الأدب التام في التعامل مع القرآن الكريم خاصة، حتى وصل هذا الأدب في الحبر الذي تُكتَبُ به الألواح؛ فقد قيل لأنس ﷺ: كيف كان المؤدبون على عهد الأئمة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم؟ قال: كان المؤدب له إجّانة (إناءٌ)، وكل صبي يأتي كل يوم بنوبته (بدوره) ماءً طاهرًا فيصبُّونه فيها، فيمحون به ألواحهم. قال أنس: ثم يحفرون حفرة في الأرض، فيصبون ذلك الماء بها فينشف[٣]!

---

(١) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق ٣/ ٤١٤.

(٢) ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء ١/ ٦٠٦- ٦٠٧، وأكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة ص٢٩٨.

(٣) ابن سحنون: آداب المعلمين، عن عبد العزيز الأهواني: التربية في الإسلام ص٣٥٥.

ولم يكن اهتمام الدولة بتربية وتعليم أبناء المسلمين منصبًا على العاصمة الإسلامية في العصر الراشدي المدينة المنورة؛ فقد وُجد الاهتمام المبكر بتعليم الأطفال في البلاد المفتوحة أيضًا؛ فعن أدهم بن محرز الباهلي[١] قال: إني لأول مولود وُلِدَ بحمص، وأول مولود فرض له وبيدي كتف[٢] وأنا أختلف[٣] إلى الكُتَّاب[٤].

وبلغ حرص عمر ﷺ بالتلاميذ أنه كان يُسَلِّم على الصبيان في الكتاب[٥]، وكان ﷺ يُرَبِّيهم على الأذكار والتعوُّد عليها منذ هذه السن الصغيرة؛ فقد كان ﷺ يطلب من الصبيان الاستغفار، ويقول: إنَّكم لم تُذنبوا. وكان أبو هريرة يقول لغلمان الكُتَّاب: قولوا: اللهمَّ اغفر لأبي هُريرة. فيؤمِّن على دعائهم[٦].

وكان ﷺ -وهو الخليفة ورئيس الدولة- يحثُّ طلاب العلم على تلقيه وأخذه ممن عُرف به وكان راسخ القدم فيه قد أمضى فيه وقته وأفنى فيه عمره، وكان جليل القدر كبير المنزلة بين أهل الدين والعلم. قال ﷺ: «فساد الدين: إذا جاء العلم من قبل الصغير استعصى عليه الكبير، وصلاح الناس إذا جاء العلم من قبل الكبير تابعه عليه الصغير»[٧]. وعلَّق العلامة ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) على كلام عمر ﷺ بقوله: «وذكر أبو عبيد أن المراد بالصغر في هذا صغر القدر، لا صغر السن. والله أعلم».

بل كان في بعض الأحيان يُصَحِّح أخطاء الطلاب وقرَّاء القرآن من الصبيان والأطفال؛ فقد مرَّ ﷺ بغلام وهو يقرأ في المصحف: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ (وهو أبٌ لهم) ﴾.

فقال: يا غلام، حُكَّها (أي احذف وامح هذا الخطأ). قال: هذا مصحف أُبَيّ. فذهب

---

(١) توفي في خلافة عبد الملك بن مروان (ت٨٦هـ).
(٢) عظم عريض خلف المنكب تكون للإنسان والحيوان، وكانوا يكتبون على أكتاف الحيوانات قبل صناعة الورق.
(٣) أي أذهب.
(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٧/ ٤٦٤.
(٥) البخاري: الأدب المفرد ص٣٥٩ ح١٠٤٤. وصححه الألباني.
(٦) ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم ٤٤/ ١٧.
(٧) قال ابن حجر رحمه الله: «وفي مصنف قاسم بن أصبغ بسند صحيح عن عمر فساد الدين...» الأثر. فتح الباري ١٣/ ٣٠١، ٣٠٢.

إليه فسأله، فقال: إنه كان يلهيني القرآن، ويلهيك الصفق بالأسواق[١].

ومن الآداب التربوية التي حثَّ عليها عمر ﷺ العالمَ والمتعلمَ:

١- إخلاص النية لله ﷻ في طلب العلم، وابتغاء وجهه دون الأغراض الدنيوية، والجد في طلب العلم، وعدم الزهد فيه والرغبة عنه لأي سبب كان؛ قال ﷺ: لا يُتَعَلَّم العلم لثلاث، ولا يُترك لثلاث؛ لا يُتعلم ليمارَى به، ولا ليُباهى به، ولا ليُراءى به، ولا يُترك حياء من طلبه، ولا زهادة فيه، ولا رضًا بالجهل منه[٢].

٢- تحرِّي الحق والصواب عند تلقِّي العلم ونشره: فقد حذَّر عمر ﷺ طالب العلم ومتلقيه أن يُحدِّث بكل ما سمعه من غير تروٍّ وتوثُّق من صحة ما سمعه وصوابه وموافقته للحق. قال ﷺ: بحسب المرء من الكذب أن يُحدِّث بكل ما سمع[٣]. وشبَّه عمرُ ﷺ الخطيبَ الذي يتكلَّم بالكلام الكثير من غير تحقُّق من ثبوته من عدمه بالشيطان؛ فقد خطب رجل عند عمر ﷺ فكثَّر الكلام، فقال عمر: «إن كثرة الكلام في الخطب من شقائق الشيطان»[٤].

ومع هذه النصائح والآداب كان ﷺ يهتمُّ بالعمل بالعلم: فقد رُوي عنه ﷺ أنه قال: إيَّاكم والمنافق العالم. قالوا: وكيف يكون المنافق عليمًا؟ قال: يتكلم بالحق، ويعمل بالمنكر[٥]. وهذا الأثر صحيح المعنى؛ فإن مدح العالِم العامل بعلمه والثناءَ عليه، وذمَّ مَنْ لا يعمل بعلمه ويخالف قوله فعله جاءت به النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة.

ثم اهتمامه ﷺ بحفظ العلم وتقييده: فقد رُوي عنه أنه قال: قيدوا العلم بالكتاب[٦]. كما كان يحثُّ على حسن وكتابة العلم وقراءته: رُوي أنه ﷺ قال: شر الكتابة المشق[٧]،

(١) سنن البيهقي الكبرى: ٧/ ٦٩ ح١٣١٩٧.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا: الصمت ص٨٣، حسن.

(٣) مسلم: مقدمة الإمام مسلم رحمه الله، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع (٥).

(٤) البخاري: الأدب المفرد ص٣٠٢، ابن أبي الدنيا: الصمت ص٩٣.

(٥) البيهقي: شعب الإيمان ٤/ ٤٠٤ ح١٦٤٠.

(٦) سنن الدارمي ١/ ١٢٧، الحاكم: المستدرك ١/ ١٠٦، الخطيب: تقييد العلم ص٨٧، ٨٨.

(٧) المشق في الخط: المد فيه، وقيل الإسراع فيه. ابن منظور: لسان العرب ١٣/ ١١٦.

وشر القراءة الهذرمة[١]، وأجود الخط أبينه[٢].

والجميل أنه ﷺ كان يحب ويحثُّ على التهيُّؤ لطلب العلم بالتنظُّف والتطيُّب؛ فقد رُوي عنه ﷺ قال: يعجبني أن أرى القارئ النظيف[٣].

وتيسيرًا على طلبة العلم فإن عمر ﷺ كان يسنُّ إجازة واستراحة للأطفال، وسار الخلفاء من بعده على هذا النهج وحتى وقتنا هذا؛ ولقد ذكر الكتاني المغربي أن الأستاذ الكبير الشيخ المختار الكنتي سُئل عن الأصل في ترك المعلم للصبي (أي إجازة) قراءة الخميس والأربعاء والجمعة، فأجاب بأن الصحابة كانوا قبل ولاية عمر إنما يقرئ الرجل ابنته وأخاه الصغير ويأخذ الكبير عن الكبير مفاهمة[٤] لسيلان أذهانهم، فلما كثرت الفتوحات، وأسلمت الأعاجم وأهل البوادي، وكثر الولدان أمر عمر ببناء بيوت المكاتب، ونصب الرجال لتعليم الصبيان وتأديبهم، وكانوا يُديمون القراءة في الأسبوع كله، فلما فتح عمر الشام ورجع قافلاً للمدينة تلقاه أهلها ومعهم الصبيان، وكان اليوم الذي لاقوه فيه يوم الأربعاء، فظلُّوا معه عشية الأربعاء ويوم الخميس وصدر يوم الجمعة، فجعل ذلك لصبيان المكاتب وأوجب لهم سُنَّة للاستراحة، ودعا على من عطَّل هذه السُّنَّة، ثم اقتدى به السلف في الاستراحات المشروعة إلى يومنا هذا[٥].

وقد تلقَّف الصحابة هذه الآداب النبوية، والنصائح العمرية في طلب العلم، والسعي بكل قوة للحصول عليه، فهذا ابن عباس ﷺ يقول: «وُجِدَ أكثر حديث رسول الله ﷺ عند هذا الحي من الأنصار، والله إن كنتُ لآتي الرجل منهم فيُقال: هو نائم. فلو شئتُ أن يُوقظ لي، فأدعه حتى يخرج لأستطيب بذلك حديثه»[٦].

وكان التنافس في طلب العلم من جملة السمات التي تميز بها بعض طلبة العلم من

---

(١) الهذرمة: السرعة في القراءة. المصدر السابق ١٥/ ١٥.
(٢) الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٢٦٢.
(٣) الجعد: المسند ٢/ ١٠٦٤، عبد السلام بن محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية ﷺ ٢/ ٨٩٦.
(٤) المفاهمة: معرفة الشيء بالقلب دون عناء ومذاكرة.
(٥) عبد الحي الكتاني: التراتيب الإدارية ٢/ ٢٩٤.
(٦) سنن الدارمي ١/ ١٥٠ ح٥٦٧.

الصحابة والتابعين، فابن عباس ﷺ يحكي لنا كيف أخذ العلم بعد وفاة رسول الله ﷺ، يقول: لما توفي رسول الله ﷺ، قلتُ لرجل من الأنصار: يا فلان هلم فلنسأل أصحاب النبي ﷺ فإنهم اليوم كثير. فقال: واعجبًا لك يابن عباس! أترى الناس يحتاجون إليك، وفي الناس من أصحاب النبي ﷺ مَنْ ترى؟ فترك ذلك، وأقبلتُ على المسألة، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل (نائم وقت الظهيرة) فأتوسد ردائي على بابه فتسفي الريح على وجهي التراب، فيخرج فيراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله ما جاء بك؟ ألا أرسلتَ إليَّ فآتيك؟ فأقول: أنا أحق أن آتيك. فأسأله عن الحديث. قال: فبقي الرجل حتى رآني، وقد اجتمع الناس عليَّ فقال: كان هذا الفتى أعقل مني[١].

فهذه المثابرة من ابن عباس ﷺ في طلب الحديث، وصبره وأدبه في طلبه كل ذلك جعله مقدَّمًا في القوم، تُشدُّ له الرحال في المدينة المنورة، لكن كل هذا الجهد في طلب العلم والصبر عليه ما كان يجد طريقه لدى ابن عباس لولا تخرُّجه من المدرسة النبوية التربوية.

ولذلك كان العلم مقرونًا بحسن الأدب والأخلاق الحميدة، فعند المناظرات العلمية يظهر الجدال والمحاججة، لكن صحابة النبي ﷺ وتلاميذهم ما كانوا يُجادلون بغية الإفساد على بعضهم، أو إظهار علمهم تفاخرًا وانتصارًا، فعن ابن عباس ﷺ: أنه تمارى (تناظر وتناقش) هو والحر بن قيس بن حصن الفزاري في صاحب موسى؛ قال ابن عباس: هو خضر. فمر بهما أُبي بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريتُ (تناظرتُ) أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيل إلى لقيه، هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال أُبيٌّ: نعم سمعت النبي ﷺ يذكر شأنه يقول: «بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل، إذ جاءه رجل، فقال: هل تعلم أحدًا أعلم منك؟ قال موسى: لا. فأوحى الله ﷻ إلى موسى: بلى؛ عبدنا خضر. فسأل السبيل إلى لقيه، فجعل الله له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت، فارجع فإنك ستلقاه. فكان موسى ﵇ يتبع أثر الحوت في البحر، فقال فتى موسى لموسى: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلاَّ الشيطان أن أذكره؟ قال موسى: ذلك ما كنا نبغي. فارتدا على آثارهما قصصًا

(١) سنن الدارمي ١/ ١٥٠ ح٥٧٠.

فوجدا خضرًا، فكان من شأنهما الذي قص الله في كتابه»[١].

ومن ثَمَّ كان التابعون يحرصون كل الحرص على ملاقاة صحابة النبي ﷺ والتعلُّم على أيديهم، فهذا أبو العالية أحد التابعين الكبار يقول: «كنا نسمع الرواية بالبصرة عن أصحاب رسول الله ﷺ، فلم نرض حتى ركبنا إلى المدينة فسمعناها من أفواههم»[٢].

وكان بعض الصحابة والتابعين يرى أن السبيل الأمثل لتربية أبناء البلاد المفتوحة على الإسلام والإيمان أن يذهبوا إليهم ليعرفوهم على الدين الجديد، وكانوا لا يبغون من وراء ذلك إلاَّ رضا الله وثوابه؛ فقد رُوي أن زِرَّ بن حبيش قال: أتيتُ صفوان بن عسال المرادي[٣]، فقال: ما جاء بك؟ قلت: أُنَبِّطُ العلم، (أي أنشر العلم بين الأنباط وهم أهل البلدان المفتوحة). قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ: يقول: **«ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلاَّ وضعت له الملائكة أجنحتها رضا بما يصنع»**[٤].

وهناك عشرات الأمثلة الأخرى في العصر النبوي والراشدي تبين إلى أي مدى بلغ حرص الصحابة والتابعين على تعلُّم العلم ونشره بغية الأجر والنهضة للأمة الإسلامية.

الدولة الإسلامية والأطفال

كان برنامج الدولة النبوية والراشدية يقوم وفق فلسفة الشمولية في التعامل مع الأفراد، فكل فرد يمكن الاستفادة منه في خدمة الغاية الإسلامية والدين الإسلامي؛ يُهتم به، ويُحرص على تعليمه وتربيته، وغاية الدولة الإسلامية هي رضا الله ﷻ، وتحقيق شرعه ونُظُمه.

وكذلك كان الحال مع الأطفال والصبيان، فقد اهتمَّ المجتمع بتنشئتهم على تحمل المسئولية، وإشراكهم في بعض المهمات الكبرى، وهذا من الأمور المدهشة حقًّا؛ إذ لم نسمع من قبل في تاريخ الدولة الفارسية أو الرومانية أيَّ نوع من أنواع التعامل والتربية التي

---

(١) البخاري: كتاب العلم، باب الخروج في طلب العلم (٧٨)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام (٢٣٨٠).

(٢) سنن الدارمي ١/ ١٤٩ ح٥٦٤.

(٣) من صحابة النبي ﷺ ترجم له ابن حجر في الإصابة رقم ٤٠٨٤.

(٤) سنن ابن ماجة ١/ ٨٢ ح٢٢٦.

حرصت الدولة والمجتمع النبوي والراشدي على تلقينها وتعليمها لأطفالها وبناتها.

فهذا السائب بن يزيد ﷺ يقول: ذهبنا نتلقَّى رسول الله ﷺ مع الصبيان إلى ثنية الوداع[١]. أي يستقبلون رسول الله ﷺ ومن معه من المجاهدين عند رجوعهم من غزوة تبوك في العام التاسع من الهجرة.

ولقد كان النبي ﷺ يحرصُ على تعليم الصبيان الثقة في النفس، وتربيتهم على تحمل المسئولية والطاعة، وعدم إفشاء الأسرار، فعن أنس ﷺ قال: قدم النبي ﷺ المدينة وأنا ابن تسع سنين فانطلقت بي أم سليم إلى نبي الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله؛ هذا ابني استخدمه. فخدمتُ النبي ﷺ تسع سنين فما قال لي لشيء فعلته: لِمَ فعلت كذا وكذا. وما قال لي لشيء لم أفعله: ألا فعلت كذا وكذا. وأتاني ذات يوم وأنا ألعب مع الغلمان -أو قال: مع الصبيان- فسلَّم علينا ودعاني، فأرسلني في حاجة، فلما رجعتُ قال: لا تخبر أحدًا. واحتبستُ على أمي، فلما أتيتها قالت: يا بني ما حبسك؟ قلتُ: أرسلني رسول الله ﷺ في حاجة له. قالت: وما هي؟ قلتُ: إنه قال: لا تخبر بها أحدًا. قالت: أي بني فاكتم على رسول الله ﷺ سرَّه[٢]. فالأم تساعد ابنها على كتم سرِّ رسول الله ﷺ من خلال التأكيد على مقالته، وهذا ما يُدلل على مقدار الأدب والتربية السامقة التي كان عليها صحابة وصحابيات النبي ﷺ.

وقد استخدم النبي ﷺ هؤلاء الصبيان والفتيان في مهام عظيمة جليلة، وكان لها الأثر النفسي والتربوي فيهم بعدئذٍ؛ فقد أعطى ﷺ بعض المهام الاستطلاعية للغلمان يوم أُحُد، وكان فيهم حارثة بن الربيع الذي أصابه سهم فقتله، قال أنس ﷺ: «إن حارثة بن الربيع جاء نظارًا يوم أُحُد، وكان غلامًا فأصابه سهم غَرِب (طائش) فوقع في ثغرة نحره فقتله، فجاءت أمه الربيع، فقالت: يا رسول الله؛ قد علمتَ مكان حارثة مني، فإن يكن من أهل الجنة فأصبر، وإلا فسترى ما أصنع. قال: **يا أم حارثة إنها ليست بجنة واحدة، ولكنها جنان كثيرة، وهو في الفردوس الأعلى**. قالت: فسأصبر»[٣].

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب استقبال الغزاة (٢٩١٧).
(٢) مسند أحمد ٣/ ١٧٤ ح١٢٨٠٧.
(٣) الطبراني: المعجم الكبير ٣/ ٢٣١ ح٣٢٣٥، والمتقي الهندي: كنز العمال ١٠/ ٤٣١ ح٣٠٠٤٢.

هذا هو المجتمع المسلم الذي يُضَحِّي بأبنائه لله ورسوله، وما عند الله ﷻ من الثواب والأجر، فهذه الأم الثكلى كان ابنها أحب إنسان لديها، وهي تأتي للنبي ﷺ لتتأكَّد هل في مقابل موته الجنة، فيُطمئنُّها النبي ﷺ أنه في الفردوس الأعلى منها، ولم نرها تلطم الخدود، وتشقُّ الجيوب، وتجري هائمة صارخة في شوارع المدينة، إنها أجابت بكلمة واحدة فقط: سأصبر! وهذا لعمري أثر التربية النبوية في هؤلاء.

ومن قبل فقد أشرك النبي ﷺ بعض الغلمان في مهام قتالية لم تقتصر على الاستطلاع ورصد حركة العدوِّ، وثمة قصة رائعة تُبرز لنا كيف غيَّر الإسلام قناعة الناس ونظرتهم للغلمان والصبيان، وذلك بالتأمُّل في قصة معاذ ومعوِّذ قاتلي أبي جهل -لعنه الله- يوم بدر، فقد حكى لنا عبد الرحمن بن عوف ﷺ: إني لفي الصف يوم بدر، إذ التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما إذ قال لي أحدهما سرًّا من صاحبه: يا عم أرني أبا جهل. فقلتُ: يابن أخي وما تصنع به؟ قال: عاهدتُ الله إن رأيته أن أقتله أو أموتَ دونه. فقال لي الآخر سرًّا: من صاحبه مثله؟ قال: فما سرَّني أنِّي بين رجلين مكانهما، فأشرتُ لهما إليه، فشدَّا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، وهما ابنا عفراء (معاذ ومعوذ)[1].

وهذا الإشراك للصبيان في الرمي والغزوات والجهاد أشار إليه خالد بن الوليد ﷺ، فعن قيس بن أبي حازم قال: رأيتُ خالد بن الوليد يوم اليرموك يرمي بين هدفين ومعه رجال من أصحاب محمد ﷺ، قال: وقال: أُمِرْنَا أن نُعَلِّمه أولادنا؛ الرمي والقرآن[2].

ولذلك كان عمر ﷺ يكتب إلى أهل الأمصار يأمرهم بتعليم أولادهم الفروسية والسباحة والرمي، وقد أُصيب أحد الغلمان أثناء التعليم في الشام ومات، فكتبوا إلى عمر في ذلك فلم يُثنه عن أمره بتعليم الأولاد الرمي[3].

والحقُّ أن النبي ﷺ كان يُقَرِّب إليه بعض الغلمان النابهين، ويحملهم المهمات الكبرى،

---

(١) البخاري: كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرًا (٣٧٦٦).

(٢) الطبراني: المعجم الكبير ٤/ ١١٤ ح ٣٨٣٨.

(٣) مصنف عبد الرزاق الصنعاني ٩/ ١٩ ح١٦١٩٨، ومحمد حميد الله: الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص٤٨٦.

ولنا في قصة زيد بن ثابت ﷺ مع النبي ﷺ ثم مع الخلفاء الراشدين أكبر دلالة على استفادة الدولة المسلمة من عقول هؤلاء النابغين، فعن يحيى بن عبد الله بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة قال: قال زيد بن ثابت: كانت وقعة بُعاث وأنا ابن ست سنين، وكانت قبل هجرة رسول الله ﷺ بخمس سنين، فقدم رسول الله ﷺ المدينة وأنا ابن إحدى عشرة سنة، وأُتي بي إلى رسول الله ﷺ فقالوا: غلام من الخزرج قد قرأ ست عشرة سورة، فلم أُجَزْ في بدرٍ ولا أُحُدٍ، وأُجِزت في الخندق. قال ابن عمر: وكان زيد بن ثابت يكتب الكتابين جميعًا كتاب العربية وكتاب العبرانية، وأول مشهد شهده زيد بن ثابت مع رسول الله ﷺ الخندق، وهو ابن خمس عشرة سنة، وكان فيمن ينقل التراب يومئذٍ مع المسلمين. فقال رسول الله ﷺ: **أما إنه نعم الغلام**. وغلبته عيناه يومئذ فرقَدَ، فجاء عمارة بن حزم فأخذ سلاحه وهو لا يشعر، فقال رسول الله ﷺ: **يا أبا رُقَاد نمتَ حتى ذهب سلاحك**. ثم قال رسول الله ﷺ: **من له علم بسلاح هذا الغلام**؟ فقال عمارة بن حزم: أنا يا رسول الله أخذته. فردَّه، فنهى رسول الله ﷺ أن يُرَوَّع المؤمن، وأن يؤخذ متاعه لاعبًا وجادًّا. وكانت راية بني مالك بن النجار في تبوك مع عمارة بن حزم، فأدركه رسول الله ﷺ، فأخذها منه فدفعها إلى زيد بن ثابت فقال عمارة: يا رسول الله بلغك عني شيء؟ قال: **لا، ولكن القرآن يُقدَّم، وكان زيدٌ أكثر أخذًا منك للقرآن**»[(١)].

وقد قدَّم الخليفة الراشد أبو بكر ﷺ ومستشاره الفاروق ﷺ زيد بن ثابت ﷺ في مهمة جمع القرآن الكريم، وكان لا يزال فتًى في طلائع الشبيبة، ولما تَمَّ استدعاؤه دارت بينه وهو الشاب الصغير محاججة ونقاش مع الخليفة أبي بكر ومستشاره عمر ﷺ، فعنه ﷺ أنه قال: «أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة (أي القراء)، فأتيته وعنده عمر، فقال: إن عمر أتاني فقال: إن القتل استحرَّ يوم اليمامة بقرَّاء القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. فقلتُ: كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: هو والله خيرٌ. فلم يزل يُراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر عمر. ثم قال: إنك غلامٌ شابٌّ عاقلٌ لا نتهمك، قد كنتَ تكتبُ الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه. فقلتُ:

---

(١) المستدرك على الصحيحين: كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر مناقب زيد بن ثابت كاتب النبي ﷺ (٥٧٧٨).

كيف تفعلان شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟! فقال أبو بكر: هو والله خيرٌ. فلم يزل يُراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، والله لو كلفاني نقل جبل من الجبال، ما كان أثقل عليَّ من الذي كلفاني، ثم تتبَّعْتُ القرآن أجمعه من العُسُبِ[1] والرقاع والصحف وصدور الرجال»[2].

وأمثال هؤلاء الشباب النابهين النابغين -الذين كانوا يرون ما لا يستطيع كبار رجال قومهم وعشيرتهم أن يروه- كانوا متواجدين بكثرة في زمن النبي ﷺ وكذا كل زمن وجيل، فعن محمود بن لبيد أخي بني عبد الأشهل قال: لما قدم أبو الجليس أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: **هل لكم إلى خير مما جئتم له؟** قالوا: وما ذاك؟ قال: **أنا رسول الله؛ بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله لا يشركوا به شيئًا، وأنزل علي كتاب.** ثم ذكر الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ - وكان غلامًا حدثًا - : أي قوم! هذا والله خيرٌ مما جئتم له. قال: فأخذ أبو جليس أنس بن رافع حفنة من البطحاء، فضرب بها في وجه إياس بن معاذ. وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، فكانت وقعه بُعاث بين الأوس والخزرج. قال: ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك. قال محمود بن لبيد: فأخبرني مَنْ حضره من قومي عند موته أنهم لم يزالوا يسمعونه يُهلل الله ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أن قد مات مسلمًا، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع[3].

وهذه الحادثة تبين وعي الشباب وفهمهم لرسالة محمد ﷺ قبل غيرهم من الناس، وقد حُقَّ لرسول الله ﷺ أن يستعملهم ويُقَرِّبهم ويحملهم المهام الكبيرة.

وثمة مهام حربية أخرى كان الخلفاء الراشدون ﷺ يُشركون فيها الصبيان والفتيان؛ فقد كان يُعهد لهم حفر قبور الشهداء في المعارك والغزوات، وذلك مع أمهاتهم وأخواتهم

(١) العسب: سعف النخيل.

(٢) سنن النسائي الكبرى: كتاب فضائل القرآن، باب ذكر كاتب الوحي (٧٩٩٥).

(٣) مسند أحمد ٥/ ٤٢٧ ح٢٣٦٦٨، قال شعيب الأرناءوط: إسناده حسن.

اللاتي كنَّ يحرصن على تمريض الجرحى ومداواتهم؛ فقد كان موقع مستشفى الحرب في العُذيب[1] حيث تُقيم نساء المجاهدين الصابرات المحتسبات، فيتلقين الجرحى ويتولين علاجهم وتمريضهم إلى أن يتم قضاء الله فيهم، ومع ذلك فإن لهن مهمة أعجب من ذلك يشترك معهن فيها الصبيان، ألا وهي حفر قبور الشهداء، ولئن كان تطبيب الجرحى وتمريضهم من المهمات القريبة المنال للنساء، فإن حفر الأرض من المهمات الخشنة، ولكن الرجال كانوا مشغولين بالجهاد، فلتقُم النساء بمهمتهم عند الضرورة، وهنَّ أهل لذلك لما يتصفن به من الإيمان والصبر.

والأعجب من هذا أن المجلس الاستشاري للخلفاء الراشدين - خاصة مجلس عمر ﷺ لم يكن ليخلو من الشباب والأخذ برأيهم في شئون الدين أو الدنيا، وكان لأشياخ بدر مكانتهم الخاصة في الشورى؛ لفضلهم وعلمهم وسابقتهم، إلاَّ أن عمر ﷺ أخذ يُشرك هذا المجلس الاستشاري ببعض الشباب، إذ إن أشياخ بدرٍ على دربهم ماضون لأَجَلِهم ورحمة ربهم ومغفرته، والدولة لا بُدَّ لها من تجديد رجالاتها، وكان عمر العبقري الفذُّ قد فطن إلى هذه الحقيقة، فأخذ يختار من شباب الأمة مَنْ عَلِمَ منهم علمًا وورعًا وتقًى، فكان عبد الله بن عباس من أولهم، وما زال عمر يجتهد متخيرًا من شباب الأمة مستشارين له متخذًا القرآن فيصلاً في الاختيار، حتى قال عبد الله بن عباس: وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شبانًا. وقد قال الزهري لغلمان أحداث: لا تحتقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم؛ فإن عمر بن الخطاب ﷺ كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان فاستشارهم يبتغي حدة عقولهم[2].

وهذا ابن عباس ﷺ يحكي لنا كيف أن عمر ﷺ أخذ برأيه في مسألة تحديد ليلة القدر، ولم يستطع بعض الصحابة الآخرين أن يُجيبوه، قال ابن عباس ﷺ: كنتُ عند عمر وعنده أصحابه، فسألهم فقال: أرأيتم قول رسول الله ﷺ في ليلة القدر «**التمسوها في العشر الأواخر وترًا**»، أي ليلة ترونها؟ فقال بعضهم: ليلة إحدى (أي وعشرين). وقال بعضهم:

---

(١) شمال المدينة المنورة.

(٢) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة ص٩٠..

ليلة ثلاث. وقال بعضهم: ليلة خمس. وقال بعضهم: ليلة سبع. فقالوا وأنا ساكتٌ، فقال (أي عمر ﷺ): ما لك لا تكلم؟ فقلتُ: إنك أمرتني أن لا أتكلم حتى يتكلموا. فقال: ما أرسلتُ إليك إلاَّ لتكلم. فقلتُ: إني سمعت الله يذكر السبع، فذكر سبع سماوات ومن الأرض مثلهن، وخلق الإنسان من سبع، ونبت الأرض سبع. فقال عمر ﷺ: هذا، أخبرتني ما أعلم، أرأيت ما لم أعلم: قولك نبت الأرض سبع؟ قال: قال الله ﷻ: **﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۞ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾** [عبس: ٢٦- ٣١]، قال: فالحدائق الغلب الحيطان من النخل والشجر، وفاكهة وأبًا قال: فالأبُّ ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب والأنعام ولا يأكله الناس. قال فقال عمر ﷺ لأصحابه: أعجزتم أن تقولوا كما قال هذا الغلام الذي لم تجتمع شئون رأسه؟! والله إني لأرى القول كما قلتَ[1].

والموقف يدلل على أدب ابن عباس ﷺ واحترامه للصحابة، وعدم ابتدائه بالكلام حتى ينتهوا كما أخبره بذلك عمر ﷺ، ثم علمه الغزير، وتسويغه الجميل لاختياره يوم السابع والعشرين من رمضان ليكون ليلة القدر، ولمَّا لم يفهم عمر بعض أدلته شرحها له وبينها، فما كان من الفاروق ﷺ - وهو الخليفة الراشد للدولة المسلمة - إلاَّ أن أعلن صراحة إعجابه بعلم ابن عباس ﷺ.

وكان عمر ﷺ يُذعن للحق، وقَّافًا عليه، والقصة الآتية تبين لنا عدله ﷺ، ثم تبين لنا علم شابٍّ صاح بالحق ونطق به، فما كان من أمير المؤمنين إلا أن أخذ برأيه، بل وأخبر هذا الشاب أنه كولده وحبيبه؛ عن أبي بكر بن حفص، قال: بعث أبو موسى إلى عمر ألف ألف (مليون) درهم، فلما جاء بالمال بكى حتى رحمه المسلمون، قالوا: ما يُبكيك يا أمير المؤمنين؟ أليس هذا خيرًا، فتح الله للمسلمين وزادهم؟ قال: «لو كان خيرًا لم يحجب عن نبي الله وعن أبي بكر. ثم قال: لا تفارقوا هذا المال حتى تُصَلُّوا الغداة (الفجر)، ولا دخل في أي دار. فبات المهاجرون عليه حتى أصبحوا، ثم أصبح فقسَّمه، فجاء بني له يكنى أبا

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٤/ ٣١٣ ح ٨٣٤٢، وشعب الإيمان للبيهقي ٣/ ٣٣٠ ح ٣٦٨٦، وصحيح ابن خزيمة: كتاب الصيام، باب الأمر بالتماس ليلة القدر وطلبها في العشر الأواخر من رمضان بلفظ مجمل غير مفسر (٢١٧٢).

شحمة، فأخذ درهمًا، ثـم خـرج يشتد (يجري)، فسأل، فأخبره عبد الرحمن بن عوف، فخرج يشتد إثر ابنه، فلما سمع وقع أبيه طار قلبه (أي خاف)، فدخل إلى أهله وهو يصيح، فانتزع الدرهم من فيه (فمه)، ثم جاء حتى طرحه في المال، فقال عبد الرحمن: أف. قال: أي تؤفف يا عبد الرحمن؟ قال: نعم، خلعت قلبه من أجل درهم. قال عمر: إن الدرهم ليس له ولأبيه. فدعا جاريته، فقال: أعطي الغلام درهمًا من تلك السبعة الدراهم التي بقيت من الورق (الفضة) بعد حقوق الناس بقية. فذاكرها قريشًا، فقال قوم: نرى أن تقسمها بين عيال المهاجرين. فقال: فإني متكلم العشية، فتكلموا، انظروا ما تقول لكم العرب. فقام، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، قد بقي منكم فضلة بعد حقوق الناس، فما ترون فيها؟ فقام صعصعة بن صوحان وهو غلام شاب، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما يُستشار العباد فيما لم ينزل الله به القرآن، فأما ما أنزل الله به القرآن ووضعه مواضعه، فضعه في مواضعه التي وضعه الله. قال: صدقتَ، أنت مني وأنا منك. فقسمه بين المسلمين»[(١)].

وكان عمر ﷺ يبحث عن هؤلاء الشبان والغلمان النابهين أصحاب الكفاءة ليُعَيِّنَهم في وظائف الدولة المهمة، وكان ﷺ يتتبَّع تاريخهم وماضيهم وعلمهم ليختارهم على أساس هذه المقومات في الوظائف المهمة، فعن سهل بن سعد، قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، وغلام جالس عند رسول الله ﷺ، فقال: بلى والله يا رسول الله إن عليها لأقفالها، ولا يفتحها إلاَّ الذي أقفلها. فلما ولي عمر طلبه ليستعمله (أي ليعينه عاملاً ومحافظًا)، وقال: «إنه لم يقل ذلك إلاَّ مَنْ عقل»[(٢)].

ومن الرائع أن بعض كبار الصحابة كان يأخذ بشهادة الأطفال في القضاء والمنازعات، فعن عبد الله بن أبي مليكة[(٣)] قال: أرسلت إلى ابن عباس -رضي الله عنهما- أسأله عن شهادة الصبيان فقال: قال الله ﷻ: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]،

---

(١) المعافى بن عمران الموصلي: الزهد ص٧.
(٢) البيهقي: القضاء والقدر ١/ ٣٥٠ ح٣٣١.
(٣) من كبار التابعين، كان قاضيًا على عهد ابن الزبير. البخاري: التاريخ الصغير ١/ ٣١٩.

وليسوا ممن نرضى قال: فأرسلتُ إلى ابن الزبير أسأله فقال: بالحري إن سئلوا أن يصدقوا. قال: فما رأيت القضاء إلاَّ على ما قال ابن الزبير[١].

وبعيدًا عن التكييف الفقهي لهذه المسألة، وأخذ جمهور الفقهاء بما قال به ابن عباس ﷺ، لكن التشريع الحكيم من وجهة نظر عبد الله بن الزبير ﷺ وقاضيه ابن أبي مليكة نظروا إلى الصبيان من ناحية الصدق والبراءة التي هي لازمة من لوازمهم، وخصلة من خصال الطفولة.

أمَّا رحمة الخلفاء الراشدين بالأطفال وقربهم منهم والحنو عليهم، فكانت من الدلائل الظاهرة على سمو التربية الإسلامية، واتباعها للنهج النبوي الكريم، وقد ظهر هذا الحنو في مواقف جمة، منها ما قاله الهنداني أنه رأى عثمان بن عفان -رحمة الله عليه- على بغله وخلفه عليها غلامه نائل وهو خليفة[٢]!

وقد روى أبو سهيل بن مالك عن أبيه: أنَّه سمع عثمان بن عفان يقول في خطبته حين ولِيَ: «لا تكلِّفوا الصبيانَ الكسبَ، فإنَّكم متى كَلَّفْتُمُوهم الكسبَ سَرَقوا..»[٣].

وهذه من الإشارات المبكرة على ضرورة الرفق بالأطفال، وتحذير الدولة من انخراطهم في الأعمال الشاقة، وعدم مطالبتهم بما لا يقدروا عليه؛ لأن في ذلك مضرَّة لاحقة بهم، تتمثل - كما أخبر ذو النورين عثمان ﷺ - في السرقة.

وهذا ما كان يراه عمر ﷺ من قبل، وكان له ﷺ فقهه المتكئ عليه في ذلك؛ فقد سرق غلمان حاطب بن أبي بلتعة ﷺ في عام الرمادة (أي عام المجاعة سنة ١٨هـ) ناقة لرجل مُزَني[٤]، فنحروها وأكلوها، ورفع الأمر إلى الفاروق، فطلب الغلمان فاعترفوا أنهم سرقوها من حرز، والذين سرقوا عقلاء مكلفون ولم يدعوا ضرورة ملجئة للسرقة، فأمر كثير بن الصلت أن يقطع أيديهم، ولكنه - وهو يعيش عام الرمادة ويرى حال الناس -

(١) المستدرك: كتاب التفسير، باب من سورة البقرة (٣١٣١). قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
(٢) أحمد بن حنبل: الزهد ص١٢٧.
(٣) مجد الدين ابن الأثير: جامع الأصول في أحاديث الرسول ١٠/ ٥٨٩ ح٨١٦٨.
(٤) من قبيلة مزينة العربية.

التمس لهم عذرًا فقال لمولاهم: إني أراك تجيعهم. واكتفى بذلك، وأوقف القطع، وأمر للمزني بثمن ناقته مضاعفة» (٨٠٠ درهم)، فقد درأ الحدَّ عنهم للضرورة، وهذا من رحمته ورأفته بالغلمان والشبان ﷺ[١].

وطالت الرحمة والرأفة المتمثلة في الجهاز السياسي للخلافة الإسلامية غير المسلمين من الصبيان والنساء، فعن نافع عن أسلم مولى عمر بن الخطاب: «أن عمر بن الخطاب ﷺ كتب إلى عماله (أمراء الولايات) أن لا يضربوا الجزية على النساء والصبيان»[٢].

وثمة موقف تربوي رائع، يدلل على أمانة الراعي وأمانة صبيان الرعية، ذكره سنان بن سلمة[٣] قال: «إني لغلام زمن عمر بن الخطاب، وأنا مع أغيلمة نلتقطُ البلح الذي يقال له الخلال، إذ خرج علينا عمر بن الخطاب، فشدَّ علينا (أي جرى خلفهم)، وفرَّ الغلمان، وبقيتُ أنا، فقلت: يا أمير المؤمنين، هو مما ألقت الريح. فقال: أرني، فإنه لا يخفى عليَّ. فأريته، قال: صدقتَ. قلتُ: ترى هؤلاء الصبيان؟ لو انطلقتُ أخذوا ما معي، فمشى معي حتى بَلَّغني أمي»[٤].

هذه المواقف التربوية من الأسرة والمجتمع أَثَّرت في أبنائهم وبناتهم أشدَّ تأثير، حيث بدت عليهم أمارات الصدق والشجاعة والعلم والنقاء، وكانت لها نتائج إيجابية جدًّا، فقد حُكي عن عبد الله بن الزبير ﷺ «أنه كان ذات يوم يلعب مع الصبيان وهو صبي، فمرَّ رجلٌ فصاح عليهم ففروا، ومشى ابن الزبير القهقرى، وقال: يا صبيان اجعلوني أميركم، وشدُّوا بنا عليه، ومرَّ به عمر بن الخطاب وهو صبي يلعب مع الصبيان ففروا، ووقف، وقال: ما لك لم تفر مع أصحابك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لم أُجرم فأخافك، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك»[٥].

ومن الآثار التربوية ما ذُكر عن مطرف بن عبد الله بن الشخير (ت٨٧هـ)، وكان من

---

(١) العمري: عصر الخلافة الراشدة ص١٤٨ .
(٢) البيهقي: السنن الكبرى ٩/ ١٩٥ ح١٨٤٦٣.
(٣) صحابي رأى النبي ﷺ ولم يحدث له. ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٣/ ٣٠٠.
(٤) الطبري: تهذيب الآثار ٤/ ٤١٤ غير موافق.
(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٢٨/ ١٦٥.

كبار التابعين الذين رُبُّوا على يد الصحابة والخلفاء الراشدين؛ فقد أخرج أبو نعيم في الحلية بإسناد جيد عن مطرف قال: كنا نأتي زيد بن صوحان[١]، وكان يقول: يا عباد الله أكرموا وأجملوا؛ فإنما وسيلة العباد إلى الله بخصلتين: الخوف والطمع. فأتيته ذات يوم وقد كتبوا كتابًا فنسَّقوا كلامًا من هذا النحو: إن الله ربنا، ومحمدًا نبينا والقرآن إمامنا، ومن كان معنا كنا وكنا له، ومن خالفنا كانت يدنا عليه وكنا وكنا. قال: فجعل يعرض الكتاب عليهم رجلاً رجلاً، فيقولون: أقررتَ يا فلان؟ حتى انتهوا إليَّ فقالوا: أقررتَ يا غلام؟ قلت: لا. قال: لا تعجلوا على الغلام، ما تقول يا غلام؟ قال: قلتُ: إن الله قد أخذ عليَّ عهدًا في كتابه، فلن أُحدث عهدًا سوى العهد الذي أخذه الله ﷻ عليَّ. قال: فرجع القومُ من عند آخرهم ما أقرَّ به أحد منهم. قال: قلتُ لمطرف: كم كنتم؟ قال: زهاء ثلاثين رجلاً[٢].

فمطرف -رحمه الله- يُثني القوم عن محاولة الخروج عن الشرعية والدولة الإسلامية، وإن كانوا يرونها غير صحيحة، وهذا فيما يبدو في الأحداث التي دارت بين علي ومعاوية ﷺ، **والشاهد في هذا أنه كان غلامًا صغيرًا** استطاع بقوة منطقه أن يُغَيِّر موقف ثلاثين رجلاً، ويُصَحِّح مسار فكرهم؛ ولذلك كان تلميذه التابعي الكبيرة قتادة بن دِعامة السدوسي يقول عنه: كان مطرف إذا كانت الفتنة نهى عنها وهرب[٣].

وأخرج كذلك عنه: أتت الحرورية (فرقة من الخوارج) مطرفًا تدعوه إلى رأيهم فقال: يا هؤلاء لو كانت لي نفسان لبايعتكم بإحداهن وأبقيت الأخرى؛ فإن كان الذي تقولونه حقًّا اتبعتها وإن لم يكن قلت: وبقيت لي نفس واحدة لا أغرر بها[٤].

وأشركت الدولة الصبيان في المهام الأخرى البعيدة عن أجواء المسئولية والجهاد والحروب وغيرها؛ مثل الأعياد؛ فقد كان الأطفال بهجة الأعياد وزينتها منذ النبي ﷺ،

(١) من كبار التابعين من أصحاب علي ﷺ، وقد أثنى عليه جمع من الصحابة منهم علي وعائشة وعمر ومعاوية، ذكره ابن حجر فيمن أدركوا رسول الله ﷺ، ولم يأخذوا عنه. ابن حجر: الإصابة ٢/ ٦٤٨.
(٢) أبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء ٢/ ٢٠٤.
(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٨/ ٣١٤.
(٤) أبو نعيم الأصفهاني: حلية الأولياء ٢/ ١٩٩.

وحتى الآن لا يمكن تخيل بهجة العيد وسروره دون وجود الأطفال، فعن عائشة -رضي الله عنها- أنها كانت تحلي بني أخيها الذهب (أي تلبسهم الحلية والذهب)، وهذا إن كان حفظه الراوي في البنين فيدل على جواز ذلك ما لم يبلغوا، وكان الشافعي -رحمه الله- يقول: ويلبس الصبيان أحسن ما يقدر عليه ذكورًا كانوا أو إناثًا، ويلبسون الحلي والصبغ. يعني: يوم العيد[١].

وقد تعجب عياض الأشعري[٢] حين شهد عيدًا بالأنبار (في العراق) فقال: ما لي لا أراكم تقلسون؟! كانوا في زمان رسول الله ﷺ يفعلونه. قال يوسف بن عدي: التقليس أن تقعد الجواري والصبيان على أفواه الطرق يلعبون بالطبل وغير ذلك. فمن الواضح أنه من السنة في العيدين، يعني: ضرب الدف عند الانصراف[٣].

ومهما يكن في تربية الأطفال والبنات في العصر النبوي فمثل هذا الموضوع يحتاج إلى مؤلَّف خاص به، وليس فصلاً أو بابًا في كتاب، ولكن حسبنا في هذا ما ذكرتُ، خاصة أننا في رحلة في أرجاء تاريخ التربية الإسلامية منذ العصر النبوي وحتى زمن الخلافة العثمانية، والرحلة ليست كالظعن والإقامة، وأنبه على أن هذا الفصل هو تمهيد لحال التربية الإسلامية بعد ذلك، فهو الأساس الفكري والمادي الذي انطلقت منه التجربة الإسلامية في التربية في كافة أرجاء ومناحي الحياة أو بالأحرى الحضارة الإسلامية.

* * *

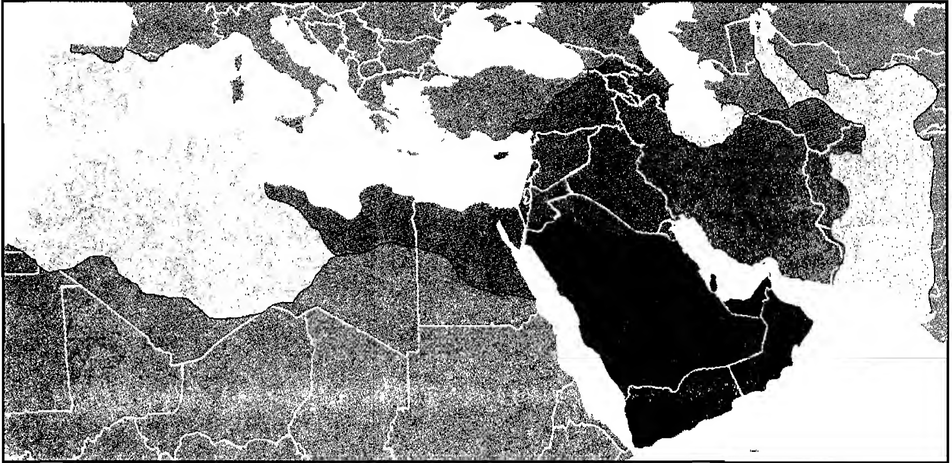
(١) سنن البيهقي الكبرى ٣/ ٣٠٧ ح٦٠٤٠.
(٢) من التابعين روى عن عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح وأبي موسى الأشعري ﷺ. البخاري: التاريخ الكبير ٧/ ١٩، ٢٠.
(٣) سنن البيهقي الكبرى ١٠/ ٢١٨ ح٢٠٧٦٧.

الفصل الثاني

جمال التربية
في الخلافة الأموية

بدأت الخلافة الأموية منذ عام ٤١ للهجرة بتنازل الحسن بن علي ﷺ عن الخلافة لمعاوية ﷺ حقنًا لدماء المسلمين، وظلت هذه الخلافة حتى سقوطها عام ١٣٢هـ، أي ٩١ عامًا من الحكم الأموي، تعمل جاهدة على لمِّ الشمل، ونشر الدعوة، وإقامة صروح الحضارة الإسلامية، ودخل في هذه الأعوام آلاف البشر في الإسلام، من وسط فرنسا غربًا حتى كشغر في الصين شرقًا، ومن أرمينيا وأذربيجان شمالاً إلى النوبة جنوبًا، وكان مع اتساع هذه الرقعة، وتنوُّع هذه الأجناس البشرية الكبرى، أن سعت الدولة والمجتمع لتعميق مفهوم التربية الإسلامية، أي تربية الصغير والكبير على احترام الشريعة الإسلامية كمصدر أوحد للانطلاق في آفاق الحياة بكافة تقسيماتها، حتى كان خلع بعض أمراء بني أمية يحدث نتيجة سوء تربيتهم، وأفعالهم القميئة السيئة، كما حدث مع الوليد بن يزيد بن عبد الملك (ت١٢٦هـ).

صحيح أن الخلافة الأموية كانت لا تزال تحمل الطابع البدوي، خاصة في المظاهر العامة، ولم تتعمق في مدارج الحضارة، وأبهة السلطان، ويستطيع القارئ أن يرجع لمساكن الخلفاء، ومظاهر الخلافة وقتئذٍ عند الطبري في تاريخه، واليعقوبي والبلاذري وخليفة بن خياط وغيرهم.. لكنه -أيضًا- سيجد أن مظاهر التربية الإسلامية كانت آخذة في التطور من ناحية الشكل والمضمون، ومن ناحية الاستمساك والاستعصام بما سنه النبي ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده.



(صورة رقم ١ الخلافة الأموية في أقصى اتساعها).

المؤدبون والخلفاء

من اللطيف والظريف أن بدأت بين جنبات هذه الدولة تظهر مجموعة من الوظائف في التربية والتعليم؛ منها وظيفة «المؤدب»، الذي كان يُعنى في الأساس بالجانب التربوي إلى جانب التعليم والتثقيف، وكثيرًا ما وجدنا هؤلاء المؤدبين في بيوت وقصور الخلفاء الأمويين؛ وكانوا يُنتقون بعناية كبيرة وشديدة؛ حتى إن بعض الخلفاء كانوا يمتحنونهم بأنفسهم، مثلما فعل معاوية ﷺ مع مؤدب ولده يزيد واسمه دغفل السدوسي؛ فقد «أرسل معاوية ﷺ إلى دغفل فسأله عن العربية، وعن أنساب الناس، وسأله عن النجوم فإذا هو عالم، فقال: يا دغفل من أين حفظت هذا؟ فقال: حفظت هذا بلسان سؤول وقلب عقول، وإن آفة العلم النسيان. قال: فاذهب بيزيد فعلمه العربية وأنساب قريش والنجوم»[(١)]. وجعل معاوية ابنه يحضر في مجالسه ويستفيد من سياسته وتدبيره للملك، واستفاد يزيد من عبيد بن شرية الجهرمي، الذي استقدمه معاوية من صنعاء اليمن، وكان عالمًا بأيام العرب، وأحاديثها وله كتاب الأمثال، وكتاب الملوك وأخبار الماضين، وقد تأثَّر يزيد من هذا الشيخ الحكيم الذي حنكته التجارب والسنون، وقد توفي عبيد بن شرية سنة ٧٠هـ، وأصبح يزيد يتحدث عن الأنساب تحدث الخبير، حتى إن الذهبي قال في ترجمة عبد الصمد بن علي الهاشمي: وكان في تعدُّد النسب نظير يزيد الخليفة. دلالة على خبرة ومعرفة يزيد بأنساب العرب[(٢)].

وقد كان معاوية ﷺ (ت٦٠هـ) دائم الاتصال بمؤدبي ولده، كي يتعرف على ما أحرزه ابنه من تقدم، كما كان يسأل ابنه عن أحواله مع المؤدبين، فتُشير إحدى الروايات إلى أن معاوية سأله في أحد الأيام قائلاً: أيضربك معلمك يا يزيد؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. قال: ولِمَ؟ قال: لأنه استن بسنة أمير المؤمنين بالعدل. وعلاوة على ذلك فإننا نجد روايات أخرى تُشير إلى أن بعض المناظرات الثقافية كانت تقع بين معاوية وولده، على الرغم من صغر سنه؛ مما يدلُّ على مدى اهتمام أبيه به، فيروي ابن ظفر الصِّقلّي أن معاوية بن أبي سفيان قال لابنه يزيد، وقد أتت عليه سبع سنين: يا بني في أي سورة أنت؟

(١) الطبراني: المعجم الكبير ٤/ ٢٢٦ ح٤٢٠٢.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٩/ ١٣٠.

فقال: في السورة التي تلي يا أمير المؤمنين. فقال: يا بني إن هذه السورة تليها سورتان وهي بينهما، ففي أيهما أنت؟ قال: في السورة التي في أولها: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢][(١)].

ومن الرائع أن نجد أثر التربية الإيمانية في معاوية الثاني بن يزيد بن معاوية (ت٦٤هـ)، الذي تنازل عن الخلافة طائعًا خوفًا من عواقبها وخطورتها؛ فبعد وفاة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان سنة ٦٤هـ قرَّر ابنه معاوية ذو العشرين عامًا التنازل، وبالفعل قام على المنبر وألقى خطبة رائعة جاء فيها: «ما كنتُ لأتحمل آثامكم، ولا يراني الله -جلَّت قدرته- متقلدًا أوزاركم، وألقاه بتبعاتكم، فشأنكم وأمركم، فخذوه، ومَنْ رضيتم به عليكم فولُّوه، فلقد خلعتُ بيعتي من أعناقكم، والسلام». وقد كان من جملة الأسباب الرئيسة التي دفعته إلى التنحي مؤدبه «القصوص»، الذي عَلَّمه الحقَّ من الباطل، وخطرَ الخلافة على آخرته؛ حتى إن بني أمية قالوا لمعلمه: أنت عَلَّمته هذا، ولَقَّنته إيَّاه، وصددته عن الخلافة..[(٢)].

وثمة نصيحة نُقلت عن الأمير الأموي عتبة بن أبي سفيان أخي معاوية بن أبي سفيان لمؤدب أولاده تناقلتها المصادر التاريخية، وأشارت إليها بكثرة لعظمتها وفائدتها الكبيرة، جاء فيها: «أوصى عتبة بن أبي سفيان مؤدب ولده (يدعى عبد الصمد) فقال: ليكن أول إصلاحك بنيَّ إصلاحك لنفسك، فإن عيوبهم معقودةٌ بعيبك، فالحَسَن عندهم ما فعلتَ، والقبيح ما تركتَ؛ وعلِّمهم كتاب الله ولا تملهم فيتركوا، ولا تدعهم منه فيهجروا، ورَوِّهم من الحديث أشرفه، ومن الشعر أعفَّه؛ ولا تُخْرجهم من علم إلى علم حتى يُحكموه؛ فإنَّ ازدحام الكلام في السمع مضلَّة للفهم؛ وهَدِّدهم بي وأدِّبهم دوني؛ وكن بهم كالطبيب الرفيق الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء، وامنعهم من محادثة النساء، واشغلهم بسير الحكماء، واستزدني بآدابهم أزدك، ولا تَتَّكِلَنَّ على عذر مني، فقد اتكلت

(١) الصلابي: الدولة الأموية ١/ ٤٧٢، ٤٧٣.
(٢) العصامي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ٢/ ٩٧.

على كفاية منك»[1]. وهذه الوصية التربوية تبين إلى أي مدًى وصلت ثقافة وفقه الأسرة الحاكمة وقتئذٍ.

وفي الحقبة المروانية التي تبدأ من عام ٦٥هـ حتى نهاية الخلافة الأموية عام ١٣٢هـ، والتي بدأها مروان بن الحكم، ومن بعده ابنه عبد الملك وأولاده، اهتمَّت هذه الأسرة الحاكمة بتربية أبنائها اهتمامًا كبيرًا زائدًا؛ حرصًا منها على المثل الذي يجب أن يكون عليه أمير المؤمنين في الأخلاق والعلم وتدبير شئون الحكم، وثمة وصية ونصيحة رائعة قالها عبد الملك بن مروان (ت٨٦هـ) لمؤدب أولاده، جاء فيها: «عَلِّمهم الصدق كما تُعَلِّمهم القرآن، وجنبهم السِّفلة فإنهم أسوأ الناس دعة، وأقلُّهم أدبًا، وجنِّبهم الحَشَم فإنهم لهم مفسدة، وأطعمهم اللحم يقووا، وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا، ومرهم أن يستاكوا عرضًا، ويمصوا الماء مصًّا، ولا يعبوا عبًّا، وإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في سرٍّ لا يعلم به أحد من الغاشية فيهونوا عليهم»[2].

وهذه الوصية تبين إلى أي مدى وصلت وظيفة المؤدب من حيث الشمولية؛ حتى إنه كان مسئولاً عن أدق تفاصيل حياة هؤلاء الأمراء في المأكل والمشرب والسواك، وحتى اللعب والضحك، كل ذلك بغرض إخراج حاكم صالح قادر على إمامة الأمة، وتحقيق غايتها.

وهناك نصيحة أخرى لعبد الملك بن مروان -رحمه الله- نقلها العلامة ابن عساكر في تاريخه، جاء فيها: «قال رومان مؤدب ولد عبد الملك: كتب إليَّ عبد الملك بكلمات يأمرني أن آخذ بهن ولده، فقال: مرهم بإحراز ما أقبل إدباره، والتعزي عن المدبر بعد تعذيره، وكتمان ما في الأنفس دون الخلصان، ومؤازرة الثقة من الإخوان، وتوقع انتقاض الإخوان، وقلة التعجب من غدر الخلان»[3].

وهناك وصية هشام بن عبد الملك لمؤدب ولده، ونتبين فيها تقدمًا ملحوظًا في نوع

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٨/ ٢٧١.
(٢) الدينوري: المجالسة وجواهر العلم ص٣٨٠.
(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق ١٨/ ٢٥٥.

وطريقة التربية من حيث الاحتكاك بالرعية سواء في تعلم لغة العرب، أو السماع لمشكلاتهم وطرائق حلِّها، وقد ذكرها الراغب الأصفهاني بقوله: «أوصى هشام بن عبد الملك سليمانَ الكلبي لَمَّا اتخذه مؤدبًا: إن ابني هذا هو جلدة ما بين عيني[(١)] وقد وَلَّيْتُك تأديبه، فعليك بتقوى الله وأداء الأمانة فيه بخلال (صفات): أوَّلها: أنك مؤتمن عليه، والثانية: أنا إمام ترجوني وتخافني، والثالثة: كلما ارتقى الغلام في الأمور درجة ارتقيتَ معه، وفي هذه الخلال ما يُرَغِّبك في ما أوصيك به، إن أول ما آمرك به أن تأخذه بكتاب الله وتُقرئه في كل يوم عشرًا يحفظه حفظ رجل يُريد التكسُّب به، ثم روِّه من الشعر أحسنه، ثم تخلَّل به في أحياء العرب فخذ من صالح شعرهم هجاءً ومديحًا، وبصِّره طرفًا من الحلال والحرام، والخطب والمغازي، ثم أجلسه كل يوم للناس ليتذكر»[(٢)].

وكان معيار قدرة ومكانة المؤدِّب يُقاس بمدى ما أحرزه واقعيًّا على الأطفال والصبيان، وكان بعض ولاة بني أمية يزجرون مؤدبي أولادهم؛ نتيجة للواقع الباهر الذي كانوا يرونه في الأطفال والصبيان الآخرين، وما كانوا يزجرون هؤلاء المؤدبين إلاَّ لكونهم يُريدون أولادهم في المرقاة العليا في الأدب والفصاحة، وقد حكى لنا العلامة اللغوي الأصمعي قصة تبين أهمية المؤدبين في العصر الأموي، قال الأصمعي: «مثُل فتى بين يدي الحجاج (بن يوسف) فقال: أصلح الله الأمير، مات أبي وأنا حمل، وماتت أمي وأنا رضيع، فكفّلني الغرباء حتى ترعرعت، فوثب بعض أهلي على مالي واجتاحه، وهو هارب مني ومن عدل الأمير. فقال الحجاج: الله، مات أبوك وأنت حمل، وماتت أمك وأنت رضيع، وكفلك الغرباء، فلم يمنعك ذلك من أن فصح لسانك وأنبأت عن إرادتك. اطردوا المؤدبين عن أولادي»[(٣)].

وكان المؤدب إذا غالى في تعظيم وتوقير أبناء الخلفاء عنفه وأدَّبه الخليفة بالكلام والخطاب، فقد رُوي أن عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- قد بعث «بنين له إلى الطائف ليقرءوا القرآن، فتعلم عبد العزيز وكان أكبرهم، فلما حضر رمضان قدَّموه فيمَنْ يؤُمُّهم ثم كتب إلى عمر يبشر بذلك، فكتب إلى صاحبه يلومه ويقول: «قَدَّمت مَنْ لم يحتنكه[(٤)]

(١) يقصد بذلك قربه من نفسه وحبه الشديد له.
(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٢٢/ ٣٣١.
(٣) السابق ١٢/ ١٦٦.
(٤) حنكت السن الرجل إذا أحكمته والتجارب أحنكته.

السنُّ، ولم تدخله تلك النية إمام المسلمين في صلاتهم»[١].

كل هذا دلالة على أهمية وظيفة المؤدب في هذا العصر، وما كان خليفة أو أمير أو والٍ أو حتى غني من أغنياء المسلمين ليرضى بأقل من مؤدب حاذق لتربية وتعليم أولاده؛ حتى إن المتتبِّع لهؤلاء المؤدبين ونشاطهم الملحوظ في المجتمع الإسلامي آنئذٍ ليجد أن لهم الأثر الكبير والعظيم في أدب وأخلاق المسلمين وأبنائهم؛ ومن ثَمَّ ارتفاع الذوق العام، والفطرة النقية، والعقلية الواعية للمجتمع كله.

مؤدبون في وظائف عليا!

لأجل هذا، وجدنا أن بعض هؤلاء المؤدبين الذين أظهروا براعة وقدرة في وظيفتهم التأديبية قد نالوا رضا الأمراء والخلفاء، وما كانوا ليرضوا لهم أن يظلوا على هذا المستوى الوظيفي؛ لذلك ألحقوهم في الوظائف العليا في الدولة؛ حتى إن بعض هؤلاء المؤدبين وصل إلى درجة مستشار الخليفة شخصيًّا.

فالحجاج بن يوسف الثقفي كان معلِّمًا ومؤدِّبًا أوصلته شهرته ليكون واليًا على العراق والشرق الإسلامي كله، بل والحجاز -أيضًا- قال العصامي: «أول أمر الحجاج أنه كان معلمًا للصبيان، وكان يسمى كليبًا، وفيه يقول الشاعر:

أَيَنْسَى كُلَيْبٌ زَمَانَ الهُزَالِ ... وَتَعْلِيمَهُ سُورَةَ الكَوثَرِ

رَغِيفٌ لَهُ فَلَكٌ مَا يُرَى ... وَآخَرُ كَالقَمَرِ الأَزْهَرِ

يُشير إلى أن خبز المعلمين يختلف في الصغر والكبر بحسب اختلاف بيوت الصبيان»[٢]، والأبيات تُدلل على مدى الفاقة والفقر الذي كان يُعاني منه المؤدبون وقتئذٍ.

وهناك من أمثال الحجاج بن يوسف من المؤدبين مَنْ تَرَقَّى ليصل لبعض وظائف الدولة العليا؛ مثل القضاء: منهم «الوليد بن أبي مالك الهمداني، كان قاضي عمر بن عبد العزيز على نواحي دمشق»، وكان قبل ذلك صاحب مكتب في الكوفة لتأديب وتعليم

(١) محمد بن نصر الروزي: مختصر قيام الليل وقيام رمضان وقيام الوتر ص٢٤٢.
(٢) العصامي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي ٢/ ١٣٩.

الأطفال[١]. وكانت شهرة ابن أبي مالك الهمداني كمؤدب قد جعلته ينتقل من مدينة لأخرى نتيجة طلب الناس له، قال عنه ابن عساكر: «سنة خمس وعشرين ومائة فيها مات الوليد بن أبي مالك الهمداني وهو من أهل الشام وكان مكتبه بالكوفة»[٢].

نعم لقد كان اختيار مؤدبي أولاد الخلفاء بناءً على علمهم وجهادهم وتقواهم؛ ومن ثَمَّ براعتهم في أداء المهمة الموكلة إليهم، ثم تأتي مرحلة الترقية إلى الوظائف العليا، هذا التوصيف نجده عند العالم الجليل إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، فقد «كان مؤدبًا لولد عبد الملك بن مروان، ورأى عمر بن عبد العزيز قدرته وحكمته وعلمه وثقته فعينه واليًا على إفريقية (تونس)»[٣].

ومنهم مَنْ وصل إلى رتبة الوزارة والكتابة، وكانت هذه المهمة من أعلى المناصب في الدولة؛ حتى إنها كانت تلي الخليفة مباشرة، وأشهر هؤلاء عبد الحميد الكاتب، الكاتب الشهير الذي ذاعت طرائق كتابته وإنشائه، وكان مدرسة وحده، تَعَلَّم المنشئون والكتاب منه ومن بلاغته، هذا الرجل كان أحد وزراء مروان بن محمد (ت١٣٢هـ) آخر خلفاء بني أمية؛ فقد كان عبد الحميد بن يحيى بن سعد الشهير بعبد الحميد الكاتب قد اشتهر وذاع صيته كمعلم للصبيان ومؤدب لهم، قبل أن يرتقي في وظيفة الكتابة والترسل في عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية[٤].

الأطفال في عيون المجتمع الأموي:

لم ينسَ الأمويون أنهم ولاة أمر مسئولون عما تحت أيديهم وتصرُّفهم في إدارة البلاد والعباد، والحقُّ أن هذه الدولة لم تكن ساقطة من الفضاء، أو خارجة من الأرض كأنها شيء شاذّ في تاريخ الخلافة الإسلامية، لقد كان الأمويون قريبي عهد بعصر الخلفاء الراشدين والعصر النبوي، وكان عشرات من الصحابة وأبنائهم وكبار التابعين معاصرين لهذه الدولة الفتية، ولم يكن هؤلاء ليروا منكرًا أو باطلاً يفعله الأمويون ويسكتون عليه،

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٦٣/ ١٥٥.
(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٦٣/ ١٥٨.
(٣) ابن أبي حاتم الرازي: الجرح والتعديل ٢/ ١٨٢.
(٤) ابن الدمياطي: المستفاد من ذيل بغداد ١/ ١١٥.

أو يخافون من قوله، كيف هذا وقد كانوا يقولون لعمر الفاروق ﷺ إذا أخطأ في تشريع أو اجتهاد بأنه مخطئ، ويُبيِّنون له خطأه، وهذا عمر ﷺ ثاني الخلفاء الراشدين، وأقوى الناس في الحقِّ والعدل، فكيف بمعاوية وبنيه، ومروان بن الحكم وبنيه؟!

أقول ذلك لما يلمسه القارئ في كتابات بعض المستشرقين أو الشيعة ومَنْ نهج منهجهم من الذين ينالون ويحطُّون من قدر الدولة الأموية، وثمة كتاب رائع لأستاذنا الدكتور حمدي شاهين أسماه «الدولة الأموية المفترى عليها»، أظهر فيه كَمَّ الأغاليط والأباطيل والكذب الذي شوّه تاريخ هذه الدولة، وهناك كتاب جيد آخر للدكتور علي الصلابي سار فيه مسار الدكتور حمدي شاهين، وهو «الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار»؛ دافع فيه الصلابي كثيرًا وبأسلوب جيد عن الدولة الأموية، وأظهر - أيضًا- أسباب سقوط الأمويين وانهيار دولتهم.

ومهما يكن، فإن الأطفال وأولاد المسلمين كانوا جزءًا لا يتجزأ من مفهوم «الرعية»، الذي كان مصطلحًا يحمل دلالات المسئولية والتبعة الكبيرة على أكتاف هؤلاء الخلفاء، فقد حرص الأمويون على نشر مكاتب العلم والتأديب في كافَّة البلدان والمدن، وكانت علاقة الخلفاء بأطفال المسلمين يملؤها الحنو والرفق والرحمة.

لقد رأى معاوية ﷺ الأطفالَ جزءًا لا يتجزأ من أهل الإسلام، وهذا المعنى كبير، لا ينطوي على عصبية أو قومية أو قبلية، كما كانت متواجدة ومشاهدة في عصره، وتجلَّت رأفته بهم فيما يرويه ابن عساكر بقوله: «قال أبو المعطل مولى بني كلاب وقد أدرك معاوية قال: مرَّ بنا معاوية ونحن في المكتب (مدرسة الأطفال) يعود درة[1] في نحو من عشرة (رجال)، فقال لنا المعلم: ما سلَّمتم على أمير المؤمنين؟! إذا رجع فسلِّموا عليه، فلما رجع قمنا إليه، فقلنا: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. قال: اللهم بارك في ذراري (نسل وذرية) أهل الإسلام، اللهم بارك في ذراري أهل الإسلام»[2].

وبلغ اهتمام الدولة أعلى مراحله في زمن الوليد بن عبد الملك بن مروان -رحمه الله-

(١) لعله أراد درة أخت معاوية بن أبي سفيان.
(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٦٧/ ٢٤٧.

(ت٩٦هـ)؛ فقد كان الوليد بن عبد الملك الذي فُتحت كلٌّ من الهند والأندلس في أيامه لا يغفل عن الاهتمام بالأطفال، فقد كان يختن الأيتام ويُرَتِّب لهم المؤدبين[1]!

وهذا مدهش حقًّا، أن يبلغ اهتمام الخليفة بالأطفال لدرجة تجعله يُقيم حملة عامة لختان الأطفال، ثم يُرتِّب أي يُعيِّن ويُوظِّف ويُعطي الأجرة لِمَنْ يُؤدِّب الأطفال ويُعُلِّمهم.

وعلى الجانب الآخر فقد اهتمت الرعية في ظلِّ الخلافة الأموية بالأطفال، وحرصت على رعايتهم وتربيتهم والاختلاط بهم وبعالمهم، ولم يكن اهتمام هؤلاء الناس بأطفال المسلمين بل شمل غير المسلمين خاصة من أولاد المحاربين؛ فعن يزيد بن هرمز: قال سمعت ابن عباس وأتاه كتاب نجدة كُتب إليه يسأله عن أشياء، ومنها قتل أولاد المشركين (المحاربين)، وهل كان النبي ﷺ يقتلهم؟ فكان مما أجاب:... وأما الصبيان فإن رسول الله ﷺ لم يكن يقتل أولاد المشركين، وأنت فلا تقتلهم[2].

بل وجدنا بعض كبار التابعين مَنْ ينخرط في اللعب مع الأطفال الصغار، ويعيش في عالمهم البريء؛ فعن ثابت البناني، قال: «أتينا مطرف بن عبد الله[3] (ت ٨٧هـ) في باديته، فإذا هو يلعب مع صبيان له، فلما رآنا قام إلينا ليستقبلنا، فلم يزل يحضر حتى جرَّ إزاره. قال: فما ترك منا أحدًا إلاَّ قبَّله، ثم قال: بأبي أنتم، إذا كنتُ وحدي فإنما أنا صبي، فإذا رأيتموني ذكرتموني الآخرة»[4].

التربية على طلب العلم

العلم منذ العصر النبوي دِعامة قوية من دعائم التربية الإسلامية، فهو الوعاء الثقافي والفكري الذي يُشَكِّل الشخصية المسلمة، به يعرف المسلم دينه وشريعته ودنياه، ثم غايته وآخرته ومنتهاه؛ ولذلك كان العلم في المجتمع الأموي أصلاً من أصول الحياة، بل يكاد يكون عادة من العادات والتقاليد المشتركة بين كل المسلمين.

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص١٩٧.
(٢) الطبراني: المعجم الكبير ١٠/ ٣٣٥ ح١٠٨٥٢.
(٣) من كبار التابعين.
(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٨/ ٣٢٠.

وثمة أشكال متنوِّعة لأثر العلم على المجتمع والشباب قد يصعب بنا حصرها في هذا المقام الضيق، لكن ذلك لا يُثنينا عن الإتيان ببعض هذه النماذج الباهرة، التي تُؤَكِّد لنا أن العلاقة بين العلم والتربية متوازية طردية؛ سواء على مستوى الأفراد أم على مستوى الأمم والجماعات.

تقول المستشرقة الألمانية الشهيرة زيجريد هونكه في كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب»: «ما أن انقضى قرن واحد من الزمان على الفتوحات الإسلامية حتى ازدهرت حضارة العرب، وآتت أكلها مكتملة ناضجة... كانت الاحتكاكات بين الآراء المختلفة قد منحت الحركة الفكرية حيوية دائمة، وحمت الإسلام من الجمود، وأجبرته على أن يُسلِّح نفسه علميًّا، وأن يتطوَّر بالقوى العقلية وينهض بها من سباتها، وساعده على ذلك المطالب العديدة المنبثقة من شعائر الدين، أو من الحياة اليومية للشعوب.. ففي كل حقل من حقول الحياة صار الشعار للجميع: تعلَّم وزد معارفك قدر إمكانك وأينما استطعت. وبأقدام ثابتة ونفوس هادئة مطمئنة، تعرف حقَّها، وتُؤَدِّي واجبها، أقبل العرب على ما وجدوا من معارف، فاغترفوا منها قدر جهدهم، وما رأوا فيه نفعًا لهم»(١).

كان شعار المسلمين كما تقول هونكه: تعلَّم وزد معارفك قدر إمكانك وأينما استطعت. وصدقتْ في ذلك بلا ريب؛ فالعلم لم يكن له مكان محدَّد، ومنذ الخلافة الأموية وجدنا التقاليد العلمية، والنظام التربوي المنبثق من طلب العلم ورحلاته في ازدياد وتقدُّم.

فآداب طلب العلم كانت هي أساس الطلب نفسه، ولا يمكن لأي طالب أن ينال العلوم والمعارف التي يبتغيها دون تخلُّقه بهذه الآداب؛ فهذا عالم الحديث الكبير محمد بن شهاب الزهري (ت١٢٤هـ) يقول: كنتُ آتي باب عروة (ابن الزبير) فأجلس بالباب، ولو شئتُ أن أدخل لدخلت ولكن إجلالاً له(٢).

وقد كانت مؤسسة الخلافة تتدخَّل في بعض الأوقات لتحديد النظام الأخلاقي

(١) زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٧٣.
(٢) سنن الدارمي ١/ ١٥٠ ح٥٦٩.

والتربوي المترتِّب على طلب العلم؛ فمثلاً «كتب عمر بن عبد العزيز ينهى المعلِّمين أن يحملوا الصبيان على الدواب إذا حذقوا»[١]؛ لتربيتهم على الآداب والأخلاق والتواضع.

وظهرت حِكَم ومقولات العلماء فيما يجب أن يتحلَّى به طلاب العلم والعلماء على السواء، وهذه الحكم كانت بمثابة القوانين واللوائح التي تُنَظِّم مسار التربية والتعليم وقتئذٍ، وكان طلاب العلم ينقلونها ويتدارسونها، ويجعلونها في حوافظهم وعقولهم ومدوناتهم، فعلى سبيل المثال كان التابعي الجليل مكحول الأزدي (ت١١٢هـ) يقول: «مَنْ طلب العلم ليماري به السفهاء وليباهي به العلماء أو ليصرف به وجوه الناس إليه فهو في نار جهنم»[٢].

وعلاقة المعلم بصبيان المكتب حدَّدها -أيضًا- كبار التابعين، وتناولوها في أحاديثهم وحلقاتهم، وأخذها عنهم تلاميذهم الذين أصبحوا فيما بعد رؤساء حلقات وعلماء أجلاء، فقد رُوي عن مجاهد بن جبر (ت١٠٤هـ) التابعي الكبير وتلميذ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: معلم الصبيان إذ لم يعدل بينهم جاء يوم القيامة مع الظَّلَمة[٣]. وعلى نهجه قال التابعي الكبير مكحول الأزدي (ت١١٢هـ): «إذا رأيت المعلم لا يعدل بين الصبيان كُتب من الظلمة»[٤]. ومن ثَمَّ حرص المعلمون والمؤدبون على تطبيق هذه الأقوال المأثورة عن أولئك العلماء الأجلاء، وظهرت جليًّا في ثقافة ووعي الطلاب المتخرجين في هذه المكاتب والحلقات.

وكان الرجل إذا رأى ابنه ارتكب خطأ، أو تهاون في أداء فريضة تحدَّث على الفور مع مؤدِّب ولده؛ يُخبره بما اقترفه من جُرم، ويُبَلِّغه آثار تربيته في ذلك الولد بالإيجاب كان أم بالسلب، ومن أجمل ما ذُكر في هذا الأمر، ما أخبرنا به ابن رشيق القيرواني في كتابه «العمدة في محاسن الشعر وآدابه» عن القاضي الكبير شريح بن الحارث (ت٧٨هـ)، قال: «كتب (أي شُريح) إلى مؤدب ولده وقد وجده وقت الصلاة يلعب بجرو كلب، وأودع

(١) معجم ابن المقرئ ح٤٨٥.
(٢) سنن الدارمي ١/ ١١٦ ح٣٧٣.
(٣) ابن حبان: الثقات ٩/ ١٧٣.
(٤) عبد الله بن عدي الجرجاني: الكامل في ضعفاء الرجال ٣/ ١٣٩.



الأبيات رُقعةً[(١)] وأنفذها مع ولده مختومةً إلى المؤدِّب:

تَرَكَ الصَّلاةَ لأَكْلُبٍ يَسْعَى بِهَا ... طَلَبَ الْهِرَاشِ[(٢)] مَعَ الْغُوَاةِ الرُّجَّسِ

فَلَيَأْتِيَنَّكَ غُدْوَةً بِصَحِيفَةٍ ... كُتِبَتْ لَهُ كَصَحِيفَةِ الْمُتَلَمِّسِ[(٣)]

فَإِذَا هَمَمْتَ بِضَرْبِهِ فَبِدِرَّةٍ[(٤)] ... وَإِذَا بَلَغْتَ بِهِ ثَلاثًا فَاحْبِسِ

وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا أَتَيْتَ فَنَفْسُهُ ... مَعَ مَا يُجَرِّعُنِي أَعَزُّ الأَنْفُسِ[(٥)]

وكان بعض هؤلاء المؤدبين والمعلمين يأخذون الأجرة، وكان بعض الولاة والعلماء يستنكف، بل ويتعجَّب ممن يأخذون أموالاً نظير العلم، ويعدُّون ذلك من خوارم مروءة المؤدب؛ فقد ذُكر عن الضحاك بن قيس[(٦)] (ت٦٤هـ) أنه كان على دمشق (واليًا)، فجاءه المؤذن (أبو الجنوب)[(٧)] فسلَّم عليه، وقال له المؤذن: إني لأحبك لله ﷻ. فقال له الضحاك: ولكني أُبغضك لله. قال: ولِمَ تبغضني أصلحك الله؟! فقال: لأنك تتزاهى بتأذينك، وتأخذ أجرًا على تعليمك. وكان معلم كُتَّاب»[(٨)].

وعلى الجانب الآخر وُجد من العلماء والقراء مَنْ تعفَّف واستغرب ممن يأخذون مالاً لقاء قراءتهم وعلومهم؛ مثل: التابعي الجليل عبد الرحمن بن معقل الكوفي، فقد قسَّم مصعب بن الزبير مالاً في قرَّاء أهل الكوفة حين دخل شهر رمضان، فبعث إلى عبد الرحمن بن مَعْقِل بألفي درهم، فقال له: استعن بها في شهرك هذا. فردَّها عبد الرحمن بن معقل وقال: لم نقرأ القرآن لهذا[(٩)]!

---

(١) قُصاصة صغيرة يُكتب فيها.
(٢) الهراش: تقاتل الكلاب وتحريش بعضها على بعض.
(٣) صحيفة المتلمس: يضرب مثلاً للشيء يغرُّ، ولكل مَنْ قرأ صحيفة فيها أذاه، والمتلمس شاعر أرسله ملك بصحيفة فيها أمر بقتله. أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال ص١٣٦.
(٤) الدرة: ما يُؤَدَّب بها الأطفال من الجريد ونحوه.
(٥) ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ١/ ٣٩.
(٦) الضحاك بن قيس الفهري من صغار الصحابة، قُتل في موقعة مرج راهط بين قوات عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم عام ٦٤هـ. ابن حجر: الإصابة ٣/ ٤٧٩.
(٧) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٦٦/ ١٢٣.
(٨) السابق ٢٤/ ٢٩٠.
(٩) سنن الدارمي ١/ ١٥١ ح٥٧٤.

أما النظام التعليمي والتربوي في المكاتب وحلقات العلماء، فكانت متنوِّعة تختلف حسب المنهج الذي يضعه العالم ورئيس الحلقة، لكنها كلها كانت تتَّفق على كون طالب العلم قد حفظ القرآن الكريم وقرأه، وإذا ما كان الشيخ يجد أن التلميذ يُريد أن ينال مرحلة تعليمية تلحق حفظ القرآن الكريم، ولم يجد هذا الطالب على علم به أرجعه لمرحلة حفظ القرآن وتعلُّمه؛ فقد حكى الوليد بن مسلم وكان من الأخباريين والرواة، قال: «كنا إذا جالسنا الأوزاعي (ت١٥٧هـ) فرأى فينا حدثًا، قال: يا غلام، قرأت القرآن؟ فإن قال: نعم. قال: اقرأ: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، وإن قال: لا. قال: اذهب، تعلَّم القرآن قبل أن تطلب العلم»[١]. فمعيار الإمام الأوزاعي أن يكون طالب العلم حافظًا لأغلب القرآن الكريم؛ إذ إن هذه الآية السابقة وهي في سورة النساء تدلل على ذلك.

وبدأت المكاتب المتخصصة في الظهور، ونقصد المكاتب التي تهتم بدراسة فرع من فروع العلوم المختلفة، فقد كان علقمة بن أبي علقمة مولى عائشة -رضي الله عنها- له مكتب متخصِّص يُعَلِّم فيه العربية والنحو[٢].

ومن اللافت أن وُجدت في هذا العصر بعض المكاتب الكبيرة جدًّا، التي كانت تحوي آلافًا من طلاب العلم، وكان شيخهم يمرُّ عليهم بحماره لكثرتهم! مثل مكتب الضحاك بن مزاحم الهلالي التابعي (ت١٠٠هـ)، «قال مالك بن سعيد البلخي أحد تلامذته: كنا عند الضحاك ثلاثة آلاف غلام، وكان له حمار فإذا أعيى ركبه ودار في الكُتَّاب»[٣].

وثمة مناقشات لطيفة كانت تدور بين طلاب العلم وشيوخهم في هذه المكاتب، هذه المناقشات تُنبئنا كيف كان حال التربية والتعليم في هذه العصور، التي يصفها البعض بالضبابية أو مرحلة السذاجة والبداءة في طريق التربية الإسلامية، «قال إياس بن معاوية[٤]: كنتُ في مكتب بالشام، وكنت صبيًّا، فاجتمع النصارى يضحكون من

---

(١) الخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ٨٧ ح٨١.

(٢) ابن قتيبة الدينوري: المعارف ص٥٤٩.

(٣) المزي: تهذيب الكمال ١٣/ ٢٩٥.

(٤) إياس بن معاوية بن قرة المزني، أبو واثلة: قاضي البصرة، وأحد أعاجيب الدهر في الفطنة والذكاء، يُضرب المثل بذكائه، توفي عام ١٢٢هـ. الزركلي: الأعلام ٢/ ٣٣.

المسلمين، وقالوا: إنهم يزعمون أنه لا يكون تفل (أي خروج من البدن وريح) للطعام في الجنة. قال: قلت: يا معلم أليس يزعم الناس أن أكثر الطعام يذهب في البدن؟ فقال: بلى. فقال: قلتُ: فما تُنْكر أن يكون الباقي يذهبه الله في البدن كله؟ فقال: أنت شيطان»[١].

وقول المعلم أنت شيطان، دلالة على ذكاء الصبي وفطنته وقدرته على الردِّ على أولئك النصارى، وهذا الحادث يبين لنا كيف كان وضع النصارى بين المسلمين من القدرة على حرية التعبير والقول في تلك المرحلة المبكرة من مراحل الدولة الإسلامية، التي كانت قريبة عهد بزمن النبوة والخلافة الراشدة.

وقد كان للمسلمين وفاعلي الخير من أبناء المجتمع دور في تفعيل حركة التربية والتثقيف والتعليم بين الأطفال، وكانت ظاهرةُ تَطَوُّع كبار التابعين والمحدِّثين للقيام بتعليم أطفال المسلمين، منتشرةً ومتواجدة في أركان المجتمع الإسلامي؛ فقد كان زبيد اليامي -وهو من كبار الحفاظ الأعلام (ت١٢٢هـ)- يستتبع الصبيان إلى المسجد، وفي كمه الجوز[٢]، ويقول: مَنْ يتبعني منكم أعطيته خمس جوزات. فإذا دخلوا المسجد قال: ارفعوا أيديكم وقولوا: اللهم اغفر لزبيد. فيفعلون فيقول: اللهم انعل[٣] واستجب لهم، فإنهم لم يُذنبوا[٤].

ويبدو أن الجوز كان محبَّبًا للأطفال، وكانوا يُغرون به للذهاب إلى المساجد والمكاتب وحلقات العلم؛ فقد قال سهيل بن أبي حزم[٥]: انطلقت إلى مالك بن دينار (ت١٣١هـ)، فلما صرت على باب المسجد قبل أن تقع عيني في المسجد سمعت جلبة، فإذا امرأة في المسجد تهب جوزًا، وإذا الصبيان يأخذون..»[٦].

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ١٠/ ١٤، ١٥.

(٢) قد يكون العنب، أو جوزة الهند الشهيرة، والعنب أقرب لي؛ لأنه كان يضعها في كمه. ابن منظور: لسان العرب، مادة جوز ٥/ ٣٢٦.

(٣) لم أقف على معنى لها، وقد تكون تصحيفًا من الناسخ، أو يكون المراد بها الوقاية من كل سوء؛ إذ إن أحد معاني نعل وقي. ابن منظور: لسان العرب، مادة نعل ١١/ ٦٦٧.

(٤) الزمخشري: ربيع الأبرار ص١٧٧.

(٥) توفي قبل عام ١٥٧هـ، وكان من رجال الحديث الذين يُروى حديثهم ولا يحتج به. ابن حجر: تهذيب التهذيب ٤/ ٢٢٩.

(٦) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٦/ ٤٣٦.

الرحلة لطلب العلم

ظاهرة الرحلة في طلب العلم من ألصق الظواهر الحضارية بالأمة المسلمة، ومنذ انتقال الصحابة في الأمصار بعد حركة الفتوح الإسلامية، ونحن نرى طلاب العلم يفدون إليهم لمعرفة حديث رسول الله ﷺ، وآرائهم الفقهية في المسائل المتنوعة، وما من تابعي -وهم غالبية رجال هذا العصر- إلاَّ ووجدناه راحلاً إلى العراق أو الشام أو المدينة ومكة أو اليمن أو غيرها، لا يحسب للمسافات حسابًا، فكل همه أن ينال العلم المبتغى، ويتعلم على العلماء المرموقين في عصره.

ولقد رأينا الأمثلة الباهرة في هذا الجانب، فهذا أبو قلابة الجرمي (ت١٠٧هـ) أحد أكابر رجال الحديث في عصره يقول: لقد أقمتُ في المدينة ثلاثًا ما لي حاجة إلاَّ وقد فرغتُ منها، إلاَّ أن رجلاً كانوا يتوقَّعونه[١] كان يروي حديثًا فأقمتُ حتى قدم فسألته[٢]. أي أنه مكث في المدينة ثلاثة أيام من أجل أن يعلم حديثًا من لم يكن قد سمعه من قبل!

وأعجب من هذا، مَنْ يرحل من المدينة المنورة إلى مصر من أجل حديث واحد فقط؛ فقد روى عبد الله بن بريدة قاضي مرو (ت١١٥هـ): أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ رحل إلى فضالة بن عبيد -وكان من صحابة النبي ﷺ (ت٥٩هـ)- وهو بمصر، فقَدِمَ عليه وهو يمدُّ لناقة له، فقال: مرحبًا. قال: أما إني لم آتك زائرًا، ولكن سمعتُ أنا وأنت حديثًا من رسول الله ﷺ رجوتُ أن يكون عندك منه علم. قال: ما هو؟ قال: كذا وكذا[٣].

ومن الآيات التربوية الجميلة في هذا العصر أن تجد رحلة العلم يشترك فيها الوالد وولده، وهو ما حدث مع عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت وأبيه الوليد، حيث قال: «خرجتُ أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحيِّ من الأنصار قبل أن يهلكوا، فكان أوَّل مَنْ لقينا أبو اليسر صاحب النبي ﷺ ومعه غلام له. فذكر الحديث»[٤].

---

(١) يتوقعون مجيئه من مكان ما.
(٢) سنن الدارمي ١/ ١٤٩ ح٥٦٢.
(٣) السابق ١/ ١٥١ ح٥٧١
(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ١/ ٣٤١.

قصة طالب علم

قرَّرتُ في هذا الكتاب أن أذكر في كل عصر قصة طالب العلم الذي يُعَبِّر بحقٍّ عن جماع التربية والتعليم في عصره ومجتمعه، وفي زمن الخلافة الأموية بزغ نجم العلامة الأوزاعي -رحمه الله- لقد كانت رحلة الأوزاعي لطلب العلم والتأديب نموذجًا رائعًا في حبِّ العلم، والمغامرة في نيله؛ إذ ترك الوظيفة الرسمية في دواوين الدولة ليتفرَّغ لطلب العلم، ومثله كثيرون في كل عصر ومصر، ونترك الأوزاعي اليتيم يحكي مسيرته العلمية والتربوية بقوله: «مات أبي وأنا صغير فذهبتُ ألعب مع الصبيان، فمرَّ بنا فلان -وذكر شيخًا من العرب جليلاً- قال: ففرَّ الصبيان حين رأوه وثبتُّ أنا، فقال: ابن مَنْ أنت؟ فأخبرته، فقال: ابن أخي، يرحم الله أباك. فذهب بي إلى بيته، فكنتُ معه حتى بلغتُ، فألحقني في الديوان، وضُرب علينا بعثًا إلى اليمامة، فلما قدمتُ اليمامة، ودخلت مسجدها الجامع، فلما خرجنا قال لي رجل من أصحابنا: رأيتُ يحيى بن أبي كثير[1] معجبًا بك، يقول: ما رأيتُ في هذا البعث أهدى من هذا الشاب. قال: فجالستُه فكتبتُ عنده أربعة عشر كتابًا، أو ثلاثة عشر فاحترق كله»[2].

ويُكمل العلامة ابن عساكر هذه القصة بقوله: «إن الأوزاعي خرج في بعثٍ إلى اليمامة، فلما وصل إليها دخل مسجدها فاستقبل سارية يُصَلِّي إليها، وكان يحيى بن أبي كثير قريبًا منه، فجعل يحيى ينظر إلى صلاته، فأعجبته، وقال: ما أشبه صلاة هذا الفتى بصلاة عمر بن عبد العزيز. قال: فقام رجل من جلساء يحيى فانتظر حتى إذا فرغ الأوزاعي من صلاته، أخبره بما قال يحيى، فجاء الأوزاعي حتى جلس إليه، فسأله عن بلده وعن حاله وجرى بينهما كلام، فترك الأوزاعي الديوان، وأقام عند يحيى مدة يكتب عنه، وسمع منه، فقال له يحيى: ينبغي لك أن تبادر إلى البصرة؛ لعلَّك أن تدرك الحسن البصري ومحمد بن سيرين فتأخذ عنهما. فانطلق إليهما، فوجد الحسن قد مات قبل دخوله بشهرين، وابن

---

(١) يحيى بن أبي كثير اليمامي كنيته أبو نصر من أهل البصرة سكن اليمامة، وكان من رجال الحديث ومن العُبَّاد، وكان إذا رأى جنازة لم يتعشَ تلك الليلة ولا قدر أحد من أهله أن يكلمه، توفي عام ١٣٢هـ باليمامة. ابن حبان: الثقات ٧/ ٥٩٢.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٥/ ١٥٨.

سيرين حيًّا. فأخبرنا الأوزاعي أنه أتى بابه وهو مريض، قال: فكنا ندخل فنعوده ونحن قيام لا نكلم، وهو -أيضًا- لا يتكلم، فلبثنا أيامًا فخرج إلينا الرجل الذي كان يوصلنا إليه، فقلنا له: ما خبر الشيخ؟ قال: تركتُه قد لزق لسانه بحنكه وهو يقول: لا اله إلا الله. مات من يومه ذلك، وكان به البطن»(١).

واستمرَّ الأوزاعي يأخذ من شيخ لآخر حتى أصبح أحد علماء الشام في الحديث والفقه، وظلَّ الشاميون يأخذون بمذهبه حتى اندرس، وكان -رحمه الله- من العلماء، وهاتان الروايتان اللتان ذكرهما ابن عساكر تقربان لنا صورة الرحلة في هذا الزمن، وعشق طلاب العلم لها، لدرجة جعلت الأوزاعي يترك الديوان -وهو وظيفة رسمية في الدولة- ليتفرغ لطلب العلم رحمه الله.

شقائق الرجال!

وقد يسأل سائل: وأين النساء في هذا العصر من العلم والتربية والتثقيف؟

وهذا السؤال في غاية الشرعية، بل إن إجابته تُكمل ثغرة كبيرة قلما تناولتها الأقلام في تاريخ العلم الإسلامي، لقد كانت النساء جزءًا أصيلاً من أجزاء المنظومة المجتمعية والتربوية في العصر الأموي، وكما جاء الإسلام ليرفع من قدر المرأة ويجعلها نصيفة الرجل وشقيقته؛ فهن شقائق الرجال كما ذكر النبي ﷺ، وجدنا في هذا العصر مَنْ أخذت تُعَلِّم الصبيان وحتى الرجال والشباب بما فتح الله عليها في هذا الأمر، غير أن سيدة بيت النبوة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- وهي متوفاة في ولاية معاوية بن أبي سفيان عام ٥٧هـ، كان لها السبق في نشر حديث رسول الله ﷺ، وتَعَلَّم على يديها كثير من صحابة النبي ﷺ، وجمهرة من التابعين، ولسنا بصدد الحديث عنها فسيرتها ومسيرتها أكبر دليل على ما كان للمرأة من دور ومكانة منذ عصر النبي ﷺ وطوال فترة الخلفاء الراشدين، حتى وفاتها زمن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

ولكن هناك أُخريات كثيرات سرنَ على دربها، منهن الصحابية الجليلة صفية بنت

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٥/ ١٥٩.

شيبة بن عثمان بن طلحة (توفيت بعد سنة ٨٦هـ)، روت عن النبي ﷺ في سنن أبي داود، والنسائي، وروت عن: عائشة، وأم حبيبة، وأم سلمة وأمهات المؤمنين. حدَّث عنها: ابنها منصور بن عبد الرحمن الحجبي، وسبطها محمد بن عمران الحجبي، والحسن بن مسلم بن يناق، وإبراهيم بن مهاجر، وقتادة، ويعقوب بن عطاء بن أبي رباح، وعمر بن عبد الرحمن بن محيصن السهمي المقرئ[١]. وغيرها من بقية الصحابيات كثير.

ومن التابعيات اللاتي أخذن العلم وعلمنه لعشرات من الصبيان والشباب والفتيات في تلك الآونة السيدة معاذة العدوية بنت عبد الله البصرية (ت٨٣هـ) العابدة الناسكة الزاهدة الورعة، من أهل البصرة دخلت على عائشة وأخذت منها العلم، كما أخذت من علي بن أبي طالب ﷺ، وكان لها مجلس تُعَلِّم فيه النساء، وصفه أحد رجال الحديث بقوله: «رأيت معاذة مُحتبية[٢] والنساء حولها»[٣]. وقد أخذ عنها جمع كبير من التابعين منهم أبو قُلابة الجرمي، وقتادة، وأيوب، وعمر بن ذر.. وغيرهم، بل وروى لها جمعٌ من رجال الحديث، واتفق أن أخذ عنها البخاري ومسلم في صحيحيهما[٤]، قال الذهبي عن حياتها وزهدها وعقلها وصبرها: «بلغنا أنها كانت تُحيي الليل عبادة، وتقول: عجبت لعين تنام، وقد علمت طول الرقاد في ظلم القبور. ولَمَّا استشهد زوجها صلة وابنها في بعض الحروب، اجتمع النساء عندها، فقالت: مرحبًا بكن، إن كنتن جئتن للهناء، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن. وكانت تقول: والله ما أحبُّ البقاء إلاَّ لأتقرب إلى ربي بالوسائل؛ لعله يجمع بيني وبين أبي الشعثاء وابنه في الجنة»[٥].

وكانت أم الدرداء الصغرى جهيمة الأوصابية الحميرية الدمشقية من أعلم وأفقه أهل زمانها، كانت زوجة أبي الدرداء الصحابي الجليل ﷺ، روت علمًا جمًّا عن زوجها أبي الدرداء، وعن سلمان الفارسي، وكعب بن عاصم الأشعري، وعائشة، وأبي هريرة، وطائفة. وعرضت القرآن وهي صغيرة على أبي الدرداء، ولقد تعلَّم على يديها كبار علماء

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٣/ ٥٠٧ — ٥٠٩.
(٢) الاحتباء: أن يجلس على أليتيه وضم فخذيه وساقيه إلى بطنه بذراعيه ليستند.
(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٨/ ٤٨٣.
(٤) الحاكم النيسابوري: تسمية من أخرجهم البخاري ومسلم وما انفرد كل واحد منهما ص٢٦٩.
(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٠٩.

عصرها، قال مكحول: كانت أم الدرداء فقيهة. وعن عون بن عبد الله، قال: «كنا نأتي أم الدرداء فنذكر الله عندها، قال: فاتكأت ذات يوم، فقيل لها: لعلنا أن نكون قد أمللناك يا أم الدرداء. فجلست، فقالت: أزعمتم أنكم قد أمللتموني، وقد طلبتُ العبادة بكل شيء فما وجدتُ شيئًا أشفى لصدري، ولا أحرى أن أدرك ما أريد من مجالسة أهل الذكر»[١]. وقال يونس بن ميسرة: كانت النساء يتعبَّدن مع أم الدرداء، فإذا ضعفن عن القيام، تعلَّقن بالحبال، واللافت أن الخليفة عبد الملك بن مروان كان يأخذ العلم على يديها -وهو أمير المؤمنين- بمسجد دمشق، وكان يجلس في مؤخرة المسجد[٢].

وثمة أمثلة أخرى كثيرة تُدلل على دور المرأة في التربية والتعليم، وشدِّ الرحال إليها، ومجيء طلبة العلم من كل حدب وصوب لها، كل هذا دليل على أن المرأة في عصر الخلافة الأموية كانت نظيرة الرجل لا تقلُّ عنه، ولا يمتاز عليها اللهم إلاَّ بالتقوى والعمل الصالح!

آثار التربية والتعليم!

ما عرضناه سابقًا لا يتعدّى كونه بعض الآليات والوسائل والسبل التي كانت تتمُّ بها عملية تأديب وتربية الأطفال والشباب في العصر الأموي، بما فيها التعليم؛ فهو بحقٍّ أحد أهم دعائم التربية الإسلامية، ويكاد يكون الحاوي لكليات هذه التربية.

ولقد ظهرت آثار وثمرات هذه التربية على أبناء المسلمين، صحيح أنه حتى ذلك الوقت ولمدة لا تقلُّ عن مائة عام أو أكثر من عمر الخلافة العباسية بعد ذلك كان للقبيلة دورها العظيم في مسيرة الحياة الاجتماعية في الجهاد والتربية والتثقيف، لكن كان للحواضر والنظم التربوية التي وضعتها الدولة أكبر الأثر في الأطفال في كل بقاع العالم الإسلامي.

وحسبنا كدليل على أن هناك ثمرات -بالإضافة إلى ما سبق- ما وجدناه في هذا العصر من شبه ظاهرة تمثلت في مخاطبة الفتيان المقدمين في أقوامهم لبعض الخلفاء، وإن

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٧٠/ ١٥٧.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٧٨.

التأمل في هذه الحوارات والنقاشات التي دارت بين الخلفاء الأمويين وهؤلاء النقباء والعرفاء من الأطفال لتؤكد على رقي التربية والتعليم في ذلك العمر المبكر من مسيرة الحضارة الإسلامية.

فحينما استُخلف عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- جاءته الوفود، وذلك عام ٩٩هـ، فحينما دخل عليه وفد أهل الحجاز أراد غلام منهم أن يتكلم، فقال له عمر: يا غلام، يتكلم من هو أسن منك. فقال الغلام: يا أمير المؤمنين، إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، فإذا منح الله عبده لسانًا لافظًا، وقلبًا حافظًا، فقد أجاد له الاختيار، ولو أن الأمور بالسن لكان هنا مَنْ هو أحق بمجلسك منك. فقال له: صدقت فتكلم، فهذا هو السحر الحلال. فقال: يا أمير المؤمنين، نحن وفدُ التهنئة، لا وفد المرزئة، لم تُقْدِمْنا إليك رغبةٌ ولا رهبةٌ، لأنَّا قد أمِنَّا في أيامك ما خفناه، وأدركنا ما طلبناه. وفي رواية: أما الرغبة فقد أوصلها لنا فضلك، وأما الرهبة فقد أمَّنَنَا منها عدلك. فتهلل وجه عمر عند ثناء الغلام عليه، وسأل عن سن الغلام فقيل: عشر سنين. ثم كأنَّ عمر خاف العُجب، فأقبل على الغلام وقال: عظنا يرحمك الله. فقال: يا أمير المؤمنين، لا يغلبنَّ جهل القوم بك معرفتك بنفسك، فأجهل الناس من ترك يقين ما عنده لظنٍّ ما عند الناس، وإن قومًا خدعهم الثناء، وغرَّهم الشكر، فزلَّتْ أقدامهم فهَوَوْا في النار، أعاذك الله يا أمير المؤمنين أن تكون منهم، وألحقك بصالح سلَف هذه الأمة. فجعل عمر يبكي حتى خيف عليه»[1].

ولا يمكن أن نتصوَّر هذه الرواية وصحتها دون مقارنتها بنظم التربية والتعليم في ذلك الوقت، فضلاً عن أن الفصاحة ظلت جزءًا أصيلاً في الثقافة البدوية العربية حتى القرن الرابع الهجري كما يُقرِّر علماء اللغة والنحو.

وثمة قصة أخرى ترويها كتب الأدب، وتبين مدى ما وصل إليه حال بعض الصبيان في ذلك الزمن من الفصاحة والقدرة على تمثيل أقوامهم في المحافل العامة، قال اليوسي: «لما أصاب أهل البوادي القحط أيام هشام بن عبد الملك، وَفَدَتْ عليه رؤساء القبائل وفيهم صبي صغير في رأسه ذؤابة، وعليه بردة يمنية، فأنكر هشام حضوره، وقال

(١) اليوسي: المحاضرات في اللغة و الأدب ص١١٤.

للحاجب: ما يشاء أحد أن يصل إلينا إلاَّ وصل حتى الصبيان. فقال الصبي: يا أمير المؤمنين، إن دخولي لم ينقصك، ولكن شرفني، وإن هؤلاء قدموا لأمر فهابوك دونه، وإن الكلام نشر، والسكوت طيٌّ لا يُعرف إلاَّ بنشره. فأعجب هشامًا كلامه، فقال له: انشر لا أُمَّ لك. فقال: يا أمير المؤمنين، أصابتنا سنون ثلاث، فسنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة أنقت العظم، وفي يدكم فضول أموال، فإن كانت لله ففرِّقوها على عباده، وإن كانت لهم فعلام تحبسونها عنهم؟ وإن كانت لكم فتصدَّقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المتصدِّقين، ولا يُضيع أجر المحسنين. فقال هشام: ما ترك لنا الغلام في واحدة من الثلاث عذرًا. وأمر بمائة ألف درهم ففُرِّقت في البادية، وأمر للغلام بمائة ألف درهم. فقال: اردده في جائزة العرب، فما لي بها حاجة في خاصة نفسي دون سائر المسلمين. فكان في هذه أعجب»[1].

ومهما يكن من صحَّة هذه الروايات، فهي وإن كانت منتحلة على أسوأ تقدير، لكنها تحمل في طياتها حقيقة التربية في تلك السنين العامرة بالمغامرة والمثابرة، ولم يكن النظام التربوي والتعليمي في زمن الخلافة الأموية حكرًا على أحد، أو على جنس بعينه؛ فقد كان العلم متاحًا للجميع، وفي أي مكان هو، يغرف منه طالب أو طالبة التربية والتثقيف مما يشاءون، وكيفما أرادوا، وكانت القطع الصغيرة من أبناء وبنات ذلك العصر قد كونت في نهاية المطاف لوحة مكتملة تؤكد لنا أن مسيرة التربية في هذا العصر كانت تبشر بالخير، بل وآخذة في التطور والتدرج.

***

(١) اليوسي: المحاضرات في اللغة والأدب ص١١٤.

الفصل الثالث

نضوج التربية في الخلافة العباسية

الخلافةُ العباسيةُ التي استمرَّت ٥٢٤ عامًا متصلة كوَّنت مجموعة من القمم والقيعان فيما يتعلق بالتنمية وبناء الدولة والتربية، وقد كانت النظم التربوية -منهجية كانت أم مادية - جزءًا من هذه الحضارة القوية الفتية، التي أبهرت كل مَنْ كتب عن بغداد العباسية من المستشرقين، بل ومن المعاصرين لها من الأمم المجاورة.

ولا يمكن في سياق حديثنا عن الخلافة العباسية إلاَّ أن نُقَرِّر حقيقة مهمة تكمن في أن مفهوم الخلافة والخليفة يرتبط واقعيًّا بهذه الألقاب، أي أن الخلافة العباسية ظلت خلافة قوية ذات سيادة كلية على أراضي الدولة الإسلامية حتى وفاة هارون الواثق عام ٢٣٢هـ، وبعدها تشرذمت الخلافة، وتصرَّف فيها الترك ثم البويهيون، ثم السلاجقة وغيرهم، ثم بدأت دولة الخلافة في التشرذم والانقسام إلى دويلات حتى سقوط بغداد على يد التتار في عام ٦٥٦هـ وانقضاء عصرها الزاهي، ثم قيام دولة أُخذ الخليفة العباسي إليها قسرًا ليتمتع بسلطات لا قيمة لها، ونقصد بالطبع الدولة المملوكية في مصر التي بدأت فعليًّا بتولي عز الدين أيبك التركماني مقاليد السلطنة عام ٦٤٧هـ.

ومهما يكن من هذه التفصيلات التاريخية إلاَّ أننا يجب أن نُقَرِّر أنه على الرغم من فقدان الخليفة العباسي لكثير من سلطاته وقدراته، لكنه ظلَّ الرجل الشرعي الذي تقام الدويلات باسمه، وتُعطى الشرعية بإقراره، ويُدعى له على منابر معظم الأقطار الإسلامية، بل كانت تُعاد قسرًا إذا فُقدت لفترة ما، مثل ما قام به صلاح الدين الأيوبي حينما ألغى حكم الفاطميين العبيديين في مصر من إقامة الدعوة والخطبة للخليفة العباسي في بغداد.

ومن ثَمَّ جاز لنا أن نُطلق على كل هذه الحقبة الزمنية منذ عام ١٣٢هـ حتى عام ٦٥٦هـ حقبة العباسيين، مع إقرارنا بعدم واقعيتها على الأرض؛ ومن ثَمَّ يكون توصيفنا

لملامح التربية الإسلامية في هذه الخلافة، وحديثنا عنها مرتبط بهذا التوضيح السابق.

والتربية الإسلامية العباسية ارتبطت أساسًا بمظاهر التقدُّم والتأخُّر في هذه الدولة، ولا أقصد التأخُّر السياسي، وإنما التأخر الفكري والاجتماعي والثقافي، ثم يأتي السياسي والمالي والاقتصادي كأحد الروافد الثانوية الممولة للمشروع التربوي الإسلامي؛ ذلك لأن المجتمع الإسلامي حتى وقت ظهور الدولة الحديثة بمركزيتها وقوانينها -التي نعيش فيها- كان أكبر داعم للمسيرة التربوية والعلمية والتثقيفية مقارنة بما فعله الخلفاء والأمراء والسلاطين، وهو مجهود لا يمكن أن نُقَلِّل من شأنه، بل ومن أوليته في بعض الأحيان كمشروع المأمون العباسي في الترجمة والفكر وإنشاء المراصد الفلكية، أو مشاريع الوزير الحكيم نظام الملك الطوسي، الذي كان سنة حسنة سار المجتمع المدني على إثرها لاهثًا مُكدًّا.

يبقى أن نشير قبل البدء مع هذه الخلافة الإسلامية في مجال التربية، إلى أن سيرنا بدأ في الصعود، فكما وجدنا التقعيد والتنظير والمنهج الإسلامي في عصر النبوة والخلافة الراشدة مع التطبيق، ثم التطوَّر النّوعي والمادي في ظلِّ الأمويين، فنحن هنا نُكمل مسيرة التدرُّج التي لازمتها مرحلةُ الابتكار والإبداع لا سيما في إنشاء أساليب تربوية جميلة، ومحاضن تربوية ما زلنا نعتمد عليها حتى يومنا هذا في التربية والتعليم والتأديب، فتلك صورة سريعة لفلسفة التربية في هذا العصر.

الطبقات الحاكمة والتربية

كان الخلفاء العباسيون وأبناؤهم أحد أهم عناصر المجتمع العباسي، وكما رأينا من قبل عند الأمويين كيف كانت عنايتهم بالتربية والتأديب، حتى ذاعت وصاياهم التربوية، وانتشرت في مصنفات التاريخ والأدب، وجدنا الخلفاء العباسيين يسيرون على الدرب ذاته.

وهناك العشرات من الوصايا التربوية التي قالها خلفاء بني العباس لمؤدبي أولادهم، منها ما قاله هارون الرشيد (ت١٩٢هـ) ينصح مؤدب ولده وولي عهده الأمين -والمؤدب اسمه الأحمر- برسالة لطيفة جميلة؛ حتى إن العلامة ابن خلدون أُعجب بها كثيرًا، ونقلها

في مقدمته الشهيرة، قائلاً: «ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدَّم به الرشيد لمعلم ولده محمد الأمين، فقال: يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه، فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، وكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن، وعرِّفه الأخبار، وروِّه الأشعار، وعلِّمه السنن، وبصِّره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلاَّ في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفِّع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تمرَّنَّ بك ساعة إلاَّ وأنت مغتنم فائدة تفيده إيَّاها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه، ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة؛ فإنْ أَبَاهما فعليك بالشدَّة والغلظة»[1].

ولا شك أن هذه الوصية التربوية تبين لنا الوعي الكبير الذي كان عليه هارون الرشيد (ت ١٩٣هـ)، ولا يمكن أن نستغرب هذا الوعي من هذا الخليفة العملاق، الذي قال عن مجلسه وحاشيته المؤرخ ول ديورانت: «جمع حوله في بغداد عددًا عظيمًا من الشعراء، والفقهاء، والأطباء، والنحويين وعلماء البلاغة.. وكان ينقد أعمالهم وأقوالهم نقد العالم الخبير صاحب الذوق السليم، ويجزيهم عليها بسخاء، ولسنا نعلم في التاريخ كله أن حاشية للملوك قد جمعت مثل ما جمعت حاشية الرشيد من ذوي العقول الراجحة النابهين. وكان يُعاصره في غير بلاد الإسلام الإمبراطورة إيرينة في القسطنطينية، والملك شارلمان في فرنسا، ومن قبله بزمن قليل كان يجلس على عرش بلاد الصين تسوان دزونج Tsuan Tsung، ولكن هارون الرشيد بزَّهم (فاقهم) جميعًا في الثراء والسلطان، وأبهة الملك، والتقدُّم الثقافي الذي ازدان به حكمه»[2].

وهناك وصيَّةُ عبد الملك بن صالح (ت١٩٦هـ) -أحد أمراء الخلافة العباسية وأحد ولاة مصر- لمؤدبه ومؤدب ولده ويُدعى عبد الرحمن بقوله: «يا عبد الرحمن، لا تنظرني في وجهي فأنا أعلم بنفسي منك، ولا تستقدمني على ما يقبح، ودع عنك كيف أصبح الأمير، وكيف أمسى الأمير، واجعل مكان التقريظ في صواب الاستماع مني، واعلم أن صواب

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ١/ ٥٤١.
(٢) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٢/ ٤٥٢١.

الاستماع أحسن من صواب القول، وإذا حدَّثْتُك حديثًا فلا يفوتنَّك منه شيء، وأرني فهمك في طرفك، إني اتخذتك مؤدبًا بعد أن كنتَ معلمًا، وجعلتك جليسًا صعوبًا بعد أن كنت مع الصبيان مباعدًا، ومتى لم تعرف نقصان ما خرجت منه لم تعرف رجحان ما صرت إليه»[١].

إن هذه النصيحة القوية التي نتخيل فيها هذا المؤدب الصامت المستمع لكلام الأمير وهو واقف بين يديه، تبين بجلاء أن وظيفة المؤدب أعلى بكثير من وظيفة المعلم، ثم هي تُؤَكِّد على مقدار الثقافة والثقة التي كان عليها الأمراء في القرن الثاني الهجري، من القدرة على التعبير، والفصاحة في القول، وطريقة انتقاء المؤدبين بكل عناية ودقة.

وظهر حب الخلفاء لمؤدبيهم واحترامهم لهم، حتى مع توليهم شئون الخلافة، وقد أصبحوا أعظم ملوك الأرض؛ فقد دخل محمد بن زياد مؤدِّب الخليفة الواثق (ت٢٣٢هـ) عليه «فأظهر إكرامه، وأكثر إعظامه، فقيل له: مَنْ هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا أولُ من فَتق لساني بِذِكْرِ الله، وأدْناني من رحمة الله»[٢].

وكان بعض هؤلاء المؤدبين يُنتقى نتيجة ماضيه المشرّف، وخبرته الواسعة، وعلمه الغزير؛ مثل عالم اللغة الشهير يعقوب بن إسحاق بن السكيت (ت٢٤٦هـ)؛ فقد ترقى هذا العالم اللغوي والنحوي الشهير في وظائف التأديب والتعليم في الدولة، حتى أصبح مؤدب ابن الخليفة المتوكل على الله، وقد قصَّ لنا الخطيب البغدادي قصة كفاحه وارتقائه المستحَقّ في مناصب التأديب في ظلِّ الخلافة العباسية بقوله: «كان يعقوب بن السكيت يُؤَدِّب مع أبيه بمدينة السلام (بغداد) في درب القنطرة صبيانَ العامة، حتى احتاج إلى الكسب، فجعل يتعلم النحو، وحُكي عن أبيه أنه حج فطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة، وسأل الله أن يُعَلِّم ابنه النحو، قال: فتعلم النحو واللغة، وجعل يختلف إلى قوم من أهل القنطرة فأجروا له كل دفعة عشرة وأكثر، حتى اختلف إلى بشر وإبراهيم ابني هارون أخوين كانا يكتبان لمحمد بن عبد الله بن طاهر، (وكان من كبار رجال الدولة

(١) ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد ١/ ٢٨.
(٢) إبراهيم بن علي القيرواني: زهر الآداب وثمر الألباب ١/ ٢٠١.

العباسية)، فما زال يختلف إليهما، وإلى أولادهما دهرًا، فاحتاج ابن طاهر إلى رجل يعلم ولده، وجعل ولده في حجر إبراهيم، ثم قطع ليعقوب رزقًا خمسمائة درهم ثم جعلها ألف درهم، وكان يعقوب قد خرج قبل ذلك إلى سُر من رأى (سامراء)، وذلك في أيام المتوكل، فصيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان عند المتوكل فضم إليه ولده وأسنى له الرزق»(١).

وقد كان أبو جعفر الكوفي المؤدب محمد بن عمران بن زياد (ت٢٥٥هـ) من جملة المؤدبين الذين ذاعت شهرتهم، وتقلد وظيفة التأديب لأبناء الخليفة في بغداد، وقد كان الغالب عليه الأخبار والأدب، وكان ثقة فيما ينقل، شيخًا حلوًا، وكان قبل أن يُؤَدِّب الخليفة العباسي المعتز يُعَلِّم الصبيان، فلما اتصل بالمعتز جعله على القضاة والفقهاء، ثم جعله المعتز مؤدبًا لولده عبد الله(٢).

وكان هؤلاء المؤدبون على درجة كبيرة من التقوى والخلق الرفيع؛ فقد ذكر الإمام السلفي أحمد بن محمد الأصبهاني (ت٥٧٦هـ) عن مؤدبه، ويسمى الغديري أنه «كان يُؤَدِّب الصبيان ويخيط بأجره، وما يحصل له يتقوت بالقليل منه، ويتصدق بالباقي، وفي مكتبه تعلمتُ أنا القرآن، وكان من أهل العلم والصلاح»(٣).

وأمثال هؤلاء الأتقياء كان الخلفاء والأمراء والسلاطين يبحثون عنهم، ويعينونهم مؤدبين لأولادهم؛ مثلما فعل صلاح الدين يوسف بن أيوب (ت٥٨٩هـ) مع يوسف بن الحسين بن محمد (ت٦٠١هـ) الشهير بابن المجاور، فقد كان له مكتب «يعلم فيه الصبيان على باب الجامع الأموي، وسمَتْ به مواهبه إلى أن انتدبه السلطان صلاح الدين معلمًا لابنه (العزيز) عثمان، وأنِسَ به العزيز، فلما مات أبوه، واستقل بالسلطنة، فوَّض إليه جميع أمور دولته، فكان من محاسنها»(٤).

ومن ترقَّى بهم الحال ابن أبي الرداد عبد الله بن عبد السلام المصري، ترقَّى من وظيفة

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٤/ ٢٧٣.
(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ٤/ ١٦٥.
(٣) السلفي: معجم السفر ص٢٣١.
(٤) ابن سعيد المغربي: الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة ص١٩.

التأديب إلى مدير المقياس[١] المصري بالروضة، قال القلقشندي عن وظيفة القياس بـمصر حتى زمن الخليفة المتوكل: «وكانت النصارى تتولَّى قياسه فعزلهم المتوكل عنه، ورتب فيه أبا الرداد عبد الله بن عبد السلام بن أبي الرداد المؤدب، وكان رجلاً صالحًا، فاستقر قياسه في بنيه إلى الآن»[٢]. أي ظلَّ بنو الرداد قرابة ستة قرون متصلة يشغلون وظيفة القياس بمصر، وذلك بفضل جدهم الأول الذي كان مؤدبًا على درجة كبيرة من الخلق والعلم.

ومثله القاضي أبو سعد الهروي محمد بن نصر بن منصور (ت٥١٨هـ)، كان في صباه يؤدب الصبيان، ثم ترقت حاله وبلغ ما بلغ، قدم دمشق ووعظ بها، ثم توجه إلى بغداد فولي قضاء الشام، وعاد قاضيًا فأقام مدة، ثم رجع إلى العراق، وقال عنه الذهبي: «كان من دهاة العالم، قتلته الباطنية -لعنهم الله- بجامع همذان»[٣].

وقد ذكرت لنا مصنفات التراث الإسلامي عددًا جمًّا من هؤلاء الكادحين من المؤدبين، الذين ارتقوا في مدارج الدولة، وحصَّلوا أماكن سامقة فيها؛ لما عُرف عنهم من قدرة كبيرة على تأديب أولاد الأمراء والخلفاء تأديبًا رائعًا، واللافت أن بعض هؤلاء كان من الشبان صغار السن، قال ابن عساكر في ترجمة المسلم بن الحسين بن الحسن أبو الغنائم الدمشقي المؤدب: «كان في صباه أجير خباز، ثم حفظ القرآن وتأدب، وقال الشعر واشتغل بتأديب الصبيان، فحسن أثره في ذلك، وظهر له اسم في إجادة التعليم والحذق بالحساب حتى كثر زبونه». وقد مات شابًّا صغيرًا عام ٥٤٤هـ،كما يذكر ابن عساكر[٤].

فهو شاب جاهد في تعليم نفسه وتثقيفها، فالعبرة بالجودة والمكانة العلمية، ومثله أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الخونجاني، وصفه الحافظ السمعاني (ت٥٦٢هـ) بأنه: الأديب من أهل أصبهان، شاب فاضل صالح، عارف بالأدب واللغة، يؤدّب الصبيان، ومع ذلك كان يحضر مجالس الحديث واللغة والأدب على كبار علماء أصفهان[٥]. بل كان كثير من

(١) مقياس النيل.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ٣/ ٣٢٧.
(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٥/ ٤٢٩.
(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٨/ ٧٤.
(٥) السمعاني: التجبير في المعجم الكبير ٢/ ٢٦٨.

معلمي ومؤدبي الأطفال من علماء الأمة، وهم مَنْ نصفهم اليوم بالحاصلين على الماجستير والدكتوراه.

وقد كان منصور بن المسلم الشهير بالدميك (ت٥١٠هـ) من علماء العربية والنحو في عصره، وكان مع ذلك يؤدب الصبيان والفتيات ويعلمهم[1].

وحال بغداد كان قريبًا من دمشق وغيرها؛ حيث كان معلمو الصبيان من الشيوخ الحافظين لكتاب الله، بل كان بعضهم من علماء الحديث الشريف، وقد ذكر العلامة الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) في «تاريخ بغداد» طائفة كثيرة منهم، وكذلك ذكر ابن النجار البغدادي (ت٦٤٣هـ) في «ذيل تاريخ بغداد» طائفة أخرى؛ مثل: عبد الملك بن محمد المؤدب[2]، وعثمان بن علي المؤدب[3]، وأبو الحسن علي بن إبراهيم المؤدب العالم بالحديث، ومؤدب الصبيان[4]، وغيرهم كثير كثير.

ومن الرائع حقًّا أن نجد اهتمام كبار رجال الدولة بالمعلمين والمدرسين، لدرجة أن يولوا المدرسين الأكفاء الولايات العامة، والمناصب الرفيعة في الدولة، وهم على وظائفهم في التعليم والتربية؛ فقد كان سليمان بن محمد التميمي المصري (ت٦٥٠هـ) مدرس الفيوم وحاكمها في الوقت ذاته، وكان يقرأ الكتاب قراءة جيدة، ولمكانته فقد كان خصيصًا بالملك الكامل الأيوبي[5].

ولقد ظهرت آثار هؤلاء المؤدبين والمعلمين في أبناء وبنات الخلفاء والولاة؛ منهم المأمون الذي ظهرت عليه أمارات النجابة والذكاء والفطنة وأثر التربية؛ فعن علمه ومجالس مناظراته ذكر المسعودي رواية عن يحيى بن أكثم قاضي البصرة، أن «المأمون كان يجلس للمناظرة في الفقه يوم الثلاثاء، فإذا حضر الفقهاء ومَنْ يناظره من سائر أهل المقالات أُدخلوا حجرة مفروشة، وقيل لهم: انزعوا أخفافكم، ثم أُحضرت الموائد، وقيل

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٦٠/ ٣٥٦، والزركلي: الأعلام ٧/ ٣٠٤.
(٢) ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد ١/ ٧٤.
(٣) السابق ٢/ ١٤٧.
(٤) السابق ٣/ ١٢.
(٥) محمد بن يعقوب الفيروز أبادي: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة ص٢٥.

لهم: أصيبوا من الطعام والشراب وجَدِّدوا الوضوء، ومَنْ خُفُّه ضيق فلينزعه، ومن ثقلت عليه قَلَنْسوته فليضعها، فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا، ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه، ويناظرهم أحسن مناظرة، وأنْصَفَهَا وأبعدَهَا من مناظرة المتجبرين، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس، ثم تُنْصَبُ الموائد الثانية فيُطعمون وينصرفون»[١].

بل تبدو آثار هذه التربية أثناء حواره الرائع مع أحد الرعية، وقد كان رجلاً من عامة الناس يُريد أن يعرف هل المأمون على حق أم على خطأ في حكمه وسلطانه، فما كان من الرجل إلاَّ أن ذهب إلى المأمون رأسًا؛ ليسأله في ذلك، وقد ذكر هذه القصة يحيى بن أكثم -أيضًا- وكان من ندماء المأمون، قال: «فإنه يومًا لَجَالِسٌ (أي المأمون) إذ دخل عليه علي بن صالح الحاجب فقال: يا أمير المؤمنين؛ رجل واقف بالباب عليه ثياب بيض غلاظ مشمَّرة، ويطلب الدخول للمناظرة. فقلتُ: إنه بعض الصوفية. فأردتُ بأن أشير أن لا يؤذن له، فبدأ المأمون فقال: ائذن له. فدخل رجل عليه ثيابٌ قد شمَّرها ونعلُه في يده، فوقف على طرف البساط فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فقال المأمون: وعليك السلام. فقال: أتأذن لي في الدنوِّ منك. قال: ادْن. فدنا، ثم قال: اجلِسْ. فجلس، ثم قال: أتأذن في كلامك. فقال: تكلَّم بما تعلم أن لله فيه رِضًا. قال: أخبرني عن هذا المجلس الذي أنت قد جلستَهُ أباجتماع من المسلمين عليك، ورضًا منك، أم بالمغالبة لهم والقوة عليهم بسلطانك؟ قال: لم أجلسه باجتماع منهم ولا بمغالبة لهم، إنما كان يتولَّى أمر المسلمين سلطان قبلي أَحْمَدَه المسلمون إمَّا على رضًا وإمَّا على كره، فعُقد لي ولآخر معي ولاية هذا الأمر بعده في أعناق مَنْ حضرهُ من المسلمين، فأخذ على مَنْ حضر بيتَ الله الحرام من الحاجِّ البَيْعَةَ لي ولآخر معي، فأعطوه ذلك إمَّا طائعين وإمَّا كارهين، فمضى الذي عقد له معي على هذه السبيل التي مضى عليها[٢]، فلما صار الأمر إليَّ علمتُ أني أحتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها على الرضا، ثم نظرتُ فرأيتُ أني متى تخلَّيْتُ عن المسلمين اضطرب حبل الإسلام ومرج عهدهم، وانتقضت أطرافه، وغلب الهرج والفتنة، ووقع التنازع، فتعطَّلَتْ أحكام الله ﷻ، ولم يحجَّ أحد بيته، ولم يجاهد في سبيله، ولم

(١) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٤٤.
(٢) يقصد وفاة والده هارون الرشيد وموته.

يكن لهم سلطان يجمعهم ويَسُوسهم، وانقطعت السبل، ولم يُؤخذ لمظلوم من ظالم، فقمتُ بهذا الأمر حياطة للمسلمين، ومجاهدًا لعدوِّهم، وضابطًا لسبلهم، وآخذًا على أيديهم إلى أن يجتمع المسلمون على رجل تتَّفق كلمتهم على الرضا به فأُسَلِّم الأمر إليه، وأكون كرجل من المسلمين، وأنت أيها الرجل رسولي إلى جماعة المسلمين، فمتى اجتمعوا على رجل ورَضُوا به خرجتُ إليه من هذا الأمر. فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وقام، فأمر المأمون علي بن صالح الحاجب بأن يُنفذ في طلبه مَنْ يعرف مقصده، ففعل ذلك، ثم رجع وقال: وَجَّهت يا أمير المؤمنين مَنِ اتبع الرجل فمضى إلى مسجد فيه خمسة عشر رجلاً في هيئته وزيه، فقالوا له: لقيت الرجل. فقال: نعم. قالوا: فما قال لك. قال: ما قال لي إلاَّ خيرًا، ذكر أنه ضَبَطَ أمور المسلمين إلى أن تأمن سُبُلُهم، ويقوم بالحجِّ والجهاد في سبيل الله، ويأخذ للمظلوم من الظالم، ولا يُعَطِّل الأحكام، فإذا رضي المسلمون برجل سَلَّم الأمر إليه وخرج منه. وقالوا: ما نرى بهذا بأسًا. وافترقوا، فأقبل المأمون على يحيى، فقال: كُفينا مئونة هؤلاء بأيسر الخطب. فقلت: الحمد لله الذي ألهمك يا أمير المؤمنين الصواب والسداد في القول والفعل»[1].

وقد أبهرت الحضارة العباسية الأمم المجاورة، وثمة أمم كانت تطلب من العباسيين أن يُرسلوا لهم مَنْ يُعَلِّمهم ويُؤَدِّبهم ويُثَقِّفهم ويُرَبِّيهم على التقاليد الإسلامية والعربية، ومثل هذا ما يرويه الرحالة أحمد بن عباس بن فضلان في رحلته الشهيرة إلى ملك روسيا، الذي طلب من الخليفة العباسي المقتدر بالله (ت٣٢٠هـ) في بغداد أن يُرسل إليه مَنْ يُعَلِّمه ويبني له مسجدًا، ويُرسل له أدوية لا يجدها إلاَّ في بغداد، وقد حكى لنا ابن فضلان هذه الأسباب في بداية رحلته بقوله: «لما وصل كتاب ألمش بن يلطوار ملك الصقالبة إلى أمير المؤمنين المقتدر يسأله فيه البعثة إليه، ممَّنْ يُفَقِّهه في الدين ويُعَرِّفه شرائع الإسلام، ويبني له مسجدًا، وينصبُ له منبرًا؛ ليُقيم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له، فأُجيب إلى ما سأل من ذلك. وكان السفير له نذير الحرمي، فنُدبتُ أنا لقراءة الكتاب عليه، وتسليم ما أُهدي إليه، والإشراف على الفقهاء

(١) المسعودي: مروج الذهب ٢/ ٤٥.

والمعلمين وسبَّب له[١] بالمال المحمول إليه؛ لبناء ما ذكرناه، وللجراية على الفقهاء والمعلمين على الضيعة المعروفة بأرثخشمثين من أرض خوارزم من ضياع ابن الفرات. وكان الرسول إلى المقتدر من صاحب الصقالبة رجل يقال له: عبد الله بن باشتو الخزري. والرسول من جهة السلطان سوسن الرُّسي مولى نذير الحرمي، وتكين التركي، وبارس الصقلابي، وأنا معهم على ما ذكرتُ، فسلَّمت إليه الهدايا له ولامرأته ولأولاده وإخوته وقوَّاده وأدوية كان كتب إلى نذير يطلُبها»[٢].

ولم يكن هؤلاء الخلفاء والولاة إلاَّ تعبيرًا واضحًا لثقافة الأمة، وعوائدها في التربية، ولا يمكن في هذا السياق إلاَّ أن نذكر الوزير الشهير نظام الملك الطوسي -رحمه الله (ت٤٨٥هـ)- وروعته وإبهاره وعطاءه؛ سواء في المجال التربوي أو المجال التعليمي.

ففي عهد السلطان السلجوقي ألب أرسلان (ت٤٦٥هـ) فُوِّضت سلطنة فارس (إيران) إلى معز الدين جلال الدولة ملكشاه السلجوقي، وقد أُسندت وزارته إلى «فخر الملك بن نظام الملك». وكان ذلك عام (٤٦٣هـ)، وقد كان هذا الولد ابن الوزير السلجوقي الشهير نظام الملك، الذي أقام سوق العلوم والفنون، فضلاً عن العدل والإحسان إلى الرعية لمدَّة ناهزت ثلاثين عامًا متصلة، ولم ينتظر نظام الملك فرصة أسنح من هذه ليُرسل إلى ابنه الوزير الجديد رسالة تربوية تكشف لنا حال الحضارة الإسلامية العباسية في القرن الخامس الهجري، من خلال معرفة سير الوزراء الذين هم عماد الملك، ودعامة الدولة، فكان أهم ما جاء في هذه الرسالة متمثلاً في ضرورة احترام أهل العلم والفقه والصلاح، والعناية بدراسة اللغة العربية تكلمًا وإنشاءً وخطًّا؛ لأن مَنْ لا يعرفها ينتقصه أهل فارس -وأين أهل فارس اليوم من العربية أصلاً؟!- ثم السعي لامتلاك ما يُدِرُّ عليه الأموال لإعانته في مصاريف يومه؛ إذ يبدو أن راتبه لم يكن يكفيه، وهذا عجيب لحال الوزراء الذين كانوا يتعفَّفُون عن مدِّ أيديهم إلى الأموال المحرمة والعامة، والاستماع للرعية، وضرورة قضاء حوائجهم.

---

(١) أي أعطاه ودفع له.

(٢) رحلة ابن فضلان ص٦٧، ٦٨.

وإن هذه الرسالة درة تربوية لكلِّ مَنْ أقدم على تقلُّد المناصب؛ خاصة من الشباب الذين تنقصهم الخبرة، وتعوزهم التجربة، يقول نظام الملك الطوسي (ت٤٨٥هـ) لولده الوزير الجديد: «في الوقت الذي أمرنا فيه ولدنا الأعز أن يذهب إلى طُوس[1] كتبنا له كتابًا بخطِّنَا، وذكرنا فيه شروط ذلك العمل، وعليه فإن هذه التذكرة مما تُهذِّب وتُعَلِّم الأولاد بسائر أصول الكتب؛ فإن عمل ذلك الولد ببعضها وترك أكثرها فهو طريق غير مرضي، بل إن هذا العمل مما لا يُقاس عليه... إن العقلاء من الناس إذا ما أرادوا الشروع في عمل نظروا إلى تحصيل الجاه، وحُسن الذِّكْر، حتى إذا ما انتشر ذكرهم الجميل، ومالت القلوب إليهم في المحبة حصل لهم ما طلبوا، ولم يضع عملهم، ولم يستطع أي حاسد أو مفسد أن يُزيل ذلك الذكر الجديد عنهم أبدًا، أمَّا الجهلاء منهم فلا يقصدون في عملهم إلاَّ كسب المال؛ وذلك مما يلوث النفوس بحقيرات الأمور، ورذائل الأعمال، فليس على جاهٍ حصلوا، ولا غير سوء الذكر اكتسبوا، وعندئذ يكون مجال الطعن والطاعون فيهم واسعًا، وعلى هذا فإن حَظِيَ – يعني ولده فخر الملك – بالمثول أمام الأمير فليجلس مؤدبًا مصغيًا إلى كلامه بكل حواسه؛ ليفهم مرامه جيدًا، فيعرف كيف يُجيب إذا سُئل، وليكن غير مفارق حلمه ووقاره في كل آنٍ، وليسمع كلام الناس وشكواهم بسرعة، ولْيُسَاعد الفقراء ويُعينهم، وليكن قدر المستطاع مالئًا بالمحبة قلوبهم، أمَّا باب قصره وديوانه فليكن مفتوحًا للجند والرعايا دون أي حجاب؛ ليتمكَّنُوا من الوصول إليه متى شاءوا، ويعرضوا حوائجهم عليه كيف أرادوا، فإن حُجبوا أو صُدُّوا دون عُذر مسموع مقبول، فإن ذلك مما يُوحشهم ويُنَفِّرهم منه... إن الولاية التي توجَّهت إليها هي ولاية فارس، وجُلُّ (أكثر) أهلها فُضلاء ينتقصون كل مَنْ لم يعرف العربية، ولم يتكلَّمْهَا ولم يكتب بها، أو لم يكن خطُّه جيدًا فيها؛ خصوصًا صاحب الحكم فإنهم يستهزئون به، وقد أرسلنا إليك الأديب «أبا المكارم» وهو وحيد الدهر في أنواع الفضائل والآداب، فالضروري أن تشتغل عليه بالقراءة والكتابة بعد الفراغ من أعمالك، وأن تتكلَّم معه بالعربية، وأن تتبادل وإياه الرسائل، حتى تحصل لك ملكة الإنشاء العربي.. ولتطلب الأستاذ «عبد الله الطهراني» فإنه خطاط معروف؛ لتتعلم عليه الخطَّ، وليكن هذا الذي ذكرته من أهم مهماتك بل

---

(١) طوس هي مدينة بإيران تسمى اليوم بمشهد الرضا.

مقدمًا على سائر وصاياي لك... ثم لتحترز جدَّ الاحتراز في أن تتصرف بخزانة الدولة، فلا تحول عليها أبدًا إلاَّ بأمر الملك نفسه، ولتُوصِ الخازن بعدم التصرُّف، وأن تُفهمه أن لو تصرَّف أحد في أموال الخزينة فقد عَرَّض نفسه للقتل، وأنه يجب أن يُخبره بكل ما يصرف منها، ولتكن صناديق الذهب مختومة بختمك، ولا يُتصرف فيها إلاَّ بحضورك»[1].

وثمة وصايا تربوية أخرى لنظام الملك لا تقلُّ روعة وإبهارًا عن هذه، فهي تُوَضِّح لنا كيف كان يُختار وينتقى الوزراء، وكيف كانت الأخلاق والعلم والتواضع أهم سماتهم، وأكبر ميزاتهم، فبها يفضلون عن غيرهم في تقلُّد المراسم العامة، والوظائف المهمة في ظلِّ الدولة السلجوقية.

ومن آثار التربية التي وُجدت عند هؤلاء الخلفاء والوزراء: العلم المنقول عنهم، وإدراجهم في طبقة الثقات الذين يُؤخذ منهم، رغم مشاغلهم في إدارة شئون الدولة؛ فقد كان بعضهم جزءًا في سلاسل السند التي يذكرها علماء الحديث أو السيرة أو التراجم في مصنفاتهم، ولقد استوقفتني بعض سلاسل السند كان يُحدِّث فيها الخليفة العباسي عن شيخه، والوزير عن خليفته وهكذا، منها ما رواه ابن السبكي -رحمه الله- في «طبقات الشافعية الكبرى» قال: «وأخبرنا أبو عبد الله الحافظ بقراءتي عليه، أخبرنا أبو المعالي أحمد بن إسحاق الأبرقوهي بقراءتي، أخبرنا أبو علي الحسن بن إسحاق بن موهوب بن أحمد الجواليقي، **أخبرنا الوزير العادل عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة قراءة عليه وأنا أسمع سنة ست وخمسين وخمسمائة، قال: قرأتُ على مولانا المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن المستظهر أبي العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم سنة اثنتين وخمسين**، حدثكم أبو البركات أحمد بن عبد الوهاب بن هبة الله بن أحمد السيبي لفظًا سنة خمسمائة، أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الصريفيني، حدثنا أبو طاهر المخلص...: قال: سمعت النابغة يقول أنشدتُ النبي ﷺ:

بَلَغْنَا السَّماءَ مَجْدَنَا وَجُدُودَنَا ... وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ

(١) عبد الهادي رضا محبوبة «من رسائل نظام الملك: الوزير السلجوقي» ص٢٨-٣٢.

فقال: **أين المطهر يا أبا ليلى؟** قلتُ: الجنة. قال: **أجل إن شاء الله تعالى**»[(١)].

وقد اشتُهرت عن الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله الأحاديث المقفويَّة، ولعلها أحاديث عن النبي ﷺ كان أحد ناقليها، وقد أخبرنا العلامة ابن حجر العسقلاني بهذا الأمر إذ قال: «المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين، رُوِّينا من طريقه الأحاديث المقفويَّة»[(٢)].

واللافت أن بعض العلماء كان يسأله أن يأخذ عنه العلم سماعًا وهو إمام المسلمين وخليفتهم، وكان يقبل بكل رضًا وسرور، رغم انشغاله بشئون الخلافة؛ فمن هؤلاء العلامة الحافظ السمعاني المروزي (ت٥٦٢هـ) الذي يقول: «كتبتُ إليه قُصَّة (ورقة) أسأله الإنعام بالإذن في السماع منه، فأنعمَ، وفتش على الجزء، ونفَّذه إليَّ على يد إمامه ابن الجواليقي، فسمعته من ابن الجواليقي عنه، حدثنا أبو منصور ابن الجواليقي، أخبرنا المقتفي لأمر الله.. فذكر حديثًا»[(٣)].

ولذلك لما مات الخليفة المقتفي لأمر الله عام ٥٥٥هـ، أُقيمت سرادقات العزاء في كثير من عواصم البلدان الإسلامية، وعزَّاه الفقهاء والعلماء، لما لمسوه فيه من علم وتربية، وكان ممَّن حضر عزاءه في دمشق الحافظ العلامة ابن عساكر، الذي قال: «وحضرنا عزاء أمير المؤمنين المقتفي لأمر الله في الجامع بدمشق حين أتانا الخبر بموته»[(٤)].

وكان الخليفة الناصر لدين الله أحمد بن الحسن (ت٦٢٢هـ) لا يقلُّ عظمة وعلمًا وتربيةً؛ حتى إنه كان من الخلفاء القلائل الذين أعادوا هيبة مؤسسة الخلافة وقوتها، ورغم انشغاله التام في أمور الخلافة، واستتباب أحوالها، ومراعاة شئونها إلاَّ أن أثر التربية قد بدا عليه من خلال اشتغاله وتعلُّمه لعلم الحديث؛ فقد صنَّف كتابًا سماه: «روح العارفين»، يشتمل على أحاديث رواها عن شيوخ أجازوا له؛ منهم أبو الحسين ابن يوسف، وأذن بالإجازة فيه لجماعة، وقُرِئَ هذا الكتاب بجوامع مدينة السلام (بغداد)

---

(١) ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ١/ ٢٤٦، ٢٤٧.

(٢) ابن حجر: تبصير المنتبه بتحرير المشتبه ٣/ ١٣٨٤.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٩٩، ٤٠٠.

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٥/ ٣٩٩.



في أكثر من مائة موضع ويغيرها»[١].

وفي القرن السابع الهجري بدأت الخلافة العباسية بالمغيب نهائيًا، وكانت معاصرة للحكم الأيوبي حينئذٍ، وما يلفت الانتباه في الدولة الأيوبية، رغم تشرذمها السياسي والعسكري بعد وفاة صلاح الدين -رحمه الله- أنها كانت دولة تحرص على بناء المدارس والكليات ومكاتب تدريس وتعليم القرآن الكريم، ومع هذا الاهتمام من قِبَلِ المؤسسة السياسية؛ سواء في القاهرة أم دمشق أم حتى في الكرك، إلاَّ أننا وجدنا آثار النظام التربوي والحضاري على أمراء البيت الأيوبي نفسه، وكان منهم مَنْ يهتم بالعلوم العقلية والطبية كالكامل الأيوبي، وثمة مَنْ أحب الشعر والأدب كالناصر الأيوبي، وهناك مَنْ عشق العلوم الشرعية والنقلية كصلاح الدين يوسف بن أيوب.

ومهما يكن فأمامنا كتاب اسمه «الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية»، وهو مجلد يحوي أشعار وأنثار الأمير الناصر داود بن عيسى بن محمد الأيوبي (ت٦٥٦هـ)، وما يهمنا فيه اهتمام أفراد العائلات الحاكمة وأهل المكانة والرئاسة بجمع تراث آبائهم في مجلدات تتسامر بها العائلة، ويتذكروا بها كم كان المتوفى رجل علم وثقافة، والجميل أن كاتب هذا المجلد هو ابنٌ للأمير المتوفى، ويُسمى الملك مجد الدين الحسن بن داود (ت٦٧٠هـ)، يقول في مقدمة هذا الكتاب السبب الذي دفعه إلى إتمامه وإخراجه: «كان والدي -آنسه الله بأُنسه، وأسكنه دار قدسه- ممَّنْ بذَّ[٢] فيهما حلبة أقرانه (أي النثر والشعر)، وتقدَّم على أهل زمانه، ولمَّا صار إلى ربه الكريم، وتجرَّع فراق كل صديق حميم، سألني سائلون من أقاربه وأولاده وذوي الاختصاص بمحبته ووداده أن أُرصِّع نثره ونظمه في ديوان جامع، يجلوه أبدًا على العيون والمسامع، وأن أسرد من كلامي في أثنائه ما يكون كفيلاً بمعرفته وأنبائه، فاستعفيتهم، فلما رأيتُ تنصُّلي يُغريهم بسؤال لا يصدّ عن بلوغ هذا المراد، أقدمتُ على الإجابة... ثم لم تزل الأشغال عن هذا المراد شاغلة... وأخي المظفَّر شهاب الدين غازي لا ينفكُّ يغزوني بجيش الطلب، ثُمَّ لا يقنعه غاية عن إدراكه ذلك الأرب، فحرَّك

(١) الذهبي: مختصر تاريخ الدبيثي ص١٠٢.

(٢) أي تقدّم وتميّز.

بصدق رغبتِهِ عزمي الحريص على تقييد تلك الأوابد، فأقبلتُ على إجابته إقبالاً أغتنمُ به صلة الأخ وبرَّ الوالد»[١].

هذه لمحات سريعة من آثار التربية الإسلامية على خلفاء وأمراء ووزراء الحضارة العباسية، فهم يتساوون مع شعوبهم ورعيتهم في الجانب التربوي ذاته، ولا يجرؤون على أن يكونوا أقل من المستوى الثقافي السائد في بيئتهم ومجتمعهم.

مناهج التربية العباسية

لا أقصد بهذا العنوان دلالاته الواقعية التي نعيشها اليوم من وجود مناهج منظمة في التربية، وآليات نظرية وعملية في جامعاتنا وعلى مستوى مدارسنا، أو حتى كمؤلفات مستقلة في فنون التربية ووسائل تنفيذها، وإنما أقصدُ ما يمكن استنباطه من المؤلفات التراثية التي تتناول العلاقة بالأطفال والشباب؛ سواء من الناحية الفقهية أو الناحية التربوية أو الناحية التاريخية على مستوى تدوين الحدث وتفصيلاته، ولما كانت بعض العلوم الحديثة لم تتبلور في تلك العصور كعلوم مستقلة؛ مثل علم الطب مثلاً، فقد كان لزامًا على الطبيب أن يعلم الرياضيات والفلسفة؛ كي يكون طبيبًا حاذقًا، وكذا الفيلسوف، فالتربية الإسلامية كانت شيئًا شبيهًا بهذا الحال الذي كانت عليها علوم كالطب والفلسفة، صحيح أن منهج التربية هو المنهج الذي جاء به الإسلام من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية، ورأينا بعض آثاره في الفصل الأول من هذا الكتاب، لكن ظهرت في الخلافة العباسية بعض الكتابات التي تناولت طرائق التعامل مع الأطفال حتى سن الشبيبة والفتوة، أعطتنا هذه الكتابات صورة قريبة عن روح التربية ومناهجها في هذا العصر، هذا فضلاً عما كان يُدرَّس في المكاتب والمدارس والجامعات وقتئذٍ.

وكما قَرَّرْنَا من قبل؛ فقد بدأت الحضارة العباسية تأخذ منحى فكريًّا وتربويًّا أعمق وأوسع وأشمل منذ مجيء الخليفة هارون الرشيد ومن بعده ابنه المأمون (ت٢١٨هـ)، الذي سمح بالاطلاع على ثقافة الآخر، وحينما تتنوع الروافد الثقافية والفكرية، ويأتي

(١) الحسن بن داود بن عيسى: الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية، عرض وتحليل عبد القادر أحمد عبد القادر، منشورات مجلة آفاق الثقافة والتراث ص١٥٤. دبي، العدد الرابع والثلاثون — يوليو ٢٠٠١م.

مجتهدون راسخون قادرون على قراءة وإعمال النصوص الشرعية الظنية وفق مستجدات العصر، فلا مناص من التقدُّم الفكري والحضاري للأمة المسلمة، هذا مع تنفيذ هذه الأفكار والرؤى بصورة صحيحة تخدم مشروع الأمة التقدمي.

ومهما يكن، فقد تنوعت هذه المناهج وتداخلت بصورة قد تصعب علينا تتبع مسيرة تقدمها، أو حتى تمييزها عن بعضها، لكن بحسبنا تقسيمها إلى الجوانب العملية والجوانب النظرية؛ فمثلاً على المستوى العملي اهتم علماء الحديث والعلوم الشرعية - وقد كانوا المعبرين عن طموح الأمة على المستوى العملي والفكري - بالمحافظة على النظام التربوي والتعليمي في أوقاتهم؛ وذلك بدفع الأفكار والشائعات التي تشوِّه هذا الكيان، وثمة حادثة تبين لنا يقظة الضمير، وعظمة الوعي والإدراك والعلم لدى هؤلاء، قال سيف بن عمر - وهو أحد رجال المرويات الحديثية والتاريخية (ت ٢٠٠هـ): كنتُ عند سعد الإسكاف (أحد أصدقائه) فجاء ابنه يبكي فقال: ما لك؟ قال: ضربني المعلم. قال: أما لأخزينهم اليوم. حدثني عكرمة عن ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «**معلمو صبيانكم أشراركم؛ أقلهم رحمة لليتيم، وأغلظهم على المسكين**». وعلى الفور يُعَلِّق ابن عدي الجرجاني (ت٣٦٥هـ) وهو أحد الأعلام في معرفة الرجال وجرحهم على هذا الحديث بقوله: هذا حديث منكر موضوع، وقد اتفق في هذا الحديث ثلاثة من الضعفاء؛ فرووه: عبيد بن إسحاق الكوفي العطار، يلقب عطار المطلقات ضعيف، وسيف بن عمر الضبي كوفي، وسعد الإسكاف كوفي ضعيف، وهو أضعف الجماعة، فأرى -والله أعلم- أن البلاء من جهته[1].

فالرجل سوَّغ ودلل على تضعيف هذا الحديث الذي قاله سيف بن عمر؛ لأنه وجد أن ثمة ضعفاء لا يُعتدُّ برأيهم في المرويات التي نُقلت عن النبي ﷺ، والحق أن مثل هذا الحديث إن قبله الناس وارتضوه لهدم النظام التعليمي والتربوي الإسلامي، فهو كما نرى يُقلل من شأن المعلم، ويحطُّ من قدره!

هذه الحرب الفكرية على مناهج التربية والتفكير الإسلامية، لم تتوقف عند ذلك

(١) ابن عدي الجرجاني: الكامل في ضعفاء الرجال ٣/ ٤٣٥.

الموقف الصغير الذي أباده الجرجاني بتعليقه السابق؛ فقد كانت هذه الحرب تصل قوتها وضراوتها في بعض الأوقات بحيث لا يستطيع العلماء المدافعون عن المنهج التربوي والعقدي الإسلامي الوقوف أمامها؛ ومن ثَمَّ كان كل ما يستطيعون فعله هو الثبات والصبر، والإيمان بحقهم في الدفاع عن هذا النظام، ولا يحسبن القارئ أن هذا الدفاع هو نوع من الاستمساك بالرجعية والتخلف كما يُصور بعض المتغربين اليوم، إنما هو استمساك بالأصل التربوي برمته؛ لقد عاد الخليفة العباسي هارون الواثق (ت ٢٣٢هـ) إلى إثارة محنة خَلْق القرآن من جديد، وطلب أن تُدَرَّس هذه المسألةُ للصبيان في الكُتَّاب، فضجَّ الفُقهاءُ والمحدثون لهذا الأمر، وكادت أن تقع فتنة لولا أن الإمامَ أحمد بن حنبل - رحمه الله- أمرهم بالصبر حين قصدوه يُعلِنُون تبرُّمَهم من هذا الأمر، وعلم الواثقُ بخبر هذا الاجتماع، فأرسلَ إلى الإمام أحمد: أن لا يجتمعنَّ إليك أحدٌ، ولا تُساكنِّي بأرضٍ ولا مدينةٍ أنا فيها، فاذهب حيثُ شئتَ من أرض الله. فلزم الإمام أحمد بيته لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق، وذلك سنة (٢٣٢ هـ)[١]، وولي المتوكلُ، فأمر بعد سنتين من خلافته - أي سنة (٢٣٤ هـ) بالعدول عن القرارات السابقة، والإذعان لما ارتآه العلماء والفقهاء[٢].

أما فلسفة التربية الإسلامية وتَعَلُّم العلم، فقد كان بعض كبار العلماء والمتفقهة ورجال الزهد يبينونها لطلبة العلم، ويُبينون لماذا يتعلمون العلم والغاية منه؛ فقد مرّ الشبلي[٣] (ت ٣٣٤هـ) على غلام وأمامه قارورة يكتب الحديث قال: «يا غلام؛ إن شغلَك بها يُشغلك عن المراد بها. فقال له الغلام: يا شيخ؛ أفلا يُكتب حديث رسول الله ﷺ؟ فقال: إن كنتَ إذا وضعتَ القلم ورفعته كان وجودُك ذكرُ الحق تبارك و تعالى فاكتب وإلا فهو عليك»[٤].

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١١/ ٢٦٤.
(٢) السابق ١١/ ٢٦٥.
(٣) هو دلف بن جحدر الشبلي: ناسك، كان في مبدأ أمره واليًا في دنباوند (من نواحي رستاق الري) وولي الحجابة للموفق العباسي، وكان أبوه حاجب الحجاب، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة، فاشتهر بالصلاح، توفي عام (٣٣٤هـ). الزركلي: الأعلام ٢/ ٣٤١.
(٤) البيهقي: شعب الإيمان ٢/ ٣٠٤ ح ١٨٧٩.

والرائع أن العلاقة بين الصبيان ومعلميهم تناولتها المؤلفات الفقهية، وحددتها وأوصت العلماء والمؤدبين والمربين بالالتزام بها، فقد قال الفقيه المالكي المصري أشهب بن عبد العزيز (ت٢٠٤هـ): مؤدِّب الصِّبيان لا يضرب أكثر من ثلاثة أسواطٍ، فإن زاد اقْتُصَّ منه»[١]. أي إذا زاد في الضرب، أُخذ فضرب بما زاده على التلميذ في ضربه، وهذا من روعة الفقه الإسلامي الذي يبين لنا أنه لم يغفل عن مشاكل ومستجدات عصره.

وشدَّد العلامة البغدادي الماوردي الشافعي (ت٤٥٠هـ) على أن الضرب على قدر الحاجة، قال -رحمه الله- في كتابه الفقهي «الحاوي الكبير»: «يجوز لمعلِّم الصِّبيان أن يُؤَدِّبهم بالضرب استصلاحًا لهم، وهكذا الأب في ولده، والزوج عند نشوز امرأته، فإن تعدَّى أحد هؤلاء في الضرب إلى أن خرج فيه إلى حدِّ التَّلف، فهو قاتلٌ عمدًا يجب عليه القود»[٢].

ومما يُعجبُ له: الحرية التي كان عليها أصحاب الأقلام في تلك الأعصر، ونقدهم اللاذع في بعض الأحيان للثغرات التي يجدونها في تطبيق المنهج التربوي في أزمانهم، خاصة في أصحاب الطبقة الحاكمة، وعلاقتهم بأبنائهم، والتناقض الواضح الذي يجده الصبي بين المنهج الذي يتعلمه في مدرسته وجامعته وبين ما يجده من واقع مغاير يرى آباءه وطبقته يفعلون عكسه وضده!

ومن أجمل النقد الذي وجدته في هذا السياق، كان لمنصور بن الحسين الرازي[٣] (ت٤٢١هـ)، الذي يقول في كتابه «نثر الدرر»: «ما ينفع ولد الملك من تأديب المؤدبين إيَّاه؟! وهو يغدو ويروح فيراه على خلاف ما يأمره به المؤدبون، ولم يزل الباطل على نفوس الرجال أخفَّ محملاً، وأحلى طعمًا؛ فكيف الصبيان؟! المؤدب يأمر الغلام بألا يشتم أحدًا، ويتجنب المحارم، ويحسن خلائقه، ويعلمه من الفقه الأبواب التي لا غنى بمسلم عن

(١) محمد بن أحمد عليش: منح الجليل شرح مختصر خليل ٩/ ٣٥٧.
(٢) أبو الحسن الماوردي: الحاوي الكبير ٧/ ١٠٧٣.
(٣) هو منصور بن الحسين الرازي، أبو سعد الآبي: وزير، من العلماء بالأدب والتاريخ، من أهل الري، نسبته إلى (آبه) من قرى ساوة، ولي أعمالاً جليلة، وصحب الصاحب بن عباد، واستوزره مجد الدولة رستم بن فخر الدولة البويهي، صاحب الري. الزركلي: الأعلام ٧/ ٢٩٨.

معرفتها، ومن الشعر الشاهد والمثل، ومن الإعراب ما يصلح له لفظه، ومن الغزل أعفه؛ وهو يرى أباه في كل ساعةٍ بخلاف ما يؤمر به، وتاركًا لما حُضَّ عليه؛ حتى إنه ليستثقل اللفظة تجري في مجلسه بإعراب ويصد عن منشدٍ لبيت شعر، ولا يخاطب غلامه ولا يمازح جليسه إلاَّ بالشتم واللعنة، ولا يحتشم من ورود محرمٍ، ولا يتقي كبيرةً؛ ثم يراه مع ذلك وقد بلغ غاية آماله من الدنيا؛ فيوشك أن يحدث نفسه بأن أباه لا يخلو من أن يكون علم ما يسام فاطَّرحه، ورأى أنه لا خير فيه، أو لم يعلم شيئًا من ذلك فلم يضرُّه جهله إيَّاه، ولا صرف عنه حظًّا من دنياه، وكلا المذهبين مزهدٌ له في قبول الأدب، ومزينٌ له ترك عنائه، وربح تعبه فيه»[1].

صدق الآبي، وكأنه حين سطّر بقلمه هذه المعاني منذ ١٠٠٠عام وأكثر فكأنه يتكلم عن مشكلات عصرنا هذا، والحق أن هذا الضمير الحي الذي وُجد عليه علماء وفقهاء الأمة الإسلامية في تلك الأوقات، يمكن أن نسميه بالجهات الرقابية الفاعلة التي لا تخشى من قول الحق، ونشر الواقع المرِّ، ثم توجيه سهام النقد إن كان في توجيهها صلاح للمجتمع والأمة.

أما العلاقة التربوية والمنهجية بين المعلم والطالب ففيها من الشواهد الكثير، ولكن عبد الرحمن الشيزري (ت٥٩٠هـ) في كتابه الماتع « نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة»، وهو كتاب في الحسبة أصلاً، يُلَخِّص لنا طبيعة التعامل والتربية والتعليم بين المعلم والتلميذ؛ حتى إنه يضع صفات وسمات للمعلم الذي يجب أن يتخذه الناس لأبنائهم، ويرتضونه لهم، وقد خصص فصلاً في كتابه بعنوان «الحسبة على مؤدّبي الصبيان» كان مما جاء فيه: «يُشترط في المعلِّم أن يكون من أهل الصَّلاح والعفَّة والأمانة، حافظًا للكتاب العزيز، حسن الخطِّ، ويدري الحساب، والأَوْلَى أن يكون مزوَّجًا، ولا يفسح لعازبٍ أن يفتح مكتبًا لتعليم الصِّبيان إلاَّ أن يكون شيخًا كبيرًا، وقد اشتهر بالدِّين والخير، ومع ذلك فلا يؤذن له بالتَّعليم إلاَّ بتزكيةٍ مرضيَّةٍ وثبوت أهليَّته لذلك. وينبغي للمؤدِّب أنْ يترفَّق بالصغير، وأن يعلِّمه السُّور القصار من القرآن بعد حذاقته بمعرفة

(١) الآبي: نثر الدر ٣/ ١٠٨.

الحروف وضبطها بالشكل، ويُدرِّجه بذلك حتى يألفه طبعًا، ثم يُعرِّفه عقائد السُّنن، ثم أصول الحساب، وما يُستحسن من المراسلات، وفي وقت بطالة العادة يأمرهم بتجويد الخطِّ على المثال، ويُكَلِّفهم عرض ما أملاه عليهم حفظًا غائبًا لا نظرًا، ومَنْ كان عمره سبع سنين أمره بالصلاة في جماعةٍ؛ لأنَّ النبي ﷺ قال: «**علِّموا صبيانكم الصَّلاة لسبعٍ واضربوهم على تركها لعشرٍ**». ويأمرهم ببرِّ الوالدين والانقياد لأمرهما بالسمع والطاعة والسلام عليهما، وتقبيل أياديهما عند الدُّخول إليهما، ويضربهم على إساءة الأدب والفحش من الكلام، وغير ذلك من الأفعال الخارجة عن قانون الشرع؛ مثل: اللعب بالكعب، والبيض، والنَّرد، وجميع أنواع القمار، ولا يضرب صبيًّا بعصًا غليظةٍ تكسر العظم، ولا رقيقةٍ لا تُؤلم الجسم بل تكون وسطًا، ويتَّخذ مجلَّدًا عريض السير، ويعتمد بضربه على الألايا والأفخاذ وأسافل الرِّجلين؛ لأنَّ هذه المواضع لا يُخشى منها مرضٌ، ولا غائلةٌ، وينبغي للمؤدِّب أن لا يستخدم أحد الصِّبيان في حوائجه وأشغاله التي فيها عارٌ على آبائهم: كنقل التُّراب والزِّبل، وحمل الحجارة، وغير ذلك، ولا يرسله إلى داره وهي خاليةٌ لئلاَّ يتطرَّق إليه التُّهمة»[1].

هذه بعض القوانين التي كان يضعها علماء الحِسبة، وهم العلماء المسئولون عن مراقبة المجتمع، وانقياده وفق الشرع، وعدم اختلال موازينه، وللأسف هذه الوظيفة أصبحت مفتقدة الآن في مجتمعاتنا، وهي وظيفة في غاية الأهمية؛ لأنها تُراقب الذوق العام للمجتمع وثقافته، بما في ذلك علاقة هذا المجتمع بأبنائه وصغاره، وهذا من روائع حضارتنا السبَّاقة.

لكن أجمل وأعجب من ذلك، ما قام به العلامة أبو حامد الغزالي حجة الإسلام (ت٥٠٥هـ) في كتابه «إحياء علوم الدين»، وهو كتاب يُعنى بأحوال النفوس، وكيفية علاجها، وعرض أمراضها، فهو مصنف ضمن مؤلفات الرقائق والزهد والتصوف، لكن أنْ نجد في هذا الكتاب فصلاً كاملاً عقده عن الأطفال، وطريقة تربيتهم وتفهيمهم وتعليمهم، فهذا يُستغرب له لأول وهلة، ولكن يزول مثل هذا الاستغراب إذا علمنا أن

(١) عبد الرحمن بن نصر الشيزري: نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة ص١٠٣

فقه وفهم الغزالي كان أشمل بكثير؛ بحيث جعل هذا الكتاب دواءً لتصحيح أسقام الأمة[(١)].

إن هذا الفصل يستعرض فيه الغزالي -رحمه الله- ماهية نفس الطفل وطرائق التعامل معه، وكيفية تأديبه، وهو يجمع معظم العلوم الإنسانية التي تناولت الأطفال في عصره، فهو فصل تربوي اجتماعي نفسي، بل وعملي تطبيقي، ومما جاء فيه: «اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها، والصبيان أمانة عند والديه، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة، وهو قابل لكل ما نُقش، ومائل إلى كل ما يُمال به إليه، فإن عُوِّد الخير وعلمه؛ نَشَأَ عليه وسعد في الدنيا والآخرة، وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب، وإن عُوِّد الشرَّ وأُهمل إهمال البهائم؛ شقي وهلك وكان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له، وقد قال الله ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا**﴾ [التحريم: ٦]، ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى، وصيانته بأن يُؤَدِّبه ويُهَذِّبه ويُعَلِّمه محاسن الأخلاق، ويحفظه من القرناء السوء ولا يُعَوِّده التنعم، ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر؛ فيهلك هلاك الأبد، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره... ومهما رأى فيه مخايل التمييز، فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال، فليس ذلك إلاَّ لإشراق نور العقل عليه، حتى يرى بعض الأشياء قبيحًا ومخالفًا للبعض، فصار يستحي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى إليه، وبشارة تدلُّ على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب، وهو مُبَشِّر بكمال العقل عند البلوغ؛ فالصبي المستحي لا ينبغي أن يُهْمَل، بل يُستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه... ومهما رأى على صبي ثوبا من إبريسَم[(٢)] أو ملون فينبغي أن يستنكره ويذُمَّه، ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عُوِّدوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة، وعن مخالطة كل مَنْ يُسمعه ما يُرَغِّبه فيه؛ فإن الصبي مهما أهمل في ابتداء نشوئه، خرج في الأغلب رديء الأخلاق، كذابًا حسودًا سروقًا نمامًا لحوحًا، ذا فضول وضحك وكياد ومجانة، وإنما يُحفظ

---

(١) هذا مع التحفظ على بعض ما جاء فيه من أحاديث موضوعة، وبعض الحوادث الصوفية الغريبة.
(٢) أي الحرير. الزبيدي: تاج العروس ٣١/ ٢٧٦.

عن جميع ذلك بحسن التأديب، ثم يشتغل في المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم؛ لينغرس في نفسه حب الصالحين... ثم مهما ظهر من الصبي خُلقٌ جميل، وفعل محمود فينبغي أن يُكرم عليه، ويجازى عليه بما يفرح به ويُمدح بين أظهر الناس، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يُتغافل عنه، ولا يُهتك ستره، ولا يكاشفه... فإن إظهار ذلك عليه، ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة، فعند ذلك إن عاد ثانيًا فينبغي أن يُعاتب سرًّا، ويعظم الأمر فيه، ويقال له: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا، وأن يطلع عليك في مثل هذا، فتفتضح بين الناس. ولا تُكثر القول عليه بالعتاب في كل حين، فإنه يهون عليه سماع الملامة، وركوب القبائح، ويسقط وقع الكلام من قلبه، وليكن الأبُ حافظًا هيبة الكلام معه، فلا يوبخه إلاَّ أحيانًا، والأم تخوفه بالأب، وتزجره عن القبائح، وينبغي أن يمنع عن النوم نهارًا فإنه يورث الكسل، ولا يمنع منه ليلاً، ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه، فلا يصبر عن التنعم، بل يُعَوَّد الخشونة في المفرش والملبس والمطعم[1]، وينبغي أن يُمنع من كل ما يفعله في خفية، فإنه لا يخفيه إلاَّ وهو يعتقد أنه قبيح، فإذا تُرِك تَعَوَّدَ فعلَ القبيح، ويُعوَّدُ في بعض النهار المشي والحركة والرياضة؛ حتى لا يغلب عليه الكسل... ويُمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه، أو بشيء من مطاعمه وملابسه أو لوحه ودواته، بل يُعوَّد التواضع والإكرام لكل مَنْ عاشره، والتلطف في الكلام معهم، ويُمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئًا بدا له حشمة، إن كان من أولاد المحتشمين، بل يُعلَّم أن الرفعة في الإعطاء لا في الأخذ، وأن الأخذ لؤم وخسَّة ودناءة، وإن كان من أولاد الفقراء فليعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة، وأن ذلك من دأب الكلب، فإنه يبصبص في انتظار لقمة والطمع فيها، وبالجملة يقبح إلى الصبيان حُبّ الذهب والفضة والطمع فيهما، ويحذر منهما أكثر مما يحذر من الحيات والعقارب؛ فإن آفة حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان، بل على الأكابر أيضًا، وينبغي أن يُعوَّد أن لا يبصق في مجلسه، ولا يمتخط، ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يستدبر غيره، ولا يضع رجلاً على رجل، ولا يضع كفه تحت ذقنه، ولا يعمد رأسه بساعده، فإن ذلك دليل الكسل، ويُعلَّم

(١) قد يكون ذلك غير ملائم لبعض الصبيان والشباب، وإنما تُربى الحالة بحسب ظروفها وواقعها وما يصلح لها.

كيفية الجلوس، ويمنع كثرة الكلام، ويبين له أن ذلك يدل على الوقاحة، وأنه فعل أبناء اللئام، ويمنع اليمين (الحلف) صادقًا كان أو كاذبًا؛ حتى لا يعتاد ذلك في الصغر، ويُمنع أن يبتدئ بالكلام، ويُعوَّد أن لا يتكلم إلاَّ جوابًا، وبقدر السؤال، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنًّا، وأن يقوم لمن فوقه، ويُوسع له المكان، ويجلس بين يديه، ويُمنع من لغو الكلام وفحشه، ومن اللعن والسب، ومن مخالطة مَنْ يجري على لسانه شيء من ذلك؛ فإن ذلك يسري لا محالة من القُرناء السوء، **وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء**، وينبغي إذا ضربه المعلم أن لا يكثر الصراخ والشغب، ولا يستشفع بأحد، بل يصبر ويذكر له أن ذلك دأب الشجعان والرجال، وأن كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان، وينبغي أن يُؤذن له بعد الانصراف من الكُتَّاب أن يلعب لعبًا جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب؛ بحيث لا يتعب في اللعب، فإن منعَ الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائمًا يُميت قلبه، ويبطل ذكاءه، وينغِّص عليه العيش؛ حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسًا، وينبغي أن يُعلَّم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه، ومَنْ هو أكبر منه سنًا من قريب وأجنبي، وأن ينظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم، وأن يترك اللعب بين أيديهم، ومهما بلغ سن التمييز فينبغي أن لا يُسامَح في ترك الطهارة والصلاة، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان، ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب، ويُعلَّم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع، ويُخوَّف من السرقة وأكل الحرام، ومن الخيانة والكذب والفحش، وكل ما يغلب على الصبيان، فإذا وقع نشوّه كذلك في الصبا فمهما قارب البلوغ أُمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور، فيُذكر له أن الأطعمة أدوية، وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله ﷻ، وأن الدنيا كلها لا أصل لها إذ لا بقاء لها، وأن الموت يقطعُ نعيمها، وأنها دار ممرٍّ لا دار مقرٍّ، وأن الآخرة دار مقرٍّ لا دار ممرٍّ، وأن الموت منتظر في كل ساعة، وأن الكيس العاقل من تزوَّد من الدنيا للآخرة؛ حتى تعظم درجته عند الله تعالى، ويتسع نعيمه في الجنان، فإذا كان النشو (أي النشئ من الأطفال) صالحًا كان هذا الكلام عند البلوغ واقعًا مؤثِّرًا ناجعًا، يثبُتُ في قلبه كما يثبت النقش في الحجر، وإن وقع النشو بخلاف ذلك حتى أَلِفَ الصبي اللعب والفحش والوقاحة وشره الطعام واللباس والتزين والتفاخر، نبا قلبه عن قبول الحق نبوة الحائط عن التراب اليابس، فأوائل الأمور



هي التي ينبغي أن تراعى، فإن الصبي بجوهره خُلق قابلاً للخير والشر جميعًا، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين قال ﷺ: **كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه**»[١].

ثم يؤكد الغزالي هذه الوصايا التربوية المهمة بقصة تربية ونشوء سهل بن عبد الله التستري، الذي قال: «كنتُ وأنا ابن ثلاث سنين أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار، فقال لي يومًا: ألا تذكر الله الذي خلقك؟ فقلتُ: كيف أذكره؟ قال: قل بقلبك عند تقلُّبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك: الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهدي. فقلتُ ذلك ليالي ثم أعلمته، فقال: قل في كل ليلة سبع مرات. فقلتُ ذلك ثم أعلمته، فقال: قُل ذلك كل ليلة إحدى عشرة مرة. فقلته فوقع في قلبي حلاوته، فلما كان بعد سنة قال لي خالي: احفظ ما علَّمتك، ودُم عليه إلى أن تدخل القبر، فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة. فلم أزل على ذلك سنين، فوجدتُ لذلك حلاوة في سرِّي، ثم قال لي خالي يومًا: يا سهل؛ مَنْ كان الله معه وناظرًا إليه وشاهده أيعصيه؟! إياك والمعصية. فكنتُ أخلو بنفسي فبعثوا بي إلى المكتب (الكُتَّاب) فقلتُ: إني لأخشى أن يتفرق عليَّ همي، ولكن شارطوا المعلم أني أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع، فمضيتُ إلى الكُتَّاب فتعلمتُ القرآنَ وحفظته وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين، وكنتُ أصوم الدهر وقُوتي من خبز الشعير اثنتا عشرة سنة، فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة، فسألتُ أهلي أن يبعثوني إلى أهل البصرة لأسأل عنها، فأتيتُ البصرةَ فسألتُ علماءها فلم يشف أحد عني شيئًا، فخرجتُ إلى عبادان[٢] إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن أبي عبد الله العباداني، فسألته عنها فأجابني، فأقمتُ عنده مدة أنتفع بكلامه وأتأدبُ بآدابه، ثم رجعتُ إلى تستُر[٣] فجعلتُ قُوتي اقتصادًا على أن يُشترى لي بدرهم من الشعير، فُيطحن ويُخبزُ لي فأفطر عند السحر على أوقية، فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة، ثم عزمتُ على أن أطوي ثلاث ليال ثم أفطر ليلة، ثم خمسًا، ثم سبعًا، ثم خمسًا وعشرين ليلة، فكنت على ذلك

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين ٣/ ٧٢ — ٧٣.
(٢) مدينة تقع جنوب غرب إيران على شط العرب، تُرى مدينة البصرة العراقية منها بالعين المجردة.
(٣) مدينة تستُر تقع الآن في إيران شمال منطقة الأحواز العربية واسمها الحالي شوشتر.

عشرين سنة، ثم خرجتُ أسيحُ في الأرض سنين، ثم رجعت إلى تستر، وكنت أقوم الليل كله ما شاء الله تعالى، قال أحمد (أحد المقربين له): فما رأيته أكل الملح حتى لقي الله تعالى»(١).



(صورة رقم ٢ مدينة تستُر الإيرانية).

ومهما يكن من استشهاد العلامة الغزالي بقصة تنشئة الزاهد العابد سهل بن عبد الله التستري، إلاّ أن وصاياه التربوية والتأديبية تدلل بوضوح على العقلية التربوية التي كانت سائدة عند العلماء والفقهاء والمتصوفة آنئذٍ، وتؤكد لنا أن التأديب والتربية الأخلاقية كانت قرينة التعليم، حتى إن بعض طلاب العلم كان يرحل من مدينة لأخرى طلبًا للتأديب والتربية القويمة، وليس للعلم فقط!

محافل التربية

كانت المساجد والجوامع منذ عصر النبوة هي الأماكن المناسبة للتربية والتعليم،

واستمر الدور المنوط بهذه المساجد في ظلِّ الخلافة العباسية ما يقرب من ٣٥٠ عامًا، حتى ظهرت الفتاوى التي تمنع إقامة حلقات العلم في بيوت الله، كما سنرى بعد قليل، وإن لم تتوقف الحِلَقُ رغم ذلك، ولقد كان لحلقات العلم في المساجد دورها العظيم في إخراج أجيال راسخة في العلم، ولم يكن يُنظر لسن المعلم أو حجم حلقته، بقدر ما كان يُنظر إلى علمه، وكان الناس من الفطنة والثقافة بحيث يختارون مَنْ يصلح لهم لتعليمهم وتثقيفهم وتربيتهم، وهذا نجده مع الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت -رحمه الله- (ت١٥٠هـ) حينما اختاره الناس وهو شاب يافع لتعليمهم وتثقيفهم، وتفضيلهم له على غيره رغم كونه لا يزال شابًّا في مقتبل العمر، قال داود الطائي: «كان مفتي الناس بالكوفة حماد بن أبي سليمان، وكان لحماد ابنٌ يقال له: إسماعيل بن حماد بن أبي سليمان. فلما جاء موت حماد أجمعوا أن يكون إسماعيل يجلس لهم ويصبر عليهم، فنظروا فإذا الغالبُ عليه الشعر والسمر وأيام الناس، فقال أبو حصين وحبيب بن أبي ثابت: إن هذا الخزاز[1] حسن المعرفة، وإن كان حَدَثًا فأجلسوه. ففعلوا وكان رجلاً (أي أبو حنيفة رحمه الله) موسرًا سخيًّا ذكيًّا، فجلس وصبّر نفسه عليهم، وأحسن مؤاساتهم، وحباهم، وأكرمه الحكام والأمراء، وارتفع شأنه، فاختلفت إليه الطبقة العليا (من تلامذته)، ثم جاء بعدهم أبو يوسف، وأسد بن عمرو، والقاسم بن معن، وأبو بكر الهذلي، والوليد بن أبان، وكان الذين يناصبونه ويتكلمون فيه: ابن أبي ليلى، وابن شبرمة، والثوري، وشريك، وجماعة يخالفونه ويطلبون له الشين (أشي الشيء السيء)، وجُعِل أمره يزداد علوًا، وكثر أصحابه حتى كانت حلقته أعظم حلقة في المسجد، وأوسعهم في الجواب، فصبر عليهم، واتسع على كل ضعيف منهم، وأهدى إلى كل موسر، فانصرفتْ وجوه الناس إليه، حتى أكرمه الأمراء والحكام والأشراف، وقام بالنوائب وحمده الكل، وعمل أشياء أعجزت العرب، وقوي على ذلك بالعلم الواسع، وأسعدته المقادير فكثر حساده، قال: وكان يقول: القاضي مثل السابح في البحر كم يسبح ومن يرضى وإن كان عالمًا»[2].

(١) بائع الثياب. ابن منظور: لسان العرب، مادة خزز ٥/ ٣٤٥.
(٢) حسين بن علي الصيمري: أخبار أبي حنيفة ص٢٢.

وانتشرت هذه الحِلق في جميع أرجاء الخلافة، فقد كانت مدينة مرو[(١)] شأنها شأن بقية أصقاع الخلافة العباسية، تهتم بالعلوم والعلماء، وكانت مجالس العلم التي يُشرف عليها كبار علماء المدينة منتشرة مستوعبة لأهل المدينة، غير مفرقة بينهم، ومن الطريف أن نجد لأحد علماء مرو أربعة مجالس مختلفة في علوم متفاوتة، يستفيد بها أهل المدينة استفادة جمة، ويبدو أن الرجل كان متمكنًا متبحرًا في هذه المجالس كلها، لدرجة أن الناس قد أطلقوا عليه «الجامع»، إنه نوح بن أبي مريم بن جمونة المروزي (ت١٧٣هـ)، لُقِّب بالجامع «لأنه أول مَنْ جمع فقه أبي حنيفة، وقيل: لأنه كان جامعًا بين العلوم، له أربعة مجالس؛ مجلس للأثر، ومجلس لأقاويل أبي حنيفة، ومجلس للنحو، ومجلس للشعر. روى عن الزهري ومقاتل ابن حيان، مات سنة ثلاث وسبعين ومائة، وكان على قضاء مرو لأبي جعفر المنصور»[(٢)].

وكان كبار العلماء يُعَلِّمون الصبيان في هذه الحلق، ويهتمون بهم، ويجعلون ميعاد درسهم عقب حلقة الشباب والرجال، وثمة قصة طريفة تبين لنا هذا؛ فقد كان سليم بن أيوب الرازي (ت٤٤٠هـ) الإمام من أهل قسطانة[(٣)] مما يلي طريق بغداد، وكان قد تفقه بالرّي، وقد خرج من بلده إلى بغداد، فتفقه على أبي حامد الإسفراييني[(٤)]، فلما مات أبو حامد جلس في موضعه للتدريس، فبلغ أباه بقسطانة أن رئاسة أصحاب الشافعي قد انتهت إلى ابنك ببغداد، فخرج من قريته وقصد بغداد ودخل القطيعة، وكان يدرس في مسجدٍ، وقد فرغ من الدرس الكبير، وهو يذكر درس الصبيان الصغار، فوقف على الحلقة، وقال: سليم! إذا كنتَ تُعلِّم الصبيان ببغداد فارجع إلى القرية؛ فإني أجمع لك صبيانها وتعلمهم وأنت عندنا!

(١) مدينة في بلاد ما وراء النهر، وكانت لها مكانتها في الجهاد والغزو، وهي الآن عاصمة منطقة ماري في دولة تركمانستان ويقدر عدد سكانها ١٢٣ ألف نسمة، تقع مدينة مرو على ضفاف نهر المرغاب.

(٢) ابن قطلوبغا: تاج التراجم في طبقات الحنفية ص٧.

(٣) في إيران حاليًا.

(٤) هو أحمد بن محمد بن أحمد الإسفراييني، أبو حامد: من أعلام الشافعية، ولد في إسفرايين (بالقرب من نيسابور) ورحل إلى بغداد، فتفقه فيها وعظمت مكانته، وألف كتبًا؛ منها مطول في (أصول الفقه)، ومختصر في الفقه سماه (الرونق)، توفي ببغداد سنة ٤٠٦هـ. الزركلي: الأعلام ١/ ٢١١.



فقام سليم من الدرس، وأخذ بيد أبيه ودخل به إلى بيته، وقدَّم إليه شيئًا من المأكول، وخرج ودفع المفتاح إلى بعض أصحابه، وقال: إذا فرغ أبي من الأكل فادفع إليه المفتاح، وقل: كلُّ ما في البيت بحكمك. وخرج سليم من فوره إلى الشام وأقام بها، وصنف ودرس، وفيها انتشر علمه»[1].

وطرافة هذه القصة تأتي من لهفة الوالد الذي أراد أن يرى ابنه الذي بلغ شأوًا كبيرًا، ومنزلة رفيعة في عاصمة الخلافة الإسلامية بغداد، وقد كان ولده هكذا بالفعل، لكن الرجل صادف أن رأى ابنه وهو يعلِّم صبيان المدينة، فكأنه استصغر شأنه، وأنف أن يقطع ابنه كل هذه المسافات، ويبتعد عنه كل هذا الزمن لأجل صبية صغار متواجدين في قريته النائية، لكن سليمًا تعامل مع والده الكبير بما يعلمه عن والده، ثم تركه في بغداد وذهب إلى الشام ليكمل علمه، وقد يكون هروبه من والده ليستطيع إكمال مسيرته العلمية، ولا يكون ذلك عقوقًا لوالده، لكن الشاهد في هذه القصة أن أحد كبار علماء الشافعية في بغداد كان يُخَصِّص حلقة لتعليم صغار الأولاد والبنات، وهذا من جمال وروعة الحضارة الإسلامية!

وكانت بعض هذه الحلقات مخصصة للمناظرات العلمية، وكانت تُقام في الجوامع يحضرها الكبار والصغار، ليستفيدوا بها، ويتعرفوا على آراء الفقهاء والعلماء في المسائل المختلفة، وهذا دليل على حركية العلوم والفنون في المجتمع العباسي وقتئذٍ، فمن أشهر هذه الحلقات، حلقة العلامة شافع بن عبد الرشيد البغدادي الشافعي (ت٥٤٣هـ)؛ فقد «كانت له حلقة بجامع المنصور للمناظرة كل جمعة، يحضرها الفقهاء، وقال ابن الجوزي: كنتُ أحضر حلقته وأنا صبي»[2]. وقد حُق لابن الجوزي أن يكون علامة عصره، وفريد وقته في العلوم الشرعية، ذلك أن رؤية المجتمع الإسلامي للعلوم كانت بهذه الصورة المشرقة.

وحتى العامة كانوا يحضرون هذه المناظرات، ويُراقبون المتناظرين مراقبة شديدة،

(١) ابن الدمياطي: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ١/ ٩٣، ٩٤.
(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ١٦/ ٤٤.

جعلت بعضهم يعلم عن طريق ملامح وجه وسمات المتناظر إن كان مخطئًا أم مصيبًا، فلقد كان الشافعي -رحمه الله- يقول: «ناظرَ أبو حنيفة رجلاً، فكان (أي أبو حنيفة) يرفعُ صوته في مناظرته إياه، فوقفَ عليه رجلٌ، فقال الرجلُ لأبي حنيفة: أخطأتَ. فقال أبو حنيفة للرجل: تعرفُ المسألة ما هي؟ قال: لا. قال: فكيف تعرفُ أني أخطأتُ؟ قال: أعرفك إذا كان لك الحُجة تُرفِقُ بصاحبك، وإذا كانتْ عليك تشغَب وتجْلب»[1]!

وكانت هذه الحلق مقصد الأُسر، ومطمح كل مَنْ يرغب في العلم، حتى الوالد مع ولده، فلقد ذكر الحافظ السَّلَفِيُّ (ت ٥٧٦هـ) -وكان من علماء عصره في الحديث، وقد جاء إليه صلاح الدين الأيوبي للسماع والدرس في مقرِّه بالإسكندرية- أن شيخه محمد بن عبد الجبار الفرساني قال له: «حضرتُ مجلس أبي بكر بن أبي علي الذكواني المعدِّل (وكان من علماء الحديث الكبار في عصره ت٤١٩هـ) في صغري مع أبي، فلما فرغ من إملائه، قال إنسان: مَنْ أراد أن يحضر مجلس أبي نعيم، فليقم»[2]. فشيخ وأستاذ الحافظ السلفي كان يذهب مع أبيه ليتعلما سويًّا في حلقة الذكواني المعدل!

الكتاتيب العباسية

وبجانب الدور التربوي الذي كان على عاتق الأسرة المسلمة وبيوت الله، كانت هناك محافل وأماكن مخصصة لتربية الأولاد وتعليمهم وتأديبهم، منها المكاتب أو الكتاتيب التي كانت بمثابة مدارس ابتدائية وإعدادية في عصرنا هذا، وكانت هذه الكتاتيب إمَّا في بيوت وأماكن مخصصة يُقيمها المؤدب في بيته، أو يُنشئ لها مكانًا منفردًا، أو كانت في المساجد تقام عقب الصلوات أو قبلها كما رأينا من قبل، ثم رأى الفقهاء أن وجود الصبيان في المساجد يُسبب هرجًا وصخبًا لا تليق به، فظهرت فتاوى تُلزم المعلمين والمؤدبين بالخروج عن بيوت الله، وتأمرهم بتجهيز أماكن بديلة لهم، وكان ذلك في العقود الأخيرة من القرن الخامس الهجري، وهذه الحادثة ذكرها ابن كثير -رحمه الله- في تاريخه «البداية والنهاية» حيث قال في أحداث عام (٤٨٣هـ): استُفْتِيَ على معلمي الصبيان «أن يُمْنَعُوا من المساجد

---

(١) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٣/ ٤٣١.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤٥٩.

صيانة لها، فأُفتوا بمنعهم، ولم يُستثنَ منهم سوى رجل؛ كان فقيهًا شافعيًا يدري كيف تُصان المساجد، واستدلَّ المفتي بقوله عليه الصلاة والسلام: **سدوا كل خوخة[1] إلا خوخة أبي بكر..**»[2].

ومن ثَمَّ كانت هذه المكاتب أو مدارس الصبيان هي البديل لهذا الانتقال الذي أُصدر كقرار رسمي من الدولة، وفي هذه المكاتب وجدنا آليات وأساليب جميلة لطيفة في التربية والتقويم والتعليم، وكانت تلتزم بالغاية والثمرة المرجوَّة من ورائها؛ وهي إخراج طفل حافظ لكتاب الله وأحاديث من سنة النبي ﷺ، مع سمو أخلاقه، وطيب مشربه، وأدبه الرفيع؛ لذلك تفاوتت وسائل التربية ومناهجها من مكتب لآخر، وكان لهذا التنوع أثره الإيجابي على المستوى التربوي العام.

فمع القرآن والسنة كانت بعض المكاتب تُدَرِّس أشعار العرب، وتُنمي الأطفال ذوي المواهب في هذا المجال؛ فقد «وُلِدَ أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن المتنبي بالكوفة في محلة كندة سنة ثلاث وثلاثمائة، وقال الشعر وهو صبي في المكتب»[3]، وهذا ما يُدلل على أن مادة الشعر والأدب كان لها وجودها في مكاتب الأطفال!

وتعليم الحديث الشريف كان يتم ببعض الطرق الشيقة؛ حتى إن بعض علماء الحديث كان يُشارك الأطفال في مدارسته بغية عدم نسيانه وضياعه من ذاكرته؛ فقد «كان المحدِّث العلامة إسماعيل بن رجاء الكوفي (ت٤٢٣هـ) يجمع صبيان الكتاب ويحدِّثهم؛ كيلا ينسى حديثه»[4]!

ومثله العلامة ابْنُ طَبَرْزَذْ؛ عمر بن محمَّد بن معمر (ت ٦٠٧هـ)، وقد كان من كبار علماء عصره، وأعلمهم بحديث النبي ﷺ؛ حتى إنه حدَّث في كل من بغداد وإربل، والموصل، وحرَّان، وحلب، ودمشق، وغيرها، ومع ذلك كان يؤدب ويعلم الصِّبيان في

---

(١) هي بابٌ صغير كالنافذة الكبيرة تكون بين بَيتين يُنصَب عليها بابٌ. الزبيدي: تاج العروس ٧/ ٢٤٧.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٦٨.
(٣) ابن العديم: بغية الطلب في تاريخ حلب ص٦٤٤.
(٤) ابن حبان: الثقات ٦/ ٢٩.

محلّة «دار القزّ» ببغداد المنسوب إليها[١].

وكانت مناهج التربية في المدينة المنورة تختلف كثيرًا عما كان متبعًا في الولايات الأخرى، من حيث قراءة المتعلم على المعلم وليس العكس، وهذا الاختلاف جعلها مشهورة بالجودة والمكانة التربوية والتعليمية المرموقة؛ فقد كان المعلم والمؤدب أعلى منزلة، وأكثر احترامًا وإجلالاً، حتى كان دأب علماء المدينة ألاً يذهبوا لأحد من طلاب العلم مهما علا قدرهم، أو حتى كانوا أبناء خلفاء؛ فلقد ذكر الإمام الذهبي في «سير أعلام النبلاء» أنه لما قدم الخليفة المهدي العباسي (ت١٦٩هـ) المدينة المنورة، فبعث إلى مالك (ابن أنس العالم الفقيه)، فأتاه، فقال لهارون وموسى[٢]: اسمعا منه. فبعث إليه، فلم يجبهما، فأعلما المهدي، فكلّمه، فقال: يا أمير المؤمنين؛ العلم يُؤتى أهلُه. فقال: صدق مالك، صيرا إليه. فلما صار إليه، فقال له مؤدبهما: اقرأ علينا. فقال: إن أهل المدينة يقرءون على العالم، كما يقرأ الصبيان على المعلم، فإذا أخطأوا، أفتاهم. فرجعوا إلى المهدي، فبعث إلى مالك، فكلمه، فقال: سمعتُ ابن شهاب (شيخه ت١٢٤هـ) يقول: جمعنا هذا العلم في الروضة من رجال، وهم يا أمير المؤمنين: سعيد بن المسيب، وأبو سلمة، وعروة، والقاسم، وسالم، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار، ونافع، وعبد الرحمن بن هرمز، ومن بعدهم: أبو الزناد، وربيعة، ويحيى بن سعيد، وابن شهاب، كل هؤلاء يُقرأُ عليهم ولا يقرؤون، فقال: في هؤلاء قدوة، صيروا إليه. فاقرؤوا عليه. ففعلوا»[٣].

ومن العجيب أن ظاهرة ذهاب الوالد مع ولده لطلب العلم في الكتاتيب لم تنتفِ في العصر العباسي؛ فقد كان صاحب الدعوة العباسية يذهب للكُتّاب مع ولده! قال ابن المطهر في ترجمة أبي مسلم الخراساني: «هو أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم ولد بأصبهان، ونشأ عند إدريس بن عيسى جد أبي دلف، فكان مع ولده في المكتب إلى أن حفظ القرآن وروى الأشعار»[٤].

(١) الذهبي: العبر في خبر من غبر ٣/ ١٤٦.
(٢) ابنا الخليفة المهدي، وهما الهادي موسى (ت١٧٠هـ)، وهارون الرشيد (ت١٩٣هـ).
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٨/ ٦٤.
(٤) ابن المطهر: البدء والتاريخ ٦/ ٩٢، ٩٣.

وفي هذه المكاتب ظهر نبوغ علماء الأمة في المجالات المختلفة، وتفوُّقهم على أقرانهم؛ منهم ابن سينا الذي حكى لنا قصة تفوقه ونبوغه في هذه المكاتب، كما يصور لنا مناهج التربية والتعليم في شرق الخلافة العباسية بقوله: «لما بلغتُ سن التمييز سلَّمني أبي إلى معلم القرآن، ثم إلى معلم الأدب، فكان كل شيء قرأه الصبيان على الأديب أحفظُهُ، والذي كلفني أستاذي كتاب الصفات وكتاب غريب المصنف، ثم أدب الكاتب، ثم إصلاح المنطق، ثم كتاب العين، ثم شعر الحماسة، ثم ديوان ابن الرومي، ثم تصريف المازني، ثم نحو سيبويه، فحفظتُ تلك الكتب في سنة ونصف، ولولا تعويق الأستاذ لحفظتها بدون ذلك، وهذا مع حفظي وظائف الصبيان في المكتب. فلما بلغتُ عشر سنين كانوا في بخارى يتعجبون مني، ثم شرعتُ في الفقه، فلما بلغتُ اثنتي عشرة سنة صرتُ أفتي في بخارى على مذهب أبي حنيفة، ثم شرعتُ في علم الطب وصنفت القانون وأنا ابن ست عشرة سنة، فمرض نوح بن نصر الساماني، فجمعوا الأطباء لمعالجته فجمعوني -أيضًا- معهم، فرأوا معالجتي خيرًا من معالجات كلهم، فصلُح على يدي، فسألت أن يوصي لخازن كتبه أن يعيرني كل كتاب طلبتُ ففعل، فرأيت في خزانته كتب الحكمة من تصانيف أبي نصر بن طرخان الفارابي، فاشتغلت بتحصيل الحكمة ليلاً ونهارًا حتى حصلتها. فلما انتهى عمري إلى أربع وعشرين كنت أفكر في نفسي أنه لا شيء من العلوم لا أعرفه»[1]!

فهذا شابٌ في الرابعة والعشرين من عمره يجمع ما بين العلوم الشرعية واللغوية والعقلية، لا سيما الطب منها، وما يلفت الانتباه أن منهج التعليم كان مكثفًا كما نرى ما بين علوم لغوية ونحوية وأدبية وفقهية وصرفية، كما تُدلل عليه الكتب التي ذكرها، كل ذلك قبل أن يصل العاشرة من عمره! ولم يكن منهجًا مختصًّا بابن سينا، الذي تأفف من تأخير المعلم له وارتباطه زمنيًّا بمنهجه، أي كان منهجًا عامًّا على كل الطلبة من أقرانه، ثم قراءته لكل ما كان مكتبة الأمير الساماني، ولا شك أنها كانت خزانة مليئة بمئات الكتب، فقد كان السامانيون من أعاظم الأمراء في الشطر الشرقي من الخلافة العباسية، وهذا بحق من أعجب المناهج وأكثرها كثافة على تلاميذ نعدهم اليوم في المراحل الابتدائية التي لا يكادون يحسنون قراءة وكتابة وحفظًا لكتاب الله ﷻ!

(١) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد ص٢٩٩، ٣٠٠.

ولم تعدم الحضارة الإسلامية تلاميذ نابغين كابن سينا؛ فمثلاً «كان الشيخ نجم الدين كبرى من كبار علماء وأولياء عصره، وكان أيام صباه شديد الذكاء فطنًا،لم يُلْقِ مؤدبه إلى أقرانه في المكتب شيئًا من المشكلات إلاَّ سبقهم بثاقب ذهنه، فلقبوه الطامة الكبرى، ثم غلب عليه ذلك اللقب، فحذفوا الطامة ولقبوه بالكبرى، وليس غريبًا أن يموت شهيدًا مقدامًا أمام التتار -رحمه الله- عام ٦١٨هـ»(١).

وكانت للمكاتب وظيفة اجتماعية من حيث مشاركة الأطفال في الحياة العامة، فكما وجدنا من قبل في عصر الخلافة الراشدة حيث استقبل صبيان المكاتب ومؤدبوهم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ عند عودته من الجابية، وظلوا معه يومين كاملين، وجدنا دورهم في المشاركة بالدعاء في الصحراء للوالي المريض أحمد بن طولون، فقد رُوي أنه «لما اشتد مرض أحمد بن طولون والي مصر في علة الموت خرج المسلمون بالمصاحف، واليهود بالتوراة، والنصارى بالأناجيل، والمعلمون بالصبيان، وكثر الدعاء في الصحراء»(٢).

وثمة محافل أخرى موازية للمكاتب أو لعلَّها تلحقها في زمن الخلافة العباسية الأولى كانت بمثابة المحاضن العلمية والعملية لِمَنْ يُتوسَّم فيه أن يكون موظفًا في أحد الأماكن المرموقة في الدولة؛ فقد كان الوزير في زمن المأمون هو كاتبه وناشئ رسائله، وكان هذا الوزير ينتقي أفضل الصبيان ليتعلموا منه بصورة عملية، ويكونون تحت تدريبه وإدارته، وكان تعليمهم للكتابة والإنشاء يتم في القصور العباسية على مسمع ومرأى من الأحداث السياسية، بل وبجوار الخليفة نفسه، وهذا يُبين لنا الوعي والثقافة التي كانت فيها الحضارة الإسلامية وقتئذٍ، وكانوا يتعلمون بصورة عملية، ويتناوبون على الكتابة في غياب الوزير، لا سيما أوقات راحته بالليل، بحيث تكون هذه المهمة على مدار اليوم ليله ونهاره، فقد يعنُّ للخليفة أن يكتب كتابًا بالليل أو ما شابه، والقصة التالية تؤكد لنا كيف ربَّى المسلمون أبناءهم، وكيف ظهرت العبقرية الإسلامية ونبغت، وكيف كان تواضع الخلفاء وعلمهم الراسخ، وتواصلهم مع الصغار، قال ابن الطقطقى: «كان أبو أيوب سليمان بن وهب أحد كُتاب الدنيا ورؤسائها؛ فضلاً وأدبًا وكتابة، وأحد عقلاء العالم

---

(١) اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان ٤/ ٣٣.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ٥/ ٧٣.

وذوي الرأي منهم. حدَّث ابنه عبيد الله قال: حدثني أبي، قال: كان مبدأُ سعادتي أني كنتُ وأنا صبي بين يدي محمد بن يزداد وزير المأمون، وكنا جماعة من الصبيان بين يديه؛ إذا راح في الليل إلى داره بات واحدٌ منا في دار المأمون بالنوبة لمهم عساه يعرض في الليل. قال: فكانت ليلة نوبتي فخرج خادم، وقال: هاهنا أحد من نواب محمد بن يزداد؟ فقال الحُجاب له: نعم ها هو ذا. فأدخلني إلى المأمون، فقال لي: اعمل نسخة في المعنى الفلاني، ووسِّع بين سطورها وأحضرها لأُصلح منها ما أريد إصلاحه. قال: فخرجت سريعًا وكتبت الكتاب بغير نسخة، وبيَّضته وأحضرته إليه. فلما رآني قال: كتبت النسخة؟ قلت: بل كتبت الكتاب. فقال: بيَّضته؟ قلت: نعم. فزاد في نظره إليَّ كالمتعجب مني، فلما قرأه تبينتُ الاستحسان على وجهه، ورفع رأسه إليَّ وقال: ما أحسن ما كتبت يا صبي! ولكن أريد أن تُقَدِّم هذا السطر وتؤخِّر هذا السطر. وخطَّ عليهما بقلمه، فأخذتُ الكتاب وخرجتُ وجلست ناحيةً، ثم محوت السطرين وعملت ما أراد وجئته بالكتاب، وكان قد ظنَّ أني أُبطله وأكتب غيره، فلما قرأه لم يعرف موضع المحو، فاستحسنه، وقال: يا صبي لا أدري من أي شيء أعجب؛ أمن جودة محوك، أم من سرعة فهمك، أم من حسن خطك، أم من سرعتك؟! بارك الله فيك. فقبَّلْتُ يده وخرجتُ، وكان ذلك أول علو منزلتي، وصار المأمون لا يجري مهمٌّ إلاَّ قال: هاتوا سليمان بن وهب»[1].

ولنا أن نقيس على هذه القصة وظائف أخرى كالطب والهندسة والفلك، وهذا الموقف يبين لنا أن الحضارة الإسلامية قد اتخذت المنهج العلمي الحديث في تعليم العلوم منذ فترة مبكرة جدًّا من عمر الحضارة الإسلامية، هذا المنهج الذي يفتخر به الغربيون، ويسيرون على نهجه، بل ويؤكدون أنه كان أحد الأسباب الرئيسة لنهضة أمتهم ورفعتهم.

ومثل سليمان بن وهب وجدنا نجابة وذكاء وفطنة أبي القاسم النيسابوري علي بن محمد[2]، الذي ترقَّى في وظائف الدولة السامانية ليُصبح فيها بعد رئيس ديوان الإنشاء والكتابة بها؛ قال ابن أبي الدنيا عنه وعن أثر مؤدبه في ذكائه وفطنته وترقيه: هو «لسان

(١) ابن الطقطقى: الفخري في الآداب السلطانية ص١٨٠، ١٨١.

(٢) تناولت بعض المصنفات ترجمة أبي القاسم النيسابوري علي بن محمد مثل: الوافي بالوفيات للصفدي، وابن أبي الدنيا في قري الضيف، ولم يذكرا تاريخ وفاته، ولكن يبدو من ترجمته أن توفي في عصر الأمير عبد الملك الساماني، الذي تولى الحكم من عام ٣٤٣ إلى ٣٥٠هـ؛ ومن ثم تكون وفاة النيسابوري في حدود عام ٣٤٥هـ.

خراسان وغرتها وعينها وواحدها وأوحدها في الكتابة والبلاغة، ومَنْ لم يخرج مثله في البراعة والصناعة، وكان تأدَّب بنيسابور عند مؤدب بها يُعرف بالحسن بن المهرجان من أعرف المؤدبين بأسرار التأديب والتدريس، وأعلمهم وأدراهم بطريق التدريج في التخريج، ثم حرَّر مديدة[١] في بعض الدواوين، فخرج منقطع القرين، وواسطة عقد الفضل، ونادرة الزمان، وبكر الفلك»[٢].

وفي العهد الزنكي والأيوبي رجع المعلمون إلى زوايا كانت تُقام لهم بالمساجد وغرفًا ملاصقة لها؛ لتعليم الأطفال القرآن الكريم ومبادئ الدين الإسلامي في شتى المدن الزنكية؛ من ذلك الحلقة الكوثريَّة[٣] والمجتمع السُّبعي، وكلاهما في الجامع الأموي[٤]، ويبدو أن السبب في اتخاذ المساجد أمكنة لتعليم الصبيان يعود إلى أن كثيرًا من معلميهم كانوا يعتكفون في هذه المساجد، وكان يحترفون هذه المهنة؛ ليضمنوا منها كسب عيشهم، وهم مقيمون على عبادتهم في المساجد، فلزم حضور الصبية إليهم، ثم وُجدت الكتاتيب المستقلة، وقد أنشئ هذا النوع لتعليم الأيتام الذين فقدوا عائلهم، أو الأطفال غير القادرين من أبناء المسلمين من الفقراء الذين لم يكن في وسع ذويهم إرسالهم إلى الكتاتيب لتعليمهم بأجر، أو إحضار مؤدبين يعلمونهم في بيوتهم، وقد اهتم روَّاد التعليم في العهد الزنكي بإنشاء هذا النوع من الكتاتيب، وأكثروا منها في بلادهم، وأوقفوا عليها الأوقاف الكثيرة للصرف عليها رغبة في الأجر، وحرصًا على نشر العلم، وقد أُطلق على هذا النوع من الكتاتيب (مكاتب الأيْتام) أو مكاتب السَبيْل[٥].

وقد خصَّ ابن عساكر هذا النوع من الكتاتيب في حديثه عن أعمال الملك نور الدين محمود الخيرية، فقال: «ونصب جماعة من المعلمين لتعليم يتامى المسلمين، وأجرى الأرزاق على معلميهم وعليهم وبقدر ما يكفيهم، وكذلك صنع لمَّا ملك سنجار وحران والرها والرقة ومنبج وشيزر وحماة وحمص وبعلبك وصرخد وتدمر، فما من بلد منها إلاَّ

(١) أي فترة طويلة من الزمن.
(٢) ابن أبي الدنيا: قري الضيف ٤/ ١٠٨.
(٣) سميت بذلك؛ لأن القراء كانوا يبتدئون بقراءة سورة الكوثر حتى الختمة.
(٤) ابن جبير: الرحلة ص٢٤٤.
(٥) الصلابي: الدولة الزنكية ص٤٧٥.

وله فيه حُسن أثر، وما من أهلها أحد إلاَّ نظر له أحسن نظر»[١].

كما تحدث ابن جبير عن واحد من هذه الكتاتيب في دمشق، ووصفه بقوله: «وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به، ويُنفق منه على الصبيان ما يقوم بهم ويكسوتهم»[٢].

كما كان كثير من المحسنين في العهد الزنكي يبنون المدارس وبجانبها مكاتب الأيتام، حتى إذا أتمَّ الصبي تعليمه في الكُتَّاب انتقل إلى المدرسة -إن رغب في مواصلة دراسته- وله الجراية المستمرة أو النفقة الواسعة إلى أن يُنهي دراسته، ومن ذلك ما قام به الأمير مجاهد الدين قَايْمَاز والي القلعة في الموصل المتوفى سنة (٥٩٥هـ) إذ أنشأ مكتبًا للأيتام بالموصل بجانب مدرسته التي بناها على دجلة[٣].

وقد شاع ذلك العمل الخيري في كثير من المدن الزنكية؛ حيث وجدت العشرات من الكتاتيب تُنشأ ملاصقة للمدارس، أو قريبة منها، وقد قامت تلك الكتاتيب بأثر بارز في تنشئة الأطفال، وتربيتهم تربية إسلامية صحيحة، مع تعليمهم مبادئ القراءة والكتابة وجانبًا من العلوم الإسلامية المُتَّفِقة مع قدراتهم؛ لتكتمل تنشئة الصبية على أسس إسلامية متينة. وهكذا نرى أن للأطفال نصيبًا في المشروع الإسلامي النهضوي، الذي قاده نور الدين للتصدي للأخطار الباطنية والغزو الخارجي.

وعلى آثار نور الدين سار صلاح الدين ومَنْ أتوا من بعده من الأيوبيين في إنشاء المكاتب والمدارس الموقوفة، التي كان يُعنى فيها بطالب العلم تربويًا وأخلاقيًا وماديًا، ودلالة على وقوف الزنكيين والأيوبيين بكل قوتهم خلف إنشاء المحافل التربوية والعلمية، وجدناهم يهتمون بإنشاء المكاتب والمدارس في كل المدن حتى النائية منها؛ مثل جزيرة ابن عمر[٤]، التي

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥٧/ ١٢١.
(٢) ابن جبير: الرحلة ص٢٤٥.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٧٩.
(٤) جزيرة ابن عمر: منطقة سورية شمال غرب الموصل عند أقصى نقطة في شمال شرق سوريا بحدودها الحالية، والمراد بابن عمر الذي نُسبت إليه هو عبد العزيز بن عمر التغلبي، وهو رجل من أهل برقعيد من عمل الموصل، بناها فنُسبت إليه، وغالبية سكانها اليوم من الكرد والعرب بما فيهم السريان. موقع الموسوعة العالمية ويكيبيديا.

تخرج فيها الأخوة العلماء الثلاثة: أولهم: مجد الدين بن الأثير الجزري (ت٦٠٦هـ)، كان علاَّمة في التفسير والحديث والفقه والأصول واللغة. وثانيهم: عز الدين بن الأثير الجزري (ت٦٣٠هـ) وهو المؤرخ الشهير صاحب كتاب «الكامل في التاريخ» وعالم بالحديث وأنساب العرب. وثالثهم: ضياء الدين بن الأثير الجزري (ت٦٣٧هـ) أديب ونحوي ووزير من وزراء الأيوبيين. هؤلاء الثلاثة الأعلام الذين كانوا من أكابر العلماء في القرن السابع الهجري تخرَّجُوا في مدرسة ومكتب ناءٍ بجزيرة ابن عمر، التي كان يسكن فيها عدد قليل من الناس، وقد قال عنهم ابن خلكان: «كان الأخوة الثلاثة فضلاء نجباء رؤساء، لكل واحد منهم تصانيف نافعة، رحمهم الله تعالى»[1].

وفي هذه المكاتب الزنكية والأيوبية، تخرَّج الأعلام الكبار؛ ففي ظل الأيوبيين تخرَّج العلامة محيي الدين النووي (ت٦٧٦هـ) من هذه المكاتب والمدارس؛ قال الشيخ ياسين بن يوسف المرَّاكشي: «رأيتُ الشيخ وهو ابن عشر سنين بنوى، والصبيان يُكرهونه على اللعب معهم، وهو يهرب منهم ويبكي لإكراههم، ويقرأ القرآن في تلك الحال، قال: فوقع في قلبي محبته، وكان قد جعله أبوه في دكان، فجعل لا يشتغل بالبيع والشراء عن القرآن، قال: فأتيت معلِّمه فوصيته به، وقلت له: إنه يُرجى أن يكون أعلم أهل زمانه وأزهدهم، وينتفع الناس به. فقال لي: أمنجِّم أنت؟ فقلت: لا، وإنما أنطقني الله بذلك. قال: فذكر المعلِّم ذلك لوالده، وحرص عليه إلى أن ختم القرآن وقد ناهز الحلم»[2].

وهذا الموقف يُدلل على رقابة المجتمع، ونصيحة العلماء للمربين لمن يجدون فيه النباهة والعلم، مثلما فعل المراكشي، ونتيجة للجو الثقافي والعلمي المميز خرج الإمام النووي عالمًا مجتهدًا ناشرًا للعلم، صادحًا بالحق، لا يخشى في الله لومة لائم، وكانت بينه وبين السلطان الظاهر بيبرس – وهو مَنْ هو في القوة والشدة – مراسلات يُنبِّهه فيها على القرارات الإدارية الفاسدة، التي تخرج من القاهرة؛ منها دفاعه عن الفقهاء والعلماء، حيث ارتأت الدولة أن الفقيه لا يكون منزَّلاً (أي معلمًا ومدرسًا) في أكثر من مدرسة

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ٣٩٧.

(٢) ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٣٩٧، ٣٩٨.

واحدة، وهذا القرار رآه النووي مفسدًا؛ لأنه يُقلل من أرزاق الفقهاء، ويدخل غير العلماء في زمرة المعلمين؛ لذلك أرسل للسلطان في القاهرة هذه الرسالة التي ينقلها السخاوي بقوله: «بسم الله الرحمن الرحيم، خَدَمَة الشرع يُنبهون أن الله تعالى أمرنا بالتعاون على البر والتقوى، ونصيحة ولاة الأمور وعامة المسلمين، وأَخَذَ على العلماء العهد بتبليغ أحكام الدين ومناصحة المسلمين، وحثَّ على تعظيم حرماته، وإعظام شعائر الدين، وإكرام العلماء وأتباعهم. وقد بلغ الفقهاء بأنه رُسم في حقهم بأن يُغَيَّروا عن وظائفهم، ويُقطعوا عن بعض مدارسهم، فتنكَّدَتْ بذلك أحوالهم، وتضرروا بهذا التضييق عليهم، وهم محتاجون ولهم عيال، وفيهم الصالحون والمشتغلون بالعلوم، وإن كان فيهم أفراد لا يلتحقون بمراتب غيرهم فهم منتسبون إلى العلم ومشاركون فيه، ولا تخفى مراتب أهل العلم وفضلهم، وثناء الله تعالى عليهم، وبيانه مزيّتهم على غيرهم، وأنهم ورثة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وأن الملائكة عليهم السلام تضع أجنحتها لهم، ويستغفر لهم كل شيء حتى الحيتان. واللائق بالجناب العالي إكرام هذه الطائفة والإحسان إليهم، ومعاضدتهم ودفع المكروهات عنهم، والنظر في أحوالهم بما فيه من الرفق بهم، فقد ثبت في «صحيح مسلم» عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**اللهم مَن وَلِي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم، فارفق بهم**». وروى أبو عيسى الترمذي بإسناده عن أبي سعيد الخدري ﷺ، أنه كان يقول لطلبة العلم مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ؛ إن رسول الله ﷺ قال: «**إن رجالاً يأتونكم يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرًا**». والمسئول: أن لا يغيَّر على هذه الطائفة شيء، وتُستجلب دعوتهم لهذه الدولة القاهرة، وقد ثبت في «صحيح البخاري» أن رسول الله ﷺ قال: «**هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم**». وقد أحاطت العلوم بما أجاب به الوزير نظام الملك حين أنكر عليه السلطان صَرْفَ الأموال الكثيرة في جهة طلبة العلم، فقال: أقمت بها جندًا لا تردُّ سهامهم. فاستصوب فعله وساعده عليه. والله الكريم يُوَفِّق الجناب دائمًا لمرضاته، والمسارعة إلى طاعته، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم»[1].

---

(١) السخاوي: المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي ص٣٤.

ونتيجة للدور الجاد والرائع الذي قدَّمته هذه المكاتب في مسيرة التربية، كان بعض العلماء يحن إلى أيامها، كما نَحِنُّ نَحْنُ لأيام الصبا والدراسة والعلم، وكان التعبير عن هذه المشاعر يتجاوز حدَّ الإحساس في بعض الأوقات إلى الفعل والعمل؛ فقد حكى الإمام الرافعي وهو من كبار علماء الشافعية عن والده الإمام محمد بن عبد الكريم القزويني (ت ٥٨٠هـ) الذي احتضنه جده لأمه قائلاً عنه: «كان من عباد الله الصالحين، المشهورين بالصيانة وحسن السيرة من محلة آبائه طريق الصامغان إلى داره في المدينة العتيقة، وقام بتسليمه إلى المكتب وتعليمه وتأديبه ورباه أحسن تربية، بأطيب مكسب، وكان له حنين إلى تلك الدار التي نشأ فيها، وأتذكر أنه تملك بعضها، وربما همَّ بالانتقال إليها، ثم لم يتفق له ذلك[١]. هذا من حبه فيها، وشوقه إلى العلوم والآداب وطرائق التربية بها!

انتشار الجامعات!

لقد كانت مظاهر الحياة في عصر الخلافة العباسية آخذة نحو النضوج والظهور والاكتمال، بل والإضافة -أيضًا- في كافة ميادين الحياة، حتى كانت بغداد واسطة عقد الأرض، وعاصمة الحضارة الإنسانية في وقتها، واستمرت على ذلك عدة قرون لا يُنازعها منازع، ولا يجاريها مجارٍ، حتى بدأت تظهر في الأفق القاهرة وقرطبة وسمرقند ومراكش والقيروان وتونس، وغيرها من منارات العالم الإسلامي وقتها.

ومن جملة الإضافات التي ظهرت معالمها في ذلك الزمن، وكانت شاهدة على تطور النظام التربوي والتعليمي والتثقيفي في هذه الخلافة، ظهور المدارس العامة والموقوفة، التي كانت بمثابة كليات وجامعات متخصصة في وقتها، أشرفت المؤسسة السياسية على بعضها، وكانت بلا شك أفضلها وأجملها وأشهرها مجموعة المدارس النظامية التي أنشأها نظام الملك السلجوقي، وتم افتتاحها عام (٤٥٩هـ) في بغداد بعد عامين من العمل في إنشائها[٢]، وظهرت فروع أخرى للمدارس النظامية في نيسابور وأصفهان وغيرها، لكن الرائع أن غالبية المدارس والجامعات في الحضارة الإسلامية كانت مدارس أهلية خيرية،

---

(١) الرافعي: التدوين في أخبار قزوين ١/ ٢٣٢.
(٢) ابن الجوزي: المنتظم ٨/ ٢٤٦.

يقوم بإنشائها الأمراء والأغنياء، وحتى أصحاب المكانة الاجتماعية المتوسطة رغبةً في الخير والبر، وكان يُنفق من خلالها على طلاب العلم من كل حدب وصوب؛ فالنظام الوقفي الرائع الذي يُعَدُّ إضافة كبرى من إضافات الحضارة الإسلامية -وهو «تحبيس الأصل وتسبيل المنفعة» أي: حبس أصول الأموال الثابتة أو المنقولة والاستفادة من ريعها وأرباحها للإنفاق على هذه المؤسسات التربوية- كان أحد الحلول الاقتصادية والاجتماعية العبقرية التي سنها النبي ﷺ، وجاء بها التشريع الحكيم رحمة ورأفة وخدمة لأوليائه وأنصاره.

وانطلاقًا من هذا البر -الذي أُريد له أن يُستثمر ويُنمى في كلِّ ما من شأنه الديمومة والاستمرارية لأجل خيري الدنيا والآخرة- حرص كثير من الواقفين على وقف أموالهم وحبسها في إنشاء المؤسسات التعليمية وعلى رأسها المدارس، وهنا ظهر الإبداع، وانتشرت سوق العلم، وتسنمت الحضارة الإسلامية ذروة سامقة، ومكانة عالية فلم يتمتع طلاب العلم بهذا الخير العميم في أي أمة مثلما تمتع به أبناء الحضارة الإسلامية؛ فالمدارس منتشرة في أصقاع البلدان الإسلامية، وهي مدارس مجانية، بل كثير منها يُنفِق على الطلاب، وإن محاولة لاستقصاء كَمِّ هذه المدارس، أو كَمِّ تنوعاتها العلمية والإدارية لما يُعجز الباحثين حقًّا، فهذا أبو حاتم البستي محمد بن حبان (ت٣٥٤هـ) عالم الحديث والرجال يقول عن وقفه أبو عبد الله الحاكم النيسابوري (ت٤٠٤هـ) يقول: «إن داره وقفت مدرسة لأصحابه، ومسكنًا للغرباء التي يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقهة، ولهم جرايات يستنفقونها من داره، وفيها خزانة كتبه في يدي وصي سلَّمها إليه؛ ليبذلها لمَنْ يُريد نسخ شيء منها في الصفة من غير أن يُخرجه منها. شكر الله له عنايته في تصنيفها، وأحسن مثوبته على جميل نيته في أمرها بفضله ورأفته»[1].

وأمثلة ابن حبان من العلماء الذين أوقفوا دورهم أو كتبهم ومؤلفاتهم، وحوَّلوها إلى مدارس للعلم والتربية يستفيد منها أبناء الأمة كثيرون؛ مثل أبي بكر البستي أحمد بن محمد (ت٤٢٩هـ)، قال تقي الدين الصيرفيني عنه: «من كبار فقهاء أصحاب الشافعي،

(١) ابن حبان: المجروحين ١/ ٦.

والمدرسين المناظرين بنيسابور، وكانت له المروة الظاهرة والثروة الوافرة، بنى لأهل العلم مدرسة على باب داره برأس سكة المسيب، ووقف عليها جملة من ماله، وهو معروف بأوقاف أبي بكر بشتيان»[١]. وهناك العلامة الخطيب البغدادي أحمد بن علي بن ثابت الذي «تصدَّق بجميع ماله؛ وهو مئتا دينار، فُرِّق ذلك على أصحاب الحديث والفقهاء والفقراء في مرضه، ووصى أن يُتَصَدَّق بجميع ما يخلفه من ثياب وغيرها، وأوقف جميع كتبه على المسلمين»[٢]، وأحمد بن علي الأبرادي الحنبلي (ت٥٣١هـ) الذي وقف داره بالبدرية شرقي بغداد على الحنابلة[٣].

وهذا أحد أعيان بغداد ووكيل الخليفة العباسي المسترشد بالله (ت٥٢٩هـ) حمزة بن علي بن طلحة الرازي (ت٥٥٦هـ) يُوقف مدرسة، ويُعيِّن فيها أبا الحسن محمد بن الخل (ت٥٥٢هـ) مدرسًا للمذهب الشافعي[٤]، وكان أحد أعلام الشافعية في بغداد في القرن السادس الهجري، كما يذكر العلامة الذهبي.

وكثير من العلماء الذين استفادوا علميًّا وماديًّا من هذه المدارس والجامعات، كانوا يُنشئون المدارس ويُنفقون عليها من أموالهم؛ فهذا العلامة عبد الوهاب بن عبد الواحد الحنبلي (ت٥٣٦هـ) يُوقف أكبر مدرسة في زمنه، وهي المدرسة الكبرى، أو المدرسة الشريفية شمالي جامع دمشق[٥]، ومثله العلامة ابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) يبني «لنفسه مدرسة بدرب دينار ببغداد، ويُوقف عليها كتبه»[٦]، وهذا العلامة الفخر محمد بن الخضر بن تيمية (ت٦٢٢هـ) -جدُّ شيخ الإسلام ابن تيمية- يُنْشِئ مدرسة بحرَّان (جنوب تركيا)[٧].

ولم ينسَ الولاة والأمراء دورهم المهم في إنشاء المدارس ووقف الأوقاف الدارَّة

---

(١) الصيرفيني: المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور ص٩٧.
(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥/ ٣٩.
(٣) برهان الدين بن مفلح: المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد ١/ ١٤٤، ١٤٥.
(٤) الذهبي: مختصر تاريخ الدبيثي ص١٧٧، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٠٠.
(٥) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٠٤.
(٦) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة ٢/ ٤٨٥.
(٧) السابق ٤/ ٤.

عليها؛ من هؤلاء الأمير العالم نصر بن ناصر الدين أبي منصور سبكتكين الخوارزمي (ت٤١٢هـ)؛ فقد «قدم نيسابور واليًا سنة تسعين وثلاثمائة، وسمع المشايخ، وصحب الأئمة واستفاد منهم، وأحسن الولاية، وبنى المدرسة السعيدية، ووقف عليها الأوقاف»[١]، وهذا المجاهد سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي (ت٥٤٤هـ) يبني مدرسة كبيرة في الموصل، وهي المدرسة الأتابكية العتيقة[٢]، قال ابن الأثير: «وهي من أحسن المدارس، وقفها على الفقهاء الحنفية والشافعية»[٣].

ومما يُندهش له ويُدلل على مقدار العلوم وأهميتها، ودور الفقهاء وحجمهم في تلك الآونة أن الأمراء والولاة كانوا يُشيِّدون المدارس والكليات خاصة لعلماء بعينهم! فمثلاً تحدث الشيخ ابن السبكي في «طبقات الشافعية» عن العلامة الجويني بأسلوب أدبي راقٍ، وحماسة لا تهجر أسطر ترجمته له، بأسلوب رشيق، وعبارات مدافعة منافحة، تأخذك للتعرف على الإمام الجويني بحب، والحق أن الجويني عبد الملك بن عبد الله بن يوسف (ت٤٨٧هـ) أحد أعلام عصره على الإطلاق، وهو شيخ الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله، وفي ترجمة ابن السبكي له إفادة كبيرة للتعرف على طرائق التربية والتثقيف والتعليم في ذلك الوقت، ويكفي أنه قد بُنيت الجامعة النظامية في نيسابور ليكون إمامها وشيخها مدة ثلاثين عامًا متصلة، وهذا دليل على مكانة وعظمة تأثير الرجل في كافة الأوساط في عصره، قال ابن السبكي: «كان (الجويني) يصلُ الليلَ بالنهار في التحصيل، ويبكّر كل يوم قبل الاشتغال بدرس نفسه إلى مسجد أبي عبد الله الخبازي يقرأ عليه القرآن، ويقتبس من كل نوع من العلوم ما يمكنه مع مواظبته على التدريس، وينفق ما ورثه وما كان يدخل له على المتفقهة، ثم اضطر إلى السفر والخروج عن البلد فخرج مع المشايخ إلى بغداد يطوف مع المعسكر ويلتقي بالأكابر من العلماء ويدارسهم ويناظرهم حتى طار ذكره في الأقطار، وشاع ذكره واسمه فملأ الديار، ثم زمزم له الحادي بذكر زمزم وناداه على بعد الديار البيت الحرام فلبى وأحرم وتوجه حاجًا وجاور بمكة أربع سنين يدرس ويفتي ويجتهد في

---

(١) تقي الدين الصيرفيني: المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور ص٥٠٨.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٩٢.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١١/ ١٣٨، ١٣٩.

العبادة ونشر العلم حتى شرف به ذلك النادي وأشرقت تلاع ذلك الوادي... ثم عاد إلى نيسابور بعد ولاية السلطان ألب أرسلان وتزين وجه الملك بإشارة نظام الملك (وزيره)»[١].

ثم يُكمل ابن السبكي ترجمته، فيتحدث عن قرار إنشاء جامعة نيسابور، الذي جاء رغبة في الاستفادة من علم الجويني، وقد تناول في ترجمته الحديث عن حلقة علمه ودرسه التي كانت بمثابة ندوة عامة يواظب عليها كل يوم العلماء والطلاب على السواء، وذلك بقوله: «فبُنيت له المدرسة النظّامية بنيسابور، وأُقعد للتدريس فيها، واستقامت أمور الطلبة، وبقي على ذلك قريبًا من ثلاثين سنة غير مُزاحم ولا مدافع، مسلمًا له المحراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس التذكير يوم الجمعة والمناظرة، وهُجِرت المجالس من أجله، وانغمر غيره من الفقهاء بعلمه، وكسدت الأسواق في جنبه، ونفق سوق المحققين من خواصه وتلامذته، فظهرت تصانيفه، وحضر درسه الأكابر والجمع العظيم من الطلبة، وكان يقعد بين يديه كل يوم نحوًا من ثلاثمائة رجل من الأئمة ومن الطلبة، واتفق له من المواظبة على التدريس والمناظرة ما لم يعهد لغيره مع الوجاهة الزائدة في الدنيا»[٢].

ومثل الجويني الذي بُنيت المدرسة النظامية في نيسابور له، وجدنا العلامة المعمر أبو طاهر أحمد بن محمد السِّلَفي (ت٥٧٦هـ) شيخ محدثي مصر والإسكندرية في زمن الدولة الفاطمية العبيدية والدولة الأيوبية، لما جاء إلى مصر عرف المصريون والسكندريون قدره ومنزلته، مما جعل والي مصر العادل علي بن إسحاق بن السلار يبني له مدرسة عظيمة للحديث ويوقف عليها الأموال الطائلة[٣]، رغم أن السلفي كان في ظل دولة شيعية عبيدية، وهذا يُدلل على عظيم مكانته، وغزير علمه، ويبدو أن الإسكندرية كانت مهبط علماء السنة في تلك الآونة، فقد كان بها العلامة الطرطوشي (ت٥٢٠هـ) وغيره.

ومن الجميل أن وظيفة «المعيد» كانت من جملة الوظائف العامة في الجامعات الإسلامية، والمدارس الكبرى، لاسيما المدرسة النظامية العظمى بفروعها المختلفة،

(١) ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٥/ ١٧٠.
(٢) ابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٥/ ١٧١.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٥.

وكانت هذه الوظيفة من جملة الوظائف التي أضافتها الحضارة الإسلامية، ومن الملاحظ أنه لم يكن يلي هذه الوظيفة إلا عالمًا بلغ رتبة الاجتهاد، فما بالنا بالمعلم الذي يُلقي الدرس، فمثلاً يُطالعنا الإمام برهان الدين بن مفلح في «المقصد الأرشد» بسرد ترجمة معيد الإمام ابن الجوزي رحمه الله، فمن كان هذا المعيد؟ إنه الإمام العكبري عبد الله بن الحسين (ت٦١٦هـ)، قال عنه ابن مفلح: «برع في فنون عديدة من العلم وصنف التصانيف الكثيرة ورحلت إليه الطلبة من النواحي، وأقرأ المذهب والفرائض والنحو اللغة، وانتفع به خلق كثير. قال أبو الفرج (ابن الجوزي): كان إمامًا في علوم القرآن، إمامًا في الفقه، إمامًا في اللغة، إمامًا في النحو، إمامًا في العَروض، إمامًا في الفرائض، إمامًا في الحساب، إمامًا في معرفة المذاهب، إمامًا في المسائل النظريات، وله في هذه العلوم مصنفات مشهورة»[1]، كان العكبري إذن إمامًا عالمًا بتسعة علوم ورغم ذلك كان «معيدًا لابن الجوزي في المدرسة النظامية»[2]، لنعلم إلى أي مدى اهتمت المؤسسة السياسية بالمعلمين ومساعديهم؛ وذلك لرفعة شأن العملية التعليمية والتربوية لأبناء وبنات الحضارة الإسلامية وقتئذٍ، ولم يكن يفرق بينهم على أساس الوطن أو الحسب أو اللغة.

ومما يُستغرب له أنه كانت هناك مدارس مخصصة للجانب الوعظي والسلوكي، وكانت في مجملها مدارس أشد عمومية من المدارس الأخرى، هذه المدارس كان يحضر إليها عامة الناس، وكانت في كثير من الأحيان لا تسع لهم، من هذه المدارس: المدرسة المخرمية ببغداد؛ فقد كان شيخها ورئيسها، العلامة الواعظ عبد القادر الجيلاني (ت٥٦١هـ) الذي أثّر بوعظه ودعوته في أهل بغداد، بل وذاع صيته في الحواضر الأخرى، قال ابن الجوزي: «كان أبو سعد المخرمي قد بنى مدرسة لطيفة بباب الأزج، ففوضت إلى عبد القادر الجيلاني، فتكلم على الناس بلسان الوعظ، وظهر له صيت بالزهد، وكان له سمت وصمت، وضاقت المدرسة بالناس، فكان يجلس عند سور بغداد مستندا إلى الرباط، ويتوب عنده في المجلس خلق كثير، فعمرت المدرسة، ووسعت، وتعصب في

---

(١) برهان الدين بن مفلح: المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد ٢/ ٣٠، ٣١.
(٢) السابق ٢/ ٣١.

ذلك العوام، وأقام فيها يدرس ويعظ إلى أن توفي»[١]، وكان لهذه المؤسسات التربوية الواقعية أكبر الأثر وأبلغه في الناس، قال عبد القادر عن آثار هذا النظام التربوي وثمراته: «أسلم على يدي أكثر من خمس مئة، وتاب على يدي أكثر من مئة ألف، وهذا خير كثير»[٢].

ويحدثنا العلامة ابن كثير رحمه الله عن أعظم الجامعات العباسية التي بُنيت في القرن السابع الهجري، وهي الجامعة المستنصرية في بغداد التي كمل بناؤها في عام ٦٣١هـ، والتي كانت منارة رائعة، وجامعة شاملة للعلوم الشرعية والعقلية، وعن نظامها التربوي والتعليمي، وجو الاحتفال البهيج الذي أُقيم على شرف افتتاحها يقول: «دخلت سنة إحدى وثلاثين وستمائة: فيها كمل بناء المدرسة المستنصرية ببغداد ولم يُبن مدرسة قبلها مثلها، ووقفت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنان وستون فقيهًا، وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب، وشيخ حديث وقارئان وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد. ولما كان يوم الخميس خامس رجب حضرت الدروس بها وحضر الخليفة المستنصر بالله بنفسه الكريمة وأهل دولته من الأمراء والوزراء والقضاة والفقهاء والصوفية والشعراء، ولم يتخلف أحد من هؤلاء، وعُمل سماط[٣] عظيم بها أكل منه الحاضرون، وحمل منه إلى سائر دروب بغداد من بيوتات الخواص والعوام، وخلع على جميع المدرسين بها والحاضرين فيها، وعلى جميع الدولة والفقهاء والمعيدين، وكان يومًا مشهودًا، وأنشدت الشعراء الخليفة المدائح الرائقة والقصائد الفائقة، وقد ذكر ذلك ابن الساعي في تاريخه مطولاً مبسوطًا شافيًا كافيًا، وقدر لتدريس الشافعية بها الإمام محيي الدين أبو عبد الله بن فضلان، وللحنفية الإمام العلامة رشيد الدين أبو حفص عمر بن محمد الفرغاني، وللحنابلة الإمام العالم محيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، ودرس عنه يومئذٍ ابنه عبد الرحمن نيابة لغيبته في بعض

---

(١) ابن الجوزي: المنتظم ١٠/ ٢١٩.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٤٤٧.
(٣) سِماطُ القومِ: صَفُّهُم ويقال: قامَ القومُ حولَه سِماطَيْنِ أي: صفَّين، وكلُّ صفٍّ من الرجال سِماطٌ. ابن منظور: لسان العرب، مادة سمط ٧/ ٣٢٢.

الرسالات إلى الملوك، ودرس للمالكية يومئذ الشيخ الصالح العالم أبو الحسن المغربي المالكي نيابة أيضًا، حتى يعين شيخ غيره، ووقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها في كثرتها وحسن نسخها وجودة الكتب الموقوفة بها. وكان المتولي لعمارة هذه المدرسة مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمي الذي وزر بعد ذلك، وقد كان إذ ذاك أستاذ دار الخلافة[1]، وخلع عليه يومئذ وعلى الوزير نصير الدين. ثم عزل مدرس الشافعية في رابع عشر ذي القعدة بقاضي القضاة أبي المعالي عبد الرحمن بن مقبل، مضافًا إلى ما بيده من القضاء، وذلك بعد وفاة محيي الدين بن فضلان، وقد ولي القضاء مدة ودرس بالنظامية وغيرها، ثم عزل ثم رضي عنه ثم درس آخر وقت بالمستنصرية كما ذكرنا، فلما توفي وليها بعده ابن مقبل رحمهم الله تعالى»[2].

ونرى في هذه الجامعة العظيمة التي يقول ابن كثير عنها: إنها لم يُبن مثلها قبلها، وهذا صحيح من حيث الناحية المنهجية فهي جامعة للعلوم الفقهية والحديثية مع وجود كلية خاصة للعلوم الطبية، فضلاً عن وجود مدرسة ابتدائة للأيتام، وكل هؤلاء الشيوخ والمدرسين والمعيدين والطلاب يُنفق عليهم وجبات يومية في صورة خبز ولحوم وحلوى، فضلاً عن النفقة المالية لهم، وزاد ابن الساعي في تاريخه عند ترجمته للخليفة المستنصر القولَ في جملة المميزات التي كانت تُعطى للعلماء وطلاب العلم، قال: «أوقف عليها (أي المستنصر) أوقافًا عظيمة، وشرط في وقفه للفقيه الخبز واللحم والحلو والزيت والماء والفحم والصابون والحبر والأقلام والورق لنسخ ما يحتاج إليه من الكتب، والحصير والبُسُط لبيته، والحمام (العام) في كل أسبوع، ودينار في كل شهر، ورتّب لهم مارستانًا (مستشفى) خاصًا لجميع ما يحتاجون إليه»[3] وهذه المدرسة لازالت موجودة إلى يومنا هذا تبين لنا عظمة التربية والتعليم في الحضارة الإسلامية في القرن السابع الهجري.

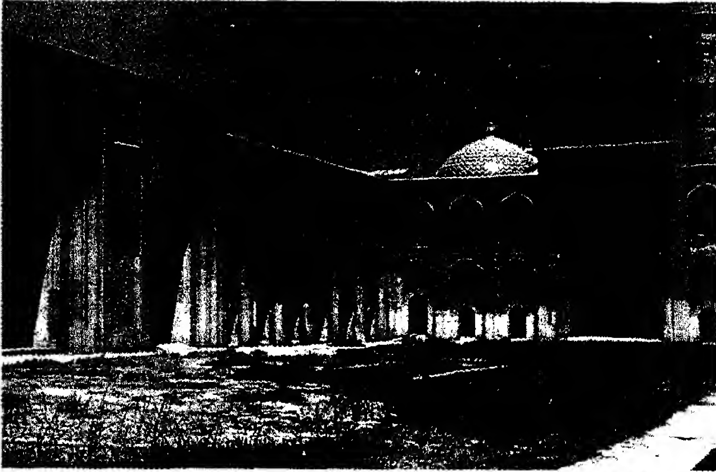
---

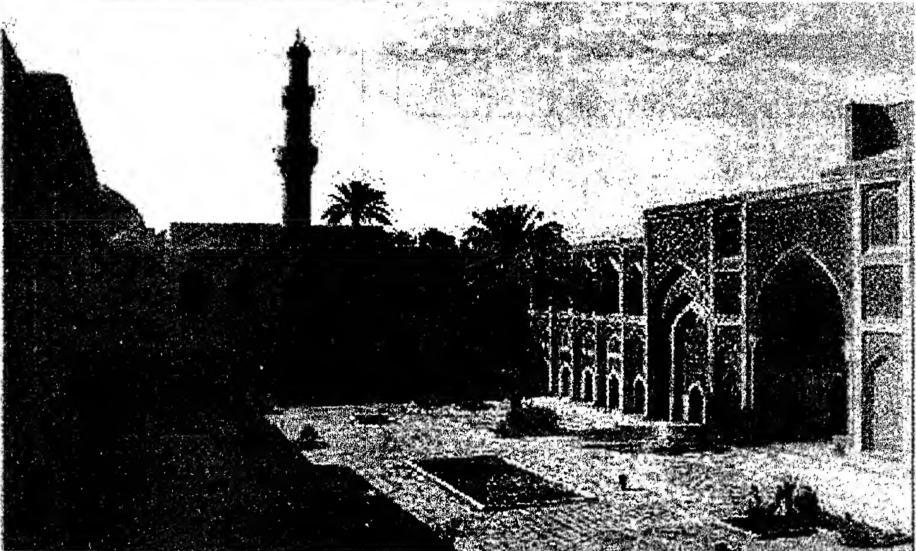
(١) منصب أستاذ الدار هو من المناصب الإدارية التي استحدثها العباسيون في منتصف القرن الرابع الهجري، وصاحبها مسئول عن رعاية دار الخلافة العباسية وصيانتها، وتوفير ما يلزم ساكنيها من أسرة الخليفة. أحمد عادل: مقال بعنوان «ابن العلقمي والخيانة العظمى»، على موقع لواء الشريعة، على الرابط: http://www.shareah.com.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٦٣، ١٦٤.

(٣) علي بن أنجب بن الساعي: مختصر تاريخ الخلفاء ص١٢٣، ١٢٤.







(صورة رقم ٣ المدرسة المستنصرية).



المكتبات العباسية

ولا ننسَ أن هذه المكاتب والمساجد والمدارس كانت تحوي مكتبات كبرى فيها آلاف من الكتب في كل مجال، وما يلفت النظر أن كثيرًا من العلماء والأمراء كانوا يوقفون هذه الكتب في المكتبات مجانًا بغية الأجر والثواب من الله ﷻ، ولكي ينتفع بها أكبر عدد من طلاب العلم، ولم تخل مدينة أو قرية من هذه المكتبات، وكانت أولى المكتبات العامة التي أنشأها العباسيون وأوقفوا عليها أموالاً كثيرة مكتبة دار الحكمة في بغداد، وكانت جامعة إسلامية كبرى، ومكتبة عظمى تحدث عنها صاعد الأندلسي في كتابه «طبقات الأمم» وأثنى عليها وعلى إدارتها، كما تناولها ابن النديم في «الفهرست» من خلال تراجمه لمن عملوا بها، وانتشرت المكتبات الموقوفة، وحذا الولاة والأمراء حذو العباسيين، فانتشرت المكتبات الموقوفة في كل البلدان؛ فهذا «بهرام بن منافيه أبو منصور الوزير لأبي كاليجار (صمصام الدولة البويهي)، كان عفيفًا نزهًا صينًا، عادلاً في سيرته، وقد وقف خزانة كتب في مدينة فيروزباذ[١]، تشتمل على سبعة آلاف مجلد، من ذلك أربعة آلاف ورقة بخط أبي علي وأبي عبد الله بن مقلة[٢]»[٣]. وذاك أبو غالب علي بن أحمد بن علي (ت٥١٦هـ) وزير السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه يوقف «مدرسة بأصبهان وجعل فيها خزانة كتب نفيسة بخطوط منسوبة»[٤]. ومثله تاج الدين الكندي زيد بن الحسن (ت٦١٣هـ)؛ فقد كان له «خزانة كتب بالجامع الأموي، فيها كل نفيس»[٥]. وكان أكابر أطباء العصر العباسي يوقفون مكتبات عامة لطلبة العلم فيها من الكتب التجريبية والشرعية الشيء الكثير، فقد أوقف الطبيب الشهير ابن المارستانية عبيد الله بن علي (ت٥٩٩هـ) مكتبة كبيرة في بغداد، قال ابن النجار: «بني دارًا بدرب الشاكرية وسماها دار العلم، وجعل فيها خزانة كتب وأوقفها على طلاب العلم»[٦]. وكانت هناك مكتبات

---

(١) هي بلدة بفارس قرب شيراز، كان اسمها جور فغيرها عضد الدولة البويهي إلى فيروزأباذ. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٢٨٣.

(٢) من أشهر الوزراء والكتاب والخطاطين البارعين.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٦٢.

(٤) ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد ٣/ ٧٦.

(٥) السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ١/ ٥٧١.

(٦) ابن النجار البغدادي: ذيل تاريخ بغداد ٢/ ٦٦.

عظمى فيها ملايين من الكتب، مثل المكتبة الفاطمية في مصر، وهذه المكتبة كانت تُعد من أعظم المكتبات في العالم نقل ابن كثير كلام كل من ابن أبي طي وابن الأثير عنها لما ملكها صلاح الدين الأيوبي، قال: «ووجد خزانة كتب ليس لها في مدائن الإسلام نظير، تشتمل على ألفي ألف مجلد، قال: ومن عجائب ذلك أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري، وكذا قال العماد الكاتب: كانت الكتب قريبة من مائة وعشرين ألف مجلد. وقال ابن الأثير: كان فيها من الكتب بالخطوط المنسوبة مائة ألف مجلد، وقد تسلمها القاضي الفاضل، فأخذ منها شيئًا كثيرًا مما اختاره وانتخبه»[(١)].

وكان مدير هذه المكتبات يُسمى الناظر أو القائم، وكان من العلماء الفضلاء، فمثلاً كان الفضل بن نوبخت الفارسي (كان حيًا قبل ١٩٣هـ) أحد أكبر علماء الكلام والترجمة في عصر هارون الرشيد، ولمكانته وعلمه ولاه الرشيد «القيام بخزانة كتب الحكمة وَكَانَ ينقل من الفارسي إِلَى العربي مَا يجده من كتب الحكمة الفارسية»[(٢)]. وولي رائد علم الجبر والهندسة محمد بن موسى الخوارزمي «خزانة كتب الحكمة للمأمون»[(٣)]، أما رئيس جامعة بيت الحكمة في عهد المأمون فكان سهل بن هارون، الذي كان قد ولي خزانة بيت الحكمة من قبل[(٤)]. ونجد كذلك أبا الحسين علي بن محمد الشابُشتي (ت٣٩٠هـ) من كبار أدباء وكتاب عصره، كان ناظرًا لمكتبة العزيز الفاطمي في مصر[(٥)]، وكذلك الأديب الأريب يحيى بن سعيد الشهير بابن الشعار كان ناظرًا بخزانة كُتب المدرسة أنشأها بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل في زمن الدولة الزنكية على نهر دجلة[(٦)]، وكان عفيف الدين البغدادي (ت٦٣٧هـ) مقرئًا شهيرًا في بغداد؛ فقد قرأ القرآن بالروايات كلها، وكان ناسخًا صاحب خطٍّ رائع، وقد «ولى نظر خزانة الكتب بمسجد الشريف ثم خزانة كتب التربة السلجوقية ثم صرف عنها ثم أعيد إليها في بغداد»[(٧)]، ويبدو أن عفيف الدين كان إداريًا محنكًا في

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٣٣١.
(٢) القفطي: أخبار العلماء بأخيار الحكماء ص١٠٩.
(٣) السابق ص١٢١.
(٤) ابن النديم: الفهرست ص١٧٤.
(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣/ ٣١٩.
(٦)السابق٧/ ٣٣٨.
(٧) ابن مفلح: المقصد الأرشد ٢/ ١٣٠.

المكتبات البغدادية لدرجة جعلته مديرًا للمكتبة المستنصرية في الجامعة المستنصرية العظمى، إحدى أكبر وأعظم الجامعات العباسية في القرن السابع الهجري[(١)]، وغير هؤلاء الكثيرون.

وصدق المستشرق الألماني الكبير آدم متز حين قال: «كان في كل جامع كبير مكتبة – هذا فضلاً عن المكتبات المستقلة – لأنه كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على الجامع... وكان الملوك يُفاخرون بجمع الكتب حتى كان لكل ملك من ملوك الإسلام الثلاثة الكبار بمصر وقرطبة وبغداد في أواخر القرن الرابع ولع شديد بالكتب... ولنذكر ما كان في بعض خزائن الكتب في الغرب على سبيل المقارنة: كان في مكتبة الكاتدرائية بمدينة كُنستانز في القرن التاسع الميلادي ثلاثمائة وستة وخمسون كتابًا، وفي مكتبة دير البندكتيين عام ١٠٣٢م ما يزيد على المائة بقليل، وفي خزانة كتب الكاتدرائية في مدينة بامبرج سنة ١١٣٠م ستة وتسعون كتابًا فقط»[(٢)].

وقد وصف لنا محمد بن أحمد المقدسي (ت٣٨٠هـ) إحدى هذه المكتبات، وهي مكتبة عضد الدولة البويهي بأنها «حجرة على حدة، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد؛ ولم يبق كتاب صُنّف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصّله فيها. وهي أزج طويل في صفَّة كبيرة، فيه خزائن من كل وجه. وقد ألصق جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتًا طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوَّق، عليها أبواب تنحدر من فوق، والدفاتر منضّدة على الرفوف، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب، ولا يدخلها إلا كل وجيه»[(٣)]!

هذه نبذة جد سريعة عن محافل التربية في العصر العباسي تبين لنا بكل جلاء الدور العظيم الذي لعبته هذه المحافل في تربية وتثقيف أبناء المسلمين، وتقرب لنا صورة هذا

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ١٨/ ٢٩٢.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ١/ ٣٢٣.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ص٤٤٩ نقلاً عن متز ١/ ٣٢٣. وقد بحثتُ عن هذا النص في طبعة ليدن عام ١٩٠٦ وكذلك طبعة وزراة الثقافة والإرشاد القومي السورية، بتحقيق غازي طليمات والمتوفرة على المكتبة الالكترونية الشاملة فلم أعثر عليه، ولم أهتد له، ولعل آدم متز اعتمد على نسخة أخرى غير هاتين النسختين.

العصر الذي ارتقى أبناؤه في مدارج الأمم، من خلال تطبيق سنن للنبي ﷺ عادت عليهم بأعظم الفائدة وأفضلها، ونقصد الأوقاف والأحباس الإسلامية.

رحلة طالب العلم

كجزء أصيل من دعامات التربية الإسلامية، فإني أُقر بأن الرحلة في طلب العلم سمة غالبة على أبناء الحضارة الإسلاميه، وأصل من أصول التربية الإسلامية، ولذلك اعتبر العلماء أن «طلب العلم لا يساوي، شيء، وفضل العلم لا يوازيه فضل، وشرف العالم بعلمه والعامل بمقتضاه ليس بعده شيء، وهذا فيما يتعلق بمن سلك طريقاً يطلب فيه علماً. ولقد رأينا علماءنا في رحلتهم لطلب العلم قد ضربوا أروع الصور، فأبو أيوب الأنصاري يرحل إلى الفسطاط في مصر لطلب حديث، و جابر بن عبد الله يرحل إلى دمشق في طلب حديث، حتى ألف العلماء: الرحلة في طلب العلم»[1].

ومن أجمل ما قرأتُ من شرح للأثر القائل: «**اطلبوا العلم ولو بالصين فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[2] ما ذكره الإمام المناوي في «فيض القدير شرح الجامع الصغير» بقوله: «فيها مبالغة في البعد «**فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم**»، ثم بيّن ما في طلبه من الفضل ومزيد الشرف بقوله: «**إن الملائكة تضع أجنحتها**» جمع جناح «**لطالب العلم**» تبسطها له، وتفرشها تحت قدميه، أو تتواضع له؛ تعظيمًا لحقه، أو تنزل عنده وتترك الطيران، أو تعينه وتيسر له السعي في طلب العلم، أو تظل لأجله ولا مانع من اجتماعها «**رضى بما يطلب**» أي رضى له بسبب العلم الذي يطلبه، أو رضًى بالعلم الذي هو طالبه، وفيه (أي الحديث) ندبُ الرحلة في طلب العلم، وطلب العلو فيه (تتمة) أخرج الرهاوي والطبراني وغيرهما عن زكريا الساجي قال: كنا نمشي في بعض أزقة البصرة لبعض المحدثين فأسرعنا، فقال رجل: ارفعوا أرجلكم عن أجنحة الملائكة لا تكسروها كالمستهزئ، فما زال من محله حتى جفت رجلاه وسقط، قال الرهاوي: هذا كرأي عين

---

(١) عطية محمد سالم: شرح الأربعين النووية: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية: http://www.islamweb.net.

(٢) أخرجه العقيلي (٢/ ٢٣٠، ترجمة ٧٧٧)، وابن عدى (٤/ ١١٨، ترجمة ٩٦٣)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢/ ٢٥٣، رقم ١٦٦٣).

لأن رواته أعلام»[١].

وأشهر من جسّد رحلة طالب العلم، وتجلت آثارها العلمية والتربوية عليه في العصر العباسي مجدد الإسلام محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ)، فلم يكن الشافعي رحمه الله ليصل إلى ما وصل إليه من العلم، حتى أصبح له مذهب فقهي يُعد من أشهر المذاهب الإسلامية السنية منذ القرن الثاني الهجري وحتى يومنا هذا، إلا بجده وارتحاله وصبره على الفاقة والفقر، ولقد روى العلامة ابن عساكر في تاريخه بعض معاناة الشافعي، وحرصه الشديد على الرحلة لطلب العلم، ولقائه الإمام مالكُ بن أنس رحمه، ومناظراته الشهيرة مع تلميذ الإمام أبي حنيفة محمد بن الحسن الشيباني، قال ابن عساكر: «... قال عمرو بن سواد: قال لي الشافعي ولدتُ بعسقلان، فلما أتى علي سنتان حملتني أمي إلى مكة، وكانت نهمتي في شيئين الرمي (بالرمح والنبل) وطلب العلم، فنلتُ من الرمي حتى كنت أصيبُ من عشرة عشرة. وسكتُّ عن العلم. فقلت له: أنت والله في العلم أكبر منك في الرمي»[٢].

وحكى لنا الشافعي قصة نبوغه، ورحلته في طلب العلم، حتى ذاع صيته، ووقف أمام هارون الرشيد، قال: «كنتُ أنا في الكُتّاب أسمع المعلم يلقن الصبي الآية فأحفظها أنا، ولقد كان الصبيان يكتبون عن أئمتهم فإلى أن يفرغ المعلم من الإملاء عليهم قد حفظت جميع ما أملي. فقال لي ذات يوم: ما يحل لي أن آخذ منك شيئًا (أي مالاً نظير العلم). قال الحميدي: سمعتُ الشافعي يقول: كنتُ يتيمًا في حجر أمي، ولم يكن لها ما تعطيني للمعلم، وكان المعلم قد رضيَ مني أن أقوم على الصبيان إذا غاب، وأخفف عنه»[٣]، أي كان يقوم مقام الأستاذ وهو فتى لم يبلغ السادسة من عمره.

قال: ثم لما خرجتُ من الكتّاب كنت ألتقط الخزف[٤] والدفوف[٥] وكرب النخل[٦]

---

(١) المناوي: فيض القدير شرح الجامع الصغير ١/ ٦٩٣.
(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥١/ ٢٨١.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠/ ١١.
(٤) الخزف: الآجر وكل ما عمل من طين وشوي حتى يكون فخارًا.
(٥) الدفوف واحدها دف وهي الجلود التي يعمل منها الطبل والضمامات.
(٦) كرب النخل: الواحدة كربة وهي أصول السعف الغلاظ العرض التي تقطع معها.

وأكتاف الجمال وأكتب فيها الأحاديث وأجيء إلى الدواوين فاستوهب منها الظهور[١] وأكتبُ فيها حتى كان لأمي حباب[٢] فملأتها أكتافًا وخزفًا، ثم إني خرجت من مكة فلزمتُ هذيلاً (قبيلة) في البادية أتعلم كلامها، وآخذُ طبعها، وكانت أفصح العرب فبقيتُ فيهم سبع عشرة سنة أرتحل برحلتهم، وأنزل بنزولهم، فلما أن رجعتُ إلى مكة جعلتُ أنشد الأشعار، وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب، فمرّ بي رجل من بني عثمان من الزبيريين (من قريش) فقال: يا أبا عبد الله! عزّ علي أن لا يكون مع هذه اللغة، وهذه الفصاحة والذكاء فقهٌ فتكونَ قد سُدتَ أهل زمانك. قال: فقلتُ: ومن بقي يُقْصد إليه؟ فقال لي: هذا مالك بن أنس سيد المسلمين يومئذٍ. قال: فوقع في قلبي، فعمدتُ إلى الموطأ فاستعرته من رجل بمكة فحفظته في تسع ليال ظاهرًا ثم دخلتُ إلى والي مكة، فأخذتُ كتابه (وصيته) إلى والي المدينة وإلى مالك بن أنس. قال: فقدمتُ المدينة وأبلغتُ الكتابَ إلى الوالي فلما أن قرأه قال: والله يا فتى إن مشيًا من جوف المدينة إلى جوف مكة حافيًا راجلاً أهونُ عليَّ من المشي إلى باب مالك بن أنس؛ فإني لستُ أرى الذل حتى أقف على بابه. فقلتُ: أصلح الله الأمير، إن رأى الأمير أن يوجّه إليه ليحضر؟ فقال: هيهات ليتني إذا ركبتُ أنا معك ومن معي وأصابنا من تراب العقيق[٣] نلنا حاجتنا. قال فواعدته العصرَ، وركبنا جميعا فوالله لقد كان كما قال، لقد أصابنا من تراب العقيق. قال: فتقدم رجل فقرع الباب، فخرجت إلينا جارية سوداء، فقال لها الأمير: قولي لمولاك إني بالباب. فدخلت فأبطأت، ثم خرجت فقالت: إن مولاي يُقرئك السلام، ويقولُ إن كانت مسألةً فارفعها في رقعة (ورقة) يُخْرج إليك الجواب، وإن كان للحديث (أي للعلم) فقد عرفت يوم المجلس، فانصرِفْ. فقال لها: قولي له معي كتابُ والي مكة إليه في حاجة مهمة. قال: فدخلت ثم خرجت، وفي يدها كرسي فوضعت، ثم إذا أنا (أي الشافعي) بمالك قد خرج، وعليه المهابةُ والوقارُ، وهو شيخ طوال مسنون اللحية، فجلس وهو متطلس، فدفع الوالي الكتاب من يده ثم قال: يا سبحان الله وصار علم رسول الله ﷺ يُؤخذُ بالرسائل. قال:

---

(١) الظهور: الاوراق.

(٢) حباب: جمع حب وهي الجرار.

(٣) وادي العقيق من أشهر أودية المدينة.

فرأيتُ الوالي وقد تهيّبه أن يُكلمه، فتقدمتُ إليه، فقلتُ له: أصلحك الله إني رجل مُطّلِبي (قرشي)، ومن حالي ومن قصتي، فلما أن سمع كلامي، نظر إليّ ساعة، كان لمالك فراسة، فقال لي: ما اسمك؟ فقلتُ: محمد. فقال لي: يا محمد اتق الله، واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن. ثم قال: نعم وكرامة، إذا كان غدًا تجيء ويجيء من يقرأ لك الموطأ. قال: فقلتُ فإني أقوم بالقراءة. قال: فغدوتُ عليه، وابتدأتُ أن أقرأه ظاهرًا، والكتاب في يدي، فكلما تهيبتُ مالكًا، وأريد أن أقطع القراءة، أعجبه حُسْنُ قراءتي وإعرابي، يقول لي: بالله يا فتى زِدْ. حتى قرأته في أيام يسيرة، ثم أقمتُ بالمدينة إلى أن توفي مالك بن أنس.

ثم خرجتُ إلى اليمن وأقمتُ بها وارتفع بها الشأن، وكان بها والٍ من قبل هارون الرشيد، وكان ظلومًا غشومًا، فكنتُ ربما آخذ على يده وأمنعه من الظلم، قال: وكان باليمن سبعة من العلوية قد تحركوا (أي يخرجوا عن اليمن ويقيموا ثورة)، فكتب والي هارون إلى هارون: إن ههنا سبعة من العلوية قد تحركوا، فإني أخافُ أن يخرجوا، وههنا رجلٌ من ولد شافع بن المطلب لا أمر لي معه ولا نهي. فكتب إليه هارون أن أحمل (إلى بغداد) هؤلاء وأحمل الشافعي معهم. قال: فاقترنتُ معهم، فلما أن قدمنا على هارون.

قال أبو المجاهد، قال الشافعي، فحدّثني بعضُ أصحابنا من أهل العلم عن محمد بن زياد المدني وكان يُديمُ (أي من رواده) مجلسَ هارون فقال: كنتُ جالسًا عند هارون حين أُدخل عليه الطالبيون والشافعي وعنده محمد بن الحسن فدعا هارون بالنطع[1] والسيف يضرب رقاب العلوية، قال ثم التفتَ محمد بن الحسن، فقال: يا أمير المؤمنين! هذا المطّلبي لا يغلبك بفصاحته ولسانه، فإنه رجلٌ لَسِن. قال فقلتُ: يا أمير المؤمنين! فإنك الداعي، وأنا المجيب الدعاء، إنك القادر على ما تريد مني، ولست القادر على ما أريد منك، يا أمير المؤمنين! ما تقول في رجلين أحدهما يراني أخاه، والآخر يراني عبده أيهما أحب إلي؟ قال: الذي يراك أخاه. قال قلتُ: كذاك أنت يا أمير المؤمنين. فقال لي: كيف ذلك؟ قال قلتُ: يا أمير المؤمنين إنكم ولد العباس، ونحن بنو المطلب، ترونا إخوانكم، وولد علي هم يرونا

(١) بساط من الجلد كثيرًا ما كان يُقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل. المعجم الوسيط ٢/ ٩٣٠.

عبيدهم. قال فسُري ما كان به، واستوى جالسًا. وقال: يا بن إدريس! كيف علمك بالقرآن؟ فقلتُ: يا أمير المؤمنين عن أي علومه تسألني؟ عن حفظه؛ فقد حفظته ووعيته في جنبي، وعرفتُ وقفه وابتداءه، وعدده: مكيه ومدنيه، وكوفيه وبصريه، وقد عرفتُ ناسخه ومنسوخه، وليليه ونهاريه، ووحشيه وأنسيه، وسهليه وجبليه، وما خوطب من العام يريد به الخاص، وما خوطب من العام يراد به العام. فقال لي: والله يا ابن إدريس لقد ادعيتَ علمًا، فكيف علمُك بالنجوم؟ فقلتُ: إني لأعرف منها البري والبحري والسهلي والجبلي والفيلوج والمصبح، وما يجب معرفته؟ قال: فكيف علمك بأنساب العرب؟ فقلتُ: إني لأعرفُ أنساب اللئام، وأنساب الكرام، ونسبي ونسب أمير المؤمنين. فقال: والله لقد ادعيت علمًا، فهل من موعظة تعظ بها، قال: فذكرتُ موعظة لطاووس اليماني فوعظته بها، فبكى ثم أمر لي بخمسين ألفًا، وحُملت على فرسٍ، وركبتُ بين يديه، وخرجتُ فما وصلت الباب حتى فرّقتُ الخمسين ألفًا على حجبة أمير المؤمنين وبوابيه.

وخرجتُ كما أنا حتى جئتُ إلى منزلي ووجهتُ إلى كاتب محمد بن الحسن بمائة دينار، وقلتُ له: اجمع لي الوراقين الليلة على كُتب محمد بن الحسن، وانسخها لي، ووجه بها إليّ، فكُتِبت لي في ليلة، ووجه بها إليَّ. قال: ثم إنا دخلنا في مجلس أنا ومحمد بن الحسن على هارون، وكان موضع على باب هارون يجلس فيه القضاة والأشراف ووجوه الناس إلى أن يُؤذن لهم، فاجتمعنا في ذلك المكان، وفيه جماعة من بني هاشم وقريش والأنصار. قال: والخلق يُعظّمون محمد بن الحسن لقربه من أمير المؤمنين، وتمكنه منه، فاندفع يعرّض بي ويذم أهل المدينة، فقال من أهل المدينة: وأيش يحسنون أهل المدينة، والله لقد وضعتُ كتابًا على أهل المدينة كلها لا يُخالفني فيه أحد، ولو علمتُ أن أحدًا يُخالفني في كتابي هذا تبلغني إليه الرواحل لضربت إليه حتى أردَ عليه. قال الشافعي: فقلتُ في نفسي: إن أنا سكتُ نكستُ رءوسَ مَنْ ههنا من بني هاشم وقريش، وإن أنا رددتُ عليه أسخطتُ عليّ السلطان، ثم إني استخرتُ الله تعالى في الردّ عليه، فتقدمتُ إليه فقلتُ له: أصلحك الله، طعنك على أهل المدينة وذمك أهل المدينة، إن كنتَ أردت رجلاً واحدًا وهو مالك بن أنس، فألا ذكرتَ ذلك الرجلَ بعينه، ولم تطعن وتذم أهل حرم الله، وحرم رسوله، وكلهم على خلاف ما ادعيته، وأما كتابك الذي ذكرتَ أنك وضعته على أهل المدينة، فكتابُك من

بعد بسم الله الرحمن الرحيم خطأٌ إلى آخره، قلت في مسألة كذا وكذا وهو خطأٌ، وقلتَ في مسألة الحامل كذا وكذا وهو خطأٌ، وقلتَ في شهادة القابلة كذا وكذا وهو خطأٌ. قال: فاصفر محمد بن الحسن ولم يحِر جوابًا، وكتب أصحابُ الأخبار إلى هارون بما كان فضحك، وقال: ماذا يُنكَر لرجل من ولد المطلب أن يقطع مثل محمد بن الحسن. قال: فعارضني رجلٌ في المجلس من أصحابه فقال لي: ما تقولُ في رجل دخل إلى منزل رجل فرأى بطة فرماها، ففقأ عينها ماذا يجب عليه؟ قال: قلتُ: ينظرُ إلى قيمتها وهي صحيحة، وقيمتها وقد ذهبت عينها فيُغرم ما بين القيمتين. ولكن ما تقول أنت وصاحبُك في مُحْرِم نظرَ إلى فرج امرأة فأنزل؟ قال: ولم يكن لمحمد (بن الحسن) حذاقةٌ بالمناسك، فصاح به محمدٌ وقال: ألم أقل لك لا تسأله.

قال (أي الشافعي): ثم إنا دخلنا على هارون فلما استوينا بين يديه، قال لي يا أبا عبد الله تسأل أو أسألك؟ قال: قلتُ: ذاك إليك. فقال خبرني عن صلاة الخوف أواجبةٌ هي؟ فقلتُ: نعم. فقال: ولم؟ فقلتُ: بقول الله: ﴿إِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ...﴾ [النساء: ١٠٢]. قال: ما تُنْكر من قائلٍ قال لك: إنما أمر الله نبيه ﷺ وهو فيهم، فلما زال عنهم النبي ﷺ زالت عنهم تلك الصلاة؟ فقلتُ: وكذلك الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]، فلما أن زال عنهم النبي ﷺ زالت عنهم الصدقة؟! قال: لا. قلتُ وما الفرق بينهما والنبي ﷺ المأمور فيهما جميعًا؟ قال: فسكت..»[(١)].

هذه حال طالب العلم النبيه الشافعي، وحال الثقافة والوضع الشرعي في زمنه وعصره، طلاب العلم نابهون، وولاة الدولة يهابون العلماء ويضعونهم في مكانتهم، ثم المناظرات بين العلماء ومدى العبقرية الإسلامية في التشريع والاجتهاد التي تظهر جلية في هذه المناظرات، ثم عظمة الخليفة العالم بكتاب الله، والسائل عما يفيده في شرعه، وفراسته ورؤيته الثاقبة لعلماء زمنه، واحترامه وتقريبه لهم، وإن اكتفينا بقصة طلب الشافعي للعلم، ودلالتها على الروح التربوية والعلمية في عصره لكفت!

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥١/ ٢٨٥ — ٢٨٩.

ورغم هذه المناظرات العديدة، والتي - بالطبع - ظهر فيها علم الشافعي وعبقريته، ما كانت تسبب له العجب أو التيه والفخر، فمن جملة المآثر التربوية لهذا العصر أن اهتُم بتأديب الأطفال مع التعليم، ولذلك وجدنا وظيفتين مختلفتين تحدثت عنها المؤلفات التراثية والتاريخية، وأقصد وظيفة المعلم الذي يهتم بتحفيظ القرآن وبعض الأحاديث والكتابة، ووظيفة المؤدب وهي أرقى من الأولى، إذ يُهتم فيها بتأديب الطفل أخلاقيًا وسلوكيًا، وقد ذكرناها في عصر الخلافة الأموية، ولذلك كانت ثقافة الأدب وتقبل الآخر متواجدة منتشرة بين أبناء وشيوخ وعلماء الحضارة الإسلامية: قال يونس الصدفي: ما رأيتُ أعقلَ من الشافعي، ناظرتُه يوماً في مسألةٍ، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيمُ أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة[1]؟!

هذه قصة طالب علم تكشف لنا ملامح هذه الرحلة في ذلك العصر، وحتى الإمام محمد بن الحسن الذي يبدو لنا من مناظراته للإمام الشافعي قليل البضاعة في العلم والفقه، لم يكن في الحقيقة خامل الذكر أو قليل البضاعة كما قد نتصور، فقد كشف لنا العلامة الحنفي محمد بن أبي سهل السرخسي في شرحه للسير الكبير وهو كتاب لمحمد بن الحسن الآنف الذكر، سبب تصنيف هذا الكتاب، الذي يُدلل على مثابرته وتنافسه وعلمه، قال السرخسي: «إن السير الصغير[2] وقع في يد عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي عالم أهل الشام. فقال: لمن هذا الكتاب؟ فقال: لمحمد العراقي (أي ابن الحسن). فقال: وما لأهل العراق والتصنيف في هذا الباب؟ فإنه لا علم لهم بالسير ومغازي رسول الله ﷺ وأصحابه كانت من جانب الشام والحجاز دون العراق، فإنها محدثة فتحًا. فبلغت مقالة الأوزاعي محمدًا فغاظه ذلك، وفرّغ نفسه حتى صنف هذا الكتاب. فحكى أنه لما نظر فيه الأوزاعي قال: لولا ما ضمنه من الأحاديث لقلتُ إنه يضع العلم من عند نفسه وإن الله عيّن جهةَ إصابةِ الجوابِ في رأيه. صدق الله، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، ثم أمر محمد رحمه الله أن يكتب هذا الكتاب في ستين دفترًا، وأن يحمل على عجلة إلى باب الخليفة. فقيل للخليفة: قد صنف محمد كتابًا يُحمل على العجلة إلى الباب. فأعجبه

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٦.

(٢) هو كتاب لمحمد بن الحسن أيضًا.

ذلك وعدّه من مفاخر أيامه. فلما نظر فيه ازداد إعجابه به، ثم بعث أولاده إلى مجلس محمد رحمه الله ليسمعوا منه هذا الكتاب»[1].

والحق أن قصة الإمام الشافعي في طلبه للعلم، حتى بلوغه رتبة العالم الحافظ، تشبهها قصة شباب آخرين عانوا ذات المعاناة في أثناء سفرهم وترحالهم، وكتب التراجم والطبقات والتواريخ مليئة بالعشرات والمئات من هؤلاء الذين أنستهم حلاوة العلم وطلبه، ضيق ذات اليد والمسألة والفاقة والألم، فمن هؤلاء محمد بن نصر المروزي العلامة الذي ولد في حياة الشافعي (٢٠٢ - ٢٩٤هـ)، يحكي الإمام ابن كثير رحمه الله قصة معاناته وألمه في فترة طلبه للعلوم، قال: «رُوي أنه اجتمع في الديار المصرية محمد بن نصر ومحمد بن جرير ومحمد بن المنذر؛ فجلسوا في بيت يكتبون الحديث؛ ولم يكن عندهم في ذلك اليوم شيء يقتاتونه؛ فاقترعوا فيما بينهم من يسعى لهم في شيء يأكلونه؛ ليدفعوا عنه ضرورتهم، فجاءت القرعة على أحدهم؛ فنهض إلى الصلاة، فجعل يصلي، ويدعو الله؛ وذلك وقت القيلولة، فرأى نائب مصر وهو نائم وقت القيلولة رسول الله ﷺ، وهو يقول له: أنت هاهنا والمحمدون ليس عندهم شيء يقتاتونه! فانتبه الأمير من منامه؛ فسأل: من هاهنا من المحمدين؟ فذُكر له هؤلاء الثلاثة، فأرسل إليهم في الساعة بألف دينار»[2].

بل وأعجب من ذلك ما رواه ابن كثير أيضًا في ترجمته للإمام الحسن بن سفيان النسوي (ت٣٠٣هـ) محدث خراسان في عصره قال عنه: «كان يضرب إليه آباط الإبل في معرفة الحديث والفقه. رحل إلى الآفاق، ومن غريب ما اتفق له: أنه كان هو وجماعة من أصحابه بمصر في رحلتهم إلى الحديث، فضاق عليهم الحال حتى مكثوا ثلاثة أيام لا يأكلون فيها شيئًا، ولا يجدون ما يبيعونه للقوت، واضطرهم الحال إلى تجشم السؤال، وأنفت أنفسهم من ذلك وعزت عليهم وامتنعت كل الامتناع، والحاجة تضطرهم إلى تعاطي ذلك، فاقترعوا فيما بينهم أيهم يقوم بأعباء هذا الأمر، فوقعت القرعة على الحسن

---

(١) السرخسي: شرح السير الكبير ١/ ٤، ٥.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١/ ٣١١.

بن سفيان هذا، فقام عنهم فاختلى في زاوية المسجد الذي هم فيه فصلى ركعتين أطال فيهما واستغاث بالله ﷻ، وسأله بأسمائه العظام، فما انصرف من الصلاة حتى دخل عليهم المسجد شاب حسن الهيئة مليح الوجه فقال: أين الحسن بن سفيان؟ فقلت: أنا. فقال: الأمير طولون يقرأ عليكم السلام، ويعتذر إليكم في تقصيره عنكم، وهذه مائة دينار لكل واحد منكم. فقلنا له: ما الحامل له على ذلك؟ فقال: إنه أحب أن يختلي اليوم بنفسه، فبينما هو الآن نائم إذ جاءه فارس في الهواء بيده رمح فدخل عليه منزله ووضع عقب الرمح في خاصرته فوكزه وقال: قم فأدرك الحسن بن سفيان وأصحابه، قم فأدركهم، قم فأدركهم، فإنهم منذ ثلاث جياع في المسجد الفلاني. فقال له: من أنت؟ فقال أنا رضوان خازن الجنة. فاستيقظ الأمير وخاصرته تؤلمه ألمًا شديدًا، فبعث بالنفقة في الحال إليكم. ثم جاء لزيارتهم واشترى ما حول ذلك المجلس ووقفه على الواردين عليه من أهل الحديث، جزاه الله خيرًا. وقد كان الحسن بن سفيان رحمه الله من أئمة هذا الشأن وفرسانه وحفاظه، وقد اجتمع عنده جماعة من الحفاظ منهم ابن جرير الطبري وغيره، فقرأوا عليه شيئًا من الحديث وجعلوا يقلبون الأسانيد ليستعلموا ما عنده من العلم فما قلبوا شيئًا من الإسناد إلا ردهم فيه إلى الصواب، وعمره إذ ذاك سبعون سنة، وهو في هذا السن حافظ ضابط لا يشذ عنه شيء من حديثه»[١].

واللافت أن هؤلاء جميعًا فرج الله همومهم وأبدلهم بطلبهم للعلم من الفاقة والحاجة إلى الاستقرار والمكانة، فمن أمثال هؤلاء الذين بدل الله حالهم، وأزال عنهم الهم والحاجة والفقر الإمام الحافظ الوخشي الحسن بن علي بن محمد البلخي (ت٤٧١هـ) - نسبة إلى بلخ وهي بلدة بأفغانستان الآن - قال السمعاني عن رحلاته العلمية، ومعاناته فيها: «كان الوخشي حافظًا فاضلاً ثقة حسن القراءة رحل إلى العراق والجبال والشام والثغور ومصر وذاكر الحفاظ»[٢]، ويحكي الوخشي قصة معاناته وكيف بدلها الله إلى الفرج والسعادة، يقول: «سمعتُ ورحلتُ وقاسيتُ المشاق والذل، ورجعتُ إلى وخش (بلده)، وما عرف أحدٌ قدري، ولا فَهِم ما حصّلته فقلتُ: أموتُ ولا ينتشر ذكري، ولا يترحم أحد عليّ،

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ١٤٢.

(٢) الذهبي: تذكرة الحفاظ وذيوله ٣/ ٢٤٢.

فسهل الله، ووفق نظام الملك حتى بنى هذه المدرسة (يقصد المدرسة النظامية) وأجلسني فيها حتى أحدث، لقد كنت بعسقلان أسمع من ابن مصحح وغيره فضاقت علي النفقة، وبقيتُ أيامًا بلا أكل، فأخذتُ لأكتب فعجزتُ، فذهبت إلى دكان خباز وقعدتُ بقربه لأشم رائحة الخبز وأتقوى بها، ثم فتح الله تعالى عليّ»[1].

ولقد أثرت الرحلة في طلب العلم في كثير من الطلاب النابهين، وقد كان بعضهم يستغل هذه الرحلات ليلقى أكبر عدد من الشيوخ، حتى إن شيوخ بعضهم وصلوا إلى المئات، من هؤلاء عالم مصر وفقيهها عبد الله بن وهب المصري (ت١٩٧هـ) لقّبه الإمام سفيان بن عيينة بشيخ أهل مصر، سمع ابن وهب من شيوخ مصر والحجاز والعراق، قد قيل: إن شيوخه الذين أخذ عنهم يزيدون عن أربعمائة. إلا أنه أطال الجلوس عند الإمام مالك، تعلّم على يديه حتى صار عالماً جليلاً. كان يحبه الإمام مالك ويقدّره حتى قيل: إنه ما نجا أحد من زجر الإمام مالك إلا ابن وهب. وقد كان يلقبه بالفقيه، وكان يسمح له بالكتابة عنه ثم لا يجد مانعاً لمراجعة ما كتبه عليه، وكان ابن وهب أحد ناشري المذهب المالكي في مصر؛ لأن الناس – الأكثر منهم – كانوا لا يستطيعون السفر إلى المدينة المنورة فكانوا يذهبون إلى ابن وهب يتعلمون منه الفقه المالكي، وقد عُرف ابن وهب بكثرة رواية الأحاديث. وعندما كان الناس يختلفون في شيء على الإمام مالك كانوا ينتظرون قدوم ابن وهب من مصر ليسألوه[2].

وقد رفض أن يتولى القضاء في مصر عندما كتب إليه الخليفة بذلك، فحجب نفسه ولزم بيته، فرآه رشد بن سعد وهو يتوضأ في صحن بيته فقال له: «ألا تخرج إلى الناس فتقضي بينهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ فرفع ابن وهب رأسه إليه وقال له: إلى هنا انتهى عقلك؟ أما علمت أن العلماء يُحشرون مع الأنبياء والقضاة يُحشرون مع السلاطين؟»[3].

---

(١) السابق ٣/ ٢٤٢.
(٢) ابن أبي حاتم الرازي: الجرح والتعديل ٥/ ١٨٩.
(٣) إسماعيل بن محمد العجلوني: كشف الخفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ٢/ ٣٩٣.

هذه بعض نماذج لطلاب العلم وأثر التربية عليهم، فيها كل دليل وعبرة لمن أراد أن يعتبر، وفيها كل متعة لمن أراد يستمتع، وفيها قبل ذلك كله كل ملامح النهضة والتنمية لمن أراد لهذه الأمة أن تنهض!

التربية النسائية

من الجميل أن الحضارة الإسلامية ليست حضارة ذكورية كما يروج البعض ويدلي، فقد كان للمرأة دورها العظيم في عملية التربية والتعليم والتوجيه والتأديب، ولم يكن ذلك منوطًا بها في المنزل فقط، فلقد انتشرت المعلمات والمؤدبات في طول بلدان الخلافة الإسلامية وعرضها، وقبل الشروع في الحديث عن دور المرأة في هذا العصر، أُحب أن نقارن بينها وبين مثيلاتها في أوربا في ذلك الزمن، وكيف تعلم هؤلاء الغربيون آداب التعامل مع المرأة واحترامها من خلال المسلمين، يقول المستشرق والطبيب الفرنسي جوستاف لوبون[1]: «إن الأوربيين أخذوا عن العرب مبادئ الفروسية وما اقتضته من احترام المرأة، والإسلام – إذن – لا النصرانية، هو الذي رفع المرأة من الدرك الأسفل الذي كانت فيه، وذلك خلافًا للاعتقاد الشائع، وإذا نظرت إلى سنيورات[2] نصارى الدور الأول من القرون الوسطى رأيتهم لم يحملوا شيئًا من الحرمة للنساء، وإذا تصفحّت كُتب تاريخ ذلك الزمن وجدتَ ما يُزيلُ كل شكّ في هذا الأمر، وعلمتَ أن رجال عصر الإقطاع كانوا غلاظًا نحو النساء قبل أن يتعلم النصارى من العرب أمر معاملتهن بالحسنى، ومن ذلك ما جاء في تاريخ «غاران لُولُو هيران» عن معاملة النساء في عصر شرلمان، وعن معاملة شارلمان نفسه لهنّ كما يأتي: انقضّ القيصر شارلمان على أخته في أثناء جدال وأخذ بشعرها وضربها ضربًا مبرّحًا، كسر بقفّازه الحديدي ثلاثًا من أسنانها. فلو

(١) جوستاف لوبون (٧ مايو ١٨٤١ – ١٣ ديسمبر ١٩٣١م) طبيب، ومؤرخ فرنسي، عني بالحضارة الشرقية. من أشهر آثاره: حضارة العرب وحضارات الهند و«باريس ١٨٨٤» و«الحضارة المصرية» و«حضارة العرب في الأندلس». هو أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد الذين أنصفوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية. لم يسر جوستاف لوبون على نهج مؤرخي أوروبا الذين صار من تقاليدهم إنكار فضل الإسلام على العالم الغربي وقد ساعدهم على ذلك ما نحن فيه من تأخر، لكن جوستاف راعى هذا الجحود وهو الذي هدته رحلاته في العالم الإسلامي ومباحثة الاجتماعية إلى أن المسلمين هم من مدنوا أوروبا، فرأى أن يبعث عصر العرب الذهبي من مرقده وأن يبديه للعالم في صورته الحقيقية.

(٢) جمع «سنيور» وهم السادة الإقطاعيون والملوك الأوربيون.

حدث مثل هذا الجدل مع سائق عربة في الوقت الحاضر لبدا هذا السائقُ أرقّ منه لا ريب. ومن الأدلة على أهمية النساء أيام نضارة حضارة العرب، كثرة من اشتهر منهنّ بمعارفهنّ العلمية والأدبية؛ فقد ذاع صيت عدد غير قليل منهن في العصر العباسي في المشرق، والعصر الأموي في إسبانيا»[١].

لقد صدق لوبون فيما أقره من حقيقة ناصعة تؤيدها جل المؤلفات التاريخية، التي – من المدهش – لم تفرق بين العلماء من الرجال والنساء، وكان السلف الصالح يفتخرون بمعلماتهم وشيخاتهم، كما يفتخرون بشيوخهم وعلمائهم، وذكروهم في فهرساتهم ومشيخاتهم ومعاجمهم وتراجمهم وتواريخهم!

ولقد غصّت المدن الكبرى والصغرى وحتى البلدان النائية بالعالمات المربيات المجاهدات اللاتي مارسن حقهن الطبيعي والمعلوم في نهضة وتربية المجتمع الإسلامي في العصر العباسي، منهن عالمة دمشق ومعمرتها ملكة بنت داود بن محمد (ت٥٠٧هـ) كانت عالمة في الحديث أخذ عنها جمع من علماء دمشق منهم شيخ ابن عساكر أبو الفرج الصوري[٢]، ومثلها ابنة زعبل البغدادية فاطمة بنت علي بن المظفر (ت٥٣٣هـ)، سمعت من الحافظ عبد الغافر الفارسي، فكانت آخر من حدث عنه. قال الحافظ السمعاني: «امرأة صالحة عالمة، تعلم الجواري (البنات الصغيرات) القرآن، سمعت من عبد الغافر جميع» صحيح مسلم، و «غريب الحديث» للخطابي[٣].

والرائع أن بعض العلماء كانت بعض بناته تخلفه في تدريس العلوم، فهذا أحد علماء القرن الخامس الهجري أبو الوفا مبشر بن فاتك «كَانَتْ لَهُ ابنة عمّرت بعده، وروت بالإسكندرية أحاديث نبوية وَكَانَ فِي آخر المائة الخامسة للهجرة»[٤].

وحتى في الأقاليم النائية والبعيدة عن مركز الخلافة وجدنا للمرأة حلقات للعلم والتوجيه، فقد روى الحافظ السمعاني وهو من كبار علماء الحديث في عصره (ت٥٦٢هـ) عن

(١) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر ص٤٠٣، ٤٠٤.
(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ٧٠/ ١٢٧.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٩/ ٦٢٥.
(٤) القفطي: أخبار العلماء بأخيار الحكماء ص١١٣.

الكثيرات واللاتي ذكرهن في موسوعته «التحبير في المعجم الكبير» منهن من اتخذت لها مكتبًا خاصًا مثل أم البهاء الأصفهانية، وكانت عالمة في القرآن والحديث، يقول عنها: «من أهل القرآن تعلم الصبيان القرآن سمِعَتْ سهل بن عبد الله الغازي والرئيس أبا عبد الله القاسم بن الفضل بإفادة والدها وكان ممن رحل وطلب الحديث بنفسه بالعراق وخراسان، كتبتُ (أي السمعاني) عنها ثلاثة أحاديث وكانت ولادتها في حدود سنة خمس وثمانين وأربعمائة»[١].

ومنهن من ظلت في بيت زوجها، ولكنها حرصت على تعليم وتأديب أطفال المسلمين مثل أم عبد الله العياضية (ت٥٤٢هـ)، ومنهن من كانت تعطي شهادات تجيز فيها لطالب العلم مثل خديجة النيسابورية، التي قال عنها السمعاني: «من بيت العلم والصلاح والتزكية سمعت أباها إسماعيل بن أبي عبد الرحمن بن أبي عمرو البحيري وأبا عثمان سعيد بن محمد بن أحمد البحيري كتبت إلي الإجازة في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة»[٢]، ومن الجميل أن يرجع القارئ إلى كتاب السمعاني السابق، فهو يذكر فيه شيوخه وشيخاته، ليتعرف عن قرب على عشرات من النساء كان لهن دور عظيم في مسيرة وقصة التربية الإسلامية.

والحق أن هؤلاء الشيخات اللاتي خرّجن نماذج رائعة في المشرق والمغرب، ما كنّ ليصلن لهذه المنزلة إلا بعد جهد جهيد، وحظ وافر من التربية لا يقل في محصلته عما كان يتناوله الذكور والشباب في المدارس وحلقات العلم، ورأينا هذه النماذج الرائعة من الفتيات والنساء العالمات في كل مناطق الخلافة الإسلامية، وكانت بعضهن ينتشر ذكرها، ويقصدها طلبة العلوم والآداب من كل حدب وصوب، ففي نيسابور درة الخلافة العباسية في المشرق، ذكر ابن الصيرفيني (ت٦٤١هـ) مجموعة من هؤلاء النسوة اللاتي كان لهن دورهن الكبير واللافت في مسيرة التربية الإسلامية، هذه المرأة اسمها الحرَّة الدقاقية فاطمة بنت الحسن بن علي الدقاق (ت٤٨٠هـ) قال عن قصة تربيتها، وشيوخها، ومسيرة تلقيها، ثم أثرها التربوي فيمن حولها: «فخر نساء عصرها من لم ير نظيرها في سيرتها من العهود السالفة الماضية، نشأت في تربية أبيها وتعليمه وتأديبه وتهذيبه وتلقينه

---

(١) السمعاني: التجبير في المعجم الكبير ٢/ ٤٠١.
(٢) السمعاني: التحبير في المعجم الكبير ٢/ ٤٠٦.



إياها الاعتقاد وآداب الصوفية وكلمات التوحيد، وكانت حافظة لكتاب الله تقرؤه آناء الليل والنهار وعارفة بالكتاب، عقد لها أبوها مجلس التذكير وحفظها المجالس لعزتها عليه، ولم يكن له إذ ذاك ابن فكان إقباله على هذه البنت، ولدت سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة وهي السنة التي بنا فيها المدرسة المباركة، ولما ترعرعت زوَّجها من الإمام زين الإسلام بعد أن استجمعت أنواع الفضائل وسمعت من أبي نعيم الإسفرايني ومن السيد أبي الحسن العلوي والحاكم أبي عبد الله الحافظ وعبد الله بن يوسف وأبي علي الروذباري، عن ابن داسة، عن أبي داود السجستاني، وعن أبي عبد الرحمن السلمي، ثم عن الطبقة الثانية كالشيخ أبي عبد الله بن باكويه، وخرج لها الفوائد وقرئ عليها الكثير، وكانت بالغة في العبادة والاجتهاد مستغرقة الأوقات في الطهارة والصلاة، ورزقت الأولاد الستة من الذكور والإناث أفراد عصرهم»[١].

وفي إربل أو إربيل شمال العراق وجدت العابدات الواعظات العالمات، مثل مؤمنة بنت غنيمة بن مختار الواسطية، قال عنها شرف الدين الإربلي: «كانت تعظ النساء، ولها بإربل قبول»[٢] توفيت في القرن السادس الهجري.

وفي مصر وجدت أمثال هؤلاء كالشيخة فاطمة بنت عبد الرحمن بن أبي صالح (ت٣١٢هـ) الصوفية «كانت من الصالحات المتعبدات طال عمرها حتى جاوزت الثمانين ولقيت جماعة كثيرة من مشايخ القوم»[٣]...

المرأة إذن لم تكن حبيسة القصور والدور، ولا كانت بُضعة يضع الرجل فيها شهوته ثم يتركها لاهثة لاعبة في أقسام الحريم، لقد كانت المرأة في تلك العصور التي نطلق عليها دون تعقل أو معرفة أو حتى أدنى قراءة عصور الرجعية والتخلف، هاكم عصور التخلف التي جعلت الأب يسعى لتربية وتعليم ابنته على كبار علماء عصره، صحيح أن البنت كانت وحيدة أبيها، لكن ذلك لم يجعلها تدلل عليه، منشغلة مثلاً بما تنشغل به بنات جنسها من التحف والهدايا والزينة وغيرها، والرجل كان صاحب مال وفير، لكن التربية

(١) الصيرفيني: المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور ص٤٥٨، ٤٥٩.
(٢) شرف الدين الإربلي: تاريخ إربل ١/ ٨٦.
(٣) السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ١/ ٥١٢.

الإسلامية التي تجعل الآخرة خيرًا وأبقى، وتضع هذه العقيدة في قلوب أبنائنا وبناتنا جعلت البنت لا تعرف مقدار ما ترك أبوها وأمها من الثروة الطائلة، وعاشت تسعين عامًا مربية أمينة على أبنائها وبناتها، فكانت نعم القدوة، وخير الأسوة رحمها الله.

وحتى لا يحسبن قارئٌ، أو يظنن ظان أننا ننتقي من هذه الحضارة الورود ونترك الأشواك، فثمة أمثلة كثيرة لا أستطيع حصرها أو إحصاءها في هذا الكتاب تؤكد ما للمرأة من دور ومكانة، والحق أن جل الأمثلة في هذه الحضارة الضاربة بجذورها في وعينا الثقافي، والتي ترسم لنا ملامح الحياة الاجتماعية والتربوية في عصر الخلافة العباسية هي الورود والرياحين والأزهار، هي العطر الشجي الذي يجعلك أحد أبناء هذه الأمة المؤمنة؛ حتى لكأنك أحد هؤلاء الفتية والشباب أو هاتيك البنات والفتيات في دروب بغداد والقاهرة ودمشق، تمشون الخطا، وتتسابقون في التحاقكم بمجالس التأديب والتعليم في حلقات الدرس في المدارس والكليات والمكاتب وغيرها، ثم أنتم تأخذون عن الشيوخ والشيخات، ثم لا يفرغ الدرس إلا وأنتم في مناظرة علمية تشخص إليها الأبصار، وتتلذذ بها الأسماع والعقول، فهذه حضارتنا تنطق بالحق على من أراد الأسوة والقدوة.

فممن أوقفن المدارس والجامعات في العصر الأيوبي المرأة الصالحة عصمة الدين خاتون (ت٥٨١هـ) زوجة نور الدين محمود، ثم زوجة صلاح الدين بن أيوب من بعد، أوقفت أشهر مدارس الحديث والفقه في دمشق في القرن السادس الهجري، وهي المدرسة الخاتونية الجوانية[١]، ومثلها ربيعة خاتون بنت أيوب أخت السلطان صلاح الدين الأيوبي (ت٦٤٣هـ) المرأة الصالحة العابدة بانية المدرسة الخاتونية بسفح قاسيون التي كانت في خدمتها إحدى عالمات عصرها «الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الناصح الحنبلي، وكانت فاضلة، ولها تصانيف، وهي التي أرشدتها إلى وقف المدرسة بسفح قاسيون على الحنابلة، ووقفت أمة اللطيف على الحنابلة مدرسة أخرى وهي الآن شرقي الرباط الناصري»[٢].

وأمهات الخلفاء وزوجاتهم كنّ من المنشِئات والواقفات المدارس والكليات الشرعية،

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/ ١٩٨.
(٢) البداية والنهاية ١٣/ ١٩٩.



فمن أشهر هؤلاء الواقفات السيدة زمرد هي أم الخليفة الناصر لدين الله العباسي (ت٦٢٢هـ) أنشأت مدرسة للشافعية بجوار تربة الشيخ معروف الكرخي، ورباطًا ومدفنًا لها وجرى احتفال فتح المدرسة سنة ٥٨٩هـ، وحضر أرباب الدولة وعمل سماط عظيم (مأدبة) وسلمت إلى العلامة النوقاني مدرس بها[١]؛ والنوقاني هو الفقيه محمد بن أبي نصر النوقاني الفقيه الشافعي، والذي كان معاصرًا للسيدة زمرد خاتون ومن كبار الشافعية في بغداد توفي سنة ٥٩٢هـ[٢]، ويُحدّثنا الذهبي نقلاً[٣] عن ابن النجار البغدادي أن بوّاب هذة المدرسة كان من جملة العلماء والرجال الصالحين وهو ابن ملاح الشط عبد الرحمن بن محمد بن هبة الله (ت٥٩٧هـ)، و «كان شيخًا صالحًا، حسن الأخلاق، محبًا للرواية، لا يسأم، ولا يضجر»[٤]، ما يُدلل على الاهتمام البالغ لاختيار القائمين على هذه المنارات التعليمية والتربوية!

وحتى سراري وجواري الخلفاء كان لهن ذات الدور التربوي الرائع، البعيد عن صورة «الحرملك» المعقودة في الأذهان، فالفتاة «بنفشا» فتاة الخليفة العباسي المستضيء بالله، كانت – كما يذكر الذهبي – أحب سراريه إليه، وقفت مدرسةً بباب الأزج، وعمرت عدة مساجد[٥]!

هذه حال التربية في العصر العباسي، وهذه الصفحات القلائل قبس من نور هذا العصر، وغيض من فيض، وقطرة من بحر الحضارة العباسية التي تحتاج إلى من ينقب في تاريخها وتراثها ليكتشف المزيد، وعلى كل؛ فقد لاحظنا كيف تطورت الأوضاع والوسائل والمناهج التربوية في هذه القرون من الثاني وحتى السابع الهجري، وأصبح للتربية أماكنها ومناهجها ونظرياتها ورؤاها، بل وعلماؤها، كل هذا دليل دامغ على أسبقية وأولية الحضارة الإسلامية في مجال التربية والتأديب، وإبهارها في آليات الابتكار والإبداع لنمو وتطوير هذا العلم والمجال الذي يحتك به المسلمون صباح مساء.

***

---

(١) سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ٨/ ٤٢٢.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٤٩.
(٣) لم أقف لابن النجار البغدادي على ترجمة ابن ملاح الشط هذا، في ذيله على تاريخ بغداد للعلامة الخطيب البغدادي.
(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣١٠.
(٥) السابق ٤٢/ ٣٤٢.

الفصل الرابع

عظمة التربية
في العصر المملوكي



ثمة أحداث سياسية واجتماعية ساعدت على مجيء المماليك إلى الحكم، يأتي على رأسها الفراغ السياسي الذي أحدثه موت نجم الدين أيوب، وخفة وطيش ابنه تورانشاه الذي مات مقتولاً، ثم تنازل شجرة الدر بنت عبد الله الأيوبية لزوجها أيبك.

ومنذ عام ٦٤٨هـ وحتى عام ٩٢٣هـ بدأ عصر جديد هو عصر الدولة المملوكية الذي شهد أحداثًا عديدة، ومرت فيه بلاد مصر والشام والحجاز بنقلة حضارية لا يمكن لقارئ التاريخ أن يغفل عنها، أو يقلل من شأنها رغم السلبيات التي واجهتها الرعية من المؤسسات الحاكمة والعسكرية في تلك الأقاليم.

وعلى صعيد التربية الإسلامية لم يكن مجيء المماليك ليُحدث قطيعة في سُنة التطور التي لاحظناها في ظل الخلافة العباسية بما في ذلك الدول التي استقلت عنها، بل على العكس، حرص المماليك على إضفاء الشرعية على أنفسهم، ولعل دولتهم كانت أعظم دولة بين الممالك الأخرى؛ فقد جاءوا بأحد أبناء البيت العباسي ليعينوه خليفة في القاهرة، صحيح أنه لم يكن يملك من أمره شيئًا، وكانت مهامه تافهة في كثير من الأحيان، لكن تمسك المماليك بالتقاليد الماضية، وإعلاء شأن طبقة العلماء والمفكرين وعدم الغض أو التقليل من شأنهم وآرائهم جعل الهوية الإسلامية أصلاً من أصول التقاليد الحاكمة في السياسة والمجتمع المملوكي.

هذه الرؤية أبداها العلامة جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) وهو من العلماء الذين عاصروا أواخر الدولة المملوكية، ومن ثم كانت رؤيته لسير هذه الدولة، والنظام التربوي فيها ناضجًا متكئًا على تاريخ كبير لا يقل عن ٢٦٥ عامًا تحت ظل هذا الحكم السلطاني الخليفي، قال عن ارتباط تقدم مصر بالنظام الخلافي: «اعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظُم أمرها، وكثرت شعائر الإسلام فيها، وعلت فيها السنة، وعفت منها البدعة، وصارت محل سكن العلماء، ومحط رحال الفضلاء، وهذا سر من أسرار الله أودعه في الخلافة النبوية حيث ما كانت يكون معها الإيمان والكتاب»[(١)]!

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ٢/ ٩٤.

وتفسير السيوطي وهو يُقر بتقدم مجتمعه في كل شيء بما في ذلك العلم والتربية، يبديه ويُجليه من قبله العلامة ولي الدين بن خلدون (ت٨٠٨هـ) بإعجاب وانبهار واندهاش، وهو من جال البلاد، وطاف الديار، واستقر في سني عمره الأخيرة في مصر ومات فيها، بقوله عن مصر والقاهرة: «فانتقلتُ إلى القاهرة أول ذى القعدة فرأيتُ حاضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في جوه، وتزهر الخوانق والمدارس والكواكب بآفاقه، وتضيء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطئ النيل نهرٌ، ومدفع مياه السماء يسيقه العلل والنهل سيحه، ويجبى إليهم الثمرات والخيرات ثجه، ومررتُ في سكك المدينة تغصُّ بزحام المارة، وأسواقها تزخر بالنعم، ومازلنا نتحدث بهذا البلد، وبُعْد مداه في العمران، واتساع الأحوال، ولقد اختلفَتْ عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا حاجِّهم وتاجرهم في الحديث عنه، سألتُ صاحبنا كبير الجماعة بفاس وكبير العلماء بالمغرب أبا عبد الله المقّرى فقلتُ له: كيف هذه القاهرة؟ فقال: من لم يرها لم يعرف عزّ الإسلام. وسألتُ شيخنا أبا العباس بن إدريس كبيرُ العلماء ببجاية مثل ذلك فقال: كأنما انطلق أهله من السحاب. يُشير إلى كثرة أممه، وأمنهم العواقب، وحضر صاحبنا قاضى العسكر بفاس الفقيه الكاتب أبو القاسم البُرجى بمجلس السلطان أبى عنان منصرفه من السفارة عنه إلى ملوك مصر وتأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة ست وخمسين (وسبعمائة) فسألتُه عن القاهرة، فقال: أقولُ في العبارة عنها على سبيل الاختصار: إن الذي يتخيله الإنسان فإنما يراه دون الصورة التي تخيلها الخيال عن كل محسوس إلا القاهرة، فإنها أوسع من كل ما يُتخيل. فيها فأعجب السلطان والحاضرون لذلك»[1].

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٧/ ٤٥٢.

(صورة رقم ٤ القاهرة القديمة).

هذه هي القاهرة عاصمة الإسلام وعزّه كما أقرّ المغاربة واعترفوا، ولنا أن نأخذ كلام كل من السيوطي ومن قبله ابن خلدون على محمل الجِد الكبير؛ ذلك لأن ما سنعرضه في هذا الفصل يُبدي لنا بوضوح أن عصر الدولة المملوكية يُعد من أعظم العصور الإسلامية، من ناحية القوة السياسية والعلمية والاقتصادية.

ورغم اعترافنا بتعدي طبقة الحكام والمماليك على الرعية في كثير من أوقات حكمهم، إلا أن العلاقة بين العلماء والمؤسسة الحاكمة علاقة تقوم على الاحترام في مجملها، ومن كان يتعدى الذوق العام، وقوانين الأدب والحشمة بينهم يُعاقب على الفور، وكان السلطان بنفسه يتدخل لمعاقبة هؤلاء المباشرين والموظفين العموميين أو العلماء الذين حادوا عن الأخلاق والفضائل، فقد حكى ابن حجر أنه «في ثاني عشر رجب (من عام ٨٢٧هـ) وقع من علاء الدين الرومي شيخها[1] إساءة أدب في حق القاضي الحنفي،

---

(١) أي شيخ الجامعة الأشرفية في القاهرة.

فعزره بالكلام وأقامه من المجلس، ثم شكا الحنفي لمن حضر من المباشرين، فبلغوا الأمر للسلطان، فأمر بإخراجه من المدرسة فكشف الحنفي رأسه وأصلح بينهما ناظر الجيش، وصرف رأي السلطان عن عزله بعد أن كان أمر بتقرير الشيخ سراج الدين قارئ الهداية مكانه، واشترط عليه لزوم الأدب في البحث»[١].

كيف رأوا أولادهم؟!

من العجيب أن نرى أن أدبيات هذا العصر وحكاياته الماتعة لم تنس ما للأطفال من مكانة دنيوية وأخروية، ومن أغرب ما ذكره الإمام ابن الجزري محمد بن محمد الشافعي (ت ٨٣٣هـ) أنه قال: «قال بعض الصالحين رضي الله عنهم: كان بجواري رجل مدمن على الخمر فمات، فسألت الله أن أراه في المنام، فرأيتُه بعد ستة أعوام وعليه حُلة خضراء، فقلتُ له: ما فعل الله بك؟ فقال: يا سيدي، لما متُ دُفعتُ إلى جهنم، فضربوني بسياط من نار، بكل كأس شربته ألف ضربة. وكنتُ تركتُ زوجتي حاملاً، فولدت لي غلامًا فلما تكلم وقال: لا إله إلا الله أعتقني الله من النار. فلما تم له خمسة أعوام دخل المكتب فلقنه المعلم: بسم الله الرحمن الرحيم، فقالها فأدخلني الله تعالى الجنة وأعطاني فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت.قال رسول الله ﷺ: «**ما من شفيع أفضل عند الله منزلة يوم القيامة من القرآن**»[٢].

والرواية وإن كان فيها بعض التهويل أو عدم الإقناع لكنها تتلمس ذاك العصر الذهبي الذي لم ينس الأطفال وأهميتهم، وإن كان من خلال روايات المتصوفة وأهل الخير والفلاح.

ولقد علّق الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهواني رحمه الله[٣] على إحدى فقرات العالمة الإيطالية ماريا مونتيسوري[٤] (ت١٩٥٢م) التي قالت في إحدى كتُبها على سبيل الفصل

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر ٨/ ٦٩.
(٢) ابن الجزري: الزهر الفاتح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح ص٢٣، ٢٤.
(٣) أحد عظماء وعلماء كلية الآداب جامعة القاهرة.
(٤) فيلسوفة وعالمة وطبيبة ومربية إيطالية، اهتمت بالكتابة في الجانب التربوي للأطفال من الولادة وحتى سن المراهقة، وأسلوبها التربوي والتعليمي لا يزال يُدرس في كثير من مدارس وجامعات العالم، ولدت عام ١٨٧٠م وتوفيت عام ١٩٥٢م.

والقطع: «إن أهم ما يُميز التربية الحديثة[١] هو احترام شخصية الطفل إلى حد لم يبلغه من قبل»[٢]، بقوله المدافع والمنافح عن الحضارة الإسلامية: «نحن لا نتفق مع هذه المربية في الحكم على الماضي، فقد يكون هذا الرأي صحيحًا بالنسبة إلى التعليم في أوربا، ولكنه غير صحيح على إطلاقه عن التعليم في الكتاتيب؛ ذلك أن شخصية الطفل كانت محترمة إلى حد كبير»[٣].

إن كلام الأستاذ الدكتور الأهواني لا غبار عليه؛ فلقد كان الرفق بالأطفال وعدم التشديد عليهم، وتعليمهم بالحسنى واحترام شخصياتهم أحد أبرز المظاهر العامة التي تجلت في المؤلفات الإسلامية في ذلك الوقت ومن قبله أيضًا؛ فقد تحدث ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) عن وظيفة الحسبة وأهميتها، وسماتها، وكانت هذه الوظيفة في عصره إحدى الوظائف التابعة لجهاز الشرطة في عصرنا، وكانت من جملة الوظائف التي ذكرها ابن خلدون والمنوطة بالمحتسب، أن يراقب المؤدبين والمعلمين المتعسفين والجائرين ويأخذ على أيديهم، قال ابن خلدون: «أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلاً له، فيتعين فرضه عليه، ويتخذ الأعوان على ذلك، ويبحث عن المنكرات، ويعزز ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة: مثل المنع من المضايقة في الطرقات... والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين»[٤].

ومن الرائع أن نجد ابن خلدون يُفرد ويُخصصُ في مقدمته الشهيرة فصلاً وقد عنونه بما يلي: «في أن الشدة على المتعلمين مضرةٌ بهم»، وقد حلل بأسلوبه الاجتماعي والنفسي المعهود، ورؤيته الثاقبة للعواقب ونتائج الأفعال، الأثر السلبي الخطير الذي يترتب على التعامل مع الصبيان والمتعلمين بصفة عامة بالعسف والقوة والقهر، بل إنه شبه الأخلاق

---

(١) تقصد في الغرب خاصة.

(٢) وليام جيمس: محادثات حول علم النفس ص١٤، نقلاً عن عبد العزيز الأهواني: التربية في الإسلام ص١٩٤.

(٣) الأهواني: التربية في الإسلام ص١٩٥.

(٤) ابن خلدون: المقدمة ص٢٢٥.

التي يتحصل عليها الصبي الذي رُبي بالعسف والقوة بأخلاق اليهود، وهذا مآل خطير، ونتيجة لافتة تستوجب التوقف أمامها كثيرًا، توصل إليها العلامة ابن خلدون منذ سبعة قرون، وكان مما جاء في هذا الفصل الرائع قوله: «إن إرهاف الحد بالتعليم مضر بالتعليم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيق عن النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفًا من انبساط الأيدي بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقًا وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيالاً على غيره في ذلك بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها، فارتكس وعاد في أسفل السافلين، وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر، ونال منها العسف، واعتبره في كل من يملك أمره عليه، ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به، وتجد ذلك فيهم استقراء، وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء حتى إنهم يوصفون في كل أفق وعصر بالحرج، ومعناه في الاصطلاح المشهور التخابث والكيد، وسببه ما قلناه فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده أن لا يستبدا عليهما في التأديب»[١].

وإن كان العلامة ابن خلدون يُحذّر من آثار الضرب المفرط على الأولاد والنتائج السلبية التي قد تترتب على ذلك، فإن ثمة آراء فقهية أخرى نادت في هذا العصر بجواز الضرب إن كان هناك مصلحة مترتبة عليه، بما في ذلك كتاتيب الأيتام، بالرغم من كون الأيتام أعلى منزلة في نظر الدولة والمجتمع من الصبيان الذين يعيشون في كنف آبائهم، قال الشيخ شهاب الدين الهيتمي (ت٩٧٤هـ): «يجوز لمؤدب الأطفال الأيتام بمكاتيب الأيتام أمرهم وضربهم على نحو الطهارة والصلاة، وإن كان لهم أوصياء؛ لأن الحاكم لما قرّره لتعليمهم كان مسلَّطًا له على ذلك، فثبُت له (أي المعلم) هذه الولاية في وقت التعليم، ولأنهم ضائعون في هذا الوقت لغيبة الوصي عنهم وقطع نظره عنهم في هذا الوقت»[٢]

(١) السابق ص٥٤٠.
(٢) أحمد بن قاسم العبادي وعبد الحميد الشرواني: حواشي الشرواني والعبادي على تحفة المحتاج ١/ ٤٥١.

ولقد تناولت المؤلفات الفقهية في ذلك الوقت طرائق التربية، وأساليب التعلم، وآداب المعلم، وإجلاء حقوقه وواجباته، قال العلامة ابن حجر رحمه الله (ت٨٥٢هـ) في أثناء حديثه عن طهارة معلم الأولاد: «يُسامح لمؤدب الأطفال الذي لا يستطيع أن يُقيم على الطهارة في مسّ الألواح[١] لما فيه من المشقة لكن يتيمم؛ لأنه أسهل من الوضوء»[٢].

وكما اهتم العلماء والفقهاء بالكتابة والتنظير فيما يخص طبيعة التعامل مع الصبيان، وقامت بالحسبة عليهم وعلى معلميهم، اهتمت كذلك مؤسسات الدولة بما فيها السلطان بالاهتمام بالصبيان ومعلميهم، ويذكر لنا القلقشندي (ت٨٢١هـ) في موسوعته «صبح الأعشى» بعض الرسائل التي كانت تُرسل للمؤدبين والمعلمين وأهل التربية من قِبل السلطان، يتضح فيها النصح الجلي، وبعض الضوابط العامة للتعامل مع هؤلاء الصغار، قال: «إن كان مدرسًا وصي بأن يُقبل على جماعة درسه بطلاقة وجه، وأن يستميلهم إليه جهد استطاعته، ويُربيهم كما يربي الوالد ولده، ويستحسن نتائج أفكارهم التي يأتون بها في درسه، ويقدم منهم من يجب تقديمه، ويُنزل كل واحد منهم منزلته؛ ليهزّهم ذلك إلى الإكباب على الاشتغال والازدياد في التحصيل، ثم يأتي في كل مدرس بما يناسبه من أمور العلم الذي يدرس فيه وإن كان يدرس في علم خاص»[٣].

وقد حرص عامة الناس على اختيار المؤدبين الصالحين النافعين من العلماء أمثال «ابن بَدْران، الشيخ الفاضل شهاب الدين أبو بكر الكردي الدَّشْتي، كان معلِّماً أكثر الطلبةُ عنه»[٤]. وكذلك شهاب الدين أحمد بن مخلوف السعدي (ت٧٨٥هـ) وصفه العلامة ابن حجر بقوله: «المؤدب الأديب، اشتغل بالعلم وتعانى الأدب، فمهر وأدّب أولاد الأكابر» وأورد له شعرًا طريفًا، منه بعض أحوال العيش في مصر في القرن الثامن الهجري!!:

وكيفَ يرومُ الرزقَ في مصرَ عاقلٌ ... ومِنْ دُونِهِ الأتْراكُ بالسَّيفِ والتّرسِ

---

(١) أي ألواح القرآن التي كان يكتب عليها الأطفال، ولا زالت موجودة حتى الآن في بعض قرى مصر واليمن وغيرها.
(٢) البكري الدمياطي: حاشية إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين لشرح قرة العين بمهمات الدين ١/ ٨٣.
(٣) أحمد بن علي القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا ١١/ ٩٧.
(٤) الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر ١/ ٣٥٠.

وَقَـد جَمَعَتْـهُ القـبْطُ مِـن كُـلّ وِجْهَـةٍ لِأَنْفسِـهِم بـالرّبعِ والـثُّمنِ والخُمـسِ
فللـتُّرْكِ والسُّـلطانِ ثُلـثُ خَرَاجِهـا وَللقِبْطِ نِصْفٌ والخلائِقِ في السُّدْسِ[1]!

ووجدنا مصنفات التاريخ والتراجم تهتم بذكرِ السير الذاتية لهؤلاء، وتذكر أعوام وفاتهم، وبعض منجزاتهم في مجال التربية والتأديب، فقد ذكر المقريزي وفاة المؤدب الشهير فخر الدين أبو عمرو عثمان بن خضر المصري المؤدب، في جمادى الآخرة سنة٦٩٢هـ، وهو في العقد الثامن من عمره[2].

وكان بعض هؤلاء المربين من المتخصصين في العلوم المختلفة، فبجوار تعليمه للعلم الشرعي أو اللغوي وأخذِ الناس عنه، كان بعض هؤلاء العلماء يُلزم نفسه بتأديب الأطفال، وتعليمهم قال ابن الجزري الشافعي في كتابه «غاية النهاية في طبقات القراء» في ترجمة شيخه إبراهيم بن عبد الله الحموي المؤدب: شيخنا أبو إسحاق، قرأ بحماه على العماد إسماعيل النحوي، وقدم دمشق فجلس بمسجد بالعقيبة يعلم الصبيان وكان مجوداً حاذقاً، قرأتُ عليه جمعاً للسبعة، ومنه تعلمت التجويد وأخذته، توفي سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة فيما أحسب ولم أر في شيوخي أعلم منه بدقائق التجويد»[3].

ومثله ابن فتح الغماري (ت٧١٢هـ)، فقد كان عالمًا بالقراءات والحديث، قال عنه ابن تغري بردي: «كان شيخاً جليلاً، حسناً، متواضعاً، روى عنه أثير الدين أبو حيان، وفتح الدين بن سيد الناس، وابن الفخر، وتقي الدين السبكي»[4].

ولم يكن يُنظر لبلد هؤلاء المؤدبين عند الاختيار، بقدر ما كان يُنظر لعلمهم وقدرتهم على تعليم وتربية الأطفال؛ ففي مكة اشتهر مؤدب الأطفال في الحرم المكي الشريف الحسن بن عبد الأحد الماrديني نسبة إلى ماردين (بتركيا الآن) (ت٨٢٦هـ) وقد كان عالمًا في الحديث النبوي، قال عنه السخاوي: «جاور بمكة سنين وأدب بها الأطفال بالمسجد

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١/ ٣٩٦، ٣٩٧.
(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٢/ ٢٣٦.
(٣) ابن الجزري: غاية النهاية في طبقات القراء ١/ ١٨.
(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ٥/ ٨٤.

الحرام وكان خيراً متعبداً ساكناً»[١].

وقد يصل مؤدب الأطفال إلى الوظائف الكبرى في البلد، ولا يظل حبيس مكتب الأطفال؛ خاصة إن أظهر قدرة وبراعة في مهامه، فمثلاً تمت ترقية جمال الدين عبد الرحيم بن الوراق الحنفي مؤدب ابني السلطان الأشرف شعبان (ت٧٧٨هـ)، واستقر في نظر الخزانة الكبرى أو وزارة المالية[٢]، لما وجد من أثر أمانته وتأديبه لولدي السلطان.

ومثله ولي الدين الدمياطي محمد بن أحمد؛ فقد كان مؤدبًا لأحد الأمراء، ثم رقي لوظيفة وكالة بيت المال ونظر الكسوة حتى اختير بدلاً منه آخر في عام ٨٠٨هـ[٣].

وكانت آثار هؤلاء المؤدبين تبدو سريعًا على النجباء من تلاميذهم، فشيخ الإسلام ابن حجر العسقلاني المولود عام ٧٧٣هـ يُصلي بالناس التراويح في مكة المكرمة، وفي حرم الله عام ٧٨٥هـ، أي وهو فتًى في الثانية عشرة من عمره، يقول عن مجاورته في مكة في تلك السن، وعن أحد مؤدبيه فيها وهو الشيخ عفيف الدين عبد الله بن محمد المكي (توفي بعد ٧٨٥هـ) قال: «وهذا الشيخ هو أول شيخ أعرفُ أنني سمعتُ عليه الحديث وذلك في شهر رمضان سنة ٧٨٥هـ، وأنا مجاور (أي في مكة) مع بعض أهلي، وصليتُ في تلك السنة بالناس التراويح، وأُحضر هذا الشيخ إلى المكان الذي يُقرئني فيه المؤدب، فقرأ عليه شهاب الدين السلاوي «صحيح البخاري» فيما بين الظهر والعصر كل يوم، ونحن نسمعُ، ولكنني لا أضبط ما فاتني عليه، وذكر لي الشيخ نجم الدين المرجاني هذه الواقعة، وأفادني أنه حضر مجلس الختم (أي ختم صحيح البخاري) بالشيخ جمال الدين الأميوطي، وأنه استجيز لمن سمع المجلس المذكور، ولم أحدث عن الأميوطي أيضاً؛ لأنني لا أتحقق هل سمعتُ مجلس الختم أو لا»[٤].

وهذه الحادثة التي يرويها العلامة ابن حجر ترسم لنا ملامح التأديب والتربية في هذا العصر، وتُبين لنا أن الأطفال والفتيان الذين لم يبلغوا الحلم كانوا يحضرون مجالس سماع

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع ٣/ ١٠٢.
(٢) السابق ٤/ ٣٥٤.
(٣) المقريزي: السلوك ٦/ ١٥١.
(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة ١/ ٢٨٨.

«صحيح البخاري» رحمه الله، وهم صغار، ويُشاهدون مجلس الختم حيثُ تُعطى الإجازات والشهادات التي تُثبت سماع صحيح البخارى على كبار رجال الحديث في تلك الأوقات، ولا شك أنها كانت تجربة رائعة أن يتشارك الأطفال والفتيان مع الكبار في مجالسهم ومسامراتهم العلمية.

ولم يكن العلامة ابن حجر رحمه الله هو الوحيد الذي ظهرت عليه أمارات النبوغ والتأديب منذ صغره، فقد ترجم هو للعلامة صدر الدين بن العجمي (ت٨٣٣هـ)، قائلاً عن نبوغه، وتفوقه العلمي والتربوي منذ صغره: «أحمد بن محمود بن محمد بن عبد الله، صدر الدين المعروف بابن العجمي، ولد سنة ٧٧٧هـ، واعتنى به أبوه في صغره، وصلى بالناس التراويح بالقرآن أول ما فتحت الظاهرية في سنة ٧٨٨هـ، وهو ابن إحدى عشرة سنة لم يكملها، وأقرأه الفقه والعربية والمعاني والبيان. وأُحضر له المؤدبون والمعلمون وترعرع وبرع، وباشر التوقيع في ديوان الإنشاء، ثم ولي الحسبة مرارًا وغير ذلك، وتنقلت به الأحوال؛ مات في الطاعون في الرابع عشر من شهر رجب من عام ٨٣٣هـ»[(١)].

وترجمة صدر الدين بن العجمي تظهر لنا مثابرة الأب واهتمامه بنجله الصغير الذي أمّ الناس وهو في سن الحادية عشرة من عمره، ولم يؤمهم عبثًا ولهوًا، وإنما أصبح إمامًا لهم؛ لأن حفظه للقرآن الكريم أهله ليصبح في هذه المكانة وهو فتًى صغير!

ويذكر ابن طولون في كتابه «مفاكهة الخلان في حوادث الزمان» في حوادث عام ٨٩٦هـ، أنه في شهر رمضان في هذا العام تقدم مجموعة من الصبيان لإمامة الناس في الصلاة في مساجد دمشق، وذلك احتفالاً واحتفاءً بختمهم لكتاب الله ﷻ، قال: «صلى في هذا الشهر جماعة من الصبيان، منهم ابن الشاهد بخان السلطان البقاعي، ومنهم ابن مؤدب الأطفال بقبر عاتكة أبي بكر بن المجنون، ومنهم ولد شيخنا المحيوي النعيمي واسمه تقي الدين أبو بكر، ختم بجامع البزوري، ومنهم ولدان من بيت الموصلي»[(٢)].

هكذا رأى المسلمون أبناءهم، رأوهم امتدادًا لهم، وجزءًا أصيلاً من مجتمعهم، ومن

---

(١) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ ٨/ ٢٠٨.

(٢) ابن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ص١١٧.

ثم كانوا يختارون لهم أفضل المؤدبين، وكان بعض هؤلاء المؤدبين يصلون إلى وظائف عليا في الدولة كما رأينا من قبل، وأثمرت هذه التربية في الأطفال، حتى كانوا يُشاركون في الأحداث العامة في بعض الأحيان، مثل مشاركتهم في المظاهرات العامة التي أدت إلى القبض على الوزير الفاسد الشهير بـ«النشو»، فحينما تمّ القبض على هذا الوزير الفاسد فرح الناس فرحًا زائدًا، حتى إنه «غُلّقت أسواق القاهرة ومصر، واجتمع الناس بالرميلة تحت القلعة ومعهم النساء والأطفال، وقد أشعلوا الشموع، ورفعوا على رؤوسهم المصاحف ونشروا الأعلام، وهم يضجون ويصيحون استبشاراً وفرحاً بقبض النشو»[1].

محاضن التربية!

لقد عقد ضياء الدين بن الأخوة (ت٧٢٩هـ) فصلاً في كتابه الماتع «معالم القربة في طلب الحسبة» بعنوان (في الحسبة على مؤدِّبي الصِّبيان) جاء فيه: لا يجوز تعليم الخطِّ في المساجد؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ أمر بتنزيه المساجد من الصِّبيان والمجانين؛ لأنَّهم يسوِّدون حيطانها وينجِّسون أرضها إذ لا يحترزون من البول وسائر النَّجاسات بل يأمرهم أن يتَّخذوا للتَّعليم مواضع شرحه في أطراف الأسواق، ويمنعون أيضًا من التَّعليم في بيوتهم»[2].

المنشآت التربوية المملوكية

ومن ثم اتّخذت المكاتب أماكن بديلة للمساجد، وهي أماكن مخصصة مفردة أو ملحقة بالمدارس والمساجد يُعلّم ويُربى فيها الطفل تربية تقوم على النهج الإسلامي في مجمله، ولقد كثرت المكاتب في العصر المملوكي كثرة لا تسمح لنا - ولو على وجه التقريب - بمعرفة عددها على وجه الإجمال، والمؤلفات الأثرية والمدنية والطبوغرافية وحتى كتب التراجم والطبقات لا تكاد تخلو من ذكر المكاتب والمدارس؛ دلالة على عظمة هذا العصر، الذي يوصف بأنه القمة والذروة العلمية في تاريخ الإسلام لدرجة جعلت بعض المستشرقين يتعجبون من الحضارة المملوكية.

فهذا ول ديورانت صاحب موسوعة «قصة الحضارة» يقول عن هذا العصر، وتلك

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٣/ ٢٦٩.

(٢) ضياء الدين بن الأخوة: معالم القربة في طلب الحسبة ص١٧٠.

الحضارة: «هؤلاء الحكام (يقصد المماليك) كانوا أصحاب ذوق سليم، أسخياء في مناصرة الآداب والفنون، وكان عصر المماليك ألمع العصور الإسلامية في تاريخ العمارة الإسلامية في العصور الوسطى بأجمعها، وكانت القاهرة في عهدهم (١٢٥٠-١٣٠٠م) أغنى مدن العالم الممتد في غرب نهر السند، فكانت أسواقها غاصة بجميع لوازم الحياة وبكثير من كمالياتها، وكان فيها سوق للنخاسة يستطيع الإنسان أن يبتاع منها الرجال والفتيات، وحوانيت صغيرة جدرانها مزدحمة بالسلع المتفاوتة الأثمان، وأزقة غاصة بالناس والدواب، تعلو فيها أصوات البائعين الجائلين وعربات النقل، وقد أنشئت ضيقة عن عمد ليستظل بها المارة، ومتعرجة ليسهل الدفاع عنها، تختفي بيوتها وراء واجهات قوية، وحجراتها مظلمة رطبة وسط وهج الشمس وحرارتها في الشوارع الكثيرة الحركة والجلبة، يتنفس سكانها الهواء من بهو داخلي أو حديقة قريبة، وقد فرشت حجراتها بالأثاث الوثير، والسجف، والطنافس، والتحف الفنية، والمفارش والوسائد المطرزة المزركشة»[1].

ولنا أن نعجب من المدرسة التي تُرغّب أبناء المسلمين في تعلم العلم والإقبال عليه من خلال مكانتها ونظامها البديع، وإشراف السلطان بنفسه عليها، بل وإعطاء هؤلاء الأطفال من الوجبات الغذائية ما يحفزهم على الحضور، ففي عام (٦٦٢هـ) افتتح الظاهر بيبرس المدرسة الظاهرية التي تعد بحق من أكبر المجمعات العلمية في عصره، وإن حفل افتتاح هذه المدرسة البهيج يرويه المقريزي بقوله: «وفي يوم الأحد الخامس من صفر: اجتمع أهل العلم بالمدرسة الظاهرية بين القصرين عند تمام عمارتها، وحضر القراء وجلس أهل كل مذهب في إيوانهم. وفوض تدريس الحنفية للصدر مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين بن العديم، وتدريس الشافعية للشيخ تقي الدين محمد بن الحسن بن رزين، والتصدير لإقراء القرآن للفقيه كمال الدين المحلي، والتصدير لإفادة الحديث النبوي للشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطي. وذكروا الدروس ومدت الأسمطة، وأنشد جمال الدين أبو الحسين الجزار يومئذ:

ألا هكذا يبني المدارس من بنى ... ومن يتغالى في الثواب وفي الثنا

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ١٤/ ٤٧٥٥.

لقد ظهرت الظاهر الملك همة — بها اليوم في الدارين قد بلغ المنى
تجمع فيها كل حسنٍ مفرقٍ — فراقت قلوبا للأنام وأعينا
ومذ جاورت قبر الشهيد فنفسه — النفيسة منها في سرور وفي هنا
وما هي إلا جنة الخلد أزلفت — له في غد فاختار تعجيلها هنا

وأنشد عدة من الشعراء أيضاً ومنهم السراج الوراق، والشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب، فخلع عليهم وكان يوما مشهودا»[(١)]، بل ألحق السلطان بهذه الجامعة مدرسة ابتدائية لليتامى من أطفال المسلمين «قرر لمن فيه من أيتام المسلمين الخبز في كل يوم والكسوة في فصل الشتاء والصيف»[(٢)].

وكانت قوانين وصكوك ووثائق هذه الوقفيات غاية في الروعة والإعجاب، فمن ذلك أن ترى واقف المكتب[(٣)] يشترط في صك وقفيته أن يُلقي الأطفالُ ماءَ القرآن الذي يمسحون به ألواحهم على قبره بعد مماته!!

فهذا الفعل منه ليس جهلاً بالدين كما قد نتصور، إنه رجاء من هذا الواقف أن يُدخل الله على قبره من هذه المياه القرآنية ما ينجيه من عذاب القبر، وكان متكفل هذا المكتب هو الوزير المملوكي الشهير تاج الدين محمد بن محمد بن علي بن حنا (ت ٧٠٧هـ)؛ ويحكي صلاح الدين الصفدي في موسوعته «أعيان العصر وأعوان النصر» أن أحد قضاة مصر قال له: «اجتزت بتربة فرأيتُ في داخلها مكتباً للأيتام، وهم يكتبون القرآن في ألواحهم، فإذا أرادوا مسحَها غسلوا الألواح وقلبوا الماء على قبره، فسألتُ عن ذلك فقيل لي: هذا شرطٌ في هذا الوقف، وهذا مقصدٌ حسن وعقيدة صحيحة»[(٤)].

وأنشأ الظاهر برقوق (ت ٨٠١هـ) مكتبًا بجواره داخل القلعة، وهذا مما يُعجبُ له، فهو سلطان مصر والشام والحجاز، يملك من القوة ما لا يملكه بعض ملوك اليوم، ومع ذلك يقضي بإنشاء مكتب لتعليم يتامى المسلمين بجوار محل إقامته وملكه، قال ابن تغري

(١) المقريزي: السلوك ٢/ ٢، ٣.
(٢) السابق ٢/ ٣.
(٣) أي بانيه والمنفق عليه والمتبرع له.
(٤) الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر ٥/ ١١٤.

بردي في ثنايا مآثره: «وعمّر صهريجاً ومكتباً يقرأ فيه أيتام المسلمين القرآن الكريم بقلعة الجبل، وجعل عليه وقفاً»[١].

وفي مصنفات التاريخ والتراجم لا يكاد يُذكر اسم ثري أو أمير أو والٍ أو حتى رجال الطبقة المتوسطة من أبناء الحضارة الإسلامية في هذا العصر، إلا وتجد اسمه مقرونًا بمكتب أنشأه لتعليم فتية المسلمين، ووقف الأوقاف الدارّة عليه، فضلاً عن المدارس والإنفاق على طلبة العلم لا سيما الفقراء منهم، فهذا رجل كان يعلم الناس الحساب يدعى علاء الدين علي بن عثمان (ت٧٢٦هـ) كان له مكتب وحلقة بالجامع الأموي[٢].

وهذا ظهير الدين مختار البكنسي أحد أمراء الطبلخانات[٣] بدمشق (ت٧١٦هـ)، - كان كما يذكر ابن كثير رحمه الله - يمتحن الأطفال الصغار في الكُتّاب الذي أنشأه، قال: «كان زكيًا خبيرًا فاضلاً، يحفظ القرآن ويؤديه بصوت طيب، ووقف مكتبًا للأيتام على باب قلعة دمشق، ورتب لهم الكسوة والجامكية، وكان يمتحنهم بنفسه ويفرح بهم»[٤]، ومثله نائب السلطنة في الشام الأمير تنكز الأشرفي، يبني مكتبًا كبيرًا للأطفال بجوار بيته في دمشق عام ٧١٧هـ[٥]...

ومن ثم، انتشرت هذه المكاتب والمدارس كلما تقادم زمن المماليك، وعظُمت دولتهم، فقد أنشأ السلطان بيبرس الجاشنكير مدرسة كبرى في الجامع الحاكمي في القاهرة، كانت من أكبر وأعظم المدارس في مصر، وكان يُنفق على كل من التحق بها من مدرسين وطلبة علم وموظفين، وكان التدريس فيها على فقه المذاهب الأربعة والعلوم المختلفة والنحو بل ودرس عام للناس والعامة، قال النويري عن هذه المدرسة ونظامها، ومرتبات شيوخها والقائمين عليها: «رتب لكل واحد منهم عن وظيفة التدريس في كل شهر مائة درهم وثلاثين درهمًا نقرة، وجعل لكل درس معيدين، ورتب لكل واحد منهما في كل شهر خمسين درهمًا، ورتب للطلبة لكل مذهب في كل شهر ثلاثمائة نقرة، ورتب درس حديث

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٢/ ١١٥.
(٢) الصفدي: أعيان العصر ٤/ ٢٩٨.
(٣) إحدى فرق الجيش المملوكي، وهي فرقة الموسيقى العسكرية.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٤/ ٨٩.
(٥) الصفدي: أعيان العصر ٢/ ١٢٠.

فرض تدريسه للشيخ سعد الدين مسعود الحارثي وجعل له وللمعيدين والطلبة نظير ما لطائفة من الطوائف المذكورة. ورتب فيه ميعادًا للعامة جعل شيخه القاضي مجد الدين بن الخشاب، ورتب له في كل شهر مائة وثلاثين درهمًا. ورتب متصدرين لإقراء القرآن، لكل منهما ستون درهمًا. ورتب متصدرين لإلقاء العلوم وهما الشيخ علاء الدين القونوي والشيخ زين الدين بن الكتاني، ورتب لكل منهما في كل شهر ستين درهمًا. ورتب متصدرين لإلقاء النحو، وهما الشيخ أثير الدين أبو حيان، وتاج الدين محمد البارنباري. رتب لكل منهما في كل شهر ثلاثين درهمًا، ورتب ملقنين للقرآن العظيم، رتب لكل منهما في كل شهر ثلاثين درهمًا، ورتب لعشرين متلقن لكل واحد منهم في كل شهر عشرة دراهم. ورتب عشرين مقرئًا يتلون كتاب الله تعالى عقب صلاة الصبح وصلاة الظهر وصلاة العصر وصلاة المغرب، ورتب لكل واحد منهم عشرة دراهم. ورتب ثلاثة أئمة على ثلاثة مذاهب: مالك بن أنس، وأبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، يصلون بالجامع، ورتب لكل واحد منهم في كل شهر ثلاثين درهمًا. ورتب فقيهين يعلمان عدة من الصبيان الأيتام، ورتب لهما في كل شهر خمسين درهمًا. ولعدة من الصبيان ما يكفيهم على العادة»[1].

ومهما يكن من وصف النويري السابق، ومقدار المرتبات التي كانت تُعطى، إلا أننا يجب أن نتوقف عند اهتمام الدولة بكل الطوائف، وحرصها على نشر العلوم حتى بين العامة والأطفال، من خلال إقامة صروح العلم والتربية، ولقد وجدنا في الوصف السابق التنوع الحاصل في مناهج وطرائق التربية في هذه المدرسة، من علوم شرعية ولغوية وقراءة للقرآن وتلقين، ووعظ للعامة، بل وفقهاء يُعلمون أطفال المسلمين.

ومن أعظم هذه المدارس، والتي تم افتتاحها في بداية القرن التاسع الهجري، مدرسة السلطان الظاهر برقوق (ت١٠٨هـ) والتي استمر البناء فيها عامين كاملين، حيث افتُتحت عام ٧٨٨هـ، قال السيوطي نقلاً عن ابن حجر عن هذه المدرسة، وتواضع السلطان لمديرها الجديد وهو العلامة علاء الدين السيرامي: «ومن رأى الأعمدة التي بها عرف الإشارة. ونزل السلطان إليها في الثاني عشر من رجب، ومد سماطًا عظيمًا[2]،

---

(١) النويري: نهاية الأرب ٥٨ – ٦٠/ ٣٢.

(٢) مائدة ووليمة عظيمة.

وتكلم فيها المدرسون، واستقر علاء الدين السيرامي مدرس الحنفية بها، وشيخ الصوفية، وبالغ السلطانُ في تعظيمه حتى فرش سجادته بيده، واستقرأ وحيد الدين الرومي مدرس الشافعية، وشمس الدين ابن مكين مدرس المالكية، وصلاح بن الأعمى مدرس الحنابلة، وأحمد زاده العجمي مدرس الحديث، وفخر الدين الضرير إمام الجامع الأزهر مدرس القراءات. قال ابن حجر: **فلم يكن منهم من هو فائق في فنه على غيره من الموجودين غيره،** ثم بعد مدة قرر فيها الشيخ سراج الدين البلقيني مدرس التفسير، وشيخ الميعاد»[(١)].

وتعليق العلامة ابن حجر على علماء هذه المدرسة يُبين لنا أن عظماء العلماء وأكابرهم هم من درّسوا في هذه المدرسة الموقوفة لطلبة العلم، ثم إشارة ابن حجر لتواضع السلطان وفرشه لسجادة العالم ابن السيرامي يُدلل لنا بكل وضوح مكانة العلماء في ظل الدولة المملوكية.

واهتم الأمراء ببناء هذه المدارس والإنفاق عليها من خلال الأوقاف، فمن أشهر هذه المدارس: مدرسة ابن القواس، وهو الأمير عز الدين إبراهيم بن عبد الرحمن (ت٧٣٣هـ)، فقد كان « له دار حسنة بالعقيبة الصغيرة[(٢)]، فلما جاءت الوفاة أوصى أن تجعل مدرسة، ووقف عليها أوقافًا، وجعل تدريسها للشيخ عماد الدين الكردي الشافعي»[(٣)]، وكان عز الدين هذا مديرًا لإحدى الجهات السلطانية. وكذلك المدرسة الطيبانية في دمشق؛ نسبة للأمير سيف الدين طيبان، ويصف ابن كثير احتفال واحتفاء العلماء بها بقوله: « وفي يوم الأحد خامس شهر جمادى الأولى، فُتحت المدرسة الطيبانية التي كانت دارًا للأمير سيف الدين طيبان بالقرب من الشامية الجوانية، بينها وبين أم الصالح، اشتُريت من ثلثه الذي وصى به، وفُتحت مدرسة، وحضر الدرس بها في هذا اليوم الشيخ عماد الدين بن شريف الدين ابن عم الشيخ كمال الدين بن الزملكاني بوصية الواقف له بذلك، وحضر عنده قاضي القضاة السبكي والمالكي وجماعة من الأعيان، وأخذ في قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة ٢/ ٢٧١.
(٢) في دمشق الآن.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ١٤/ ١٩٠.

مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، ومثلها المدرسة السابقية، نسبه للأمير سابق الدين مثقال بن عبد الله الحبشي، فقد كان محبًا في أهل العلم والخير، وهو مقدم المماليك عند الأشرف»[١]، ومثلها المدرسة البوبكرية في القاهرة نسبة لأمير حلب سيف الدين البوبكري[٢]، وقام والي حلب إشْقتُمر (ت٧٩٠هـ) ببناء المدرسة الإشقتمرية المنسوبة إليه، وكانت من أشهر المدارس في حلب، وصف ابن حجر هذا الوالي بالعلم والمعرفة[٣]، وغير هذه المئات، وما ذكرناه إلا قطرة من يمٍّ عظيم!

وبناء هذه المدارس لم يكن حكرًا على الدولة كما ذكرنا؛ فلقد كان للأغنياء دور كبير في إنشائها ونشرها، مما أدى إلى نشر العلم والثقافة والتربية في معظم أحياء المدن الكبرى في مصر والشام وغيرها، فمن أشهر واقفي المدارس في العصر المملوكي من غير طبقة الحكام رئيس التجار بمصر، ناصر الدين محمد بن مسلم بن أحمد البالسي المصري التاجر (ت٧٧٦هـ)، كان كثير الصدقات على الفقراء، وهو صاحب المدرسة المسلمية بالفسطاط، وكانت من أحسن المدارس وقد أفرد لها مالاً ووقف عليها دورًا وأرضًا بناحية قليوب وشرط أن يكون فيها مدرس مالكي وآخر شافعي، ومؤدّب أطفال كما في خطط التقي المقريزى وغيرها[٤].

وثمة تاجر مصري آخر يبني مدرسة بجوار بيته في منظر بديع على النيل، هذا التاجر هو تاج الدين الخروبي، محمد بن أحمد (ت٧٨٥هـ)[٥].

ومثله في حلب عبد الرحيم بن أحمد بن عبد الرحيم الحلبى الشهير بابن الترجمان، قال عنه ابن حجر: «ولد قبل الثلاثين، وسمع من العز إبراهيم بن صالح ابن العجمى حضورًا، وسمع على غيره وهو كبير، وحدّث فسمع على البرهان المحدث بحلب، كان ذا ثروة ظاهرة، وتجّار من تحت يده يسافرون له، وكان دينًا خيرًا عليه سكون، وله مكتب

(١) ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ ١/ ١٤٨.
(٢) السابق ١/ ١٦٤.
(٣) السابق ٢/ ٢٩٨.
(٤) أحمد رافع الطهطاوي: التنبيه و الإيقاظ لما في ذيول تذكرة الحفاظ ص٧٢.
(٥) ابن حجر: إنباء الغمر ٢/ ١٥١.



للأيتام تجاه المدرسة الشرفية بحلب وقف عليه وقفًا جيدًا ومات يوم عيد الفطر سنة ٧٨٦هـ»[١].

وفي دمشق اشتهر تاجرها ذا الاسم العجيب، أفريدون بن محمد بن محمد الأصفهاني التاجر «الذي عمر المدرسة المليحة الظريفة خارج باب الجابية[٢] بدمشق، أنفق على عمارتها وحدها خارجًا عن الوقف فوق مائة ألف درهم، وشرع فيها سنة أربع وأربعين وسبعمائة، وتوفي رحمه الله تعالى في أول شهر رجب سنة تسع وأربعين وسبعمائة»[٣]، قال عن هذه المدرسة الحافظ ابن كثير: «وفي هذا اليوم توفي التاجر المسمى بأفريدون الذي بنى المدرسة التي بظاهر باب الجابية تجاه تربة بهادرآص، حائطها من حجارة ملونة، وجعلها دارًا للقرآن العظيم، ووقف عليها أوقافًا جيدة، وكان مشهورًا مشكورًا رحمه الله وأكرم مثواه»[٤].

وهذه المدارس كان يُختار لها العلماء الراسخين المتخصصين الموسوعيين في مجالاتهم، بل كان السلاطين والأمراء يبحثون عنهم، ويتفقدون سيرتهم ليعينوهم في مدارسهم وجامعاتهم، وهذا بالمناسبة المعمول به في الغرب والولايات المتحدة اليوم؛ إذ يُختار الأستاذ الجامعي بناء على علمه، ويُتعاقد معه لمدة تطول أو تقصر بحسب الاحتياج إليه وقدراته العلمية والتخصصية، فهذا هو الشيخ علاء الدين السيرامي الحنفي (٧٩٠هـ) أحد أكابر علماء عصره، يقترح عليه محافظ ماردين بتركيا أن يبني له مدرسة (كلية) ليلقي فيها محاضراته ودروسه لكنه يرفض زهدًا وتواضعًا، ثم يسافر الرجل إلى مصر ويصادف إتمام بناء الجامعة الظاهرية البرقوقية نسبة للسلطان برقوق بن أنس، فيطلب منه رئيسها وقاضي الحنفية في مصر أن يدرس فيها، فيذعن علاء الدين للأمر، ويظل يدرس فيها إلى أن توفي، ويُصلي عليه نائب السلطان وجماعة من كبار وأمراء مصر؛ تقديرًا لمكانته وعلمه[٥].

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٣/ ١٤٦.
(٢) أحد أبواب دمشق من ناحية الجنوب.
(٣) الصفدي: الوافي بالوفيات ٩/ ١٧٥.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٤/ ٢٦٢.
(٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٢/ ١٧٣.

وأمثال السيرامي السابق عشرات لا تحصى من العلماء النابهين؛ مثل... ومثله العلامة ابن خلدون الذي عرف المصريون طلاب علم وعلماء ورجال دولة دوره وقدره وعلمه، وإمكاناته التي ستعود بالخير والنفع للمجتمع كله، قال ابن خلدون عن هذه الإحاطة: «ولما دخلتها أقمت أيامًا وانثال على طلبة العلم بها يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة ولم يوسعوني عذرًا فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها، ثم كان الاتصال بالسلطان فأبر مقامي وآنس الغربة ووفر الجراية من صدقاته شأنه مع أهل العلم، وانتظرت لحاق أهلى وولدى من تونس وقد صدهم السلطان هنالك عن السفر اغتباطًا بعودى إليه، فطلبت من السلطان صاحب مصر الشفاعة إليه لتخلية سبيلهم فخاطبه في ذلك ثم هلك بعض المدرسين بمدرسة القمحة بمصر من وقف صلاح الدين بن أيوب فولانى تدريسها مكانه»[1]

وكذلك حرص السلطان الأشرف قايتباي (ت٩٠١هـ) على أن يولي جامعات السلطنة وكلياتها كبار العلماء وأشهرهم؛ رغبة في تحسين الثقافة الإسلامية العامة، فقد عرض السلطان شفاهة على عالم القدس كمال الدين محمد بن محمد بن أبي بكر المقدسي الشهير بالكمالي بن أبي شريف أن يوليه أكبر الكليات في القدس، وهي المدرسة الصلاحية التي بناها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، قال العليمي أحد مؤرخي هذه الحقبة: «لما قدم على السلطان (أي العالم كمال الدين) نزل عن سرير الملك، وتلقاه وأكرمه، وفوض إليه الوظيفة المشار إليها وألبسه التشريف»[2]، وهذا أمر لا يُتعجب منه، فقد كانت الحضارة الإسلامية تقدر العلماء قدرهم، لدرجة جعلت أعاظم السلاطين والأمراء يبجلونهم، ويستقبلونهم كالملوك في قاعات الحكم، كما فعل الأشرف قايتباي وهو من أقوى سلاطين الدولة المملوكية لعالم القدس كمال الدين المقدسي السابق ذكره.

ولم يكن السلطان إلا تعبيرًا صارخًا ومباشرًا لعصره، فلم يكن استقبال الأشرف قايتباي لكمال الدين المقدسي من قبيل الحفاوة والبروتوكول، أو ليقال: إنه يهتم بالعلماء ليرتفع اسمه ورسمه؛ فلقد استقبل المقدسيون شيخهم وعالمهم الجديد استقبالاً مبهرًا،

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٧/ ٤٥٢.

(٢) مجير الدين العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ٢/ ٣٧٩.

حتى إن العليمي قال عن استقبال الناس لهذا العالم: «وكان يومًا مشهودًا وباشر تدريس الصلاحية، والنظر عليها مباشرة حسنة؛ عمّرها وأوقافها وشدّد على الفقهاء، وحثّهم على الاشتغال، وعمل بها الدروس العظيمة، فكان يدرس فيها أربعة أيام في الأسبوع: فقهًا وتفسيرًا وأصولاً وخلافًا، وأملى فيها مجالس من الأحاديث الواقعة في مختصر المزني»[1]

واللافت أنه لم يكن يُنظر إلى موطن هؤلاء العلماء في الاختيار للتدريس والتعليم في تلك المدارس والجامعات، بل كان يُنظر إلى مكانتهم العلمية وإجادتهم، فمثل العلامة السيرامي وجدنا ابن أبي حجلة المغربي شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت٧٧٦هـ)، فهذا الرجل من تلمسان بالجزائر، يقدم إلى القاهرة، فيقدُر المصريون علمه ومكانته، فيصدر أمر على الفور بتوليته «مشيخة (رئاسة) مدرسة الأمير منجك اليوسفي، حيث درس وأفاد، ومهر في عدة علوم»[2]، ومثله شهاب الدين أحمد بن أبي يزيد (ت٧٩١هـ) «فهو أول من تولى تدريس الحديث بالمدرسة الظاهرية برقوق»[3] بالقاهرة، ولم يكن مصريًا، بل ولد في بلاد سراي بتركيا.

ومما يُندهشُ له أنه كانت هناك مدارس للعائلات التي اشتهرت بالعلم، يوقفها أحد أفراد العائلة، ويُدرس فيها العالم المحدث أو الفقيه أو النحوي من أبناء هذه العائلة، فمن هؤلاء عائلة السعدي بدمشق في القرن السادس والسابع الهجري؛ فقد أوقف ضياء الدين السعدي مدرسة للحديث في دمشق، كان يُدرس فيها ابن أخيه شمس الدين محمد بن عبد الرحيم السعدي (ت٦٨٩هـ) الذي كانت له محاضرات معلومة الوقت يتردد عليها طلاب العلم، قال عنه ابن رجب والذهبي: «كان يدرس الفقه بمدرسة عمه الشيخ ضياء الدين، وشيخ الحديث أيضاً بها وبدار الحديث الأشرفية بالسفح، وكان للطلبة عليه مواعيد يعلمهم فيها قراءة الحديث ويفيدهم، ويرد عليهم الغلط. انتفع به جماعة. قال الذهبي: كان إماماً فقيهاً، محدثاً زاهداً عابداً، كثير الخير، له قدم راسخ في التقوى، ووقع في النفوس»[4].

---

(١) العليمي: الأنس الجليل ٢/ ٣٧٩.
(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٢/ ٢٥٩.
(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٥/ ٣٥٨.
(٤) ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة ٤/ ٢٢٦.

والحق أن العصر المملوكي كثرت فيه المدارس بصورة لافتة للنظر، فلم تكن تخلو في أي مدينة أو قرية أو حتى بلدة نائية من المدارس والمكاتب الموقوفة، فعلى سبيل المثال ذكر العلامة مجير الدين الحنبلي (ت٩٢٨هـ) في كتابه القيم «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» مائة وستين مدرسة في القدس والخليل في كافة التخصصات الشرعية والعلمية.

وكانت بعض هذه المدارس مهملة، لا تقوم بأعبائها، خاصة الموقوفة منها، نتيجة سوء الإشراف والتفتيش، ولكن الدولة كثيرًا ما كانت تقوم بإعادة الدور المنوط بهذه المدارس، وكانت مؤسسة القضاء تحكم غالبًا بما أقره الواقف من شروط في وثيقة وقفيته، وذلك لإفادة طلاب العلم والمدرسين والمعيدين وأصحاب الوظائف بها، وكان يُختار للتدريس في هذه المدارس الأكفاء من المدرسين، وأصحاب العلم المتمكنين، فمن هذه المدارس: المدرسة الصلاحية التي أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي (ت٥٨٩هـ) بجوار ضريح الإمام الشافعي بالقرافة في ربيع الأول سنة ٦٨١هـ، قرر في تدريس المدرسة الصلاحية، العالم برهان الدين السنجاري (ت٧٠٦هـ)، وكان « من محاسن الزمان إفضالاً وإحساناً واحتمالاً.»وقُرر له ما وُجد في كتاب وقفها (أي شروط منشئ المدرسة)، وهو أن يكون للمدرس في الشهر عشرة دنانير، وللناظر أربعون ديناراً وستة أرطال من الخبز وراويتان من ماء النيل. وكانت هذه المدرسة قد عطلت نحو ثلاثين سنة من المُدَرِّس. لكن بعض الطلبة كان يلازمها مع المعيد، ويقرر لهم، وكانت عدتهم عشرة أنفس إلى أن سعى تقي الدين ابن رَزِين، فقرر في تدريسها بنصف المعلوم، فباشرها إلى أن مات. ثم آل تدريسها للقاضي برهان الدين السنجاري المذكور[1]، فباشرها بجميع المعلوم المقرر للناظر والمدرس أي خمسين دينارًا، وقد عُين برهان الدين هذا في وظيفة قضاء مكة والمدينة وكانت من الوظائف الكبرى في ذلك العصر، ومن الملاحظ حرص طلبة العلم على الاستفادة بعلم المعيد، وعدم خمولهم وتركهم للمدرسة بالكلية، فمن يدرس لعل هؤلاء الطلبة هم الذين أرجعوا العمل بشروط الواقف.

وانتشرت الأماكن المخصصة لتعليم وتربية الأطفال في مكان حتى داخل

(١) ابن حجر العسقلاني: رفع الإصر عن قضاة مصر ص١٥١.



المستشفيات العامة! فعند تسلُّم مدير المستشفى المنصوري الأمير أرغون العلائي مهام إدراة هذا المستشفى العملاق، أصلحه وجعله من أفضل المستشفيات في ذلك العصر، بل و«أنشأ بجوار باب البيمارستان (المستشفى) المذكور سبيل ماء، ومكتب سبيل لقراءة الأيتام، ووقف عليه وقفاً بناحية من الضواحي»[١]!

بجوار المستشفيات بُنيت المكاتب التربوية والتعليمة للأطفال، وكذلك وجدناها في الخوانق، وهي مؤسسات اجتماعية وسلوكية كانت تُنشأ للإنفاق على الصوفية وأهل الصلاح والتعبّد، وكانت بمثابة الجمعيات والمنتديات الاجتماعية في عصرنا، وكان منشؤوها وواقفوها من كافة طوائف المجتمع من سلاطين وأمراء إلى تجار وأغنياء وعلية القوم من الفقهاء والعلماء وغيرهم.

وفي داخل هذه الخوانق، كانت تلحق فيها مكاتب الأطفال، مثل خانقاه الأمير شيخو التي كانت في شمال القاهرة، وكان أحد علماء الصوفية هو من يقوم بتربية وتأديب هؤلاء الأطفال، فمن أشهر مؤدبي هذا المكتب في الخانقاه المذكور ناصر بن خليل بن مسعود الغرس الميقاتي[٢].

أما مناهج التربية في مكاتب الأطفال فيذكرها ابن خلدون بقوله: «أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما يبلغنا - ولا أدري بم عنايتهم منها (أي خلط تعليم القرآن بغيره من المواد الأخرى) - والذي ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة، ولا يخلطون بتعليم الخط بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراده، كما تتعلم سائر الصنائع، ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان، وإذا كتبوا لهم الألواح فبخط قاصر عن الإجادة، ومن أراد تعلم الخط فعلى قدر ما يسنح له بعد ذلك من الهمة في طلبه ويبتغيه من أهل صنعته»[٣].

ويؤكد العلامة النويري أحمد بن علي (ت٧٣٣هـ) ما ذكره ابن خلدون، بل ويفصله في كتابه القيم «نهاية الأرب في فنون الأدب»، فعند حديثه عن طرائق تعليم الكتابة في

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٠/ ١٢٦.
(٢) السخاوي: الضوء اللامع ١١/ ٢٦.
(٣) ابن خلدون: المقدمة ص٥٣٩.

عصره يضع موضوعًا مستقلاً بذاته في هذا الأمر وعنوانه «ذكر كتابة التعليم وما يحتاج من تصدي لها إلى معرفته»، وقد قسّمها إلى تعليم ابتداء وتعليم انتهاء، تحدث فيها عن مراحل تعلم الصبي للكتابة حتى مرحلة الحذق والمهارة بها، يقول: «وكتابة التعليم تنقسم إلى قسمين: تعليم ابتداء، وتعليم انتهاء فأما **تعليم الابتداء**، فهو ما يعلّمه الصبيان في ابتداء أمرِهم؛ وأول ما يبدأ به المؤدّب من تعليم الصبي أن يُكتبه حروف المعجم المفردات؛ فإذا علمها الصبي وعرف كيف يضعها، وميّز بين المعجم والمهمل[١] منها امتحنه المؤدب بتقطيعها، وسؤاله عنها على غير وضعها، مثل أن يسأله عن النون، ثم الجيم، والضاد ونحو ذلك؛ فإذا أجابه عما فرّقه وعكسه عليه من ذلك، أنه أتقن هذه الحروف فيهجيه الحروف بعد ذلك حرفاً حرفاً، كل حرف وهجاءه في المنصوب والمجرور والمرفوع والمجزوم، فإذا عرف هجاء هذه الحروف وأتقنه، وامتحنه نحو ما تقدّم جمع له بعد ذلك كل حرف إلى آخر كتابه، من الباء والجيم والدال والراء والسين والصاد والطاء والعين والفاء والكاف واللام والميم، يبدأ بالباء مع الألف وما بعدها ثم يُكتبه البسملة، ويأخذ في تدرجه في الكتابة، وتدريبه في استخراج الحروف بالهجاء وما يتولد منها إذا اجتمعت، إلى أن يقوى فيها لسانه ويده، ويقرأ ما يُكتب له، ويكتب ما يُقترح عليه من غير منبه له ولا مساعد؛ فهذه كتابة الابتداء؛ ولا ينبغي أن يتصدى لها إلا من اشتهرت ديانته وحسن اعتقاده والتزامه طريق السنة، ومن كان بخلاف ذلك، أو ممن طُعن فيه بوجه من وجوه المطاعن وجب على ناظر الحِسبة منعه. وأما **تعليم الانتهاء**: فهو كتابة التجويد، وهي أصل جميع ما قدّمناه من الكتابات، ويحتاج من تصدى لها إلى إتقان أقلام الكتابة، ومعرفة أوضاعها على ما وضعه الوزير أبو علي بن مقلة[٢] حين عرّب الخط ونقله من الكوفية إلى التوليد، ثم عمدته على طريق علي بن هلال الكاتب المعروف بابن البواب[٣] وما وضعه

---

(١) أي ما فيه نقط وما يخلو من النقط مثل الحاء والخاء وأشباهها.

(٢) هو محمد بن علي بن الحسين بن مقلة: وزير، من الشعراء الأدباء، يضرب بحسن خطه المثل. ولد في بغداد، وولي جباية الخراج في بعض أعمال فارس. عُين وزيرًا لثلاثة من خلفاء بني العباس هم المقتدر بالله ثم القاهر بالله ثم الراضي بالله ومات مسجونًا سنة ٣٢٨هـ وكان مولده سنة ٢٧٢هـ. الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٧٢، ٢٧٣.

(٣) هو علي بن هلال، أبو الحسن المعروف بابن البواب، خطاط مشهور، من أهل بغداد. هذب طريقة ابن مقلة وكساها رونقا وبهجة، نسخ القرآن بيده ٦٤ مرة، إحداها بالخط الريحاني لا تزال محفوظة في مكتبة « لا له لي » بالقسطنطينية، توفي سنة ٤٢٣هـ. الزركلي: الأعلام ٥/ ٣٠، ٣١.



من أقلام الكتابة، ومعرفة الأقلام الأصول الخمسة، وهي قلم المحقق، وقلم النسخ وقلم الرِّقاع، وقلم التواقيع، وقلم الثلث؛ فهذه الأقلام الخمسة هي الأصول؛ ثم تفرع عنها أقلامٌ أخر نذكرها بعد إن شاء الله تعالى، فإذا أتقن الكاتب ما ذكرناه من هذه الأقلام وحرّرها، وعرف أوضاعها وقواعدها، وكيفية وضع الحروف وموضع ترقيقها وتغليظها، والمكان الذي تُكتب فيه بسن القلم وبصدره، وأين يضع الحرف الآخر منه، إلى غير ذلك من شروطها وقواعدها، واتّصف بما قدمناه في المؤدّب من الديانة والخير والعفة وحسن الطريقة وصحة الاعتقاد والتزام السنة، فقد استحق أن يتصدى للتعليم والإفادة، ويتعيّن على الطالب الرجوع إليه، والاقتداء بطريقته، والكتابة على خطه والتزام توقيفه»[1].

فهذه طريقة تعليم الكتابة في العصر المملوكي، أوضحها لنا بتفصيل النويري، ويمكن بلا شك أن نستفيد بها في تعليم أبنائنا للخط والكتابة في عصرنا هذا، فهي كما نرى مفيدة، فيها خلاصة تجربة شهاب الدين النويري وهو من كبار كُتّاب العصر المملوكي، وصاحب الوظائف الرسمية الكبرى بها.

الجامع الأموي، جامعة دمشق العظمى!

الجامع الأموي من جملة المآثر العظيمة للخلافة الأموية؛ فقد أشرف على بنائه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بن مروان (ت٩٦هـ)، وقد أنفق عليه ملايين الدراهم والدنانير، وكان لهذا المسجد مكانة كبرى ليس لكونه مسجد الأمويين، ومحضن الدمشقيين، وإنما لنشاطه ومهامه الجمة التي لم تتوقف عند الصلاة والخطابة وفقط، وإنما في تربية أبناء وبنات المسلمين وتعليمهم، وقد أُعجب به كثير من الرحالة، لاسيما المغاربة والأندلسيين منهم؛ فقد انبهروا بمكانته وعظمته فضلاً عن علم وثقافة المدرسين والمدرسات والخريجين منه، ومن هؤلاء الرحالة الذين دونوا إعجابهم بهذا المسجد نجد الرحالة الشهير ابن جبير البلنسي محمد بن أحمد (ت٦١٤هـ) الذي قال عنه: «وفي هذا الجامع المبارك مجتمع عظيم، كل يوم إثر صلاة الصبح، لقراءة سبع من القرآن دائماً، ومثله إثر صلاة العصر لقراءة تسمى الكوثرية، يقرأون فيها سورة الكوثر الخاتمة. ويحضر في هذا المجتمع الكوثري كل من لا يجيد حفظ القرآن. وللمجتمعين على ذلك إجراء (أي مرتب

---

(١) النويري: نهاية الأرب ٩/ ١٣٥ – ١٣٨.

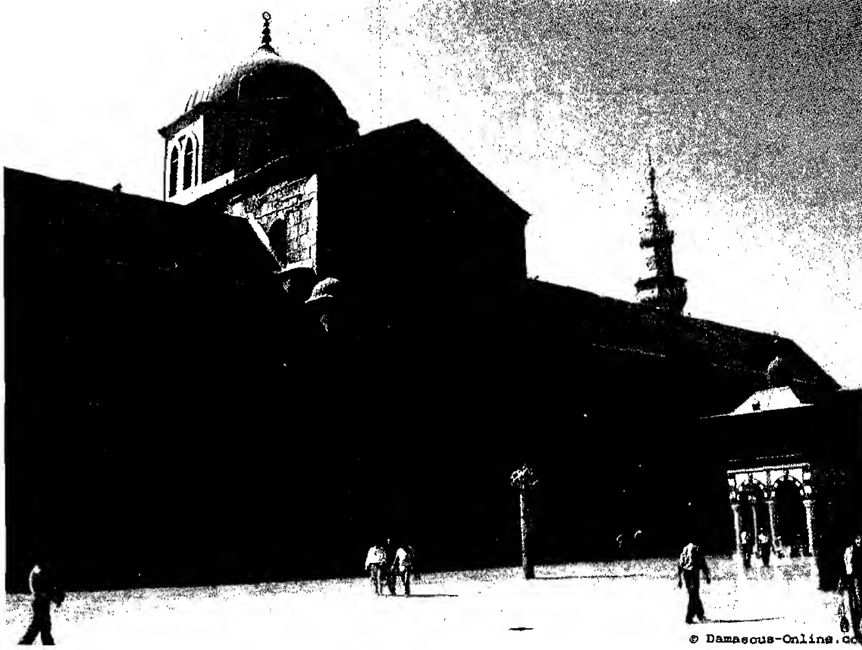
وعطاء من المال) كل يوم يعيش منه أزيد من خمس مئة إنسان. وهذا من مفاخر هذا الجامع المكرم. فلا تخلو القراءة منه صباحاً ولا مساءً. وفيه حلقات للتدريس للطلبة، وللمدرسين فيها إجراء واسع، وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي، يجتمع فيها طلبة المغاربة، ولهم إجراء معلوم»[١].

فهذا من عجائب الحضارة الإسلامية وجمالها؛ إذ يُعطى المتعلم مالاً على مواظبته وثباته وليس للمعلم فحسب، ومثلما يُنفق على هؤلاء الكبار لتشجيعهم على حب القرآن وتلاوته والمداومة على حضور مجالسه، تهتم المؤسسات الرسمية والاجتماعية والوقفية على أولاد المسلمين الملتحقين بهذا المسجد، فنرى ابن جبير قائلاً: «وعند فراغ المجتمع السّبُعي من القراءة صباحاً يستند كل إنسان منهم سارية ويجلس أمامه صبي يلقنه القرآن. وللصبيان أيضاً على قراءتهم جراية معلومة. فأهل الجدة من آبائهم ينزهون أبناءهم عن أخذها وسائرهم يأخذها وهذا من المفاخر الإسلامية. وللأيتام من الصبيان محضرة كبيرة بالبلد لها وقف كبير، يأخذ منه المعلم لهم ما يقوم به وينفق منه على الصبيان ما يقوم بهم وبكسوتهم؛ وهذا أيضاً من أغرب ما يحدث به من مفاخر هذه البلاد. وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين، ويعلمون الخط في الأشعار وغيرها، تنزيهاً لكتاب الله ﷻ عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو. وقد يكون في أكثر البلاد الملقن على حدة والمكتب على حدة فينفصل من التلقين التكتيب، لهم في ذلك سيرة حسنة. ولذلك ما يتأتى لهم حسن الخط، لأن المعلم له لا يشتغل بغيره، فهو يستفرغ جهده في التعليم والصبي في التعلم كذلك، ويسهل عليه لأنه بتصوير يحذو حذوه»[٢].

---

(١) رحلة ابن جبير ص٢٢٠.
(٢) رحلة ابن جبير ص٢٢٠.





(صورة رقم ٥ الجامع الأموي).

وبعد قرن من رحلة ابن جبير يمر خلفه ابن بطوطة محمد بن عبد الله الطنجي (ت٧٧٩هـ) بدمشق، ويعجب العجب ذاته، وينبهر بما انبهر به سلفه ابن جبير، فيتناول الجامع الأموي في رحلته، ونشاطه العظيم في مسيرة التربية والتثقيف في العصر المملوكي، وعن نظامه الإداري والتعليمي يقول: «هو أعظم مساجد الدنيا احتفالاً، وأتقنها صناعة، وأبدعها حسناً وبهجة وكمالاً، ولا يعلم له نظير، ولا يوجد له شبيه»[١].

ثم تحدث عن المعلمين، ومناهج التعليم التي أثنى عليها كثيرًا بقوله: «ولهذا المسجد حلقات للتدريس في فنون العلم، والمحدثون يقرءون كتب الحديث على كراسي مرتفعة، وقراء القرآن يقرءون بالأصوات الحسنة صباحاً ومساء، وبه جماعة من المعلمين لكتاب الله يستند كل واحد منهم إلى سارية من سواري المسجد يلقن الصبيان ويقرئهم، وهم لا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى، وإنما يقرءون القرآن تلقيناً، ومعلم الخط غير معلم القرآن، يعلمهم بكتب الأشعار وسواها، فينصرف الصبي من التعليم إلى

(١) رحلة ابن بطوطة ١/ ٣٠٦.

التكتيب، وبذلك جاد خطه لأن المعلم للخط لا يعلم غيره»[١].

وقد أدى الجامع الأموي دورًا عظيمًا في حركة التربية والتعليم طيلة العصر المملوكي، وظل حتى العصر الحديث قائمًا بهذا الدور، مثله مثل الأزهر في مصر، وخرّج أجيالاً كبارًا، وكان ممن درّس في الجامع الأموي في العصر المملوكي مجموعة من كبار العلماء مثل العلامة ابن كثير (ت٧٧٤هـ) ومن قبله العلامة أبو الحجاج المزي (ت٧٤٢هـ) وغيرهم.

التنوع التربوي والمنهجي

لا يحسبن القارئ أن النظام التربوي في العصر المملوكي كان نظامًا منكفئًا على علوم الشريعة واللغة أو البلاغة أو حتى العلوم النقلية فحسب، لقد اهتم المجتمع المماليكي بتعليم وتثقيف أبنائه على حب العلوم العقلية كالطب والهندسة والكيمياء وغيرها، وما الآثار المملوكية المبهرة الباقية حتى اليوم – على سبيل المثال من مساجد وخوانق وقصور وأبراج ومدارس ومستشفيات وتكايا إلا دليل على روعة العمارة وجمالها، وعبقرية المهندسين المسلمين في ذلك العصر.

ولقد ذكر الطبوغرافي الآثاري عبد القادر النعيمي الدمشقي (ت٩٢٧هـ) في موسوعته الدمشقية الجميلة «الدارس في تاريخ المدارس» مجموعة من المدارس والكليات الإسلامية والعلمية في دمشق في القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجري، فعدد الكليات والمدارس القرآنية ٧ كليات، وعدد كليات الحديث الشريف ١٦ كلية، وعدد الكليات القرآنية الحديثية المزدوجة ٣ كليات، وعدد الكليات التي تُدرس الفقه الشافعي ٦١ كلية، وعدد الكليات التي تدرس الفقه الحنفي ٥٣ كلية، وعدد الكليات التي تدرس الفقه المالكي ٤ كليات، وعدد الكليات التي تدرس الفقه الحنبلي ١١ كلية، ثم اللافت أنه يذكر الكليات الطبية الكبرى في عصره في دمشق وحدها وعددها ٣ كليات تخرج منها كبار علماء ذلك العصر كابن النفيس ومهذب الدين بن الدخوار صاحب الكلية الدخوارية للعلوم الطبية[٢].

---

(١) السابق ١/ ٣١٤.

(٢) راجع: عبد القادر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس.

إذن كان في دمشق وحدها في القرن العاشر الهجري ١٣٨ كلية، وهذا العدد من الكليات العلمية المتخصصة دليل جلي على مقدار العلوم والعلماء في ذلك العصر، حتى كان في كل حي كلياته وجامعاته ومدارسه الابتدائية المنوطة بارتقاء هذا الحي.

هذا في دمشق وهي أهم ثاني مدينة في العصر المملوكي بعد القاهرة عاصمة السلطنة، ودرة العصر المملوكي بعد سقوط بغداد العباسية، فكيف كان حال مدارسها وكلياتها وجامعاتها، لا شك أن العلامة تقي الدين المقريزي رحمه الله (ت٨٤٥هـ) ذكر أهم الآثار العمرانية والمعمارية في عصره، حتى ذكر الآثار النائية في العاصمة القاهرة ومصر العتيقة وبقية مدن ومحافظات مصر، ويبلغ عدد المدارس التي حصرها المقريزي في ثنايا خططه في ولاية مصر وحدها ما يقرب من ١٩٧ مدرسة، ما بين كبرى ومتوسطة وصغرى، وهو عدد كبير يُدلل على انتشار سوق العلم في مصر.

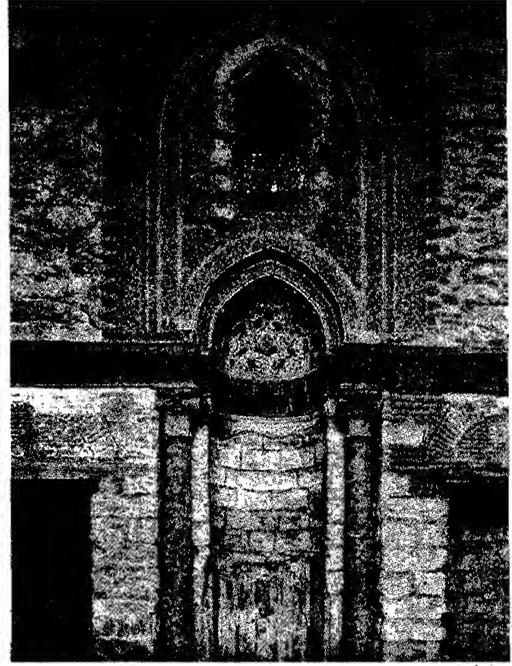
وكما رأينا من قبل؛ فقد جرت العادة على تعيين معيد أو أكثر لكل مدرس؛ ليعيد للطلبة ما ألقاه عليه المدرس ليفهموه ويحسنوه كما يشرح لهم ما يحتاج إلى الشرح، وقد نصت وثيقة وقف المدرسة الناصرية التي بناها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣هـ أن يعين رئيسها لكل مدرس من مدرسي المدرسة ما يراه مناسبًا من المعيدين، وتجلت وظيفة المعيد في هذه الوقفية جليًا، قال: «ويعين الناظر لكل مدرس منهم من المعيدين والطلبة ما يراه من العدد، وينتصب كل معيد ممن عين في جهته لأهل مذهبه لاستعراض طلبته، ويشرح لمن احتاج الشرح درسه ويصحح له مستقبله، ويرغب الطلبة في الاشتغال، ولا يمنع فقيها أو مستفيدا ما يطلب من زيادة تكرار وتفهم معنى، ولا يقدم أحدًا من الطلبة في غير نوبته إلا لمصلحة ظاهرة»[1].

---

(١) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ٣٢/ ٤٦.







المحراب Mihrab

تفصيل زخرفة طاقية المحراب Semi-dome of Mihrab

مسجد - مدرسة - السلطان الناصر محمد بن قلاون THE MOSQUE-MADRASA OF SULTAN AN-NASIR MUHAMMAD IBN QALAUN

(صورة رقم ٦ محراب المدرسة الناصرية).

بل الأغرب والأروع من ذلك أن كان لطلاب العلم الحرية الكاملة في اختيار ما يناسبهم من العلوم والمناهج، وهذا النظام التعليمي والتربوي نجده اليوم في كبرى الجامعات العالمية، منها مثلاً الجامعة الأمريكية بفروعها؛ فقد ذُكر في وثيقة وقف المدرسة الناصرية «ويشتغل كل واحد من الطلبة بما يختاره من أنواع العلوم الشرعية، ويراه المدرس له على مذهبه، ويبحث في كل ما أشكل عليه من ذلك، ويراجع فيه، وأن ينظر المدرس في طلبته ويحثهم كل وقت على الاشتغال، ويجعل من يختاره نقيبا عليهم، ويقرر له ما شاء»[1]. هذا فضلاً عن المرتبات والأموال التي كانت تُعطى لكل شخص في هذه المدرسة بما فيهم الطلبة!!

وكما أُعطي الطالب الحرية في اختيار مناهجه وعلوم تدريسه، أُعطي الحرية في اختيار مدرسه ومعلمه ومربيه، وكثيرًا ما كان اختيار المدرس يكون بحسب مكانته وشهرته،

---

(١) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ٣٢/ ٤٧.

فالعلامة ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) وهو من كبار علماء وفقهاء ومحدثي القرن التاسع الهجري، اعتاد أن يجتمع حوله بضعة آلاف من المستمعين والمستملين[1].

ومن ثم كان الطالب يستمرّ في التحصيل والجلوس بين يدي من يريد من الشيوخ حتى يأخذ كفايته، ويُعطى الإجازة في العلوم التي يريد التحصل عليها، ثم ينتقل إلى شيخ آخر وهكذا، حتى وجدنا السيوطي يقول عن نفسه: «أخذتُ العلم عن ستمائة شخص»، كما أخذ العلامة شمس الدين السخاوي (ت٩٠٢هـ) العلم عن أكثر من أربعمائة عالم[2]، وتطلبت هذه الطريقة في التعليم والتربية أن يجول طالب العلم في البلدان، وهذا ما سنراه في «قصة طالب علم» بعد قليل.

وكما ذكر المقريزي أسماء المدارس ومواضعها ومناهجها، تناول ذكر خمسة من كبرى الجامعات الطبية في وقته، هذه الجامعات أبهرت الرحالة المغاربة والمشارقة، في نظامها ودقتها وجمال التعليم فيها، وكانت هذه الجامعات الطبية التعليمية المتخصصة تلحقها مستشفيات «بيمارستانات»، وكان وفي القاهرة وحدها ٥ جامعات هي: جامعة ابن طولون وهو أول مستشفى وجامعة يُقام في مصر في القرن الثالث الهجري عام ٢٦١هـ، وكان الأمير ابن طولون يشرف عليه، ويزوره كل جمعة كما أُثر عنه، وجامعة كافور الإخشيدي التي بُنيت في عام ٣٤٦هـ، ومستشفى المغافر بُنيت في عهد الخليفة العباسي المتوكل (ت٢٤٧هـ)، والجامعة الناصرية العريقة التي بناها صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله عام ٥٦٧هـ، وهي من أجمل المستشفيات والجامعات الطبية في مصر في العصر الأيوبي، تحدث عنها الرحالة المغربي ابن جبير (ت٦١٤هـ) في رحلته الشهيرة بإعجاب زائد، وانبهر بنظامها العلاجي، وأقسامها، بما فيها القسم الخاص برعاية أصحاب الأمراض النفسية والمجانين، وكلية الطب التي كانت بها، وجامعة السلطان مؤيد شيخ التي بُنيت في عام ٨٢١هـ.

ونختم هذه الجامعات بذكر **جامعة المنصور قلاوون** وهي أجمل وأظرف وأكبر جامعة طبية في مصر، بل في العالم الإسلامي وقتئذٍ، وآثارها لا تزال شاهدة للعيان، وقد

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع ٢/ ٣٩.

(٢) سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ص١٦١.

بُنيت عام٦٨٢هـ، والحق أنني لا أستطيع أن أمضي دون الوقوف مع الوصف البديع الذي ذكره العلامة تقي الدين المقريزي عن نظام هذه المستشفى الجامعي التخصصي في القرن السابع الهجري، نظامها الطبي والصيدلي والإداري، والمستحقين للعلاج، وأقسام المستشفى من رمد وجراحة وباطنة، وقسم مخصص للنساء، وكان هذا المستشفى يحوي أكبر كلية للطب في عصره، يدرسُ فيها طلبة العلم المؤمل لهم أن يكونوا أطباء فيما بعد، ثم علاقة الجمهور صغيره وكبيره واشتراكهم في بناء هذه الجامعة، كل ذلك لا أستطيع الغض عنه دون الإتيان به وعرضه في هذا السياق لنرى كيف كان يتربى أولادنا وبناتنا، بل وعلماؤنا وشيوخنا، ووزراؤنا وأمراؤنا في تلك العصور الزاهرة، قال المقريزي: «كان سبب بنائه (أي المستشفى القلاووني) أنّ الملك المنصور قلاوون لما توجه وهو أمير إلى غزاة الروم في أيام الظاهر بيبرس سنة خمس وسبعين وستمائة، أصابه بدمشق قولنج عظيم[1]، فعالجه الأطباء بأدوية أخذت له من مارستان نور الدين الشهيد فبرأ، وركب حتى شاهد المارستان فأعجب به، ونذر إن آتاه الله الملك أن يبني مارستاناً، فلما تسلطن أخذ في عمل ذلك فوقع الاختيار على الدار القطبية، وعوّض أهلها عنها قصر الزمرّذ، وولى الأمير علم الدين سنجر الشجاعيّ أمر عمارته، فأبقى القاعة على حالها وعملها مارستاناً، وهي ذات إيوانات أربعة، بكلّ إيوان شاذروان[2]، وبدور قاعتها فقيه يصير إليها من الشاذروانات الماء، واتفق أن بعض الفعلة كان يحفر في أساس المدرسة المنصورية فوجد حق اشنان من نحاس، ووجد رفيقه قمقماً نحاساً مختوماً برصاص، فاحضرا ذلك إلى الشجاعيّ، فإذا في الحق فصوص ماس وياقوت وبلخش ولؤلؤ ناصع يدهش الأبصار، ووجد في القمقم ذهباً، كان جملة ذلك نظير ما غرم على العمارة، فحمله إلى أسعد الدين كوهيا الناصريّ العدل، فرفعه إلى السلطان. ولما نجزت العمارة وقف عليها الملك المنصور من الأسلاك بديار مصر وغيرها ما يقارب ألف ألف درهم في كلّ سنة، ورتب مصارف المارستان والقبة والمدرسة ومكتب الأيتام، ثم استدعى قدحاً من شراب المارستان وشربه وقال: قد وقفت هذا على مثلي فمن دوني، وجعلته وقفاً على الملك

(١) القولنج: مَرَضٌ معَوِيٌّ مُؤْلِمٌ يَعْسُرُ معه خُروجُ الثُّفْلِ والرِّيحِ، وقيل هو التهاب المرارة الحصوية. الفيروزآبادي: القاموس المحيط ص٢٥٩.

(٢) نفوّرة وفوارة.

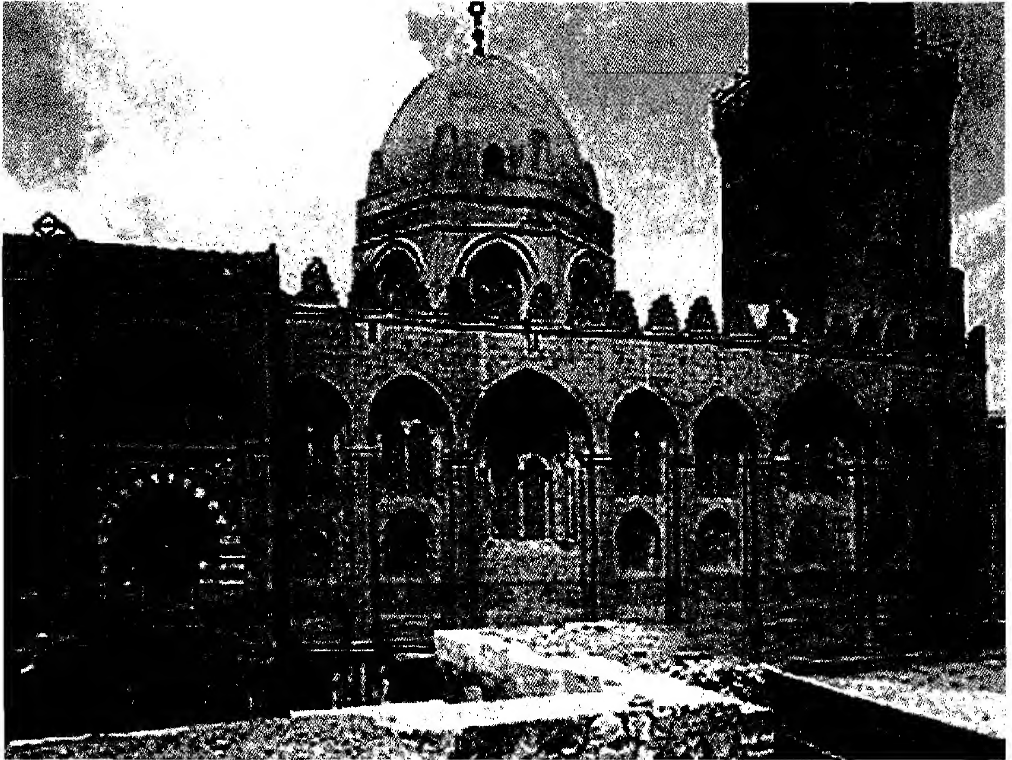
والمملوك والجنديّ والأمير والكبير والصغير والحرّ والعبد الذكور والإناث، ورتب فيه العقاقير والأطباء وسائر ما يُحتاج إليه من به مرض من الأمراض، وجعل السلطان فيه فرّاشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى، وقرر لهم المعاليم، ونصب الأسرَّة للمرضى وفرشها بجميع الفرش المحتاج إليها في المرض، وأفرد لكل طائفة من المرضى موضعاً، فجعل أواوين المارستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها، وأفرد قاعة للرمدى، وقاعة للجرحى، وقاعة لمن به إسهال، وقاعة للنساء، ومكاناً للمبرودين[1] ينقسم بقسمين قسم للرجال وقسم للنساء، وجعل الماء يجري في جميع هذه الأماكن، وأفرد مكاناً لطبخ الطعام والأدوية والأشربة، ومكاناً لتركيب المعاجين والأكحال والشيافات[2] ونحوها، ومواضع يخزن فيها الحواصل، وجعل مكاناً يفرّق فيه الأشربة والأدوية، ومكاناً يجلس فيه رئيس أطباء لإلقاء درس طب، ولم يحص عدَّة المرضى بل جعله سبيلاً لكل من يرد عليه من غنيّ وفقير، ولا حدّد مدَّة لإقامة المريض به، بل يرتب منه لمن هو مريض بداره سائر ما يحتاج إليه، ووكل الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحيّ أمير جندار في وقف ما عينه من المواضع، وترتيب أرباب الوظائف وغيرهم، وجعل النظر لنفسه أيام حياته، ثم من بعده لأولاده، ثم من بعدهم لحاكم المسلمين الشافعيّ، فضمن وقفه كتاباً تاريخه يوم الثلاثاء ثالث عشر في صفر سنة ثمانين وستمائة، ولما قرئ عليه كتاب الوقف قال للشجاعيّ: ما رأيت خط الأسعد كاتبي مع خطوط القضاة، أبصر إيش فيه زغل حتى ما كتب عليه، فما زال يقرّب لذهنه أن هذا مما لا يكتب عليه إلاّ قضاة الإسلام حتى فهم ذلك، فبلغ مصروف الشراب منه في كل يوم خمسمائة رطل سوى السكّر، ورُتّب (أي عُين) فيه عدَّة ما بين أمين ومباشر، وجعل مباشرين للإدارة، وهم الذين يضبطون ما يُشترى من أصناف، وما يُحضر منها إلى المارستان، ومباشرين لاستخراج مال الوقف، ومباشرين في المطبخ، ومباشرين في عمارة الأوقاف التي تتعلق به، وقرّر في القبة (أي المدرسة) خمسين مقرئاً يتناوبون قراءة القرآن ليلاً ونهاراً، ورتب بها إماماً راتباً، وجعل بها رئيساً للمؤذنين عندما يؤذنون فوق منارة ليس في إقليم مصر أجلّ منها، ورتب بهذه القبة

---

(١) مرض الأسنان وقيل هو المصاب بالبرد، الفيروزأبادي ، القاموس المحيط ص ١٤٠٣، والزبيدي: تاج العروس ٧/ ٤١٣.

(٢) الشيافات: أدوية للعين، الفيروزأبادي: القاموس المحيط ص ١٠٦٧.

درساً لتفسير القرآن فيه مدرّس ومعيدان وثلاثون طالباً، ودرس حديث نبويّ، وجعل بها خزانة كتب وستة خدّام طواشية لا يزالون بها، ورتّب بالمدرسة إماماً راتباً ومتصدّراً لإقراء القرآن، ودروساً أربعة للفقه على المذاهب الأربعة، ورتب بمكتب السبيل معلمين يقرئان الأيتام، ورتب للأيتام رطلين من الخبز في كلّ يوم لكلّ يتيم، مع كسوة الشتاء والصيف. فلما ولي الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك نظر المارستان، أنشأ به قاعة للمرضى، ونحت الحجارة المبنيّ بها الجدر كلها حتى صارت كأنها جديدة، وجدّد تذهيب الطراز بظاهر المدرسة والقبة، وعمل خيمة تظل الأقفاص طولها مائة ذراع، قام بذلك من ماله دون مال الوقف ونقل أيضًا حوض ماء كان برسم شرب البهائم(١) من جانب باب المارستان وأبطله لتأذي الناس بنتن رائحة ما يجتمع قدامه من الأوساخ، وأنشأ سبيل ماء يشرب منه الناس عوض الحوض المذكور»(٢).



(صورة رقم ٧ مستشفى السلطان قلاوون في القاهرة).

(١) أي وضع بجوار المستشفى لتشرب منه الدواب.
(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤/ ٢٧٠.



وبما سبق نلحظ أن السلطان كان يُشرف بنفسه على بناء هذا المستشفى، وكان قويًا مهابًا كما يذكر المقريزي، لكن هذه القوة والبطش في التعامل مع العمال والأُجراء لم تُعجب بعض العلماء الذين تربوا على قول الحق، والصدح به، مثل الشيخ محمد المرجاني الذي نقل المقريزي شجاعته ووقوفه أمام الأمراء الظالمين، بقوله: «وقد تورّع طائفة من أهل الديانة عن الصلاة في المدرسة المنصورية والقبة، وعابوا المارستان لكثرة عسف الناس في عمله، وذلك أنه لما وقع اختيار السلطان على عمل الدار القطبية مارستاناً ندب الطواشي (الخادم) حسام الدين بلالاً المغيثيّ للكلام في شرائها، فساس الأمر في ذلك حتى أنعمت مؤنسة خاتون ببيعها على أن تعوّض عنها بدار تلُمها وعيالها، فعُوِّضت قصر الزمرّذ برحبة باب العيد مع مبلغ مال حمل إليها، ووقع البيع على هذا، فندب السلطان الأمير سنجر الشجاعيّ[١] للعمارة، فأخرج النساء من القطبية من غير مهلة، وأخذ ثلاثمائة أسير وجمع صناع القاهرة ومصر وتقدّم إليهم بأن يعملوا بأجمعهم في الدار القطبية، ومنعهم أن يعملوا لأحد في المدينتين شغلاً (أي من العامة)، وشدّد عليهم في ذلك، وكان مُهاباً، فلازموا العمل عنده، ونقل من قلعة الروضة ما احتاج إليه من العُمُد الصوّان[٢] والعمد الرخام والقواعد والأعتاب والرخام البديع وغير ذلك، وصار يركب إليها كلّ يوم وينقل الأنقاض المذكورة على العجل إلى المارستان، ويعود إلى المارستان فيقف مع الصناع على الأساقيل[٣] حتى لا يتوانوا في عملهم، وأوقف مماليكه بين القصرين، فكان إذا مرّ أحد ولو جلّ ألزموه أن يرفع حجراً ويلقيه في موضع العمارة، فينزل الجنديّ والرئيس عن فرسه حتى يفعل ذلك، فترك أكثر الناس المرور من هناك، ورتّبوا بعد الفراغ من العمارة، وترتيب الوقف فُتيا صورتها: ما يقول أئمة الدين في موضع أُخرج أهله منه كرهاً، وعمر بمستحثين يعسفون الصناع، وأُخرب ما عمره الغير ونقل إليه ما كان فيه فعمر به؟ (يقصدون بذلك المستشفى) هل تجوز الصلاة فيه أم لا؟ فكتب جماعة من الفقهاء: لا تجوز فيه الصلاة. فما زال المجد عيسى بن الخشاب (أحد العلماء) حتى أوقف

---

(١) علم الدين الشجاعي وزير السلطان المنصور قلاوون.

(٢) الحجر الصوان: من المواد التي استخدمها الإنسان منذ العصور الحجرية وهي قوية شديدة الصلابة.

(٣) الأساقيل جمع إسقالة وهو ما يربطه المهندسون من الأخشاب والجبال ليتوصلوا بها إلى الأماكن المرتفعة ونحن نطلق عليها اليوم «السقالة»، الزبيدي: تاج العروس ٢٩/ ٢٠٧.

الشجاعيّ على ذلك، فشق عليه، وجمع القضاة ومشايخ العلم بالمدرسة المنصورية وأعلمهم بالفُتيا، فلم يجبه أحد منهم بشيء سوى الشيخ محمد المرجانيّ فإنه قال: أنا أفتيتُ بمنع الصلاة فيها، وأقول الآن: إنه يُكره الدخول من بابها. ونهض قائماً فانفض الناس. واتفق أيضاً أن الشجاعيّ ما زال بالشيخ محمد المرجانيّ يُلح في سؤاله أن يعمل ميعاد (درس) وعظ بالمدرسة المنصورية حتى أجاب بعد تمنع شديد، فحضر الشجاعيّ والقضاة، وأخذ المرجاني في ذكر ولاة الأمور من الملوك والأمراء والقضاة، وذمّ من يأخذ الأراضي غصباً، ويستحث العمال في عمائره وينقص من أجورهم وختم بقوله تعالى: **﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۞ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾** [الفرقان: ٢٧- ٢٨]، وقام، فسأله الشجاعي الدعاء له فقال: يا علم الدين قد دعا لك ودعا عليك من هو خير مني، وذكر قول النبيّ: «**اللهمّ من ولي من أمر أمّتي شيئاً فرفق بهم فارفق به ومن شق عليهم فاشقق عليه**» وانصرف. فصار الشجاعيّ من ذلك في قلق (أي خوف من العالم ودعاء النبي على العمال الظلمة!!)، وطلب الشيخ تقيّ الدين محمد بن دقيق العيد، وكان له فيه اعتقاد حسن، وفاوضه في حديث الناس في منع الصلاة في المدرسة، وذكر له أن السلطان إنما أراد محاكاة نور الدين الشهيد والاقتداء به لرغبته في عمل الخير، فوقع الناس في القدح فيه، ولم يقدحوا في نور الدين. فقال له (أي ابن دقيق العيد): إن نور الدين أسر بعض ملوك الفرنج وقصد قتله، ففدى نفسه بتسليم خمسة قلاع وخمسمائة ألف دينار حتى أطلقه، فمات في طريقه قبل وصوله مملكته، وعمر نور الدين بذلك المال مارستانه (مستشفاه) بدمشق من غير مستحث، فمن أين يا علم الدين تجد مالاً مثل هذا المال وسلطاناً مثل نور الدين، غير أن السلطان له نيته، وأرجو له الخير بعمارة هذا الموضع، وأنت إن كان وقوفك في عمله بنية نفع الناس فلك الأجر، وإن كان لأجل أن يعلم أستاذك علوّ همتك فما حصلت على شيء. فقال الشجاعيّ: الله المطلع على النيات، وقرّر ابن دقيق العيد في تدريس القبة»[1].

أي عظمة هذه، إنه مجتمع واع يختلف اختلافًا بينًا عن مجتمعنا اليوم، علماء يقولون

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤/ ٢٦٨ – ٢٧١.

الحق لا يخشون فيه لومة لائم، ووزراء يخافون من الوعيد النبوي وغضب العلماء، ورعية تشارك في بناء هذه الجامعة العلمية المتخصصة، فكيف حال طلبة العلم في كل هذا، لا ريب أن تلك القدوات الطيبة ستؤثر فيهم تأثيرًا كبيرًا، وتجعلهم أشهر الأطباء في عصرهم!

هو ذاك، فالعلامة علاء الدين بن النفيس (ت٦٨٧هـ) من أوائل الأطباء الذين عملوا في هذا المستشفى الجامعي، ودرسوا الطب فيها، قال عنه ابن تغري بردي: «فيها (أي سنة ٦٨٧هـ) توفي الشيخ الطبيب علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي الدمشقي المعروف بابن النفيس، الحكيم الفاضل العلامة في فنه، لم يكن في عصره من يضاهيه في الطب والعلاج والعلم، اشتغل على المهذب الدخوار[(١)] حتى برع، وانتهت إليه رياسة فنه في زمانه، وهو صاحب التصانيف المفيدة، منها: الشامل في الطب، والمهذب في الكحل، والموجز، وشرح القانون لابن سينا. ومات في ذي القعدة بعد أن أوقف داره وأملاكه وجميع ما يتعلق به على البيمارستان المنصوري بالقاهرة»[(٢)]، رحمه الله، يوقف أمواله وكتبه وبيته ليُستفاد من كل ذلك المال في خدمة المرضى وخدمة تلاميذ الطب في ذلك المستشفى، هذا هو النظام التربوي الراقي والرائع المعمول به يومئذٍ.

وكان رؤساء الأقسام في هذه الجامعة العلمية التطبيقية من أشهر علماء عصرهم، فكما ذكرنا ابن النفيس -صاحب اكتشاف الدورة الدموية الصغري، وكان من رئيس قسم الأطباء والتدريس في هذه المستشفى-، وجدنا المدير الإداري بها، ومباشر أحوال الموظفين العلامة الكاتب الشهير شهاب الدين النويري، في «نهاية الأرب»، قال عن مدة توليه مسئولية الإدارة في هذا المستشفى، وعن نظامها: «ولقد باشرته (أي أصبح مديرًا له) في شوال سنة ثلاث وسبعمائة وإلى آخر رمضان سنة سبع وسبعمائة. فكان يُصرف منه في بعض الأيام من الشراب المطبوخ خاصة ما يزيد على خمسة قناطير[(٣)] بالمصري في اليوم الواحد للمرتبين والطوارئ، غير السكر والمطابيخ من الأدوية وغير ذلك من الأغذية

(١) أحد علماء الطب المشاهير في دمشق في القرن السابع الهجري.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/ ٣٧٧.
(٣) القنطار أحد المكاييل التي يوزن بها، وقدّره الفقهاء بـ ١٤٣,٨ كيلو جرام.

والأدهان والترياقات (الأدوية)، وغيرها ورُتّب في البيمارستان من المباشرين والأمناء من يقوم بوظائفه، واتباع ما يحتاج إليه من الأصناف، وضبط ما يدخل إلى المكان، وما يخرج منه خاصة، من غير أن يكون لهم تعلّق في استخراج الأموال[١]. وإنما يبتاعون الأصناف ويحيلون بثمنها على ديوان صندوق المستخرج، ويكتبون في كل شهر عمل استحقاق لسائر أرباب الجامكيات[٢] والجرايات من سائر أرباب الوظائف والمباشرين، يكتبه العامل ويكتب عليه الشهور، ويأمر الناظر بصرفه، ويخلُد في ديوان الصندوق ويصرف على حكمه، وهذه الطائفة من المباشرين بالبيمارستان، هم مباشرو الإدارة»[٣].

فالنويري يصف لنا النظام الإداري لهذه المستشفى الكبرى، فقسم للشئون الإدارية، وقسم للشئون المالية، وقسم لدفع المرتبات، وقسم للمحفوظات وتخزين المعلومات، وهذا النظام الإداري الذي عُمل به منذ ثمانية قرون لا زلنا نعمل به حتى يومنا هذا!

النساء والتربية في العصر المملوكي

لا يمكن ذكر النظام التعليمي والكم الهائل من المدارس والجامعات المتخصصة، دون ذكر دور النساء والأميرات في التعليم والتربية، بل ومشاركتهن في تشييد وبناء هذه المؤسسات التربوية.

فعلى صعيد بناء المدارس والجامعات وجدنا كمًا هائلاً من هذه المدارس التي بنتها النساء في هذا العصر، ففي بغداد وجدنا المدرسة الشومانية وكانت مدرسة متخصصة لتعليم الفقه الشافعي، بنتها إحدى السخيات المنفقات وتُسمى خاتون بنت ظهير الدين شومان[٤]، وفي القاهرة وجدنا مدرسة جملية يذكرها المقريزي في «خططه» وهي مدرسة أم السلطان، قال عنها: «هذه المدرسة خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل، يُعرف خطها الآن بالتبانة، وموضعها كان قديماً مقبرة لأهل القاهرة، أنشأتها الست الجليلة الكبرى بركة أمّ السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين في سنة إحدى وسبعين

---

(١) أي مهمتهم إدارية ليس لها دخل في الشئون المالية.
(٢) المرتبات الشهرية.
(٣) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ٣١/٧٤.
(٤) عبد القادر بدران: منادمة الأطلال ومسامرة الخيال ص١٠٩.

وسبعمائة، وعملت بها درساً للشافعية، ودرساً للحنفية، وعلى بابها حوض ماء للسبيل. وهي من المدارس الجليلة»[١].

ومثلها المدرسة الحجازية التي أثنى عليها المقريزي كثيرًا، وهذه المدرسة بنتها السيدة خوند تتر الحجازية، ابنة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، زوجة الأمير بكتمر الحجازيّ، وبه عرفت، قال المقريزي عن شروط ومنهج التدريس والتربية في هذه المدرسة: «جعلت بهذه المدرسة درساً للفقهاء الشافعية، قررت فيه شيخنا شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينيّ، ودرساً للفقهاء المالكية، وجعلت بها منبراً يخطب عليه يوم الجمعة، ورتبت لها إمامًا راتباً يقيم بالناس الصلوات الخمس، وجعلت بها خزانة كتب (مكتبة)..»[٢].

ومن الرائع أنها أنشأت مكتبًا وسبيلاً للماء بجوار هذه المدرسة، وتأتي روعة هذا المكتب أي المدرسة الابتدائية من الوصف الرائق الذي ينقله المقريزي في خططه؛ إذ تتضح إنسانية هذه الحضارة، ورفقها بالأولاد الصغار لا سيما الأيتام منهم، من خلال التربية والإنفاق عليهم في آن واحد، قال المقريزي: «وجعلت بجوار المدرسة مكتباً للسبيل فيه عدة من أيتام المسلمين، ولهم مؤدّب يعلمهم القرآن الكريم، ويُجري عليهم في كل يوم لكل منهم من الخبز النقي خمسة أرغفة، ومبلغ من الفلوس، ويقام لكل منهم بكسوتي الشتاء والصيف، وجعلت على هذه الجهات عدة أوقاف جليلة يُصرف منها لأرباب الوظائف المعاليم السنية[٣]، وكان يُفرّق فيهم كل سنة أيام عيد الفطر الكعك والخشكنانك[٤]، وفي عيد الأضحى اللحم، وفي شهر رمضان يطبخ لهم الطعام»[٥].

وقد أُعجب المقريزي أيضًا بنظامها الإداري، والحراسة المشددة التي كانت لها، بقوله: «وهي من المدارس الكِبْسة[٦]، وعهدي بها محترمة إلى الغاية يجلس عدَّة من

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤/ ٢٥٨.
(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤/ ٢٣٠.
(٣) المرتبات الجزيلة.
(٤) نوع من الحلوى والفطائر.
(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤/ ٢٣١.
(٦) أي من المدارس صغيرة البنيان.

الطواشية[1]، ولا يمكنون أحدًا من عبور القبة التي فيها قبر خوند الحجازية إلاّ القراء فقط وقت قراءتهم خاصة. واتفق مرَّة أن شخصا من القرّاء كان في نفسه شيء من أحد رفقائه، فأتى إلى كبير الطواشية بهذه القبة وقال له: إن فلاناً دخل اليوم إلى القبة وهو بغير سراويل، فغضب الطواشي من هذا القول وعدّ ذلك ذنباً عظيماً وفعلاً محذوراً، وطلب ذلك المقرئ وأمر به فضُرِبَ بين يديه وصار يقول له: تدخل على خوند بغير سراويل، وهمّ بإخراجه من وظيفة القراءة لولا ما حصل من شفاعة الناس فيه، وكان لا يلي نظر هذه المدرسة إلا الأمراء الأكابر، ثم صار يليها الخدّام وغيرهم، وكان إنشاؤها في سنة إحدى وستين وسبعمائة»[2].

ومثلها مدرسة فاطمة ابنة قانباي العمري الناصري فرج (ت٨٩٢هـ) كانت إحدى الأميرات في العصر المملوكي الجركسي، قال السخاوي عن مدرستها: « وعمرت بالقرب من درب الكافوري وموقف المكارية داخل باب القنطرة مدرسة لطيفة تقام فيها الجمعة شرعت فيها في أيام الظاهر جقمق ولكنها لم تكمل إلا بعد وعملت فيها درساً للحنفية وقراءة حديث وتفسير وغير ذلك ووقفت بها كتباً»[3].

وفي القدس بنت السيدة مصر خاتون المدرسة الغادرية بداخل المسجد الأقصى، وواقفها (أي بانيها والمنفق عليها) الأمير ناصر الدين محمد بن دلغادر، وكان ذلك عام ٨٣٦هـ[4]، وفي اليمن في العصر المملوكي اهتمت نساء الأمراء والملوك بتشييد المدارس على نفقتهن الخاصة، من تلك الفضليات نجد السيدة «الآدر الكريمة» (ت٧٢١هـ)، قال الزركلي: من مآثرها المدرسة الصلاحية في زبيد، ومدرسة في قرية المسلب من وادي زبيد، ومسجد في قرية التربية، ومدرسة في قرية السلامة، ومسجد في تعز. ووقفت لكل ذلك أوقافا كافية[5].

ولم يكن دورهن البناء والتشييد والتعمير وفقط، بل ظهرت منهن العالمات النجيبات اللاتي ذاع صيتهن، مثل « أُمامة بنت عبد السلام بن القاضي عبد الخالق بن سعيد

---

(١) الخدم والحرّاس.
(٢) السابق ٤/ ٢٣١.
(٣) السخاوي: الضوء اللامع ١٢/ ٩٨.
(٤) العليمي: الأنس الجليل ٢/ ٤٠.
(٥) الزركلي: الأعلام ١/ ٢٥

البعلبكية، سمعت من جدتها ست الأهل بنت علوان وحدثت وماتت سنة ٧٤٤هـ»[١]، ونلحظ أنها أخذت عن جدتها، وكانت من جملة عالمات الحديث!

وكان طلبة العلم من الرجال خاصة لا يرون عيبًا في الأخذ عن هذه العالمات الحافظات، بل كانوا يذكرونهن في مشيخاتهم وفهرساتهم ومعاجمهم، وهي مؤلفات كان الغرض منها تقييد رحلة طلب العلم، وذكر الشيوخ والشيخات، وأنواع العلوم التي أخذها طالب العلم، من هذه العالمات أمة الرحمن بنت محمد بن شيبان البعلبكية، ذكرها «أبو حامد بن ظهيرة بعد الستين[٢] وحدث عنها في معجمه»[٣].

وذكر الصفدي طائفة كبيرة من كبار العالمات في كتابه «الوافي بالوفيات»، منهن شيخته وأستاذته «آمنة بنت إبراهيم بن علي بن أحمد بن فضل الشيخة الصالحة أم محمد بنت تقي الدين الواسطي، سمِعَت من ابن عبد الدائم وأجازت لي في سنة تسع وعشرين وسبعمائة بدمشق وكتب عنها عبد الله بن المحب»[٤]، ومثلها شيخته «الصالحة المسندة أم عبد الرحمن بنت زين الدين.. وأجازت لي في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة فكتب عنها بإذنها عبد الله بن أحمد بن المحب المقدسي، وتوفيت رحمها الله تعالى في خامس شعبان سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة»[٥].

وكانت هذه العالمات ممن يتفاعلن ويُشاركن بجدة ونشاط في إصلاح المجتمع، مع الحفاظ على تربية الأولاد ومناصحة الإخوة، من هؤلاء الشيخة الصالحة حبيبة بنت محمد ابن أحمد المقدسي (ت٦٧٤هـ)، قال الصفدي عن قصة حياتها وعلمها وزهدها: «أم أحمد زوجة الإمام تقي الدين محمد بن محمود المراتبي وأم أولاده روت عن حنبل وابن طبرزد وأجازت لها سكينة وعائشة بنت معمر وجماعة، وكانت صالحة قوّامة تالية لكتاب الله تُلقن نساء الدير، وكانت تُنكر على أخيها الشيخ شمس الدين دخوله في القضاء وفي

---

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ١/ ٤٩١.
(٢) أي بعد سنة ٧٦٠هـ.
(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة ١/ ٤٩١.
(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات ٩/ ٢٢١.
(٥) السابق ١١/ ٢٣٣.

التوسع من الدنيا وكثرة الأواني والقماش، روى عنها الدمياطي وابن الخباز وابن الزراد وابن العطار»[(١)]، وهذه الأسماء التي أخذت عنهم وأخذوا عنها كانوا من أعلام وقتهم، ورجال زمانهم علمًا ومنزلة ومكانة، ونلحظ من بين شيوخها شيختان.

ومن كبار الشيخات اللاتي أخذ عنهن جمع من علماء القرن الثامن والتاسع الهجريين الشيخة العالمة فاطمة بنت محمد بن عبد الهادي (ت٨٠٣هـ) التي درس على يديها العلامة ابن حجر وغيره، قال ابن العماد: «أسمَعَتْ الكثير على الحجار[(٢)] وغيره وأجاز لها أبو نصر ابن الشيرازي وآخرون من الشام وحسين الكردي وعبد الرحيم المنشاوي وآخرون من مصر، قال ابن حجر: قرأتُ عليها الكثير من الكتب والأجزاء بالصالحية ونعم الشيخة»[(٣)].

وتجلت مكانة المرأة في التأليف أيضًا، وليس مجرد التدريس، وانتشرت مؤلفات بعضهن انتشارًا سريعًا، وكُنّ لهنّ دورٌ في الحياة التربوية والثقافية في العصر المملوكي، فمنهن عائشة الباعونية: عائشة بنت يوسف بن أحمد بن ناصر الدين (ت٩٢٢هـ)، قال عنها النجم الغزي: إنها إحدى أفراد الدهر، ونوادر الزمان فضلاً، وعلماً، وأدباً، وشعراً، وديانةً، وصيانةً. تنسّكت وهي صغيرة ثم حملت إلى القاهرة، ونالت من العلوم حظاً وافراً، وأُجيزت بالإفتاء والتدريس، وألّفت عدة كتب منها «الفتح الحنفي» يشتمل على كلمات لدنية، ومعان سنية، وكتاب «دُر الغائص، في بحر المعجزات والخصائص»، وهو قصيدة رائية، وكتاب «الإشارات الخفية، في المنازل العلية»[(٤)] وغير ذلك...

وذكر النجم الغزّي جزءًا من كلامها وأسلوبها اللطيف، قولها: «كان مما أنعم الله تعالى به علي أنني بحمده لم أزل أتقلب في أطوار الإيجاد، في رفاهية لطائف البر الجواد، إلى أن خرجت إلى هذا العالم المشحون بمظاهر تجلياته، الطافح بعجائب قدرته وبدائع آياته، المشوب موارده بالأقذار والأكدار، الموضوع بكمال القدرة والحكمة للابتلاء والاختبار،

---

(١) السابق ١١/ ٢٣٤، ٢٣٥.
(٢) من شيوخها في ذلك الزمن.
(٣) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٧/ ٣٣.
(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٨/ ١١١.

دار ممر لا بقاء لها إلى دار القرار، فربّاني اللُّطف الرباني في مشهد النعمة والسلامة، وغذّاني بلبان مدد التوفيق لسلوك سبيل الاستقامة، في بلوغ درجة التمييز، أهلني الحق لقراءة كتابه العزيز، وَمَنَّ علي بحفظه على التمام، ولي من العمر ثمانية أعوام، ثم لم أزل في كنف ملاطفات اللطيف»[1].

وهناك العشرات من هؤلاء النساء المسلمات يستطيع القارئ الكريم أن يرجع إلى تراجمهن وتواريخهن منذ القرن السابع وحتى أوائل القرن العاشر الهجري ليعلم كيف أثرت المرأة المسلمة في مسيرة التربية إما في بيتها أو في محراب علمها أو من خلال إنشاء المحاضن التربوية التي تجلت ندِّيتها فيها للرجل.

المكتبات ودورها التربوي

ثمة محاضن كثيرة للتربية في العصر المملوكي يأتي من جملتها المكتبات العامة والخاصة أو «خزائن الكتب» كما كانوا يطلقون عليها، وهو وصف لطيف جميل يُدلل على حبهم وشغفهم بالمكتبات والكتب.

لقد كان للمكتبات دورها في تربية وتثقيف أبناء هذا العصر، ولم يخل بيت عالم، أو مدرسة موقوفة من خزانة كُتب كان لها دور لا يقل عن دور المعلم والأستاذ في التوجيه والتربية، وكما هي حال مكتبات أوربا اليوم كالمكتبة العامة البريطانية مثلاً التي تحوي بلا مبالغة ملايين من الكتب في كل صنف ومجال، ومكتبة الكونجرس الأمريكي التي وصفها كل من عاينها بأنها أعظم مكتبة في العالم اليوم، كانت مكتباتنا في العصر المملوكي لا تقل إبهارًا وروعة وأهمية لهذه المكتبات اليوم.

لقد بلغ حب الكتب في العصر المملوكي وهو «عصر العلم» في مصر حدًّا كان على المؤرخ أن يدونه وينقله لنا؛ ذلك لأنه أبهره كما سيبهرنا عند قراءته... لقد كان سبط ابن عبد الظاهر ناصر الدين شافع بن علي (ت٧٣٠هـ) من كبار الكتاب والوزراء في عصره، و«كان رحمه الله جمّاعة للكتب خلف بالقاهرة ثمانية عشر خزانة (مكتبة) كتبا نفائس أدبية، وكانت زوجته تعرف ثمن كل كتاب، وبقيت تبيع منها إلى أن خرجت من القاهرة سنة

(١) النجم الغزي: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ١/ ٢٨٩.

تسع وثلاثين وسبعمائة، وأخبرني البوتيجي أنه كان إذا لمس الكتاب وجسه قال: هذا الكتاب الفلاني وهو لي ملكته في الوقت الفلاني، وكان إذا أراد أي مجلد كان قام إلى خزانة وتناوله منها كأنه الآن وضعه هناك بيده[١].

فالصفدي وهو أحد مؤرخي مصر في تلك الأوقات يصف خزانة كتب الوزير والكاتب الشهير ابن عبد الظاهر؛ في جمالها وتنظيمها ونظافة كتبها، ومعرفة ابن عبد الظاهر بكل كتاب فيها رغم كثرتها، ولقد ظلت زوجته تبيع كتبه لمدة تسع سنوات كاملة بعد وفاته، ما يُدلل على ضخامة هذه المكتبات الثماني عشر!!

ولم يعدم عصر ابن عبد الظاهر من أمثاله ممن شُغفوا بالكتب والمكتبات، وفاقوا أقرانهم في معرفة الكتب وما تحويه بين دفتيها، مهما كان حجم الكتب أو موضعه بين آلاف من الكتب الأخرى، وكان آية هذا العصر الرجل الضرير زين الدين الآمدي البغدادي (توفي بعد ٧١٢هـ)، قال الصفدي عن معرفته بالكتب والمكتبات وبراعته رغم كونه أعمى: «له كتب كثيرة جداً وكان إذا طلب منه كتاب وكان يعلم أنه عنده نهض إلى خزانة كتبه واستخرجه من بينها كأنه قد وضعه لساعته وإن كان الكتاب عدة مجلدات وطلب منه الأول مثلاً أو الثاني أو الثالث أو غير ذلك أخرجه بعينه وأتى به. وكان يمس الكتاب أولاً ثم يقول: يشتمل هذا الكتاب على كذا وكذا كراسة فيكون الأمر كما قال. وإذا أمر يده على الصفحة قال عدد أسطر هذه الصحيفة كذا وكذا سطراً فيها بالقلم الغليظ كذا وهذا الموضع كتب به في الوجهة فيها بالحمرة هذا وهذا لمواضع كتبت فيها بالحمرة. وإن اتفق أنها كتبت بخطين أو ثلاثة، قال: اختلف الخط من هنا إلى هنا، من غير إخلال بشيء مما يمتحن به ويعرف أثمان جميع كتبه التي اقتناها بالشراء»[٢].

ومن أشهر وأعظم مكتبات هذا العصر، مكتبة ملك اليمن داود بن يوسف بن عمر ابن رسول التركماني (ت٧٢١هـ)، لقد جمع هذا السلطان اليمني الكتب النفيسة في سلطنته، حتى قيل إن خزانة كتبه اشتملت على مائة ألف مجلد[٣]. وقال ابن حجر عن

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات ١٦/ ٤٥.
(٢) الصفدي: نكث الهميان في نكت العميان ص١٩١.
(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٩/ ٢٥٣.

شغفه بالكتب: عرف الناس محبته في الفضائل قصدوه من الآفاق بكل تحفة وملحة، وكان يبالغ في إنصافهم، حتى إنه أُهديت له نسخة من الأغاني بخط ياقوت فبذل فيها مائتي دينار مصرية[١]. وزاد الشوكاني أن مكتبته كانت تحتوي «على مائتى ألف مجلد»[٢].

وتحدث النويري عن مكتبة المدرسة المنصورية قلاوون في مصر بقوله: «ولخزانة كتبها من الختمات الشريفة، والربعات المنسوبة الخط، وكتب التفسير والحديث والفقه واللغة، والطب والأدبيات، ودواوين الشعر شيء كثير»[٣].

ومثلها مكتبة السلطان بيبرس الجاشنكير في الجامع الحاكمي بمصر: فقد «عمّر له (لهذا الجامع) خزانة كتب فيها أشياء نفيسة، من جملتها المصحف الذي كتبه ابن الوحيد بماء الذهب بخطه المنسوب في سبعة أجزاء»[٤]، وابن الوحيد المذكور من جملة من اختارهم السلطان بيبرس الجاشنكير للكتابة والنسخ في مكتبة المسجد الحاكمي، واسمه شرف الدين بن الوحيد محمد بن شريف (ت٧١١هـ)، وكان من أشهر كتاب زمانه، وأحسنهم خطًا[٥].

وثمة وصف أكثر شمولاً لمكتبة الجاشنكير في المسجد الحاكمي، يذكره النويري بقوله: «وأنشأ بالجامع خزانة كتب، وقف بها نحو خمسمائة مجلد من كتب العلوم، والآداب، والتواريخ وغير ذلك، وختمات شريفة، ورتّب[٦] لشاهدها في كل شهر ثلاثين درهمًا، واستنسخ ختمة[٧] شريفة سبعة أجزاء في ورق بغدادي كامل كُتبت بالذهب المحلول، بخط شرف الدين بن الوحيد، حلَّ له جملة من الذهب، وصرف عليها جملة في أجرة كاتب وترميل وتذهيب آيات وأعشار وسور وفواتح وتجليد، ووقفها بالجامع يقرأ منها في كل جمعة قبل الخطبة، ورتب للقارئ في كل شهر معلوما»[٨].

---

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة ٢/ ٢٢٥.
(٢) الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ١/ ٢٤٨.
(٣) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ٣١/ ٧٤.
(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة ٢/ ٤٧.
(٥) ابن حجر: الدرر الكامنة ٥/ ١٩٧.
(٦) أي عيّن وحدد من المال.
(٧) أي مصحفًا كاملاً.
(٨) النويري: نهاية الأرب ٦٠/ ٣٢.

وانتشرت هذه المكتبات في المدارس الموقوفة، لكي يستفيد بها طلبة العلم، ويقرءون منها، ويستعيرون إن كان مسموحًا بهذا، مثل مكتبة دار الحديث الأشرفية، فقد كان كبار علماء دمشق يعتمدون عليها، ويرجعون إليها لما تحويه من آلاف المجلدات، وكان بعضهم يُشير إلى إفادته من هذه المكتبة الكبيرة، مثل العلامة تاج الدين بن السبكي (ت٧٧١هـ) الذي استفاد من كتاب «مناقب الشافعي» لمؤلفه إسحاق بن إبراهيم السرخسي، قال عنه ابن السبكي أنه «كتاب حافل رأيت منه نسخة في مجلدين في خزانة كتب دار الحديث الأشرفية بدمشق»[١].

وقد حرص واقفو هذه المكتبات على أن يضعوا لها من الشروط والأحكام والضوابط ما يصون ذخائرها من الضياع والتلف والتبديد، ومن ثم تجلى حرص القائمين على عدم إعارة الكتب أو إخراجها من المكتبات، لكن ما يهمنا في هذا السياق هو حرص طلبة العلم والعلماء على محاولة إيجاد مخرج ومفر من هذه الشروط، والإفتاء وفقًا لمبدأ المصلحة التي يُقر فيها الفقيه في بعض الأحيان أن يُعمَل بخلاف شروط الواقفين إذا وجدوا ثمة مصلحة لهذا، وما اهتمام العلماء بإيجاد المخارج الشرعية لشروط الواقفين لأجل الإعارة إلا لحبهم الشديد في هذه المصنفات والكتب التي تعج بها المكتبات الإسلامية في ذلك الوقت.

وقد قام الأستاذ فؤاد سيد[٢] رحمه الله بتحقيق نصين قديمين يتناولان الحديث عن إعارة الكتب، وما يهمنا فيهما ما قام به العلامة السيوطي (ت٩١١هـ)، فقد حاول أن يجد مفرًا من شروط الواقفين، وأن يؤول هذه الشروط، ويستنبط منها ما يسمح باستثناء ما شرطه الواقف، والإفتاء بجواز العارية لمن هم جديرون بحفظها وصونها[٣].

فالأسباب التي دفعت السيوطي إلى تأليف رسالة بعنوان «بذل المجهود في خزانة محمود» تكمن في كونه أراد أن يفيد من هذه المكتبة الكبرى التي كانت من أعظم مكتبات عصره، وقد وقفها أحد رجال الدولة واسمه محمود بن علي سنة ٧٩٧هـ، وكان شرطه أن لا يخرج منها كتاب، فألف رسالته هذه وأفتى بجواز إخراج الكتب منها.

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٤/ ٢٦٦.
(٢) من كبار رجال التحقيق في القرن العشرين، وهو والد الدكتور والمحقق أيمن فؤاد سيد.
(٣) فؤاد سيد: نصان قديمان في إعارة الكتب، مجلة معهد المخطوطات العربية ٤/ ١٢٦.

وهذه المكتبة العامة الملقبة بالمحمودية قال عنها المقريزي في خططه: «لا يُعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها، وهي باقية إلى اليوم[١] لا يخرج لأحد منها كتاب إلاّ أن يكون في المدرسة، وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كلّ فن»[٢]. وقد ذكر ابن حجر في كتابه «إنباء الغُمر» في حوادث سنة ٨٢٦هـ وهو يُترجم لأمين هذه المكتبة: أن الكتب التي بها وهي كثيرة جدًا الموجودة الآن بالقاهرة، وهي من جمع البرهان بن جماعة[٣] في طول عمره، فاشتراها الأمير محمود الأستادار من تركته بعد موته ووقفها وشرط ألا يخرج منا شيء من مدرسته[٤]، ويذكر شمس الدين السخاوي أن شيخه العلامة ابن حجر، عمل أمينًا لهذه المكتبة تطوعًا منه؛ لأنه رأى تهاون خازنها السابق المعروف بعثمان الطاغي، فقد نقصت كمية الكُتب فيها إلى مقدار العُشر من أربعة آلاف مجلد إلى أربعمائة فقط؛ ثم لما تولى الإشراف عليها العلامة ابن حجر عمل لها فهرسًا على الحروف في أسماء التصانيف، وآخر للفنون والعلوم، وقد انتفع بذلك ونفع الله به، فإنه كان يُقيم بها في الأسبوع غالبًا يومًا، وفي مدة الأسبوع يكتبُ في قائمة ما يحتاج لمراجعته منها بسببه في تصانيفه وغيرها؛ ليتذكرها في يوم حلوله بها[٥].

وقد ألف السيوطي رسالة في جواز الاستعارة من هذه المكتبة؛ في حالة كون المستعير من المحافظين والعالمين لأهمية محتوياتها؛ وقد دلل على ذلك بما رآه من استعارة أحد أشهر عالمي مصر في وقته منها، وهما علم الدين البلقيني وشرف الدين المناوي، قال: «وهما الإمامان يُقتدى بهما، فإنهما كانا من الفقه بالمحل الأعلى، بحيث بلغا رتبة الاجتهاد في المذهب، وكان المناوي صوفيًا له أحوال وكرامات، فلولا رأيا ذلك جائزًا ما فعلاه، فإن قيل ما وجه الجواز مع مخالفته لشرط الواقف؟ قلتُ له: أربعة أوجه، وجهان ضعيفان،

---

(١) أي إلى زمن تقي الدين المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ.
(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤/ ٢٥١.
(٣) هو إبراهيم بن عبد الرحيم بن محمد ابن جماعة الكناني، مفسر من القضاة، تولى قضاء مصر والشام، وخطيب الخطباء وشيخ الشيوخ، وكبير طائفة الفقهاء، وبقية رؤساء الزمان. ولد بمصر ونشأ بدمشق وسكن القدس. وكان يعزل نفسه، ويتوجه إلى القدس، ثم يسترضيه السلطان ويعود إلى مصر. وولي قضاء دمشق والخطابة بها ومشيخة الشيوخ. ولد سنة ٧٢٥هـ وتوفي سنة ٧٩٠هـ. الزركلي:الأعلام ١/ ٤٦.
(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤/ ٢٥١، ٢٥٢.
(٥) السخاوي: الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر ص٦٠٩، ٦١٠.

ووجه حسن، ووجه قوي صحيح»[١]، ثم يبدأ في ذكر هذه الأوجه، ويميل إلى جواز الاستعارة بعد ذلك.

هذا الشغف بالمكتبات وما تحويه من نفائس المخطوطات والكتب، وتلهف كبار علماء العصر المملوكي كما نرى عليها يبين لنا أن هذه الأمة ما كانت لتصل إلى الذروة العلمية التي كانت عليها إلا من فراغ أو جهد قليل، وأبرز دليل هذا التنافس الشريف الذي اشترك فيه كبار علماء العصر مثل ابن حجر والبلقيني والمناوي والسيوطي والسخاوي وغيرهم.

قصة طالب العلم

لنستطيع تقريب الصورة العلمية التي كان عليها طلبة هذا العصر، وهي صورة وطريقة ومنهج ساهم في تكوين الجانب التربوي عند هؤلاء، وجب علينا تتبع قصة طلب أحدهم للعلم، مع تطعيم ذلك بمقتطفات من حياة آخرين مع شيوخهم وعلمائهم، وطرق التعامل معهم.

والحق، فإن البحث والسير خلف أحد طلاب العلم في العصر المملوكي، هو سير خلف عشرات من التقاطعات العلمية والتربوية التي كانت تمتلئ بها الحضارة المملوكية في ذلك الوقت، فضلاً عن الجلوس مع عشرات من العلماء والشيوخ والشيخات، فقد بلغ عدد أستاذة السيوطي على سبيل المثال - كما ذكرنا من قبل - ٦٠٠ عالم، فكيف يمكن أن نتتبع سيرته ومسيرته، ونحاول ولو بصورة سريعة أن نطوف ونجول معه في تلك المجالس والمدارس والعلماء، هذا عن عالم واحد فقط، فكيف بآخرين، لكن وقع اختياري على علامة آخر بلغ الآفاق بعلمه، وتسنمت الحضارة المملوكية ذروة سامقة بعطائه، إنه العلامة شمس الدين الذهبي (ت٧٤٨هـ)، ومما يجب الإشارة إليه والتنبيه له أنه من الصعب أن نحصر قصة طلبه للعلم في هذه الصفحات القلائل التي تطوف في جولة سريعة في رحاب التربية والتعليم في ذلك العصر، ولقد وقعت عيني على مجهود رائع قام به الأستاذ حسين الأسد في تحقيقه للجزء الأول من كتاب «سير أعلام النبلاء» للذهبي،

---

(١) فؤاد سيد: نصان قديمان في إعارة الكتب، مجلة معهد المخطوطات العربية ٤/ ١٣٤.

تناول فيه قصة تلقيه للعلم، أجد من المناسب لهذا السياق عرضه هنا، ونسب المجهود لأهله.

يقول: يمضي الطفل إلى أحد المؤدبين هو علاء الدين علي بن محمد الحلبي المعروف بالبصبص، وكان من أحسن الناس خطا، وأعرفهم بتعليم الصبيان، فيقيم في مكتبه أربعة أعوام، وفي أثناء ذلك كان جده عثمان يدمنه على النطق بالراء يقوم بذلك لسانه. ولا نعرف في أية سنة ترك المكتب، ولكنه كان في سنة ٦٨٢هـ، لم يزل عنده حيث أنشده في هذه السنة شعرًا لأبي محمد القاسم الحريري، واتجه الذهبي بعد ذلك إلى شيخة مسعود بن عبد الله الصالحي، فلقنه جميع القرآن، ثم قرأ عليه نحوًا من أربعين ختمة، وكان الشيخ مسعود إمام مسجد الشاغور، وكان خيرًا متواضعا برًا بصبيانه، لقَّن الكثير من الطلاب. وتوفي سنة ٧٢٠ هـ. وبدأ الصبي بالحضور إلى مجالس الشيوخ ليسمع كلام بعضهم، ولما قدم عز الدين الفاروثي، عالم العراق، إلى دمشق سنة ٦٩٠هـ، ذهب الفتى وسلم عليه، وحدثه[(١)]، مما يدلل على حبه للعلم والعلماء منذ الصغر.

بدء عنايته بالعلم:

بدأ الذهبي يعتني بطلب العلم حينما بلغ الثامنة عشرة من عمره، وتوجهت عنايته إلى ناحيتين رئيستين هما: القراءات، والحديث الشريف.

أولاً القراءات:

اهتم الذهبي بقراءة القرآن الكريم، والعناية بدراسة علم القراءات، فتوجه سنة ٦٩١هـ هو ورفقة له، إلى شيخ القراء جمال الدين أبي إسحاق إبراهيم بن داود العسقلاني، ثم الدمشقي، المعروف بالفاضلي، فشرع عليه بالجمع الكبير[(٢)]، وكان الفاضلي قد صحب الشيخ علم الدين السخاوي المتوفي سنة ٦٤٣هـ، وهو الذي انتهت إليه رياسة الإقراء في زمانه[(٣)]، وجمع عليه القراءات السبع، وتصدر للإقراء بتربة أم الصالح، ولكنه أصيب بطرف من

(١) الذهبي: معرفة القراء ص٥٤٤.
(٢) الذهبي: معرفة القراء ص٥٦٢، ٥٦٣.
(٣) الذهبي: العبر في خبر من غبر ٥/ ١٨٧.

الفالج[1]، فكان يقرئ في بيته وينتهي الذهبي عليه إلى أواخر سورة القصص، ويزداد الفالج على الشيخ، فيمنع الطلبة من الدخول عليه، ثم يموت سنة ٦٩٢هـ، وقد شرع في الوقت نفسه يقرأُ بالجامع الكبير على الشيخ جمال الدين أبي إسحاق إبراهيم بن غالي المقرئ الدمشقي (ت ٧٠٨ هـ). وقرأ ختمة جامعة لمذاهب القراء السبعة بما اشتمل عليه كتاب «التيسير» للداني، وكتاب «حرز الأماني» للشاطبي على ابن جبريل المصري نزيل دمشق.

وما لبث الذهبي أن أصبح على معرفة جيدة بالقراءات، وأصولها ومسائلها، وهو لما يزل فتى لم يتعد العشرين من عمره، قال في ترجمة قاضي القضاة شهاب الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن خليل المتوفي سنة ٦٩٣هـ: «جلست بين يديه، وسألني عن غير مسألة من القراءات، فمن الله وأجبته وشهد في إجازتي من الحاضرين، وأجاز لي مروياته»[2].

على أنه استمر في تحصيل هذا العلم، فكتب في سنة ٦٩١هـ «المقدمة في التجويد» عن مؤلفها المقرئ المجود أبي عبد الله محمد بن جوهر التلعفري المتوفى سنة ٦٩٦هـ، وتلا ختمة للسبعة على مجد الدين أبي بكر بن محمد المرسي نزيل دمشق المتوفى سنة ٧١٨هـ وجمع الختمة على شيخ القراء ببعلبك موفق الدين المتوفى سنة ٦٩٥ هـ، وقرأ بالسبع أيضا على المقرئ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن منصور الحلبي المتوفى سنة ٧٠٠ هـ، وكان الحلبي هذا من المتصدرين بالعادلية وبالجامع الأموي[3].

وتميز الشاب في دراسة القراءات، وبرع فيها براعة جعلت شيخه شمس الدين أبا عبد الله محمد بن عبد العزيز الدمياطي، وهو من المقرئين المجودين، يتنازل له عن حلقته بالجامع الأموي في أواخر سنة ٦٩٢هـ، أو أوائل سنة ٦٩٣هـ، حينما أصابه المرض الذي توفي فيه، وكان الذهبي قد أكمل عليه القراءات قبل ذلك، فكان هذا أول منصب علمي يتولاه الذهبي فيما نعلم، وإن لم يدم فيه أكثر من سنة واحدة.

ثانيًا: طلبه لعلم الحديث:

وفي الوقت نفسه كان الذهبي، وهو في الثامنة عشرة من عمره، قد مال إلى سماع

---

(١) الفالج: شلل يُصيب أحد شقي الجسم طورًا، المعجم الوسيط ٢/ ٦٩٩.
(٢) الذهبي: معجم الشيوخ ٢/ ١٤٤.
(٣) سير أعلام النبلاء، مقدمة المحقق ١/ ٢١.

الحديث، واعتنى به عناية فائقة، وانطلق في هذا العلم حتى طغى على كل تفكيره، واستغرق كل حياته بعد ذلك، فسمع ما لا يحصى كثرة من الكتب والأجزاء، ولقي كثيرا من الشيوخ والشيخات، وأصيب بالشره في سماع الحديث وقراءته، ورافقه ذلك طيلة حياته، حتى كان يسمع من أناس قد لا يرضى عنهم، قال في ترجمة علاء الدين أبي الحسن علي بن مظفر شيخ دار الحديث النفيسية، المتوفى سنة ٧١٦هـ: «ولم يكن عليه ضوء في دينه، حملني الشره على السماع من مثله، والله يسامحه كان يخل بالصلوات، ويرمى بعظائم الأمور»[(١)]، وقال في ترجمة شيخه محمد بن النصير المؤذن المتوفي سنة ٧١٥هـ: «شويخٌ عامي سمعنا منه، ولم يكن بذاك»، بل إنه ليذهب به حبه للحديث إلى القراءة على الصُم، فقد ذكر في ترجمة شيخه محمود بن محمد الخرائطي الصالحي الأصم المتوفي سنة ٧١٦هـ: «قرأتُ عليه بأقوى صوتي في أذنه»[(٢)]، وغير هؤلاء كثير.

ثالثًا: رحلاته في طلب العلم:

كان الذهبي يتحسّر على الرحلة إلى البلدان الأخرى، لما لذلك من أهمية بالغة في تحصيل علو الإسناد، وقدم السماع، ولقاء الحفاظ، والمذاكرة لهم، والاستفادة عنهم، إلا أن والده لم يشجعه على الرحلة، بل منعه في بعض الأحيان، قال في ترجمة أبي الفرج عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن وريدة البغدادي الحنبلي شيخ المستنصرية (ت٦٩٧هـ): «وقد هممتُ بالرحلة إليه، ثم تركته لمكان الوالد»[(٣)]، وقال في ترجمته من «معرفة القراء الكبار»: «وانفرد عن أقرانه، وكنت أتحسّر على الرحلة إليه، وما أتجسر خوفًا من الوالد، فإنه كان يمنعني»[(٤)]، وقال في ترجمة المكين الأسمر المقرئ الإسكندراني المتوفى سنة ٦٩٢هـ: «ولما مات شيخنا الفاضلي، فازددتُ تلهفًا وتحسرًا على لقيه، ولم يكن الوالد يمكنني من السفر»[(٥)].

ولم يكن الذهبي ابنًا عاقًا يخالفُ إرادة والده، لا سيما أن آداب طلب العلم تقتضي

---

(١) الذهبي: معجم الشيوخ ٢/ ٥٨.
(٢) السابق ٢/ ٣٣٥.
(٣) معجم الشيوخ ١/ ٣٦٦.
(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ٥٢/ ٣٢٩.
(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٥٢/ ١٥٧.

استئذان الأبوين في الرحلة، ووجوب طاعتهما وبرهما، وترك الرحلة مع كراهتهما ذلك وسخطهما[١]. ويبدو لنا أن الذهبي كان وحيد أبيه، أو كان هو البارز بين أبنائه في الأقل، بحيث كان يخاف عليه هذا الخوف كله. ويظهر أن والده قد سمح له بالرحلة حينما بلغ العشرين من عمره، وذلك سنة ٦٩٣هـ. على أنه سمح له برحلات قصيرة لا يقيم في كل منها أكثر من أربعة أشهر في الأغلب، ويرافقه فيها بعض من يعتمد عليهم.

- رحلاته داخل البلاد الشامية:

تشير المصادر إلى رحلات الذهبي عرضًا، ولكنها لا تقدم لنا عنها الكثير. على أننا استطعنا أن نتبين أن أول رحلة له ربما كانت إلى بعلبك سنة ٦٩٣هـ حيث قرأ فيها القرآن جمعا على الموفق النصيبي المتوفي سنة ٦٩٥هـ[٢]، وأكثر عن المحدث الأديب الإمام تاج الدين أبي محمد المغربي، ثم البعلبكي، المتوفى سنة ٦٩٦هـ، وسوف نجده مرة أخرى في بعلبك سنة ٧٠٧هـ، وقد سمع في هاتين الرحلتين على كثير من شيوخ البلد.

ورحل بعد ذلك إلى حلب، وأكثر فيها عن علاء الدين أبي سعيد سنقر بن عبد الله الأرمني ، قال: «رحلت إليه، وأكثرتُ عنه، ونعم الشيخ كان دينًا ومروءة وعقلاً وتعففًا»[٣]، وسمع من جملة من شيوخها. وتشيرُ المصادر إلى أنه قد سمع ببلدان عديدة منها: حمص، وحماة، وطرابلس، والكرك، والمعرة، وبصرى، ونابلس، والرملة، والقدس، وتبوك.

- رحلته إلى البلاد المصرية:

على أن رحلة الذهبي إلى البلاد المصرية كانت من أبرز رحلاته المبكرة، ويقول الدكتور صلاح الدين المنجد: إنه لا يعرف متى سافر الذهبي إلى مصر، ثم يقول: «ولعل سفره إلى مصر كان بُعيد وفاة أبيه سنة ٦٩٧هـ، وقد عاد سنة ٦٩٩هـ»[٤]، واستند في ذلك

(١) مقدمة سير أعلام النبلاء ١/ ٢٤.
(٢) مقدمة السير ١/ ٢٥.
(٣) الذهبي: معجم الشيوخ ١/ ٢٧٦.
(٤) مقدمة صلاح الدين المنجد لتحقيق سير أعلام النبلاء ١/ ١٨ نقلاً عن حسين أسد.

على ما نقله ابن حجر عن مشيخة بدر الدين النابلسي الذي قال: « وأول ما ولي تصدير حلقة إقراء بجامع دمشق في أول رواق زكريا عوضا عن شمس الدين العراقي الضرير المقرئ في المحرم سنة ٦٩٩هـ بعد رجوعه من رحلته من مصر بقليل»[١].

وقد استطعنا[٢]، نتيجة تتبعنا لنشاط الذهبي أن نحدد رحلته إلى البلاد المصرية، وأنها كانت بين رجب وذي القعدة من سنة ٦٩٥هـ، فقد تبين أنه ابتدأ سفرته في رجب سنة ٦٩٥هـ متوجهًا إلى فلسطين، قال في ترجمة شيخته أم محمد سيدة بنت موسى بن عثمان المارانية المصرية المتوفاة سنة ٦٩٥ هـ: «وقد رحلت إلى لقيها، فماتت وأنا بفلسطين، في رجب سنة خمس وتسعين وست مئة»[٣]، وقال في ترجمتها في «تاريخ الإسلام»: «كنتُ أتلهف على لقيها، ورحلت إلى مصر، وعلمي أنها باقية، فدخلت فوجدتها قد ماتت من عشرة أيام..توفيت يوم الجمعة سادس رجب وأنا بوادي فحمة»[٤]، وبذلك نستنتج أنه وصل إلى البلاد المصرية في السادس عشر من رجب سنة ٦٩٥هـ. وأول ما افتتح سماعه بمصر على شيخه جمال الدين أبي العباس أحمد بن محمد بن عبد الله الحلبي المعروف بابن الظاهري (ت٦٩٦هـ)، قال في« تاريخ الإسلام»: «وبه افتتحتُ السماع في الديار المصرية، وبه اختتمتُ، وعنده نزلتُ، وعلى أجزائه اتكلت. وقد سمع منه علم الدين (يعني البرزالي) أكثر من مئتي جزء»[٥]، وقال في ترجمته من «معجم شيوخه»: «ودّعته في ذي القعدة سنة خمس وتسعين، فقال لي: قل للجماعة يجعلوني في حل فَمَا كَانَ بَقِيَ لِحَيٍّ مِنْ شَيْءٍ »[٦].

وطبيعي أن يرجع الإمام الذهبي في ذي القعدة من السنة لأنه كان قد وعد أباه، وحلف له أنه لا يقيم في الرحلة أكثر من أربعة أشهر، فخاف أن يعقه إذا تأخر. وقد توفي ابن الظاهري بعد ذلك في ربيع سنة ٦٩٦هـ[٧].

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة ٣/ ٤٢٧.
(٢) المتكلم هو الأستاذ حسين أسد.
(٣) الذهبي: معجم الشيوخ ١/ ٢٩٤.
(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ٥٢/ ٢٥٦.
(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ٥٢/ ٢٩٢.
(٦) الذهبي: معجم الشيوخ ١/ ٩٣.
(٧) سير أعلام النبلاء، مقدمة حسين أسد ١/ ٢٨.

وفي أثناء وجوده بالبلاد المصرية رحل إلى الإسكندرية، وكان بها في شوال من السنة، قال في ترجمة شيخه أبي الحجاج يوسف بن الحسن التميمي القابسي ثم الإسكندراني: «وكنتُ في شوال هذه السنة في الإسكندرية وهو حي، وسمعت منه التجريد»(١).

وفي ثغر الإسكندرية مضى الذهبي إلى أسند أهلها في القراءات وأعلمهم، الإمام شرف الدين أبي الحسين يحيى بن أحمد بن عبد العزيز ابن الصواف الإسكندراني المقرئ المشهور (ت٧٠٥ هـ) فأدخل عليه، فوجده قد أضر وأصم، وهو في سبع وثمانين سنة، فقرأ عليه جزءًا، ورفع صوته، فسمع، ثم كلّمه في أن يجمع عليه القراءات السبع، فوافق، وبدأ الذهبي بالقراءة، فقرأ عليه الفاتحة وآيات من البقرة والشيخ يرد الخلاف، ويرد رواية يعقوب وغيره، ولما ذكر له الذهبي أن قصده القراءة بالسبع حسب، تخيل الشيخ منه نقص المعرفة، وطلب منه أن يذهب إلى أحد تلامذته، قال الذهبي: «وزهّدني فيه أني كنت لا أدخل عليه إلا بمشقة وأمنع، ويؤذن لي مرة، وأيضا فكنتُ لا أقرأ ربع حزب جمعًا، حتى ينقطع صوتي لمكان صممه»، فخاف الذهبي ضياع الوقت القصير، فتركه، وذهب إلى الإمام المقرئ صدر الدين أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الحليم بن عمران الدكالي المعروف بسحنون ت ٦٩٥هـ، وكان قد ضعف وأضر، فختم عليه بقراءتي ورش وحفص، في مدة أحد عشر يومًا مع جماعة من رفاقه(٢).

وسمع بالإسكندرية من جملة من علمائها المتميزين من أبرزهم: تاج الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد المحسن الإسكندراني (ت٧٠٤هـ) شيخ دار الحديث النبيهية بالإسكندرية كما رحل إلى بلبيس، وسمع بها.

لقد كانت هذه الرحلة قصيرة، وكان الذهبي يجهد نفسه في قراءة أكبر كمية ممكنة على شيوخ تلك البلاد، فقد ذكر مثلاً أنه قرأ جميع سيرة ابن هشام على شيخه أبي المعالي الأبرقوهي في ستة أيام فقط.

---

(١) الذهبي: معجم الشيوخ ٢/ ٣٨٥.
(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٥٢/ ٢٦١.



- رحلته للحج وسماعه هناك:

وفي سنة ٦٩٨ هـ، أي بُعيد وفاة والده رحل الذهبي للحج، وقد كان يرافقه في حجه جماعة من أصحابه وشيوخه، منهم شيخ دار الحديث بالمدرسة المستنصرية العالم المسند أبو عبد الله محمد بن عبد المحسن المعروف بابن الخراط الحنبلي ت٧٢٨هـ، وكان ابن الخراط قد قدم دمشق في تلك السنة، وجلس للوعظ بدمشق في شهر رمضان، قال الذهبي: «ورافقنا في الحج، فسمعتُ منه بالعُلى ومعان كتابَ «الفرج بعد الشدة»»[(١)]. ومن الغريب أنه استثمر رحلة الحج خير استثمار فقد سمع بمكة، وعرفة، ومنى، والمدينة من مجموعة من الشيوخ.

رابعًا: طبيعة دراساته:

لم ينقطع الذهبي طيلة حياته عن الدراسة والسماع لا يشغله عنهما شاغل، تدل على ذلك معجمات شيوخه لا سيما «المعجم الكبير»، وكانت دراسته وسماعاته متنوعة لم تقتصر على القراءات والحديث، وقد عني بدراسة النحو، فسمع «الحاجبية» في النحو على شيخه موفق الدين أبي عبد الله محمد بن أبي العلاء النصيبي البعلبكي المتوفى سنة ٦٩٥ هـ[(٢)].

ودرس على شيخ العربية، وإمام أهل الأدب في مصر آنذاك الشيخ بهاء الدين محمد ابن إبراهيم المعروف بابن النحاس المتوفى سنة ٦٩٨ هـ إضافة إلى سماعه لعدد كبير من مجاميع الشعر واللغة والآداب[(٣)].

واهتم بالكتب التاريخية، فسمع عددًا كبيرًا منها على شيوخه، في المغازي، والسيرة، والتاريخ العام، ومعجمات الشيوخ والمشيخات، وكتب التراجم الأخرى. إلا أن عنايته الرئيسة في السماع كانت منصبة على الحديث، فقد سمع الذهبي مئات الكتب والأجزاء الحديثية طيلة حياته في طلب العلم، يعرف ذلك من يقرأ معجمات شيوخه وكتبه بروية وإمعان، فضلا عن أن هذه الكتب والأجزاء هي ليست كل ما قرأ الذهبي على شيوخه، فهناك العدد الهائل من الأحاديث النبوية الشريفة لم يورد في معجمات شيوخه منها إلا أمثلة وحسب.

(١) الذهبي: معجم الشيوخ ٢/ ٢٢٦.
(٢) السابق٢/ ٣٢٤.
(٣) سير أعلام النبلاء، مقدمة المحقق ١/ ٣٢.

يضاف إلى ذلك أنه كان ربما سمع الكتاب أو الجزء على أكثر من شيخ حتى يبلغ في بعضها عشرات المرات أو عددا كبيرًا منها، ولنضرب لذلك بعض الأمثلة، فقد سمع «جزء الحسن بن عرفة» وهو من الأجزاء الحديثية المشهورة أكثر من أربعين مرة على أكثر من أربعين شيخًا، وسمع «نسخة أبي مسهر» عبد الأعلى بن مسهر المتوفى سنة ٢١٨هـ أكثر من اثنتي عشرة مرة، وسمع «جزء ابن فيل» لأبي طاهر الحسن بن أحمد بن فيل البالسي على أكثر من عشرة من الشيوخ[١].

والحق أن الإمام الذهبي بقصته التي تتميز بالمثابرة والجد والتضحية لم تكن بدعًا من النظام التربوي العام الذي كان سائدًا وقتئذٍ، فبجواره مثلاً نشأ العلامة شمس الدين ابن مفلح الحنبلي (ت٧٦٣هـ)، قال عنه الذهبي: «شاب ديّن عالمٌ له عمل ونظر في رجال السنن، ناظر وسمع وكتب وتقدم ذكر قاضي القضاة جمال الدين المرداوي أنه قرأ عليه المقنع وغيره من الكتب في علوم شتى، ولم أعلم أن أحدًا في زماننا في المذاهب الأربعة له محفوظات أكثر منه فمن محفوظاته: المنتقى في الأحكام، قرأه وعرضه قريب من أربعة أشهر، وقد درس بالصاحبة، ومدرسة الشيخ أبي عمر، والسلامية وأعاد (أي معيدًا) بالصدرية، ومدرسة دار الحديث العالمة»[٢] وقد تعجب الإمام ابن القيم رحمه الله من ذكاء وفطنة شاب مثل ابن مفلح لدرجة وهو من ألزم تلاميذ الإمام ابن تيمية كان يرجع لابن مفلح في مسائل ابن تيمية ليتأكد منه، ومن ثم كان العلامة ابن القيم يقول لقاضي القضاة موفق الدين الحجاوي عام ٧٣١هـ - كما ينقل برهان الدين - ما تحت قبة الفلك أعلم بمذهب الإمام أحمد من ابن مفلح. وكان ابن مفلح أحد تلاميذ ابن تيمية، فكان شيخ الإسلام كثيرًا ما يقول له: ما أنت ابن مفلح أنت مفلح[٣].

وسار على ذات الدرب من قبل ابن تيمية وابن الزملكاني والرومي والسبكي ومن بعد ابن القيم وابن كثير والمزي وابن السبكي وآلاف غيرهم نبغوا وثابروا، وأيقنوا أن سمة هذه الحضارة هي العلم، فكان العلم والاتجاه صوبه دأبهم وديدنهم، وكذلك يرى

---

(١) سير أعلام النبلاء، مقدمة المحقق حسين الأسد ١/ ١٨ – ٣٤.
(٢) برهان الدين بن مفلح: المقصد الأرشد ٢/ ٥١٩.
(٣) السابق ٢/ ٥١٩.

الغرب اليوم ما رآه علماؤنا وآباء علمائنا من قبل.

ومن اللافت أن العلاقة بين طالب العلم وشيخه لم تكن محصورة في الأمور العلمية والرسمية، بل كانت في حضارتنا أبوية أكثر منها أستاذية، فالشيخ كان يرى طلابه كأنهم أبناؤه ينصحهم ويحنو عليهم، وينفق على بعضهم إذا اقتضى الأمر، وثمة مواقف كثيرة تؤكد لنا هذا المنحى، وهذه العلاقة الأبوية بين الشيخ وتلميذه.

فهذا الإمام ابن القيم رحمه الله (ت٧٥٦هـ) تلميذ العلامة ابن تيمية يقول عن علاقته بشيخه في أوقات المحن والابتلاء: «علِم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرّهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه، وكُنا إذا اشتدّ بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحا وقوة ويقينا وطمأنينة فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه وفتح لهم أبوابها في دار العمل فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها»[١].

ويؤكد ابن كثير رحمه الله صدق مقالة ابن القيم في شيخه ابن تيمية في ترجمته للشيخ علاء الدين الكندي علي بن المظفر (ت ٧١٦هـ)، وكان من علماء عصره في الحديث والقراءات، قال عن علاقته بشيخه ابن تيمية: «كان يلوذ بشيخ الإسلام ابن تيمية»[٢].

وكانت علاقة تلاميذ ابن كثير به على درجة كبيرة من القرب والحب والوفاء، فإنه لما مات سنة ٧٧٤هـ بدمشق، كانت أكثر مراثيه من طلاب علمه، قال أحدهم:

لفقدك طلاَّب العلوم تأَسفوا ... وجادوا بدمْع لا يبيد غزير

ولو مزجُوا ماء المدامع بالدِّما ... لكان قليلاً فيك يا ابن كثير[٣]

ومثله العلامة شهاب الدين الحنفي أحمد بن أبي بكر (ت ٨٠١هـ)، كان رحمه الله

---

(١) ابن القيم: الوابل الصيب ص٦٧.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١٤/ ٨٩.
(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٢/ ٤١٥.

«يجمع الطلبة ويحسن إليهم»[١]، وغير هؤلاء الكثير.

إن الحضارة المملوكية حضارة زاخرة مليئة متشابكة الأحداث والمسارات، ففي كل صفحة من صفحات المؤلفات التاريخية التي تتناول هذا العصر السحري الرائق، تجد بين يديك أعلامًا وأعلامًا، فلا تكاد تترك هذه الصفحة لتنتقل إلى أخرى حتى يتكدس عقلك بطائفة لا تقل روعة وعلمًا وتربية وجمالاً ممن لاقيتهم في الصفحة الماضية، وهكذا، والرائع أنك لا ترى مجموعة من العلماء التقليديين – وإن لم يخل العصر من أمثالهم – لكنك تندهش من موسعيتهم التي اكتسبوها، وهم لا يزالوا في طور الشبيبة والفتوة، ثم يزدادون نضجًا وعلمًا كلما تقدمت السنون بهم.

وها هو أحدهم، شاب لم يمهله الزمن حتى الكهولة وسن النضج إلا وهو موسوعة متنقلة في هذا العصر، فهو عالم في «الفقه والأصول والعربية والمعاني والبيان والمنطق والطب والهيئة والهندسة والميقات والحساب والفرائض والتفسير والحديث»[٢] أو كما يذكر مؤرخ ذلك العصر جمال الدين بن تغري بردي (ت٨٧٤هـ).

هذا الشاب الذي تعلم على يديه كبار رجال العلم في العصر المملوكي في القرن التاسع الهجري، هو تقي الدين الشُّمُني (ت٨٧٢هـ) واسمه أحمد بن محمد بن محمد بن الحسن، ينقل لنا ابن تغري بردي قصة حياته وكفاحه، والهيئة العلمية التي تخرج على يديها من علماء ذلك العصر في صورة مبهرة حقًا، وهو يؤكد على الدور الإيجابي والفعال الذي قام به والده في تربيته وتعليمه بل والسفر به ليأخذ العلم من مظانه ومصادره، يقول: «استجاز لَهُ والده من القاهرة وغيرها، فأجاز لَهُ شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني، والشيخ سراج الدين بن الملقن؛ والحافظ زين الدين العراقي وغيرهم، ثُمَّ استوطن بِهِ والده القاهرة فِي سنة عشرة وثمانمائة، وأسمعه الحديث، وحضر بِهِ عَلَى الشيخ أبي الفضل ابن الإمام التلمساني، وقرأ ختمة كاملة لأبي عمرو عَلَى الشيخ شمس الدين الزراتيتي الحنفي إمام المدرسة البرقوقية فِي سنة سبع عشرة وثمانمائة، وجوّد فِيهَا الكتابة عَلَى الشيخ

(١) ابن حجر: إنباء الغمر ٤/ ٣٩.
(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٢/ ١٠٤.

الأستاذ عبد الرحمن بن الصائغ المكتِّب، ولازمه مدة، وقرأ العربية فِي ابتداء أمره عَلَى والده الشيخ كمال الدين، وَعَلَى الشيخ الصالح شهاب الدين أحمد الصنهاجي، ثُمَّ لازم الشيخ شمس الدين الشطنوفي، وقرأ عَلَى الشيخ ناصر الدين البارنباري الخزرجية فِي العروض والقافية، وفصول ابن الهائم فِي الفرائض، والنزهة فِي الحساب بالقلم، ورسالتي المارديني عَلَى ربع الدائرة، وقرأ أصول الفقه وأصول الدين عَلَى قاضي القضاة شمس الدين البسطامي ولازمه، وقرأ عَلَيْهِ الكثير من مصنفاته وغيرها، وسمع التلويح والتوضيح فِي أصول فقه الحنفية، والهداية فِي مذهب الإمام أبي حنيفة ﷺ، وشرح المفتاح فِي المعاني عَلَى الشيخ علاء الدين البخاري، وسمع المطول بكماله، والمنطق، والهداية فِي الفقه عَلَى الشيخ نظام الدين يحيى السيرامي، وقرأ المنطق، وآداب البحث عَلَى الشيخ أبي بكر الطبيب العجمي نزيل القاهرة بالمدرسة المنصورية لمداواة الملك المؤيد شيخ، وقرأ الهندسة، والهيئة، وسمع الحساب عَلَى الشيخ شهاب الدين بن المجدي، وسمع الموجز فِي الطب عَلَى الشيخ سراج الدين البهادري، وسمع شرح ألفية العراقي فِي علم الحديث عَلَى الشيخ قاضي القضاة شهاب الدين بن حجر، وقرأ عَلَيْهِ أيضاً شرح النخبة، ولازم الاشتغال إِلَى «أن» برع فِي عدة علوم كالفقه والأصول والعربية والمعاني والبيان والمنطق والطب والهيئة والهندسة والميقات والحساب والفرائض والتفسير والحديث، وصنف وألف ونظم ونثر، وتصدر للتدريس من حال شبيبته إِلَى «الآن» وأشغل الطلبة، وانتفع بِهِ «كثير من الناس»[1].

ويكمل ابن تغري بردي ترجمته بذكر إفادته منه بقوله: «وهو شيخي وعليه قرأتُ، وحضرت دروسه، وبه انتفعت، وله النظم والنثر والمصنفات، ومن مصنفاته كتاب مزيل الخفا عن ألفاظ الشفا، وكتاب المنصف من الكلام عَلَى مغنى ابن هشام فِي العربية، وشرح النقاية مختصر الوقاية فِي الفقه فِي عدة مجلدات، وسماه كمال الدراية، وشرح نظم النخبة لوالده فِي علم الحديث»[2].

---

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٢/ ١٠٤.

(٢) السابق ٢/ ١٠٤.

وكفى بهذا العالم الموسوعي المتنقل خير دليل على نجابة الطلاب، وروعة التربية، وقصة طلبة العلم، ودور الآباء وصبرهم وجلدهم لتعليم أبنائهم في هذا الزمن الزاهي.

التربية العسكرية

تجلت أنواع جديدة من التربية في العصر المملوكي، ولا يعني إفرادنا لها أنها لم تكن متواجدة في العصور السابقة لاسيما العباسي، لكنها تجلت وظهرت بوضوح هنا، وأصبح لها مؤسسات ترعاها، وتُشرف عليها، ثم وُجدت آثار حسية وأدبية تحدثت عن التربية العسكرية في العصر المملوكي.

ولقد تناول المؤرخ الكبير تقي الدين المقريزي (ت٨٤٥هـ) حال المماليك، وتربيتهم، ومدحه وثنائه لهذه التربية، وأثر هذه التربية على الأمة، وكيف اهتم السلاطين بها، حتى أسكنوهم في طباق، وهي ما نسميه اليوم بالكليات العسكرية، وألزموهم ببرنامج عام، إذا تخطاه المملوك صار أحد جنود السلطنة المصرية، وقد أسف المقريزي لزوال هذا النظام والمنهج التربوي منذ العقد الثاني من القرن التاسع الهجري، قال عن هذه التربية العسكرية الواعية والشاملة؛ وذلك أثناء حديثه عن «الطباق» أو المدارس الحربية في كتابه العظيم «المواعظ والاعتبار»: «الطباق بساحة الإيوان، عمّرها الملك الناصر محمد بن قلاوون، وأسكنها المماليك السلطانية، وعمّر حارة (مسكن) تختص بهم، وكانت الملوك تُعنى بها غاية العناية، حتى إن الملك المنصور قلاوون كان يخر (ينزل من القلعة) في غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق حضور الطعام للمماليك، ويمر بعرضه عليه، ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جودته ورداءته، فمتى رأى فيه عيباً اشتدّ على المشرف والإستادار ونهرهما وحلّ بهما منه أيّ مكروه، وكان يقول: كلّ الملوك عملوا شيئاً يُذكرون به ما بين مال وعقار، وأنا عمّرت أسواراً وعملت حصوناً مانعة لي ولأولادي وللمسلمين، وهم المماليك، وكانت المماليك أبداً تُقيم بهذه الطِبقات (المدارس الحربية) لا تبرح فيها، فلما تسلطن الملك الأشرف خليل بن قلاوون سمح للمماليك أن ينزلوا من القلعة في النهار ولا يبيتوا إلا بها، فكان لا يقدر أحدٌ منهم أن يبيت بغيرها، ثم إنّ الملك الناصر محمد بن

قلاوون سمح لهم بالنزول إلى الحمام (العام) يومًا في الأسبوع، فكانوا ينزلون بالنوبة[١] مع الخُدّام، ثم يعودون آخر نهارهم، ولم يزل هذا حالهم إلى أن انقرضت أيام بني قلاوون، وكانت للمماليك بهذه الطباق عادات جميلة، أوّلها أنه إذا قدم بالمملوك تاجره عرضه على السلطان، ونزله في طبقات جنسه وسلمه لطواشيّ[٢] برسم الكتابة[٣]، فأوّل ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، وكانت كلّ طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم، ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى، ومعرفة الخط، والتمرن بآداب الشريعة، وملازمة الصلوات والأذكار، وكان الرّسم (القرارات العامة) إذ ذاك أن لا تجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شبّ الواحد من المماليك علّمه الفقيه شيئاً من الفقه، وأقرأه فيه مقدّمة، فإذا صار إلى سنّ البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب: من رمى السهام، ولعب الرمح ونحو ذلك، فيتسلم كلّ طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه، وإذا ركبوا إلى لعب الرمح أو رمي النُّشاب[٤] ونحو ذلك، لا يجسر جندى، ولا أمير أن يحدّثهم أو يدنو منهم، فينقل إذن إلى الخدمة وينتقل في أطوارها رتبة بعد رتبة إلى أن يصير من الأمراء، فلا يبلغ هذه الرتبة إلا وقد تهذّبت أخلاقه، وكثُرت آدابه، وامتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، واشتدّ ساعده في رماية النشاب، وحسن لعبه بالرمح، ومرن على ركوب الخيل، ومنهم من يصير في رتبة فقيه عارف، أو أديب شاعر، أو حاسب ماهر، هذا ولهم أزمّة من الخدّام، وأكابر من رؤوس النوب يفحصون على حال الواحد منهم الفحص الشافي، ويؤاخذونه أشدّ المؤاخذة، ويناقشونه على حركاته وسكناته، فإن عثر أحد من مؤدبيه الذي يعلّمه القرآن، أو الطواشيّ الذي هو مسلَّم إليه، أو رأس النوبة الذي هو حاكم عليه، على أنه اقترف ذنبًا، أو أخلّ برسم[٥]، أو ترك أدبًا من آداب الدين أو الدنيا، قابله على ذلك بعقوبة مؤلمة شديدة بقدر جرمه، وبلغ من تأديبهم أن مقدّم المماليك كان إذا أتاه بعض مقدّمي الطباق في السحَر، يشاور على مملوك أنه يغتسل من

---

(١) أي بالدور.
(٢) الحارس الشخصي.
(٣) أي لتعليمه.
(٤) أي رمي النّبل.
(٥) الرسم: القانون.

جنابة، فيبعثُ من يكشف عن سبب جنابته، كان من احتلام فينظُر في سراويله، هل فيه جنابة أم لا، فإن لم يجد به جنابة جاءه الموت من كلّ مكان، فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك، وقادة يجاهدون في سبيل الله، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجميل، ويردعون من جارة أو تعدى، وكانت لهم الإدرارات الكثيرة من اللحوم والأطعمة والحلاوات والفواكه والكسوات الفاخرة والمعاليم من الذهب والفضة، بحيث تتسع أحوال غلمانهم، ويفيض عطاؤهم على من قصدهم»(١).

هذه هي حال المدارس الحربية التي كانت وقتئذ، تهتم أول ما تهتم بتربية هؤلاء الجنود على معرفة الشرع، والتخلق بآداب الدنيا، والانضباط بالأوامر والنواهي، واحترام القادة بل وعموم الناس، ولا يرتقي أحدُ منهم إلى رتبة إلا وقد بلغها بحق واستحقاق، ولذلك وصلت الدولة المملوكية في عصر السلطان محمد بن قلاوون (ت٧٤١هـ) إلى مرحلة عسكرية متفوقة جدًا.

وهذه التربية تتجلى في سرد الذكريات التي يُخبر بها أحد هؤلاء المماليك عندما يشب طوقه، وترتفع درجته، مثل السلطان بيبرس الجاشنكير (ت٧٠٩هـ) الذي يقول عن هذه المرحلة من عمره: «وفي هذه السنة (سنة ٦٥٩هـ) اتفق وصولى إلى الديار المصرية صحبة الطواشى مجاهد الدين قايماز الموصلى خادم الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فاشترانى منه الأمير سيف الدين قلاوون الألفى، واشترى منه مملوكاً آخر يسمى أيبك الموصلى، وكان السلطان قلاوون ساكناً بحارة البندقانيين(٢) بالقاهرة المحروسة، فرتبنى في المكتب، فلطف الله بي، وعلمني كتابه العزيز، وشرفني بدراسة القرآن الكريم، لطفاً من رب العالمين»(٣).

وكان كثيرٌ من هؤلاء المماليك يتطلعون للمناصب العليا، كانوا يصلون إليها بالفعل كما أخبر المقريزي من قبل، ولكن ذلك المنهج العسكري الذي وصفه المقريزي سرعان ما استُبدل منذ عصر المماليك البرجية بمنهج آخر يعتمد على استجلاب المماليك البالغين،

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣/ ٣٧٣.
(٢) إحدى الحارات في القاهرة المملوكية ويبدو من اسمها أنها كانت مسكن لبائعي البندق وغيره.
(٣) بدر الدين العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ص٨٢.

وقد وصف المقريزي سلبيات هذا المنهج الجديد الذي ابتدأه الناصر فرج بن برقوق (ت٨١٥هـ) بقوله: «استقرّ رأي الناصر على أن تسليم المماليك للفقيه يُتلفهم! بل يُتركون وشؤونهم، فبدّلت الأرض غير الأرض، وصالت المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم وأخسهم قدراً، وأشحهم نفساً، وأجهلهم بأمر الدنيا، وأكثرهم إعراضاً عن الدين، ما فيهم إلاّ من هو أزنى من قرد، وألص من فأرة، وأفسد من ذئب، لاجرم أن خربت أرض مصر والشام، من حيث يصب النيل إلى مجرى الفرات، بسوء إبالة الحكام، وشدَّة عبث الولاة، وسوء تصرف أولي الأمر، حتى أنه ما من شهر إلاّ ويظهر من الخلل العام ما لا يتدارك فرطه..»[1].

لكن هذا السوء في التدبير والتربية لم يكن مطردًا، أو ميسمًا عامًا فقد كان بين شد وجذب، وظهرت بعض الآثار الإيجابية في عصر السلطان برسباي (ت١٨٤١هـ) الذي أضحت قبرص في عصره ولاية مصرية، والسلطان جقمق (ت٨٥٧هـ) الذي هدأت أحوال مصر في أعوام حكمه، ثم السلطان قايتباي (ت٩٠١هـ) وهو من أطول حكام المماليك حيث استمر حكمه ٢٩ عامًا متصلة.

وقايتباي نفسه وهو مملوك صغير تجلت فيه هذه التربية التي يتشابك فيها الطموح مع الإيمان بالله ﷻ، فقد حكى عن نفسه أنه «لما جلبه سيده إلى مصر للبيع، وهو إما مراهق أو بالغ، كان معه رفيقه أحد المماليك والجلب، فتحادثا مع الجمال ليلة من الليالي في شهر رمضان فقالوا: لعل هذه الليلة ليلة القمر، والدعاء فيها مستجاب، فليدع كل واحد منا بدعاء يحبه. قال قايتباي؛ فقلت: أما أنا فأطلب سلطنة مصر من الله تعالى. فقال رفيقي: وأنا أطلب أن أكون أميراً كبيراً، والتفتنا إلى الجمال، فقلنا له: أي شيء تطلب أنت؟ فقال: أنا أطلب من الله خاتمة الخير، فصار قايتباي سلطاناً وصار صاحبه أميراً كبيراً، فكنا إذا اجتمعنا نقول: فاز الجمال من بيننا[2].

ولقد كان اللعب بالرماح من جملة مآثر عصر سلاطين المماليك في مصر والشام، وقد

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣/ ٣٧٣.

(٢) العصامي: سمط النجوم العوالي ٤/ ٥٤.

بلغت عندهم شأوًا عظيمًا، ومنزلة رفيعة؛ إذ عُدّ اللعب بالرماح استعدادًا للجهاد في سبيل الله، وشغف بها سلاطين المماليك شغفًا شديدًا وزاولوها بهمة عالية، وحثوا الناس على إتقان مهاراتها وخططها، وعينوا متخصصين في التدريب والإشراف، وتخرج السلاطين بمواكب رسمية للميادين العامة للإشراف على اللعب، ومزاولتها بأنفسهم، ومنح العطايا للمتميزين في الطعن بالرماح، ومن الجميل أن الدولة اهتمت بتربية الأولاد على تعلم الرمح، ومهاراته الحربية والعسكرية، بل إن السلطان في بعض المناسبات العامة كان يُشرف على آخر ما توصلوا إليه من مهارة وقدرة؛ وقد أورد لنا المؤرخ ابن تغري بردي وصف احتفال السلطان المؤيد شيخ بسوق المحمل[(١)] عام ٨٢٣هـ في بولاق، حيث لعبت فرقة من الجيش السلطاني هي المماليك الرماحة بين يديه، ومن الغريب والجميل أن المعلمين لعبوا أمام السلطان، وبلغ اهتمام السلطان بهذه الرياضة الحربية، أنه أمر بممارستها يوم السبت أو الثلاثاء من كل أسبوع، فيلعب معلمان هما وصبيانهما - لا غير - مخاصمة. قال ابن تغري بردي - وكان من المؤرخين الحاذقين باللعب بالرمح - عن هذه الرياضة وعادة الملوك فيها، واهتمامهم بتدريب المعلمين والصبيان عليها كنوع من أنواع التربية العسكرية: «وهذه عادة الملوك، لما تعرض المماليك بين أيديهم، لا يخاصم في كل يوم غير صبيان معلم مع صبيان معلم آخر، لكن زاد الملك المؤيد بأن لعب المعلمون أيضاً، فصار المعلم يقف يميناً وصبيانه صفًا واحدًا تحته، ويقف تجاهه معلم آخر وصبيانه تحته، فيخرج المعلم للمعلم ويتخاصمان إلى أن ينجزا أمرهما، ثم يخرج النائب للنائب الذي يقابله من ذلك المعلم، ثم يخرج كل واحد لمن هو مقابله إلى أن يستتم العرض بين الظهر والعصر أو قبل الظهر أو بعده بحسب قلة الصبيان وكثرتهم»[(٢)].

ومن أبرز الآثار التربوية العسكرية التي وجدنا آثارها في هذا العصر، وجود المؤلفات العسكرية والحربية التي تتناول كيفية وضع الخطط والإستراتيجيات العسكرية والقتالية، وأنواع التعبئة وفن القتال، والأخلاق العسكرية وغيرها.

---

(١) سوق المحمل: كسوة الكعبة الشريفة، كانت تُصنع في مصر، ويجري لها احتفال كبير يطوف القاهرة، ومن مظاهر هذا الاحتفال أنهم كانوا يظهرون قدرتهم الحربية في رمي الرماح.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١٤/ ١٠١.

ومما يلفت النظر، أنه قليلاً ما تُنولت المؤلفات العسكرية في تراثنا الإسلامي بالتحقيق والشرح والتقديم، حتى إن الناظر في كم المؤلفات العربية والشرعية واللغوية والفقهية والتاريخية، فضلاً عن الرياضية والحسابية والطبية والكيميائية والهندسية، يحسب أن حضارتنا حضارة العلوم الشرعية والعلمية وفقط، وأن النماذج التربوية في المجال الحربي والعسكري معدومة قليلة، رغم أن هناك عشرات المعارك الخالدة التي دونتها مؤلفات التاريخ والبلدان تدوينًا أمينًا، والحق أن العمل الجاد والرائع الذي بذله اللواء العراقي محمود شيت خطاب رحمه الله باهتمامه الرائع والراقي في هذا الجانب المعتم في حضارتنا ليستحق عليه منا الدعاء الكثير، وثمة عمل مهم قام بتحقيقه اللواء الركن، هذا العمل هو تحقيقه لمخطوط من العصر المملوكي بعنوان «الأدلة الرسمية في التعابي (أي التعبئة) الحربية» ومؤلفه أحد نقباء الجيش المصري وأمرائه في عصر السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون (ت٧٧٨هـ)، واسمه محمد بن محمود منكلي، وليس غرضي في هذه الفقرات القليلة أن أسرد لعظم المؤلِّف والمؤلَّف بقدر اهتمامي بالجانب التربوي الذي لم يخلُ منه هذا الكتاب الحربي الراقي.

يقول شيت خطاب عن هذا الكتاب: «استمتعتُ كثيرًا بقراءة هذا الكتاب وتحقيقه؛ لأنني استفدتُ منه شخصيًا معلومات عسكرية جديدة، لعل أهمها ما يمكن أن نطلق عليه: السجية العسكرية أو الأخلاق العسكرية؛ ولأنني اكتشفتُ أن أجدادنا الغر الميامين كانوا عُلماء من الطراز الأول في العلوم العسكرية؛ ولأن هذا الكتاب وغيره من التراث العربي الإسلامي في العسكرية قدّم الجواب الشافي عن تساؤلي: كيف انتصر أجدادنا على أعدائهم الكثيرين؟ لقد كنتُ أظنُّ أن أجدادنا انتصروا بعقيدتهم أولاً: العقيدة المنشئة البناءة التي ذاد عنها حماة قادرون، وقد تعلمتُ من هذا الكتاب وغيره من كتب التراث العسكري، أن أجدادنا كانوا عُلماء حقًا في العسكرية، فكان انتصارهم بعقيدتهم الراسخة، وقيادتهم المحنكة، وعلمهم المتين»[1].

فلماذا استمتع اللواء خطاب بهذا الكتاب، وأي سجية أخلاقية كانت تناطح

---

(١) محمود شيت خطاب: «فصل من كتاب الأدلة الرسمية في التعابي الحربية» لمحمد بن منكلي المصري، ص١٧٥، ١٧٦. مقال بمجلة المخطوطات العربية – القاهرة، ١٩٧١م.

المعلومات العسكرية الصماء في ذلك الكتاب؟

يقول ذلك الفارس المصري محمد بن منكلي القاهري في كتابه عن أهمية الأخلاق ودورها في الشاب المحارب، والجندي المسلم، وخاصة أهل المشورة الذين يشاورهم القائد فيما يستجد إليه من أمور الحرب وغيرها: «والعبدُ[١] يذكر طرفًا مختصرًا من أهل المشورة: أول ذلك أن يكون تقيًا لله ﷻ. **الثاني**: لا يستفزُّه الطمع فيُستمال[٢]. **الثالث**: أن يكون محبًا صادقًا لمن استشاره. **الرابع**: أن تكون محبته خالصة لله، صادقة، باذلاً نفسه للذي استشاره. **الخامس**: لا يذيع سرّ من استشاره، ولو جُبِر. **السادس**: لا يُحدّث نفسه بإعجاب لكونه صار ممن يُستشار، وظن لنفسه تمييزًا فهذا رجل مغرور بنفسه أحمق. **السابع**: لا يُدلُّ[٣] على من استشاره، وكُلما قرب منه ازداد احتشامًا، واعتقد فيمن استشاره المنَّة له في ذلك لاختياره له بهذه المنحة. **الثامن**: لا يذيع السر، ولو مات من استسرّه بسر، فإن أفشاه فهو عند المروءة يُعدُّ من الخائنين الخائبين. **التاسع**: أن يكون خبرة فيما يُستشار فيه جملة وتفصيلاً. **العاشر**: وهو البُغية العزيزة الغريبة التي لا تكاد توجد إلا في بعض الأعصار، وسبب ذكري لها لأنه ممكن وجودها في الأنفس المتجوهرة بنور الله ﷻ، وصاحب هذه الطريقة إذا استُشير فيما يعلمه، ربما استمع هاتفًا إما من داخل صفاء باطنه النزيه أو من خارج إحدى الجهات يرشده لوجه الصواب في المسألة، أو يرى منامًا يدلُّ على مقصوده. قال العبد الفقير محمد بن منكلي غفر الله له: هذه الخصال المذكورة، كلها اجتمع الداعي بأصحابها وصحبهم، وكلهم تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، لكن بقي التخلق بهم، وأخشى أن تكون صحبتي لهم حجة علي لقوله تعالى: ﴿**كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: ٣]، وكل من صحب قومًا ولم يتخلق بأخلاقهم الحميدة، فهو محروم»[٤].

هذا هو الواقع التربوي للشباب المجاهد في ذلك الزمن، الاهتمام بالفلسفة الحربية التي تقوم في الإسلام على الأخلاق المستقاة من كتاب الله وسنة النبي وسير الصحابة

---

(١) يقصد نفسه وهذا دلالة على تواضعه.

(٢) أي يستميله الأعداء بالمال وغيره.

(٣) أي لا يتدلل ويتبختر بمشورته ونصيحته، وهذا من الكبر المذموم.

(٤) محمود شيت خطاب: السابق ص١٧٨.

والصالحين، ولا شك أن هذا الكتاب وغيره مما لا نعلم عنه شيئًا، لا سيما من الكتب التي أُلقيت في مدارج النسيان والإهمال، تؤكد لنا أن تاريخ الحضارة الإسلامية، خاصة التربوي منها مبتور منقوص مجذوذ، وهذا الأمر يسبب لنا نحن المتلقين قصرًا في وضوح الرؤية، وظلامًا يطمس جمال التربية في الحضارة الإسلامية.

هؤلاء القواد والشباب لا سيما من تخرج من طباق المماليك[1]، كان بعضهم في سني النضوج والكبر والاكتمال يصل إلى مرتبة عليا في الدولة، وكانت آثار التربية الإسلامية والعسكرية في سني شبيبته وفتوته باديةً عليه في أعوام النضج والمسؤولية المدنية؛ فقد كان نائب السلطنة المملوكية في عصر السلطان القوي محمد بن قلاوون (ت٧٤١هـ) يُدعى سيف الدين أرغون بن عبد الله الناصري (ت٧٣١هـ) وكان من أهل العدل والخير والعلم، محبًا للفقراء، قائمًا بأحوال السلطنة؛ فقد كان بحق خير وزير ومعين لقائد المؤسسة السياسية في الدولة، قال ابن تغري بردي عن تربيته الأولى، وهي لعمري تربية عالية رفيعة لا يستحقها إلا كل عظيم: «أصله من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون، اشتراه ورباه وأدبه، وأمره بملازمة الاشتغال، فاشتغل ودأب، وسمع صحيح البخاري، وكتب بخطه صحيح البخاري، وبرع في الفقه وأصوله، وأذن له بالإفتاء والتدريس»[2].

أما عن وظائفه الرسمية، ومهارته الفائقة، وقدرته المبهرة في الإدارة والقيادة، فيقول: «رقّاه أستاذه الملك الناصر إلى أن جعله دوادارًا[3] بعد الأمير بيبرس، ثم ولاه نيابة السلطنة بديار مصر نحو ست عشرة سنة، ثم ولي نيابة حلب عوضاً عن الأمير الطُنْبُغا الصالحي، فباشر النيابة أربع سنين، وهو الذي أمر بحفر نهر الساجور[4] وإجرائه، وكان وصول النهر إلى حلب في سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، وكان يوم وصوله يوماً مشهوداً.

(١) أي الكليات الحربية المملوكية.

(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٢/ ٣٠٦

(٣) هي وظيفة كان في الأصل موضوعها تبليغ الرسائل عن السلطان، وتقديم الرسائل والبريد مع كاتب السر والمشاورة على من يحضر بالباب، ومتقلدها هو الذي يقدم للسلطان كل ما تؤخذ عليه العلامة (التوقيع) السلطانية في المراسم والظهائر والأوامر وما إلى ذلك، فهي تماثل وظيفة (كبير الأمناء)، أو كما نقول في مصر: رئيس ديوان رئيس الجمهورية.

(٤) أحد أنهر حلب القديمة، وهذا نهرًا أصله من مدينة «عين تاب» ويجري إلى قرية تُعرف بالنفاخ ويصبُّ في نهر الفرات.

وفي هذا المعنى يقول الرئيس شرف الدين أبو عبد الله الحسين بن ربان»[1]:

لما أتى نهر الساجور قلت له ... ماذا التأخر من حين إلى حين

فقال: أخرني ربي ليجعلني ... من بعض معروف سيف الدين

والحق أني لا أستطيع مبارحة ترجمة هذا الرجل الكاريزما، فهو مع تفوقه السياسي والإداري، كان متفوقًا في الجانب الثقافي والاجتماعي والعلمي والإيماني، قال ابن تغري بردي ملخصًا ذلك كله: «كان تركياً فصيحاً، مليح الشكل، محباً لأهل العلم، معظماً لهم، ويجلهم، ويتقاضى حوائجهم، ويجتمع بهم، ويذاكرهم، وكان له مشاركة جيدة في عدة علوم، وذوق حسن، وله ميل إلى فعل الخير، وفيه بر للفقراء، وبالجملة فهو أنبل مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون وأعظمهم، وكان يحكم بالشرع، وعمّر تُربة بحلب مشهورة به، ووقف عليها وقفاً جيداً، وتردد إلى مكة مرات: منها في سنة ست عشرة، وفي سنة عشرين، وفي سنة ست وعشرين وسبعمائة، وسمع بمكة أيضاً عَلَى الرضي الطبري، وابتنى بمكة مدرسته للحنفية بدار العجلة ووقف عليها وقفاً هو الآن مضاف إلى قاضي القضاة الحنفية بالقاهرة»[2].

هؤلاء هم أبناء الدولة المملوكية العظيمة، الذين كانوا يُربون منذ نعومة أظفارهم على تحمل المسئولية، وكانوا يُنتقون بعناية، ليكونوا تحت إشراف السلطان رأسًا، ثم هم مجموعة اجتماعية تربوية منخرطة في قضايا المجتمع، متشحة بلواء العلم، مستمسكة بالذوق العام والثقافة الإسلامية الهادفة، وعلى كل فقد حُق لهم ذلك التمكين والقوة التي كانوا عليها، ولا شك أن قصة النائب المملوكي سيف الدين أرغون رحمه الله تذكرني بالنظام التربوي في إنجلترا الآن على سبيل المثال، فقد حُكي لنا أن السياسيين في إنجلترا قديمًا رأوا نباهة الشاب توني بلير، وثقافته وذكاءه، فاحتووه ودعّموه وأيدوه، حتى أضحى بعد ذلك رأس السلطة السياسية في إنجلترا عن حزب العمال!

---

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ٢/ ٣٠٧.

(٢) السابق ٢/ ٣٠٨.



آثار التربية المملوكية

لقد تجلت آثار التربية المملوكية في كل طالب علم، وكل إنسان رُبي تربية سديدة في بيته وعلى شيوخه، وثمة مظاهر تتكشف لنا يجب أن نجليها ولو كانت غير متناسقة أو مترابطة، لكني رأيتها من آثار تربية العصر وأحد ثمراته الجلية، ثم هي طريفة في مجملها. وأبرز آثار تربية هذا العصر يمكن أن نجليها من خلال المواقف الأربعة التالية:

يُترجم لأبيه في كتابه!

كتاب «وفيات الأعيان» من جملة المؤلفات العظيمة التي تناولت ترجمة المئات ممن سبقوا المؤلف أحمد بن محمد بن خلكان (ت٦٨١هـ)، ومن حسن الأدب والتربية الجيدة، أن ولد المؤلف رأى أنه من الإفادة أن يُترجم لوالده ويتحدث عنه في كتابه بعد موته، بل والتزم بمنهج والده في الترجمة فلم يُطل، هذا الولد هو موسى بن أحمد الذي قال: «هذه نبذة فيها خلاصة أحواله المتأخرة مع المبالغة في الاختصار والإيجاز، ولم أذكرُ منها هذه اللمعة إلا لاحتمال من يتفق وقوفه على هذه التعليقة، ويتشوف للوقوف على شيء من أحواله، لكونه تأسياً لما في هذا الكتاب من ذكر التواريخ»[1]، وقد كان هذا الولد أحد علماء عصره، فقد كان مدرسًا بالمدرسة النجيبية بدمشق، والتي دفن فيها والده رحمه الله[2].

احتفال السلطنة المملوكية باكتمال كتاب!

ليس أدل على اهتمام الدولة المملوكية، لاسيما المؤسسة السياسية فيها بالعلم والعلماء من ذلك الاحتفال المهيب الذي أُقيم على شرف قاضي القضاة ابن حجر العسقلاني رحمه الله (ت٨٥٢هـ) عندما أتم كتابه الموسوعي العظيم «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، فالمقريزي يروي لنا قصة هذا الاحتفال أو بالأحرى المهرجان الذي حضره كبار رجال الدولة من أجل «كتاب»، والذي فُرقت فيها الأموال الجزيلة، بل أقام العامة سوقًا على شرف هذا المهرجان الذي أقيم وقتئذٍ، قال المقريزي: «وفي يوم السبت ثامنه (أي ٨ شعبان

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ١٠.
(٢) السابق ٤/ ١٠.

سنة ٨٤٢هـ) جمع الحافظ قاضي القضاة شهاب الدين شيخ الإسلام أبو الفضل أحمد بن حجر، أعيان الدولة، وفيهم المقام الناصري محمد ولد السلطان وغيره من الأمراء، وكاتب السر، وناظر الجيش، والوزير، والقضاة، وشيوخ العلم في عامة طلبة العلم وغيرهم، فاجتمعوا بأعلا الخمس الوجوه[1] من أرض التاج خارج القاهرة. وكان الوقت شتاء والأرض مخضرة بأنواع الزراعات، والخيول على مرابط ربيعها، وقدم لهم من أنواع الحلاوات، وألوان الأطعمة الفاخرة ما يجل وصفه ويكثر مقداره، وقد أكمل تصنيف كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري في عشرين مجلدة، ثم قُرئ من آخره مجلس خفيف، وقام بعده ختمة الشعراء، فقرأ عدة منهم قصائد في مدحه، هذا وقد اجتمع بهذه المنظرة وحولها من أسفلها عالم كبير من الرُّحَّال وغيرهم، ونصبت هناك سوق، وضربت خيام عديدة، فكان من الأيام المذكورة التي لم نعهد في معناه مثله، أنفق فيه مال جزيل على ما تقدم من المال، وما أجيز به الشعراء في هذا اليوم. وفي يوم آخر بعده: اجتمعوا فيه بخانكاة بيبرس من القاهرة، قام فيه شعراء أخر بمدائحهم، فأجيزوا بجوائز سنية عديدة، وفرق أيضًا مال جم في جماعة كثيرة، كتبوا هذا الشرح، والحافظ المشار إليه يمليه عليهم بهذه الخانكاة، حتى أكملوا نسخه في أعوام، فكان هذا من المآثر السنية، والفضائل الجليلة التي زادت في رفعته»[2].

وهذا الموقف الرائع الذي ذكره المقريزي يدلل تطبيقيًا على نظرة المجتمع للعلماء واحتفائهم بهم، لا سيما من وصلوا لمنزلة من العلم مثل العلامة ابن حجر رحمه الله!

الجمهور يطلب من العالم تأليف كتاب!

تجلت آثار التربية المملوكية في هذا العصر، بما يمكن أن نسميه بالوعي الثقافي للمجتمع؛ والعلاقة التفاعلية بين القارئ والمؤلف، فكثيرًا ما رأينا هذا الجمهور يطلب من الكاتب أن يفرد مؤلَّفًا خاصًا يناقش فيه حل مشكلة ما، وهذا الأمر يبرز بوضوح النضج التربوي والتأديبي في هذا العصر، وثمة أمثلة كثيرة منها:

---

(١) إحدى الحدائق والمتنزهات العامة لأهل القاهرة حينئذٍ.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ٧/ ٣٩٦.



• **الصفدي يُطلب منه تأليف كتاب عن العميان:** يقول بعد مراجعته للفصول التي كتبها كل من ابن قتيبة (ت٢٦٧هـ) في كتابه «المعارف»، وابن الجوزي (ت٥٩٧هـ) في «تلقيح فهوم أهل الأثر»، وأحمد بن علي بن بانة في «رأس مال النديم» عن العميان وأحوالهم، بأنها لم تشف غلته، ولم تقنعه، ثم يقول: « وجرى يوماً في بعض اجتماعاتي بجماعة من الأفاضل ذكر فصل استطردت بذكره في شرح لامية العجم. ذكرت فيه جماعة من أشراف العميان، قال لي بعض من كان حاضراً: لو أفردت للعميان تصنيفاً تخصّهم فيه بالذكر، لكان ذلك حسناً. فحداني ذلك الكلام، وهزّت عطفي نشوة هذه المدام، على إن عزمت على جمع هذه الأوراق، في ذكر من أمكن ذكره أو وقع إليّ خبره وسميته: نكث الهميان في نكت العميان وقد رتبته على مقدمات ونتيجة»[1].

• **التاج السبكي: يُطلبُ منه تأليف كتاب عن كيفية رد النعم التي سُلبت من العبد:** قال رحمه الله: «ورد عليّ سؤال مضمونه: هل من طريق لمن سُلب نعمة دينية أو دنيوية، إذا سلكها عادت إليه، ورُدّت عليه؟ فكان الجواب: طريقهُ أن يعرف من أين أتى فيتوب منه، ويعترف بما في المحنة بذلك من الفوائد فيرضى بها، ثم يتضرع إلى الله تعالى بالطريق التي نذكرها. هذه ثلاثة أمور هي طريقه التي يحصل بمجموعها دواء مرضه ويعقبها زوال علّته، بعضها مرتب على بعض لا يتقدم ثالثها على ثانيها، ولا ثانيها على أولها. فعاد إليّ السائل قائلاً: اشرح لنا هذه الأمور شرحًا مبينًا مختصرًا، وصِف لنا هذا الدواء وصفًا واضحًا لنستعمله. قلتُ: هذا سرٌّ غريب، جمهور الخلق لا يحيطون بعلمه، ونبأ عظيم أكثر الناس معرضون عن فهمه؛ لاستيلاء الغفلة على القلوب، ولغلبة الجهل بما يجب للرب على المربوب، وأنا أبحثُ عن هذه الأمور في هذا المجموع الذي سميته معيد النعم ومبيد النقم...»[2].

• ابن تيمية رحمه الله **يؤلف كتابه «منهاج السنة النبوية» ليرد فيه أباطيل كتاب من الرافضة، وكان حافزه على ذلك إلحاح الناس وطلبهم لذلك، قال رحمه الله:** « فإنه قد أحضر إلى طائفة من أهل السنة والجماعة كتابا صنفه بعض شيوخ الرافضة في عصرنا منفقا لهذه البضاعة يدعو به إلى مذهب الرافضة الإمامية من أمكنه دعوته من ولاة الأمور

---

(١) الصفدي: نكث الهميان في نكت العميان، المقدمة.

(٢) ابن السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ص١، ٢.

وغيرهم أهل الجاهلية ممن قلت معرفتهم بالعلم والدين ولم يعرفوا أصل دين المسلمين وأعانه على ذلك من عادتهم إعانة الرافضة من المتظاهرين بالإسلام من أصناف الباطنية الملحدين الذين هم في الباطن من الصابئة الفلاسفة الخارجين عن حقيقة متابعة المرسلين... فلما ألحوا في طلب الرد لهذا الضلال المبين ذاكرين أن في الإعراض عن ذلك خذلانا للمؤمنين وظن أهل الطغيان نوعا من العجز عن رد هذا البهتان فكتبت ما يسره الله من البيان وفاء بما أخذه الله من الميثاق على أهل العلم والإيمان وقياما بالقسط وشهادة لله كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]..»[(١)].

- **ابن القيم يُسأل عن الحكم بالفراسة، فيجيب بكتاب رائع**: جاء فيه: « أما بعد فقد سألني أخي عن الحاكم أو الوالي يحكم بالفراسة والقرائن التي يظهر له فيها الحق والاستدلال بالأمارات ولا يقف مع مجرد ظواهر البينات والإقرار حتى إنه ربما يتهدد أحد الخصمين إذا ظهر منه أنه مبطل وربما ضربه وربما سأله عن أشياء تدله على صورة الحال، فهذه صواب أم خطأ؟»[(٢)] ثم يُجيب ابن القيم على هذا السؤال بصواب تفاصيله، ويبدأ في عرض كتابه «الطرق الحكمية في السياسية الشرعية».

هذه هي الحضارة المملوكية، ولا أدعي أنني أحطت ولو بجزء بسيط منها، غير أنه يمكن القول إن التربية لاقت في هذا العصر اهتمام العلماء والفقهاء وأبناء الحضارة الإسلامية، وكي نكون منصفين أو موضوعيين يجب أن نعترف أنه شابت في كثير من أوقات هذا العصر كثير من السلبيات في طريقة تعامل الطبقة المملوكية مع المجتمع بكافة أطيافه، وقد أثر ذلك بالسلب على الواقع الاجتماعي والاقتصادي على وجه الخصوص، لكن على الجانب الفكري والعلمي كان لأهل العلم دورهم العظيم في دفع مسيرة التربية في ذلك الزمن، وهذا ما مر بنا من قبل.

* * *

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ١/ ١ – ٥.
(٢) ابن القيم: الطرق الحكمية ص٣.

الفصل الخامس

سحر التربية
في المغرب والأندلس

كان فتح مصر في أواخر عام ٢٠ من الهجرة البداية الحقيقية للاتجاه صوب الغرب الإفريقي، ولقد نظر المسلمون الفاتحون إلى الأرض كلها على أنها رسالتهم وهدفهم وغايتهم، رسالتهم في نشر الإسلام، وهدفهم رفع الظلم عن الشعوب المقهورة المستضعفة، وغايتهم استنهاض همم الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

وانطلق المسلمون من مصر، بعدما أضحت القاعدة الحيوية لهم في فتح تلك البلاد، وطوال الثمانين عامًا اللاحقة صبر المسلمون على الحروب والمكائد والدسائس لنشر راية التوحيد، حتى أصبحت بلاد المغرب: الأدنى والأوسط والأقصى، وبلاد الأندلس كلها ترفع راية الإسلام عالية خفاقة.

وتاريخ المغرب والأندلس هو جزء أصيل من تاريخ الحركة الإسلامية وتفاعلاتها في تلكم الأنحاء، تفاعلية أنتجت إبداعًا في كافة المناحي الحياتية، وكان للعقلية المغربية والأندلسية بصمتها وأثرها الأخاذ البديع على مسيرة الحضارة الإسلامية عامة.

وليس حسبي في هذا الكتاب كما ذكرتُ من قبل أن يكون استقصائيًا متتبعًا لأطوار التربية المغربية والأندلسية؛ فهو كتاب يجول في رحلة في تاريخ التربية الإسلامية عمومًا، وبحسب الراحل أن ينتقي من هاتين الحضارتين ما يتنفّس من خلاله رحيق التربية فيهما، وجمال التأديب في دوحتيهما؛ وهي تربية تُكمل وتجمل اللوحة العامة للتربية الإسلامية!

مناهج وآداب التربية

تفاعل المغاربة والأندلسيون في المجال التربوي والتعليمي، والحق أن الحياة العامة والخاصة أفرزت لنا نماذج بديعة في التأصيل التربوي، ولما كان الفقهاء والمحدّثون هم الطبقة العليا في كثير من ربوع العالم الإسلامي والحضارة الإسلامية، فقد تناول هؤلاء العلماء الآليات والوسائل الناجعة والشرعية في التعامل مع أبناء وبنات الأمة.

وكانت هذه الضوابط في مجملها اجتهادات مستنبطة من المنهج الإسلامي في التربية،

ونقصد ما جاء به القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ، وسوف نرى بعد قليل الروعة والجمال والذوق الرفيع في التناول التأليفي والمنهجي لمبادئ وأساسيات التربية: سواء كان هذا التناول فكريًا مقاصديًا أم أليًا حركيًا وسائليًا.

طلائع المربين المغاربة

فمن أوائل من كتبوا رسائل ومؤلفات خاصة تتعلق بالتربية والتثقيف في المغرب العلامة المالكي التونسي ابن سحنون محمد بن عبد السلام بن سعيد (ولد سنة ٢٠٣ هـ وتوفي سنة ٢٥٦هـ)، وكتابه بعنوان «آداب المعلمين» عكف على تحقيقه وإخراجه مجموعة من الأساتذة منهم الدكتور محمد عبد المولى، ومن أجود هذه التحقيقات ما قام به العلامة التونسي حسن حسني عبد الوهاب رحمه الله، فكانت مقدمته في غاية الظرف، والدقة كعادته رحمه الله.

وجاء هذا الكتاب أو الرسالة كمجموعة من النصائح العامة، وطرائق التعليم والتربية من خلال فصول مثل: ما جاء في تعليم القرآن العزيز، ما جاء في العدل بين الصبيان، باب ما يكره محوه من ذكر الله، ما جاء في الأدب وما يجوز في ذلك وما لا يجوز، ما جاء في الختم وما يجب في ذلك للمعلم، ما يجب للمعلم من لزوم الصبيان، ما جاء في إجازة المعلم ومتى تجب، ما جاء في إجازة المصحف وكتب الفقه..

وممن ألفوا في كتابة المناهج التربوية في المغرب الإسلامي أحد أعلامها في القرن الرابع الهجري أبو الحسن علي بن محمد بن خلف القابسي القيرواني (ولد ٣٢٤هـ - توفي ٤٠٣هـ)، وقد أخرج كتابه «الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين» الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهواني في كتابه «التربية في الإسلام» وهو كتاب يشرح ويفصل رسالة القابسي الآنفة، ولا أعلم لما لم يجعل الدكتور الأهواني عنوان هذا الكتاب «وقفات مع رسالة القابسي» على سبيل المثال؛ ذلك أن الكتاب يتناول هذه الرسالة من أولها لآخرها بالشرح والنقد والتفصيل وبيان الأهمية وكذا التفضيل، وهو بلا شك كتاب قيم من أستاذ ذي دُربة ودراية.

يقول الدكتور الأهواني عن كتاب القابسي وبيان أهميته: «عنوان كتاب القابسي

يُرشدنا إلى الاتجاه الذي سلكه في معالجة مشكلة تعليم الصبيان، فهي الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين، وأحكام المعلمين والمتعلمين، والأحوال والأحكام كلاهما مستمد من الواقع لا من المثال؛ فقد ينصرف الذهن إلى أن هذه الصورة المذكورة عن الصبيان وما يتلقون من مواد مختلفة، وعن طريقة تعليمهم وتأديبهم وسلوكهم، وعن صلة المعلم بهم، ليست منتزعة من الواقع، بل هي المثل الأعلى الذي ينشده القابسي في التعليم. وليس غريبًا أن يسلك بعض المفكرين والفلاسفة طريقة مثالية في كتابتهم عن التربية؛ في الزمن القديم كتب أفلاطون عن التربية في الجمهورية، وفي العصر الحديث أخرج روسو كتاب «أميل» في تربية الطفل، وكلاهما مثالي لم يصف حقيقة الحال، ولم يأخذ الناس بجميع آرائهما بعدهما، وكثيرًا ما يخرج المفكرون في مُثُلهم عن حدود القوانين الطبيعية والاجتماعية، مما يجعل تطبيق نظرياتهم العقلية ضربًا من المستحيل، فقد أراد روسو أن يعود بالإنسان إلى نوع من المعيشة البدائية الفطرية لا يستقيم مع حال الحضارة، ولا يتفق مع طبيعة العمران، ولم يكن القابسي مثاليًا من طراز هؤلاء المربين، وإنما كان يصف الواقع لا ما ينبغي أن يكون، ثم هو لا يتعدى في أحكامه القوانين الاجتماعية»[1].

إذن الكتاب واقعي يلمس الحال والحكم، أي الواقع وطريقة تكييفه والتعاطي معه بما يخدم حال التربية الإسلامية في وقته، بل وفي وقتنا إن أحسنا الاستفادة منه.

والحق إن مرحلة التأليف المتخصص في مجال التربية كانت محل اهتمام جل الفقهاء، ولم يكن يشغلهم الاهتمام بكبريات القضايا في عصرهم عن هذه المسألة المهمة التي قد يستصغرها البعض ؛ لكنهم رأوها إحدى المسائل الملحة التي تُكوّن الضمير والوعي العام للمجتمع الإسلامي.

وإن لنا في ابن التبان المالكي التونسي (ت٣٧٤هـ) الذي عاصر القابسي الآنف الذكر أبرز الدليل وأبينه؛ فلقد «كان من العلماء الراسخين، والفقهاء المبرزين. ضُربت له أكباد الإبل من الأمصار، لعلمه بالذب عن مذهب أهل الحجاز ومصر، ومذهب مالك، وكان من أحفظ الناس بالقرآن والتفنن في علومه، والكلام على أصول التوحيد، مع فصاحة

(١) عبد العزيز الأهواني: التربية في الإسلام ص٦٦.

اللسان، وكان عالماً بالفقه والنحو والحساب والنجوم»[١].

لقد كان لرأي ابن التبان في مسألة تعليم وتربية الأطفال سابق تجربة، وكان لرأيه – على سبيل المثال – في مسألة اختيار المؤدبين أثرٌ من ماضيه في مجال التربية والتأديب، وهو بهذا ينحو منحى القابسي في واقعية العلم، وقبل ذكر رأيه في مسألة اختيار المؤدبين علينا أن نعايش تجربته الشخصية التي تُبين لنا مثابرته في التحصيل والتأديب، ثم الاجتهاد والتأليف، قال رحمه الله: «كنتُ أول ابتدائي أدرسُ الليل كله، فكانت أمي تنهاني عن القراءة بالليل، فكنتُ آخذ المصباح فأجعله تحت الجفنة، وأتعمد النوم، فإذا رقَدَتْ أخرجتُ المصباح وأقبلتُ على الدرس إلى أن قال لي أبي ذات يوم: يا بني ما يكونُ منك؟ لا تعرف صنعةً، واشتغلت بالعلم ولا شيء عندك. فلما كان ذات ليلة سمعته يقول لوالدتي: عرفت أني عُرّفت اليوم بابني؟ وذلك أني حضرت إملاكاً[٢] في مسجد – سماه – فوجدته ممتلئاً بالناس، ولم أجد مجلساً، فقام لي رجل من موضعه وأجلسني فيه، فسأله إنسان عني، فقال له اسكت هذا والد الشيخ أبي محمد. وقال آخر: خرج والدي محمد بن التبان يوماً من مسجد المسند، فزلق في طين، فبادر رجل وأخذ بيده، وقال لصاحبه: هذا والد الشيخ أبي محمد الفقيه. قال: فرجع وحرّض ابنه على طلب العلم، والتزم القيام بشأنه من يومئذ»[٣].

هذا التأديب وهذه التنشئة التي اهتم بها والده لما رأى من إقبال الناس عليه وهو شاب صغير السن وُسِم بالفقه والعلم، جعلته يحرّص الناس على ضرورة اختيار الأصلح والأفضل من المربين لأبنائهم؛ فقد أُثر عنه قوله: «لا تعلموا أولادكم إلا عند رجل حسن الدين، فدينُ الصبي على دين معلمه، فلقد عرفتُ معلماً كان يخفي القول بخلق القرآن[٤]، ففطن له، فلما علم أنه يطرد، وقف بين يدي مكتبه وقال لصبيانه: ما تقولون في القرآن؟ قالوا لا علم لنا. فقال: هو مخلوق، ولا تُزالون عن هذا القول لو قُتلتم. فماتوا كلهم على

(١) عياض اليحصبي: ترتيب المدارك وتقريب المسالك ٦/ ٢٤٨.
(٢) عقد زواج.
(٣) عياض اليحصبي: ترتيب المدارك وتقريب المسالك ٦/ ٢٤٩.
(٤) وهي المسألة التي نقضها الإمام أحمد بن حنبل وأوذي بسببها.

هذا الاعتقاد. قال: وبلغنا عن معلم عفيف، رُئي وهو يدعو حول الكعبة ويقول: اللهم أيما غلام علمته، فاجعله في عبادك الصالحين، فبلغني أنه خرج على يديه نحواً من تسعين عالم وصالح. وكان يتعلّم عنده جماعة من أولاد الكتاميين[١]، ولا يأخذ منهم شيئاً، ولا يعلمهم يكتبون، يقول: لم يصلحوا بعد لذلك، حتى يصلح. فخرج كل كتامي علمه على الكتاب والسنّة. وكان يعلّم اليتامى والفقراء لله عزّ وجلّ، وكان صبيان الكتاب يأتونه، بدجاج وفراخ وطير بلغ، يعطونه إياه، ويقولون صدناه، لم يقبله منهم. فإذا قالوا له وجهه إليك آباؤنا قَبِلَه؛ لأن عطيّتهم لا تجوز»[٢].

وهو بهذين النموذجين يؤكد على واقعية التربية عمومًا؛ لأنها من العلوم والأساليب التي ينظر إلى الثمرة المرجوة منها في أبناء المجتمع، كما ضرب مثلاً بالمعلم الصالح الذي خرج من تحت يديه تسعين عالمًا.

وحتى في العصور المتأخرة سار المغاربة على الدرب ذاته في الاستقصاء والتحري على المعلم الجيد الذي يُرجى من ورائه الخير للأولاد، وقد ربط ابن الحاج العبدري محمد بن محمد (ت٧٣٧هـ) في كتابه الرائع «المدخل»[٣] الصلة بين جودة المربي وجودة الصبي الذي يتخرج على يديه، قائلاً: «وينبغي لآباء الصبيان أن يتخيروا لأولادهم أفضل ما يمكنهم في وقتهم ذلك من المؤدبين، وإن كان موضعًا بعيدًا فيختارون لهم أولاً أهل الدين والتقوى، فإن كان مع ذلك عنده علم من العربية فهو أحسن، فإن زاد على ذلك بالفقه فهو أولى، فإن زاد عليه بكبر السن فهو أجلّ، فإن زاد عليه بورع وزهد فهو أوجب، إلى غير ذلك إذ إنه كيفما زادت الخصال المحمودة في المؤدب زاد الصبي به تجملاً ورفعة»[٤].

وبلغ حرص علماء المغرب في تأديب وتربية الأطفال أشكالاً متنوعة تُدلل على وعي وحصافة وبعد نظر، كما هو الحال في الدول العظمى اليوم، التي تقدر الطفل والمدرس معًا، حتى إن مرتب مدرس الابتدائي في أمريكا قد يصل إلى ٣٠ ألف دولار سنويًا ومثله

(١) إحدى قبائل البربر الشهيرة في المغرب.

(٢) عياض اليحصبي: ترتيب المدارك وتقريب المسالك ٦/ ٢٤٦.

(٣) قال العلامة ابن حجر عن هذا الكتاب: «كثير الفوائد، كشف فيه عن معايب وبدع يفعلها الناس ويتساهلون فيها، وأكثرها مما ينكر، وبعضها مما يحتمل». ابن حجر: الدرر الكامنة ٢/ ٩٩.

(٤) ابن الحاج العبدري: المدخل ٢/ ٣٢٤.

في إنجلترا وكذا الصين واليابان وألمانيا، كل ذلك لوعيهم ويقينهم بأهمية الأطفال وتربيتهم الجادة.

فأمارات هذا الحرص تتجلي في ضرورة تهيئة الظروف والأمكنة المناسبة والفسيحة؛ فقد «قال بعض فقهاء المالكية عن المعلم وآدابه: لا ينبغي أن يتشاغل عن تعليمهم بشيء وإن نزلت به ضرورةٌ استناب مثله فيما قرب. وسُئل الإمام سحنون التنوخي (ت٢٤٠هـ) عن شركة[1] المعلِّمين جائزةٌ إن كانوا بمكانٍ واحدٍ، وإن كان بعضهم أجود تعليمًا من بعضٍ لأنَّ فيه رفقًا يمرض أحدهم فيقوم الصَّحيح مقامه، وإن كان بعضهم عربيَّ القراءة والآخر ليس كذلك لكنَّه لا يلحن فلا بأس بذلك قاله، الإمام مالكٌ رضي الله تعالى عنه وابن القاسم رحمه الله تعالى»[2].

وأول ما يُهتم به في هذه المكاتب حفظ القرآن الكريم؛ وقد كان المادة الأساسية التي لا يجب أن يتعداها الصبي إلى غيرها مهما كانت الظروف، وقد وجدنا هذا من قبل في زمن الخلافة الأموية حينما ردَّ الإمام الأوزاعي غلامًا عن حلقة علمه ومجلسه، ونصحه بضرورة الرجوع لمرحلة الكتاب ليتمكن من حفظ القرآن كاملاً.

وهنا في المغرب لا يختلف الأمر؛ فالقرآن هو أصل التربية والتأديب، بل وهو الأصل في الجواز إلى المراحل اللاحقة، قال القابسيُ في أحد أبواب رسالته وهو بعنوان «ذكر ما أراد أن يبين له فيما يأخذه المعلمون على المتعلمين»: «قدمتُ فوق هذا الباب ما جاء لمن علم القرآن، وبينتُ ما يؤكد تعليمه، والحرص عليه، ويحذر مما يشغل عنه لئلا ينساه من حفظَ بما فيه الكفاية وفي قول الله ﷻ لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] ما يُلزم القيام بتعلم القرآن حتى يقوم له من يبلغه إلى يوم القيامة، وكذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، وهو ميسر للذكر إلى يوم القيامة، وما اختلف المسلمون أن القرآن هو حجة الله على عباده إلى يوم القيامة، وأن على المسلمين القيام به،

---

(١) الشراكة في المكان الواحد.

(٢) محمد بن أحمد عليش: منح الجليل شرح مختصر خليل ٧/ ٤٨٣.

والدعوةَ إليه إلى يوم القيامة»[١].

وكان من قبله العلامة ابن سحنون (ت٢٥٦هـ)، قد أفرد في كتابه «آداب المعلمين» فصلاً بعنوان «ما جاء في تعليم القرآن العزيز» وهو مجموعة من الأحاديث النبوية وأقوال بعض الصحابة التي تُبين فضل تعلم القرآن وتعليمه[٢].

ومن الطريف في ثنايا هذا الكتاب أن نجد الإمام ابن سحنون يفرد الحديث عن «ما جاء في القضاء بعطية العيد» أي إعطاء هدية العيد للمعلم، سُئل: «عطيةُ العيد يُقضى بها؟ قال: لا، ولا أعرف ما هي إلا أن يتطوعوا بها. قال: ولا يحل للمعلم أن يكلف الصبيان فوق أجرته شيئًا من هدية وغير ذلك، ولا يسألهم في ذلك، فإن أهدوا إليه على ذلك، فهو حرام إلا أن يهدوا من غير مسألة، إلا أن تكون المسألة منه على وجه المعروف، فإن لم يفعلوا فلا يضربهم في ذلك، وأما إن كان يُهددهم في ذلك، فلا يحل له، أو يخليهم إذا أهدوا له، فلا يحل له ذلك؛ لأن التخلية داعية إلى الهدية وهو مكروه»[٣].

وهذه الفتوى التي يحرم ويجرم فيها ابن سحنون ما يفعله بعض معلمي عصره من إجبار الأطفال على إحضار هدية لهم في الأعياد، تسري بلا شك على حال التربية والتعليم في وقتنا الراهن، من حيث إجبار الأطفال على أخذ دروس خاصة عند المدرسين؛ بغية نجاحهم والخوف من رسوبهم في مراحل تعليمهم، وهو أمر مكروه حذّر منه العلامة التونسي ابن سحنون في القرن الثالث الهجري أي منذ ألف ومائة عام تقريبًا!!

ويبدو من كتاب «آداب المعلمين» أن وظيفة المعلم في عصر الإمام سحنون أنه كان مأمورًا بتعليم الأطفال الصلاة والوضوء والدعاء بجوار تعليمهم للقرآن والخط وبعض أحاديث النبي ﷺ؛ فنراه رحمه الله قائلاً: «ويلزمه أن يعلمهم الوضوء والصلاة لأن ذلك دينهم، وعدد ركوعها وسجودها والقراءة فيها والتكبير، وكيف الجلوس والإحرام والسلام، وما يلزمهم في الصلاة والتشهُّد والقنوت في الصبح، فإنه من سنة الصلاة ومن واجب حقها الذي لم يزل رسول الله ﷺ عليها، حتى قبضه الله... وليتعاهدهم بتعليم

---

(١) رسالة القابسي ص٢٩٤ عن التربية في الإسلام.
(٢) ابن سحنون: آداب المعلمين ص٣٥٤.
(٣) السابق ص٣٥٨ عن التربية في الإسلام.

الدعاء ليرغبوا إلى الله، ويُعرّفهم عظمته وجلالته ليكبروا على الله.. وينبغي أن يعلمهم سنن الصلاة مثل ركعتي الفجر والوتر وصلاة العيدين والاستسقاء والخسوف، حتى يعلمهم دينهم الذي تعبد الله به، وسنة نبيهم ﷺ»(١).

ونرى سحنون رحمه الله يأمر بما كان سائدًا في المشرق من مشاركة الأطفال في المحافل والأمور العامة، ومنها المشاركة في دعاء الاستسقاء عند الإجداب وإمساك السماء عن المطر، قال: «وإذا أجدب الناس واستسقى بهم الإمام فأحب المعلم أن يخرج بهم من يعرف الصلاة منهم، وليبتهلوا إلى الله بالدعاء، ويرغبوا إليه، فإنه بلغني أن قوم يونس صلى الله على نبينا وعليه، لما عاينوا العذاب خرجوا بصبيانهم فتضرعوا إلى الله بهم»(٢).

ويتضح من وصايا سحنون وابنه السابقة أن المعلم والمؤدب كان ألصق بالأطفال منه في وقتنا هذا، فقد كان معلمًا ومربيًا، يعلمهم المناهج التعليمية المتوفرة في عصرهم ثم يتعاهدها بالتطبيق والتنفيذ، بل ويُشركهم في الأحداث العامة في مجتمعهم.

جولة مع ابن الحاج في «مدخله»

في كتابه «المدخل» سلك ابن الحاج محمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي (ت ٧٣٧هـ) منهجاً جديداً في التأليف الفقهي، حيث لم يكتف بتكرار الأحكام الفقهية النظرية وإنما عمد إلى رصد المخالفات السلوكية في عصره ثم قام بالتعليق عليها والحكم عليها من وجهة نظره الفقهية، وبذلك فإن ابن الحاج قد أدى خدمة جليلة للمهتمين بالتاريخ والحضارة حين عرض في ثنايا كتابه للأحوال الاجتماعية والاقتصادية التي لم يهتم بها الكثير من المؤرخين، كما أنه أدى خدمة أخرى في البحث الفقهي حين جعله مشتبكاً مع الواقع الاجتماعي بالتعليق والنقد والاحتجاج والفتوى. وفي هذا الكتاب تعرض ابن الحاج بشيء من التفصيل والمعالجة لأحوال التربية والتعليم والتأديب في عصره، يمكن أن ننتقي بعض الأمثلة منها لنعرف العمق والمقدرة التأليفية التربوية التي توصل لها المسلمون وقتئذٍ، منها:

---

(١) ملحق آداب المعلمين نقلاً عن التربية في الإسلام ص٣٦٢.

(٢) السابق.

الحرص على شعور الطالب الفقير، وما يجب أن يتحلى به المعلمون، وأماكن اختيار المدارس وغيرها، قال رحمه الله: «ينبغي له بل يتعين عليه أن لا يترك أحدًا من الصبيان يأتي إلى الكتاب بغذائه ولا بفضة معه ولا فلوس ليشتري شيئا في المكتب لأن من هذا الباب تتلف أحوالهم وينكسر خاطر الصغير الفقير منهم والضعيف لما يرى من جدة غيره فيدخل بذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: «**من ضار بمسلم أضر الله تعالى به**»؛ لأن ولد الفقير يرجع إلى بيته منكسرًا خاطره متشوشًا في نفسه غير راض بنفقة والديه عليه لما يرى من نفقة من له اتساع في الدنيا، ويترتب على ذلك من المفاسد جملة قل أن تنحصر، وفيما أشرنا إليه كفاية وينبغي له أن لا يدع أحدا من البياعين يقف على المكتب ليبيع للصبيان إذ فيه من المفاسد ما أشرنا إليه إن اشتري منه، وينبغي للمؤدب أن لا يكثر الكلام مع من مر عليه من إخوانه إذ ما هو فيه آكد عليه من الحديث معه لأنه مشتغل بأكبر الطاعات لله تعالى اللهم إلا أن يتعين عليه فرض أو أمر هو أهم في الوقت مما هو فيه فنعم، وكثير من المؤدبين تجدهم بضد هذا الحال يتحدثون كثيرا مع الناس من غير ضرورة شرعية والصبيان يبطلون ما هم فيه ويلهون عنه ويلعبون، فليحذر من هذا أن يقع منه، وينبغي له أن يكون موضع الكتاب بالسوق إن أمكن ذلك فإن تعذر ذلك فعلى شوارع المسلمين أو في الدكاكين، ويكره أن يكون بموضع ليس بمسلوك للناس فإن الصبيان يسرع إليهم القيل والقال»[1].

كما تناول ابن الحاج قضية الرفق بالأطفال قائلاً: «ينبغي له (أي المعلم) أن يأخذ معهم بالرفق مهما أمكنه؛ إذ إنه لا يجب ضربهم في هذا السن المتقدم، فإذا كان الصبي في سن من يضرب على ترك الصلاة واضطر إلى ضربه ضَرَبَه ضربًا غير مبرح، ولا يزيد على ثلاثة أسواط شيئًا، بذلك مضت عادة السلف رضي الله عنهم، فإن اضطر إلى زيادة على ذلك فله فيما بين الثلاثة إلى العشرة سعة، لكن لا بد أن تكون الآلة التي يضرب بها دون (أقل) الآلة الشرعية التي تقام بها الحدود، وهي ما ذكره مالك رحمه الله تعالى في موطئه عن زيد بن أسلم أن رجلاً اعترف على نفسه بالزنا على عهد رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ بسوط فأتي بسوط مكسور، فقال فوق هذا فأتي بسوط جديد لم تقطع ثمرته فقال:

(١) ابن الحاج العبدري: المدخل ٢/ ٣١٣.

دون هذا. فأتي بسوط قد ركب به ولان، فأمر به رسول الله ﷺ فجلد، ولا يكون الأدب بأكثر من العشرة، وهو ضامن لما يطرأ على الصبي إن زاد على ذلك، وليحذر الحذر الكلي من فعل بعض المؤدبين في هذا الزمان، وهو أنهم يتعاطون آلة اتخذوها لضرب الصبيان مثل عصا اللوز اليابس والجريد المشرّح والأسواط النوبية والفلقة وما أشبه ذلك مما أحدثوه وهو كثير، ولا يليق هذا بمن يُنسب إلى حمل الكتاب العزيز؛ إذ إن كما ورد في الحديث من حفظ القرآن فكأنما أدرجت النبوة بين كتفيه غير أنه لا يوحى إليه»[1].

وبجوار الرفق المادي من حيث عدم تعدي المعلم على تلاميذه بالضرب المبرح، نبّه ابن الحاج بالرفق اللفظي، وعدم سبّ الأطفال؛ لأن ذلك يؤذيهم، قال رحمه الله: «ويتعين عليه أن لا يشتم من استحق الأدب من الصبيان، وكثيرًا ما يفعل بعض المؤدبين هذا، وهو حرام؛ وذلك أنه إذا حصل للمؤدّب غيظٌ ما على الصبي شتَمَهُ، وتعدى بذلك إلى والديه، وربما حصل لبعضهم في ذلك الوقت قذفٌ يجب عليه فيه الحدِّ، سيما من كان منهم في خُلُقه حدة أو فيه غلظة وفظاظة، فيتعين عليه إذا أدركه شيءٌ مما ذكر أن لا يؤدب الصبي في وقته ذلك بل يتركه حتى يسكن غيظه ويذهب عنه ما يجده من الحنق عليه، وحينئذ يؤدّبه الأدب الشرعي على ما تقدم ذكره؛ لأنه إن أدبه في حال غيظه يُخاف عليه أن يتعدى الأدب المتقدم ذكره، ولأجل هذا المعنى قال رسول الله ﷺ: «**لا يقضي القاضي حين يقضي وهو غضبان**» وعداه علماؤنا - رحمة الله عليهم - إلى كل ما يشوّش عليه كحقنة ببول أو غيره، ولا فرق بين القاضي والمؤدب إلا أن القاضي يحكم بين الكبار وهذا يحكم بين الصغار، وحامل القرآن يُنَزَّهُ عن هذا كله، فيقيم الأدبَ على الصبي من غير أن يتناول عِرْضَه ولا شتْمَ أبويه، بل يؤدبه كما يؤدبه والداه، وهما يرحمانه ويشفقان عليه ويذبان عنه في كل أحواله»[2].

ونحن لا نجد مثل هذا التنظير والتقعيد في أي حضارة أخرى، فهذا الحس المرهف في التعامل مع الأطفال والكتابة لهم، ووضع الضوابط العامة وحتى الخاصة في التعامل معهم لم نجده في أي حضارة أخرى، وهذا ما يؤكد على واقعية الحضارة الإسلامية

(١) السابق ٢/ ٣١٧.
(٢) ابن الحاج: المدخل ٢/ ٣٢٥.

ومثاليتها في ذات الوقت؛ فالواقعية تتجلى في رصد السلبيات الآنية في تعامل المعلمين مع الأطفال والمثالية في وضع المنهج الذي يضبط ماهية هذه العلاقة، وهذه المثالية لا تأت من عند ابن الحاج أو غيره، وإنما هي مستمدة في الأصل من المنهج الإسلامي في التربية.

ولم يكتف ابن الحاج بحديثه عن علاقة المعلم بالأطفال وإنما تعدى ذلك إلى الحديث عن أماكن تعليمهم، وآداب الأطفال تجاه معلميهم، وأوقات راحتهم وأكلهم، فنراه قائلاً: «ويتعين عليه أن يمنع الصبيان مما اعتاده بعضهم من أنهم يمسحون الألواح[1] أو بعضها ببُصَاقِهِم، وذلك لا يجوز؛ لأن البُصَاقَ مستقذرٌ وفيه امتهان، والموضع موضع ترفيع وتعظيم وتبجيل، فيُجل عن ذلك، ويُنَزّه، وينبغي له أن لا يسامح الصبيان في دقّ المسامير في المكتب، إن كان وقفًا، وإن كان ملكا، فلا يجوز إلا بإذن صاحبه، ولا ضرورة تدعو إلى ذلك؛ إذ إنهم مأمورون أن يأكلوا في بيوتهم لا في المكتب، فإن كان بعضهم بيته بعيدًا بحيث يشق عليه الذهاب والرجوع، فيكلفه المؤدب، أن يمضي إلى بيت أحد أقاربه من والديه، أو معارفهما، فإن لم يكن له ذلك، فليجعل وقت غذائه حين ينصرف الصبيان إلى غذائهم وقبل أن يرجعوا»[2].

ثم يتناول ابن الحاج آداب الطعام في الكُتّاب، وضرورة مراعاة المعلم لهذا الطعام لأنه مستأمن عليه، بل نراه يستقبح فعل بعض المعلمين الذين يتعدون على طعام الأطفال الصغار، وذلك بقوله: «وبعض المؤدبين يفعل فعلاً قبيحًا شنيعًا محرمًا، وهو أنه يأكل مع الصبيان من أغذيتهم، ويطعم من يختاره ومن يجتمع به، ويُرسلُ منها إلى بيته ما يختار، وهذا نوع من الخلسة[3]، ولو فرضنا أن الصبيان بقي لهم غذاؤهم ولم يمسه غيرهم فأكلوا منه ما شاءوا وبقيت منه بقية وتركوها في المكتب رغبة عنها، لجاز للمؤدب أن يأخذها، وينتفع بها، وينبغي له أن يُعْلِم أولياء الصبيان بذلك، إن كانوا جماعة، أو واحدًا إن انفرد هذا، ما لم يكنْ ليتيمٍ، اللهم إلا أن يكون الصبي لم يأكل شيئًا من غذائه وتركه كله في المكتب، فلا يجوزُ للمؤدب أن يُقْدم على أخذه إلا بإعلام والد الصبي، وإلا فلا بخلاف؛

(١) التي يكتبون فيها القرآن.
(٢) ابن الحاج: المدخل ٢/ ٣١٨.
(٣) السرقة.

لأنها فضلاتٌ عن شبعهم، وأما ما يحتاجه الصبيان من الماء لـلشُّرب فجائز أن يأخذ من كل واحد منهم شيئا بقدر الحاجة، ويكون ذلك بينهم بالسوية، فيشتري بـه ماعون الماء والماء، ولا يمكن الصبيان من الذهاب إلى بيوتهم للشرب، وإن كان بيت بعضهم قريبًا؛ لأن ذلك مما يتكرر في الغالب، وإذا كان الأمر كذلك، فينبغي بل يتعيّن أن لا يشرب معهم غيرهم إلا أن يأذن في ذلك آباؤهم، فإن كان فيهم يتيم فلا يأخذ منه شيئًا لثمن الماء ولا غيره والحالة هذه ويصير من جملة من أذن له في الشرب ويستحق ذلك في حق مؤدبهم»[1].

ونكتفي بهذا القدر من حديث ابن الحاج الفاسي في كتابه «المدخل»، وهو كتاب ننصح الآباء والأمهات بضرورة اقتنائه؛ لا لكونه كتابًا تربويًا، وإنما لكونه كتاب فقهي اجتماعي أيضًا يناقش كثيرًا من سلبيات وبدَع المجتمع وآدابه ويرد عليها ردًا فقهيًا واعيًا، وإن كان الكتاب قد أُلّف في القرن الثامن الهجري، فإن ذلك لا يقدح في قيمته، فهو معاصر لمؤلفات العلامة ابن تيمية وابن القيم والسبكي والذهبي والشُّمني وغيرهم.

تعليم البنات

حرص الإسلام على منع حدوث الاختلاط بين الجنسين، لما في ذلك من أضرار اجتماعية وأخلاقية، فالإسلام عالج الأمر قبل أن يقع، وأوجد البيئة الصالحة. فالاختلاط يؤدي إلى العمليات النفسية الثلاث التالية: الإدراك والوجدان والنزوع. ففي الاختلاط يتعرف كل جنس على الجنس الآخر ويدرك المفاهيم والمفاتن، ثم يحدث عند كلا الجنسين الوجدان: أي الأثر النفسي والأشواق والميول، فإما يكبت هذه المشاعر وهذا ضرر، وإما أن تتحقق العملية الثالثة وهي النزوع أو الفعل وهذا أيضاً ضرر؛ لذلك عالج الإسلام هذه العملية بمنع الإدراك أي منع الاختلاط ففي القرآن الكريم دلّت بعض الآيات على ذلك، منها قوله تعالى: ﴿**وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۞ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا**

---

(١) ابن الحاج: المدخل ٢/ ٣٢١.

خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣- ٣٤]. حيث أمر الله أمهات المؤمنين، وجميع المسلمات والمؤمنات مشمولات بهذا الأمر، بالقرار في البيوت لما في ذلك من صيانة لهن وإبعادهن عن وسائل الفساد، لأن الخروج لغير حاجة قد يفضي إلى التبرج والاختلاط[١].

ومن ثم، كانت رؤية علماء المسلمين عمومًا والمغرب خاصة أن يُفصل بين الجنسين في حلقات الدرس والتعليم، وكانت علة نهيهم عن ذلك مستقاة من النتائج السلبية التي تظهر في عملية الخلط بين الجنسين، من حيث الاشتغال ببعضهم عن الدرس والعلم، ثم الميل الغريزي الذي قد يترتب عليه كثيرًا من المفاسد التي نراها اليوم في بعض مدارسنا وجامعاتنا.

ومما يلفت الانتباه أنه ظهرت في الآونة الأخيرة بعض الدراسات والأبحاث البريطانية التي تُنادي بضرورة الفصل بين الصبيان والفتيات، بل وضرورة أن يعلم الصبيان معلمين من الرجال خوفًا من «تأنيث الصبيان»، لأنه حتى سن الحادية عشر لا يتعلم الصبي في هذه البلدان إلا على يد نساء من المعلمات، وتعمل وكالة التطوير والتدريب للمدارس البريطانية (TDA) على زيادة عدد المدرسين من الرجال، وكذا الفصل بين الصبيان والفتيات[٢].

هذه النتائج التربوية التي توصلت لها المؤسسات التربوية في الغرب اليوم، تنبّه لها علماؤنا في القرون الغابرة، وأقروها ونادوا بها، وقد رأينا علامة القيروان سحنون التنوخي (ت ٢٤٠هـ) في القرن الثالث الهجري يقول: «وأكره للمعلم أن يعلم الجواري[٣] ويخلطهن مع الغلمان؛ لأن ذلك فساد لهم»[٤]، وقال القابسي: «ومن صلاحهم، ومن حسن النظر لهم، ألا يخلط بين الذكران والإناث»[٥].

أما تربية وتعليم البنات فقد كانت على ذات القدر من الأهمية في المغرب الإسلامي،

---

(١) الشوكاني: فتح القدير: ٤/ ٢٧٨.

(٢) إبراهيم السكران: مقال بعنوان «تأنيث الصبيان» موقع ملتقى الخطباء على الإنترنت: http://khutabaa.com

(٣) أي البنات الصغيرات.

(٤) ملحق آداب المعلمين ص٣٦٣ نقلاً عن التربية في الإسلام.

(٥) القابسي: الرسالة المفصلة ص١٣١.

فالبنت مساوية للولد في هذا الجانب؛ إذ لها الحق في تعلم العلوم النافعة لها، مع الحرص على التخلق بالآداب الإسلامية، قال القابسي: «وأما تعليم الأنثى القرآن والعلم فهو حسنٌ ومن مصالحها.. وإنما تُعلم ما يُرجى لها صلاحه، ويُؤمَّن عليها من فتنته؛ وسلامتها من تعلم الخط أنجى لها. ولما أذن النبي ﷺ للنساء في شهود العيد أمرهن أن يُخرجن العواتق وذوات الخدور، وقال: «**يشهدن الخير ودعوة المسلمين**». فعلى مثل هذا يقبل في تعليمهن الخير الذي يُؤمن عليهن فيه، وما خيف عليهن منه، فصرفه عنهن أفضل لهن، وأوجب على متولي أمرهن... واعلم أن الله ﷻ قد أخذ على المؤمنات فيما عليهن، كما أخذ على المؤمنين فيما عليهم، وذلك في قوله ﷻ: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ الله وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا**﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقوله: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ الله إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ٧١]، وجمعهما في حسن الجزاء في غير آية من كتابه، وفي قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ الله الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ الله أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [التوبة: ٧٢]، وأمر أزواج نبيه ﷺ أن يذكرن ما سمعن منه ﷺ، فقال: ﴿**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ الله وَالْحِكْمَةِ إِنَّ الله كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٣٤]، فكيف لا يُعلمن الخير، وما يعين عليه، ويصرف عنهن القائم عليهن ما يحذر عليهن منه؛ إذ هو الراعي فيهن المسئول عنهن، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»[١].

ابن خلدون والمناهج المغربية والأندلسية

تناول العلامة ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) في مقدمته الشهيرة، مناهج أهل المغرب والأندلس بشيء من التفصيل والتوضيح، هذه المناهج التعليمية أثنى على بعضها وقلل من شأن بعضها، ورجا أن تُستبدل بما ذكره العلامة الأندلسي أبو بكر بن العربي رحمه الله (ت٥٤٣هـ) مع بعض التحفظ.

(١) ملحق الرسالة المفصلة، عن التربية في الإسلام ص٢٩٣، ٢٩٤.

وهذه التفصيلات التي ذكرها ابن خلدون من النادر أن نجدها عند غيره بهذه القدر من الخلاصة والدقة، قال عن مناهج التربية والتعليم في إفريقية وهي بعض من ليبيا وتونس وبعض من الجزائر اليوم: «وأما أهل إفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان[١] القرآن بالحديث في الغالب، ومُدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها، إلا أن عنايتهم بالقرآن واستنظار الولدان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءاته أكثر مما سواه، وعنايتهم بالخط تبعٌ لذلك، وبالجملة فطريقهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس»[٢].

ونلحظ فيما سبق أن تعليم أهل «إفريقية» للأطفال كان مهتمًا أشد الاهتمام بالقرآن الكريم ولا يتعدى الطفل هذه المادة الإجبارية إلا إذا أتمها إتمامًا جيدًا، ثم تأتي علوم الحديث والخط وبعض العلوم العقيلة كالحساب وغيره تبع للقرآن الكريم، ولكنها ليست بنفس الدرجة والمرقاة، وقد شبه ابن خلدون هذه المناهج بمناهج أهل الأندلس، لكن ما هي طريقة أهل الأندلس في تعليمهم أبناءهم وبناتهم؟

هذه المناهج الأندلسية ذكرها ابن خلدون أيضًا في مقدمته القيمة بقوله: «وأما أهل الأندلس فمذهبهم: تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا هو الذي يراعونه في التعليم، إلا أنه لما كان القرآن أصلُ ذلك وأسّه، ومنبع الدين والعلوم، جعلوه أصلاً في التعليم، فلا يقتصرون لذلك عليه فقط، بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب، والترسُّل[٣] وأخذهم بقوانين العربية وحفظها، وتجويد الخط والكتاب، ولا تختصُّ عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها، إلى أن يخرج الولد عن عمر البلوغ إلى الشبيبة، وقد شدا بعض الشيء في العربية والشعر والبصر بهما، وبرز في الخط والكتاب، وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم، لكنهم ينقطعون عن ذلك لانقطاع سند التعليم في آفاقهم، ولا يحصل بأيديهم إلا ما حصل من ذلك التعليم الأول، وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى، واستعداد إذا وجد المعلم»[٤].

وهنا أيضًا يوضح ابن خلدون أن أهل الأندلس اهتموا أكثر ما اهتموا بتعليم

---

(١) الأطفال.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ص٥٣٨.

(٣) أي الإنشاء وطرق الكتابة.

(٤) ابن خلدون: المقدمة ص٥٣٨.



أولادهم للقرآن الكريم، وأما بقية العلوم والمعارف فهي ثانوية فرعية لا تقاس أهميتها بأهمية القرآن، وحتى تعليم الخط لم يكن يلقى العناية المرجوة، وكان تعلميه غالبًا ما يكون بالمجهود الفردي للشاب في المراحل اللاحقة من التعليم، والتعليم ينقطع في الأندلس في أوقات الطالب يكون أحوج إلى العلوم والمعارف فيها من أي شيء آخر، ويكون تحصيله الأولي في الكتاب هو ذخره وإرثه!

والحال أشد عند أهل المغرب، فالعلم الأولي عندهم هو علم القرآن وحفظه لا يخلطون به أي علوم أخرى، وهم بذلك يشبهون أهل الأندلس وإفريقية في الحرص على تعليم وتلقين أولادهم للقرآن الكريم، لكنهم يختلفون عنهم في كونهم لا يعلمون أولادهم تلك المعارف الثانوية والفرعية التي يتعلمها أولاد الأندلسيين والتونسيين، قال عن أهل المغرب: «فأما أهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصارُ على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارسة بالرسم ومسائله[1]، واختلاف حملة القرآن فيه، لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديثٍ ولا من فقهٍ ولا من شعرٍ ولا من كلام العرب، إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه؛ فيكون انقطاعُهُ في الغالب انقطاعًا عن العلم بالجملة، وهذا مذهب أهل الأمصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر أمم المغرب في ولدانهم، إلى أن يجاوز البلوغ إلى الشبيبة، وكذا في الكبير إذا رجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره، فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم»[2].

وهذه الطرق الثلاث التي كان يتم فيها تعليم الأطفال في المغرب والأندلس لم تكن تعجب ابن خلدون فيما يبدو، ولذلك نراه متحمسًا لرأي فقيه المغرب والأندلس العلامة ابن العربي حيث يقول: «ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته إلى طريقة غريبة في وجه التعليم، وأعاد في ذلك وأبدأ، وقدَّم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم، كما هو مذهب أهل الأندلس قال: لأن الشعرَ ديوان العرب، ويدعو على تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورةُ فساد اللغة، ثم ينتقل منه إلى الحساب، فيتمرّن فيه حتى يرى القوانين، ثم ينتقل إلى درس القرآن، فإنه يتيسر عليك بهذه المقدمة. ثم قال: ويا غفلة

---

(١) رسم القرآن وطرق كتابته وتشكيله وعلاماته.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ص٥٣٨.

أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أوامره؛ يقرأُ ما لا يفهم، وينصب في أمرٍ غيره أهم ما عليه. ثم قال: ينظُرُ في أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم الجدل، ثم الحديث وعلومه. ونهى مع ذلك أن يخلط في التعليم عِلْمان، إلا أن يكون المتعلم قابلاً لذلك، بجودة الفهم والنشاط هذا ما أشار إليه القاضي أبو بكر رحمه الله»[(١)].

ونرى ابن خلدون رحمه الله يُعلق على ما قاله ابن العربي بقوله: «هو لعمري مذهبٌ حسن، إلا أن العوائد[(٢)] لا تُساعد عليه، وهي أملك بالأحوال، ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن إيثارًا للتبرك والثواب، وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبي من الآفات والقواطع عن العلم، فيفوته القرآن لأنه مادام في الحجر[(٣)] منقادًا للحكم، فإذا تجاوز البلوغ، وانحلّ من ربقة القهر، فربما عصفت به رياح الشبيبة[(٤)] فألقته بساحل البطالة، فيغتنمون في زمان الحجر، ورِبقة الحكم تحصيلَ القرآن؛ لئلا يذهب خلوًا منه، ولو حصل اليقين باستمراره في طلب العلم، وقبوله التعليم، لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى ما أخذ به أهل المغرب والمشرق، ولكن الله يحكم ما يشاء لا معقب لحكمه»[(٥)].

وهذه الطريقة التي حسّنها ابن خلدون ثم نبّه على أن الواقع مخالف لها، بل ويرى أن واقعه في التعليم لا سيما القرآن الكريم أفضل مما ذكره ابن العربي، وذلك لأن الطفل منقاد لوالديه في فترة الطفولة والفتوة، وذهنه قابل للحفظ في هذه المرحلة، إلا أنه أثنى على طريقة ابن العربي.

ومهما يكن، فمن خلال جولتنا السريعة مع ابن خلدون نرى أهم العلوم التي حرص المسلمون في المغرب والأندلس على تعليم وتلقين أبناءهم إياها، وقد تمثّل ذلك في حفظ وتعلم القرآن الكريم، وهو منهج يُغبطُون عليه بلا أدنى شك، فحفظ الصبيان والبنات للقرآن الكريم وهم في تلك الفترة المبكرة من أعمارهم يفتح أذهانهم على تعلم ما هو أعلى

---

(١) ابن خلدون: المقدمة ص٥٣٩.
(٢) أي الأحوال والواقع.
(٣) أي صغيرًا في طوع والديه.
(٤) أي الشباب.
(٥) ابن خلدون: المقدمة ص٥٣٩، ٥٤٠.

وأعظم، ونحن نرى اليوم حال الطالب الحافظ للقرآن الكريم وحال غيره من أقرانه ممن لا يحفظونه، فنجد الحافظ أكثر ذكاءً ونجابة وقدرة على تلقي العلوم والمعارف من غيره، وصدق عبد الله بن مسعود ﷺ حينما قال: «**من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه خير الأولين والآخرين**»(١).

وحتى في العصور المتأخرة حرص علماء المغرب والأندلس على إفراد مؤلفات خاصة بالصبيان وطرائق تأديبهم، منهم الفقيه أحمد بن أبي جمعة الوهراني الجزائري (ت٩٢٠هـ) الذي ألف كتابًا يتناول فيه العلاقة بين المعلمين وآباء الصبيان، وقد أسمى كتابه هذا «جامع جوامع الاختصاص والتبيان في ما يعرض بين المعلمين وآباء الصبيان»(٢).

تلك بعض مناهج وآداب وطرائق التربية والتعليم في المغرب والأندلس، تُظهر لنا ما توصل إليه هؤلاء المسلمون من الاهتمام والرعاية الزائدة لأطفالهم، حتى رأينا وظيفة المؤدب تناظر مهام الوالدين في كثير من الأوقات، ولا يُستغرب وسط هذا المناخ التربوي العظيم أن تخرج أمة شائهة للعلن لا تملك من أمرها شيئًا، بل على النقيض من ذلك فقد ترك المغاربة والأندلسيون تراثًا فكريًا وحضاريًا ضخمًا يُدلل على آثار هذه التربية على فكرهم ومجتمعهم.

محاضن التربية

سار المغاربة والأندلسيون في ركاب أهل المشرق فيما يخص بناء المحاضن والأماكن التربوية، وإن تأخر دخول المدارس إلى القرن السابع والثامن الهجري، في حين وجدت هذه المدارس في المشرق منذ أواخر القرن الرابع الهجري.

لكن التقاليد التربوية كانت واحدة تقريبًا، حيث تبدأ رحلة التربية والتعليم من مكتب المؤدب وهو الكُتاب، ثم حلقات العلم في المساجد أو عند الشيوخ في بيوتهم وأماكنهم المخصصة، ثم أخيرًا في المدارس، لا سيما المدرسة الفاسية في المغرب الأقصى أو المدرسة النصرية في غرناطة.

---

(١) البيهقي: شعب الإيمان ٢/ ٣٣١.

(٢) عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ١/ ١٨٤.

وقد أُنشئت الكتاتيب في المغرب والأندلس منذ دخول الإسلام فيهما كما كان الحال في المشرق زمن الخلافة الأموية التي تمت فيها هذه الفتوح، واهتم الولاة والأمراء فيها بالعلوم والمعارف، وقد ذكر الدباغ التونسي (ت٦٩٦هـ) في كتابه «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان» الصحابة الكبار والصغار والتابعين وعلماءهم الذين دخلوا القيروان وأقاموا فيها، وساعدوا على نشر التعليم والتربية بين الأطفال والولدان فيها، وعددهم كما يلي: الصحابة الكبار ٣٠ صحابيًا، و١٣ صحابيًا من الصحابة الصغار و٤٣ من التابعين الفُضلاء.

وتناول الدّباغ ذكر طائفة من هؤلاء الصحابة والتابعين الذين كانت مهمتهم تعليم وتثقيف أهل إفريقية، فقد روي عن عمر بن عبد العزيز أنه أرسل طائفة من الفقهاء لتعليم أهل إفريقية (تونس) كبيرهم وصغيرهم، ذكر منهم الدباغ، إسماعيلَ بن عبيد الأنصاري (ت١٠٧هـ) فقال: «سكن إسماعيل القيروان، وانتفع به خلقٌ كثيرٌ من أهلها وغيرهم، وهو أحد العشرة التابعين الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز ﷺ يُفقهون إفريقية، وهو الذي بنى المسجد الكبير المعروف بجامع الزيتونة سنة إحدى وتسعين»[1].



(صورة رقم ٨ جامع الزيتونة).

(١) عبد الرحمن بن محمد الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ص١٩١، ١٩٢.

ومن اللافت أن غاية إقامة المدن المغربية كان يهدف إلى إقامة الإسلام بشقه التطبيقي والعملي؛ فقد روى الجزنائي أنه لما بنى إدريس الثاني - مؤسس دولة الأدارسة في المغرب الأقصى - مدينة فاس سنة ١٨٢هـ «رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم اجعلها دار علم وفقه يُتلا بها كتابك، وتُقام بها سنتك وحدودك، واجعل أهلها متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها»(١)، ما يدلل على البعد الديني والإسلامي في إقامة المدن الجديدة، هذا فضلاً عن الموقع الجغرافي المميز لها.

ومن الجوامع الدينية الإسلامية التي تأسست إبان تأسيس دولة الأدارسة بالمغرب جامع القرويين الذي يعد أقدم جامعة إسلامية وتربوية في العالم، فقد بني في فاس سنة ٢٤٥هـ من قِبل سيدة كريمة فاضلة هاجرت مدينتها القيروان متجهة نحو المغرب، فاستقرت بفاس، وتسمى هذه المحسنة أم البنين الفهرية، وفي هذا يقول المؤرخ المغربي علي ابن أبي زرع في كتابه «الأنيس المطرب»: «كانت فيهم (أي في وفد القيروان) امرأة مباركة صالحة اسمها فاطمة، وتكنى أم المؤمنين، بنت محمد الفهري القيرواني، أتت من إفريقية... فورثت مالاً جسيمًا... فأرادت أن تصرفه في وجوه البر وأعمال الخير، فعزمت على بناء مسجد... فاشترت موضع القرويين.... ثم شرعت في حفر أساسه وبنائه وذلك يوم السبت مهل رمضان المعظم سنة خمس وأربعين ومائتين»(٢).

وقد ساهم هذا الجامع الإسلامي الكبير في تعليم الكثير من المغاربة والأجانب مختلف العلوم السائدة آنذاك: كالعلوم الدينية والشرعية واللغوية والأدبية والعقلية، كما أدّى دورا كبيرا في نشر الدين الإسلامي بين زواره والمتعطشين للتعلم بين أروقته وفضاءاته الزاهية. ويعني هذا أن جامع القرويين أنجز مهمتين: مهمة دينية وهي الأساس، ومهمة تربوية تعليمية تكميلية. ويقول عبد الله كنون في كتابه «النبوغ المغربي»: «ولما كانت المساجد في المجتمع الإسلامي تؤدي مهمتين: مهمة دينية، ومهمة ثقافية. إذ تُلقى في أروقتها دروس في مختلف العلوم والفنون، فإنا نعتقد أن جامع القرويين منذ إنشائه كان مركزًا للدراسات الدينية والأدبية، التي لم تنقطع منه أبدًا، وأن تأسيسه كان

(١) علي الجزنائي: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس ص٢٢.
(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ص٥٤.

مبدأ الارتكاز للحياة الفكرية في المغرب، بالرغم من وجود مساجد أخرى سابقة له في فاس وغيرها. ولا أدل على ذلك من أن كبار علماء المغرب الذين عرفناهم، إنما نبغوا بعد التاريخ الذي شيد فيه ذلك المسجد العامر. على أن مراكز ثقافية أخرى كانت تقوم في كل من سبتة وطنجة والبصرة وأصيلا. وهي باستثناء سبتة قد عرض لحركتها فتور أو اضمحلت بالمرة أثناء هذا العصر نفسه، وإن تخرج منها أعلام لهم مكانتهم في تاريخ الحركة الفكرية بالمغرب».

إذًا، فقد كانت هناك دروس، وكانت هناك هيئة علمية، وإن كنا لا نعرف من خبر هذه الهيئة وأثر ذلك التدريس إلا الشيء القليل[١].

وقد ذكر محمد عادل في كتابه «التربية الإسلامية في المغرب» أن «الكتاتيب في المغرب هي الأماكن التي يتعلم فيها صبية المسلمين مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، أي أن هذه المكاتب تشبه ما نسميه الآن بالمدارس الابتدائية، وإذا كانت ليست لدينا معلومات معينة عن تلك المكاتب في المغرب، إلا أنه من المؤكد أنها كانت تشبه جميع الكتاتيب في العالم الإسلامي بحيث لا تعدو أن تكون حانوتًا أو حجرة مجاورة للمسجد أو بعيدة عنه، أو غرفة في منزل مؤثثة ببعض الحصر»[٢].

وبالفعل تبدو المعلومات المتوفرة عن مكاتب المغرب في غاية الندرة والشح، غير أننا لا نعدم بعض تراجم المُكتّبين والمؤدبين في تلك الأوقات، ومن الغريب أن بعض هؤلاء المؤدبين وصلوا إلى المرقاة العليا مثل عبد المؤمن بن علي (ت٥٥٨هـ) الذي كان أول أمره معلمًا للصبيان ثم تبع محمد بن تومرت (ت٥٢٤هـ) وأنشآ سويًا الدعوة الموحدية ثم الدولة الموحدية على أنقاض دولة المرابطين[٣].

ولكن ظل التعليم والتربية في المسجد هو الأصل وإن أُنشئت المكاتب المستقلة، سواء في المغرب أو الأندلس.

---

(١) جميل حمداوي: المدارس العتيقة بالمغرب بحث منشور بمنتدى سوس العالمة على الانترنت، على الرابط: www.royalluxe.com.

(٢) محمد عادل عبد العزيز: التربية الإسلامية في المغرب ص٣٩.

(٣) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص٢٥٠.

وقد اهتم بعض أمراء الموحدين بإنشاء المكاتب ووقفها على طلبة العلم خاصة الأيتام والفقراء منهم، رغبة في نشر العلم والتربية بين المسلمين عمومًا، فمن أعظم أمراء الموحدين يأتي المنصور يعقوب بن يوسف الموحدي (ت٥٩٥هـ) الذي «عمل مكتباً للأيتام، فيه نحو ألف صبيٍّ، وعشرة معلمين، كان يهتم بطلاب العلم الذين يأتون من الآفاق وقال ذات مرة: يا معشر الموحدين، أنتم قبائل، فمن نابه أمرٌ، فزع إلى قبيلته، وهؤلاء - يعني طلبة العلم - لا قبيل لهم إلا أنا، فعظموا عند الموحدين، وكان يجمع الأيتام في العام، فيأمر للصبي بدينار وثوب ورغيف ورمانة»[١].

وكان المنصور الموحدي من أصحاب الرؤى التجديدية في المغرب والأندلس، وقد كان يشبه صلاح الدين الأيوبي في المشرق وكان معاصرًا له، ومن المواقف التي تُدلل على وعيه وفهمه وعلمه ما ذكره الذهبي أن أبا يوسف يعقوب المنصور «سأل الفقيه أبا بكر بن هانئ الجياني: ما قرأتَ؟ قال: تواليف الإمام - يعني ابن تومرت - قال: فزوّرني[٢]، وقال: ما هكذا يقول الطالب! حُكمك أن تقول: قرأتُ كتاب الله، وقرأتُ من السُّنة، ثم بعد ذلك قل ما شئت[٣]، وقد كان محمد بن تومرت هو الأب الروحي وإمام الدعوة الموحدية ومع ذلك قدّم المنصور كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وسوف يتناول الحديث عنه مآثره في بناء المدارس في المغرب بعد قليل.

وعلى الجانب الآخر انتشرت في الأندلس المكاتب، وكانت الدولة تتعهدها بالبناء والتشييد ووقف الأوقاف الدارّة عليها، ومن أشهر هذه الأوقاف وقف الحكم المستنصر سنة ٣٥٦هـ، قال ابن عذارى: «ومن مستحسنات أفعاله وطيبات أعماله، اتخاذه المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع وبكل ربض من أرباض قرطبة؛ وأجرى عليهم المرتبات، وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح، ابتغاء وجه الله العظيم؛ وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتبا، منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة،

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣١٥.
(٢) أي انظر إليه نظرة المغضب.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣١٦.

وباقيها في كل ربض[١] من أرباض المدينة»[٢]. وفي ذلك يقول ابن شخيص:

وسلحَةُ المَسجِدِ الأعلَى مُكَلَّلَةٌ مَكَاتِباً لليَتَامَى من نَوَاحيها

لَوْ مُكِنَتْ سُوَرُ القُرآنِ مِنْ كَلِمٍ نادَتْكَ يَا خَيرَ تَالِيها ووَاعِيها

وتطالعنا كتب التراجم الأندلسية بذكر طائفة كبيرة من هؤلاء المؤدبين، منها ما ذكره ابن الفرضي عبد الله بن محمد بن يوسف (ت٤٠٣هـ) في كتابه «تاريخ علماء الأندلس» وهو يسردُ فيه ذكر طائفة كبيرة من علماء الأندلس في كافة الفروع والمجالات العلمية حتى سنة ٤٠٠ من الهجرة تقريبًا، ومن ثم فهو كتاب مهم فيما يخص عصر الولاة والدولة الأموية في الأندلس.

وقد تناول ذكر طائفة من المؤدبين في طول بلاد الأندلس وعرضها، ولم يحصر اهتمامه بمؤدبي العاصمة الأموية قرطبة، وهذه الطائفة من المؤدبين هم مؤدبو الكُتّاب، وإنما ذكرتُ الكتّاب فقط؛ لأنه سيتضح لنا بعد قليل أنه كان هناك مؤدبون ومعلمون في مواد تعليمية أخرى، وقد كان مؤدب الكُتّاب هو المخول بتعليم الأطفال القرآن الكريم ورسومه، من هؤلاء مؤدب مدينة إستجة[٣] إبراهيم بن حزم الذي أثنى عليه ابن الفرضي[٤]، ومثله أحمد بن شاب بن عيسى (ت٣١٧هـ) أحد مؤدبي قرطبة، وأصبغ بن تمام الحراز (ت٣٦٥هـ)، وقد كان «من أَهْل القِراءات والحفْظ لِلْقُرآن»[٥]، وسَعِيد بن سلْمون بن سَيِّد القرطبي (ت٣٨٠هـ) «كان مُؤدِّب كُتَّاب، وكان رجُلاً صالحاً، قَرأ النَّاس عليه القُرآن وكُتِبَ عنهُ»[٦]، ومثلهم ميكائيل بن هارون (ت٣٥٢هـ) مؤدب كُتّاب مدينة إستجة[٧].

(١) الربض: الأحياء النائية عن مركز المدينة. قال ابن منظور: الرَّبَضُ ما حَوْله (أي المدينة والبناء) من خارج. لسان العرب، مادة ربض ٧/ ١٤٩.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٢/ ٢٣٤.
(٣) مدينة بمقاطعة إشبيلية بجنوب إسبانيا. بلغ عدد سكانها ١٤٣ , ٤٠ نسمة عام ٢٠٠٨.
(٤) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ١/ ٢٥.
(٥) السابق ١/ ٩٧.
(٦) السابق ١/ ٢٠٧.
(٧) السابق٢/ ١٥٢.

ومنهم من كان مختصًا بتعليم الهجاء والإنشاء فقط، مثل محمد بن عبد الله بن محمد البهراني (ت٣٨٥هـ)، قال عنه ابن الفرضي: «كان معلم هجاء»[١].

ومنهم من كان مؤدبًا في المسجد مثل عبد الله بن نَصر الصُّوفيّ القرطبي (ت٣١٥هـ)، فقد كان «مؤدِّباً في مَسْجِد أبي عَلاقة»[٢] بقرطبة.

ومما يلحظ في تراجم ابن الفرضي أن المؤدبين في الأندلس كانوا أصحاب اختصاصات، منهم من كان يعلم العربية، مثل سَعِيد بن قُدَامة بن عبد الوارث (ت٣٤٨هـ)[٣]، ومنهم من كان يعلم النحو فقط مثل مُحَمَّد بن سليمان الأنصاري القرطبي[٤]، ومنهم من كان يعلم الحساب مثل سعيد بن أحمد الفرضي (ت٣٨٨هـ)، وقد «كان مؤَدباً بالحِسَاب، وكان: رَجُلاً صالحاً»[٥]، ومثله عبد الله بن تمّام بن أزْهر القرطبي (ت٣٧٣هـ)، قال عنه ابن الفرضي: «كانَ مُؤَدَّباً بالحساب... كَتَبَ عنهُ بعض أصْحابنا. وَكَتَبْتُ عنهُ»[٦].

هؤلاء بعض من ذكرهم ابن الفرضي في «تاريخه» ويتّضح من اختصاص كل منهم أن الأندلسيين عرفوا الاختصاص والفصل بين المواد التعليمية منذ وقت مبكر في زمن الخلافة الأموية، وإن كان تعليم القرآن الكريم هو الأصل، وهذا الفصل بين المواد مما يعضّد رأي ابن خلدون السابق في مناهج أهل الأندلس.

ويبدو من مطالعة كتاب ابن الفرضي وغيره أن الخلفاء الأمويين انتقوا لأولادهم أفضل المؤدبين وأعلمهم، فقد كانت في قصورهم مكاتب خاصة لتعليم صغار الأمراء من الأسرة الحاكمة، وكان يُختار لها كبار العلماء لا سيما علماء النحو والعربية، مثل أبي عبد الملك عثمان بن المثنى (ت٢٧٣هـ) قال عنه ابن سعيد المغربي: «وصفه ابن حيان[٧] بمعرفة

(١) السابق ٢/ ١٠٠.
(٢) السابق ١/ ٢٦٢.
(٣) السابق ١/ ٢٠٢.
(٤) السابق ٢/ ٤٧.
(٥) السابق ١/ ١٩٩.
(٦) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ١/ ٢٧٧.
(٧) أحد أشهر مؤرخي الأندلس، من كتبه «المقتبس» و «المتين».

اللغة والتجويد في الشعر، وذكر أنه رحل ولقي أبا تمام الطائي الشاعر، وأخذ عنه شعره، ولقي ابن الأعرابي وغيره، وكان شجاعاً مكثراً للغزو في الثغور، وأدب أولاد عبد الرحمن بن الحكم سلطان الأندلس، وولد في صدر دولة هشام الرضا، فأدرك أربعة سلاطين من المروانية، آخرهم محمد»[١]، وكان بَكْر بن عبد الله الكلاَعيّ «من أهْلِ قُرْطُبة مؤدِّباً لأولاد الخلفاء في النَّحْو، والشِّعر»[٢].

وكان انتقاء مؤدبي أولاد الخلفاء والأمراء عائدًا أيضًا للرحلة التي قام به هؤلاء المؤدبون إلى المشرق، فقد كانت الرحلة إلى المشرق من أُسس التمايز والتفاضل بين علماء الأندلس؛ فلقد كان مؤدّب المؤيد بن المستنصر الأموي: أحمد بن محمد بن يوسف المعافري من أهل قرطبة يكنى أبا القاسم قد سمع وأخذ العلم من كبار علماء عصره مثل عبد الله ابن يونس وقاسم بن أصبغ وغيرهما، ورحل إلى المشرق سنة ٣٤٢هـ فسمع من أحمد بن سلمة الضحاك الهلالي ومن أبي محمد عبد الله بن جعفر بن الورد البغدادي ومن جماعة سواهما، وانصرف في شعبان سنة ٣٤٥هـ، و«استأدبه[٣] أمير المؤمنين المستنصر بالله رحمه الله لولي العهد المؤيد بالله أمير المؤمنين، وولى أحكام الشرطة وحدّث، توفي رحمه الله في صفر من سنة ثمان وستين وثلاث مائة»[٤].

وبالطبع كان تحفيظ القرآن الكريم وعلومه من العلوم الأساسية والأولية لأولاد الخلفاء، وكان ينتقى لها أشهر علماء العاصمة (قرطبة)، مثل عُثْمان بن نَصْر بن عبد الله المُؤَدِّب(ت٣٢٥هـ) «من أهْل قُرطُبة، أدّب المسْتَنْصِر بالله رحمه الله، وكان: ذا سَمْتٍ وعَدَالةٍ»[٥]، وقد اختير ولده جَعْفَر بن عُثْمان حاجبًا في زمن الخليفة المستنصر بالله (ت٣٦٥هـ) وابنه الخليفة المؤيد، ووظيفة الحاجب تعادل رئيس الوزراء في زمننا اليوم.

وفي هذه المكاتب ظهر علماء الأندلس النجباء في كل فرع وفن، وكان بعض الأولاد

---

(١) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب ١/ ١١٣.
(٢) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ١/ ١١١.
(٣) أي جعله مؤدبًا لولده.
(٤) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ١/ ٦٢.
(٥) السابق ١/ ٣٤٩.

الصغار تبدو عليه أمارات الذكاء والنجابة والفصاحة منذ صغره في هذه الكتاتيب، منهم الشاعر الأندلسي الشهير يحيى بن هذيل (ت ٣٨٩هـ)، فقد ذكر القاضي عياض رحمه الله في «ترتيب المدارك» أن يحيى بن هذيل كان «شاعر وقته، غير مدافع، وكان عالماً نزيهاً فصيحاً، حافظاً للفقه، راوية للحديث والخبر، ظاهر البشارة من ملبس ومركب، حسن الحديث، ذا عفة وتقى، كثير التلاوة للقرآن، وكان قال الشعر في المكتب (في الكُتّاب وهو صغير)، فكان معلمه يعجب منه، إلى أن دخل عليه يوماً رجل من حكماء وقته، فأخبره بخبره. فقال له: أرنيه. فقال له: لا، ولكن تفرسّه في صبياني. فقال: إن كان فهو ذلك، فقال له المعلم: صدقت. فمن أين تفرسته؟ فقال: أما تراه صبياً أسمر معرباً على خلقة العرب. ثم قال له أجز (أي أكمل البيت): لستَ من الشعرِ ولا صوغهِ. فقال له ابن هذيل سريعاً: فدعْ مقالَ الشعْرِ لا تَبْغِهْ. فصفّق الرجل بيديه، وحوقل[١]، وقال له: أحسنُ ما سمعتُ مع البديهة وصعوبة القافية»[٢]، وهذا المستوى لا يُعجُب منه في ظل الدولة الأموية في الأندلس، لا سيما عصر عبد الرحمن الناصر (ت٣٥٠هـ)؛ فقد كان ابن هذيل أحد ثمرات التربية والتعليم في ذلك العصر.

وكما فاق ابن هذيل أقرانه في القريحة المتوقدة، والحافظة الواعية، والشعر الرقراق منذ نعومة أظفاره وجدنا نابغة آخر لا يقل عن ابن هذيل الآنف، بل يزيد عليه حفظًا وذكاءً وبراعةً إنه أبو محمد عبد المجيد بن عبدون (ت٥٢٩هـ) وزير وكاتب بني الأفطس من ملوك الطوائف الذين حكموا إمارة بطليوس في غرب الأندلس حتى سقوط دولتهم في عام ٤٨٥هـ على يد المرابطين، ذكر المراكشي في كتابه «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» بعض القصص التي تُدلل على أثر التربية الأندلسية عليه، قال: «كان أبو محمد هذا يكتب للمتوكل على الله[٣] ونمت حاله معه، وهو أحد كُتّاب المغرب، وممن جمع منهم فضيلتي الكتابة والشعر، على أنه مُقلٌّ من النَّظم لم يثبت له منه إلا يسير بالنسبة إلى غزارة آدابه ونباهة قدره... حكى عن نفسه - رحمه الله - أنه كان بين يدي مؤدّبه - وسنه إذ ذاك

(١) أي قال لا حول ولا قوة إلا بالله غبطة وسرورًا.

(٢) عياض اليحصبي: ترتيب المدارك وتقريب المسالك ٦/ ٢٩٤.

(٣) هو عمر بن محمد المظفر آخر أمراء بني الأفطس توفي سنة ٤٨٨هـ.

ثلاث عشرة سنة - فعنَّ[١] للمؤدب أن قال:

الشِّعْـــرُ خُطّةُ خَسْـــف

وجعل يردد هذا القول قال الوزير أبو محمد عبد المجيد: فكتبتُ في لوحي مجُيزاً له:

لِكُـــلِّ طالبِ عُـــرْف

ثم خَطَرَ لي بيتٌ ثان وهو:

لِلشَّيخ عَيْبةُ عَيْبِ   وللفتى ظُرف ظُرفْ

قال فنظر إلي المؤدِّب وقال: يا عبد المجيد ما الذي تكتبُ؟ فأريته اللوح فلما رآه لطَمَني وعرّك أُذُني وقال: لا تشتغل بهذا وكتَبَ البيتين عِنْده!

ومن غزارة حفظه - رحمه الله - ما حدَّث به الوزير أبو بكر محمد بن عبد الملك بن أبي زهر[٢] قال: بينا أنا قاعد في دهليز[٣] دارنا وعندي رجلٌ ناسخٌ أمرتُهُ أن يكتبَ لي كتاب الأغاني[٤] فجاء الناسخُ بالكراريس التي كَتَبَها فقلتُ له: أين الأصل الذي كتبتَ منه لأُقَابِل معك به قال: ما أتيتُ به معي. فبينا أنا مَعَهُ في ذلك؛ إذ دخل الدهليز علينا رجلٌ بذَّ الهيئة، عَلَيه ثياب غليظةٌ أكثرها صوف، وعلى رأسه عِمامة قد لاثها[٥] من غير إتقان لها فحسبته لما رأيته من بعض أهل البادية فسلم وقعد وقال لي: يا بني استأذن لي على الوزير أبي مروان فقلت له: هو نائم هذا بعد أن تكلفتُ جوابه غاية التكلف، حملني على ذلك نَزوة الصّبا، وما رأيتُ من خشونة هيئة الرجل، ثم سكت عني ساعة وقال: ما هذا الكتابُ الذي بأيديكما فقلت له: ما سؤالك عنه؟ فقال: أحبُّ أن أعرف اسمه فإني كنت

---

(١) أي جاء على خاطره.

(٢) هو محمد بن عبد الملك بن زهر الإيادي: من نوابغ الطب والأدب في الأندلس، ولد بإشبيلية، وخدم دولتي المرابطين والموحدين. ولم يكن في زمنه أعلم منه بصناعة الطب، أخذها عن أبيه، وعرف بالحفيد ابن زهر. من كتُبه (الترياق الخمسيني) في الطب، ورسالة في (طب العيون)، ولد سنة ٥٠٧هـ وتوفي سنة ٥٩٥هـ. الزركلي: الأعلام ٦/ ٢٥٠.

(٣) قال ابن منظور: ما بين الباب والدار، وهي حديقة المنزل مثلاً. لسان العرب، مادة دهلز ٥/ ٣٤٩.

(٤) من موسوعات الأدب التي كُتبت في العصر العباسي، وكان مؤلفه أبو الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ) قد أهداه أول الأمر لسيف الدولة الحمداني الذي أهداه ألف دينار، ثم اشتراه منه الحكم الثاني الأموي بألف دينار أخرى.

(٥) أي كوّرها وأدارها.

أعرف أسماء الكتب! فقلتُ: هو كتاب الأغاني فقال: إلى أين بلغ الكاتب منه قلت: بلغ موضع كذا وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قالبه. فقال: وما لكاتبك لا يكتبُ؟ قلت: طلبتُ منه الأصل الذي يكتب منه لأُعارض به هذه الأوراق. فقال: لم أجئ به معي. فقال: يا بني خذ كراريسك وعارض قلت: بماذا؟ وأين الأصل؟ قال: كنتُ أحفظُ هذا الكتاب في مدة صباي قال: فتبسمتُ من قوله، فلما رأى تبسمي قال: يا بني أَمْسِك عليّ. قال: فأمسكتُ عليه، وجعل يقرأ، فوالله إن أخطأ واواً ولا فاءً قرأ هكذا نحواً من كراستين، ثم أخذتُ له في وسط السِّفر[1] وآخره فرأيتُ حفظه في ذلك كله سواء. فاشتدّ عجبي وقمتُ مُسرعاً حتى دخلتُ على أبي، فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل، فقام كما هو من فوره، وكان ملتفاً برداء ليس عليه قميص[2]، وخرج حاسر الرأس، حافي القدمين لا يرفُقُ على نفسه - وأنا بين يديه وهو يوسعني لوماً - حتى ترامى على الرجل وعانقه، وجعل يُقبّل رأسه ويديه، ويقولُ يا مولاي اعذرني، فوالله ما أعلمني هذا الجِلفُ إلا الساعة، وجعل يسبُّني والرّجل يخفض عليه ويقول: ما عَرَفني. وأبي يقول: هبهُ ما عرفك فما عُذره في حسن الأدب؟! ثم أدخلَهُ الدارُ وأكرم مجلسه، وفلا وخلا به فتحدثا طويلاً، ثم خرج الرجلُ وأبي بين يديه حافياً حتى بلغ الباب، وأمر بدابته التي يركبها فأُسرجت، وحلف عليه ليركبنها ثم لا ترجع إليه أبداً. فلما انفصلَ قلتُ: لأبي من هذا الرجل الذي عظَّمته هذا التعظيم؟ قال: لي اسكت ويحك! هذا أديبُ الأندلس وإمامها وسيدها في علم الآداب، هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون أيسر محفُوظاته كتابُ الأغاني، وما حفظه في ذكاء خاطره وجودة قريحته!»[3].

واستمرت وظيفة المؤدب والمُكَتِّب في طوال التاريخ الأندلسي، وكانت المعايير العامة التي تعارف عليها الأندلسيون في اختيار معلميهم ومؤدبيهم منذ عصر الولاة هي ذاتها حتى سقوط الأندلس في أواخر القرن التاسع الهجري، وقد ذكر ابن بشكوال في «الصلة» والمراكشي «في الذيل والتكملة» والقضاعي في «التكملة لكتاب الصلة» وابن

(١) أي المجلد.
(٢) نوع من الزي كان يُلبس تحت الثياب أو فوقها.
(٣) المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص١٤٢ - ١٤٥.

الأبّار في «الحلة السيراء» وغيرهم من مؤرخي الأندلس كثيرًا من هؤلاء المؤدّبين الذين ذاع صيتهم، وعلت مكانتهم في تأديب وتربية الأطفال مثل علي بن محمد الأنصاري المالقي (ت٦٢١هـ)؛ فقد كان «مُكتّباً مجوداً فاضلاً ديناً»[١]، وأيضًا قاسم بن محمد بن قاسم الصدفي الأرشذوني[٢]؛ فقد كان «مُكتباً فاضلاً مقرئاً صالحاً ذا عناية برواية الحديث وتقييده»[٣]، وانتشرت هذه المكاتب في كل أحياء المدن الكبرى والنائية منها؛ فقد «كان محمد بن عبيد الله بن عبد الله بن يوسف المالقي (ت٦١٧هـ) مُكتِّباً للصبيان بربض التبانين[٤] أصله من قرطبة، استوطن مالقة وأقام بها سنين إلى أن توفي رحمه الله. وكان من أهل الفضل والدين والورع والزهد مقرئاً لكتاب الله تعالى عالماً بطرق روايته قائماً على تجويده وإتقانه حافظاً للفروع»[٥].

وقد تناول لسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ) طائفة من مؤدبي عصره، منهم بعض مؤدبيه مثل «محمد بن عبد الولي الرّعيني (ت٧٥٠هـ) كان يُلازم المكتب، ناصح التعليم، مسوياً بين أبناء النعم، وحلفاء الحاجة... ما رأيتُ أحسن ترتيباً منه، وهو أستاذي وجاري الألصق، لم أتعلم الكتاب العزيز إلا في مكتبه»[٦].

ومما سبق يتضح لنا أن الكتاتيب كانت منتشرة مزدهرة في أرجاء الأندلس، وكان المعلمون والمؤدبون أصحاب تخصصات مختلفة من أراد الذهاب لمعلم الحساب ذهب، ومن أراد اللحاق بمؤدب الخط والهجاء فهو متوفر، لكن جل طلبة العلم من الأطفال لم يكونوا يذهبون لأهل هذه التخصصات المتفاوتة إلا بعد الانتهاء من التأديب على يد محفظ ومعلم القرآن الكريم.

وكما رأينا المؤدبين ومعلمي الأطفال الصغار، وجدنا وظيفة «المدرّس» وإن لم يكن

---

(١) ابن عبد الملك المراكشي: السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة ١/ ٣٠٦، ٣٠٧.
(٢) مدينة تقع اليوم بمقاطعة مالقة من منطقة الأندلس ذاتية الحكم بجنوب إسبانيا، وهي تبعد ٥٢كم شمال مدينة مالقة.
(٣) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة ٢/ ٥٦٩، ٥٧٠.
(٤) أحد الأحياء الخارجية بقرطبة.
(٥) ابن عسكر وابن خميس: مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار ص١٥١.
(٦) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ٣/ ٣٣، ٣٤.

يُدرس في مدرسة مستقلة، وهؤلاء المدرسون كانوا منتشرين في جل المدن الأندلسية، وهم متخصصون في المجالات المختلفة، ينهل منهم طلاب العلم لاسيما من الشباب والفتيان، كلٌّ حسب رغبته واستعداده النفسي والفطري، ومن الطريف أن المقري قد أوقفنا على نصّ مهم لابن سعيد المغربي يوضح لنا فيه خريطة اهتمام الأندلسيين بالعلوم والفنون من حيث الأهمية والمكانة بينهم، قال: «وكل العلوم لها عندهم (أي عند الأندلسيين) حظٌّ واعتناءٌ إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لهما حظًا عظيمًا عند خواصّهم، ولا يُتظاهر بهما؛ خوفَ العامة، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم، أَطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيّدت عليه أنفاسه، فإن زلَّ في شُبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمرُه للسلطان، أو يقْتُله السلطان تقربًا لقلوب العامة، وكثيرًا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وُجدت، وبذلك تقرّب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن... وقراءةُ القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعةٌ، وللفقه رونقٌ ووجاهةٌ، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك، وخواصّهم يحفظون من سائر المذاهب ما يباحثون به بمحاضر ملوكهم ذوي الهمم في العلوم، وسمة الفقيه عندهم جليلة حتى إن الملثّمين[1] كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يريدون تنويهه بالفقيه، وهي الآن بالمغرب بمنزلة القاضي بالمشرق، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيهٌ؛ لأنها عندهم أرفعُ السمات، وعلم الأصول عندهم متوسطُ الحال، والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة، حتى إنهم في هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه لا يَزداد مع هِرم الزمان إلا جِدةً، وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه، وكل عامل في أي علم لا يكونُ متمكنًا من علم النحو، بحيث لا تخفى عليه الدقائق، فليس عندهم بمستحق للتمييز، ولا سالمٌ من الازدراء، مع أن كلامَ أهل الأندلس الشائع في الخواصّ والعوامّ كثيرُ الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية، حتى لو أن شخصًا من العرب سمَعَ كلام الشلوبيني أبي علي[2] المشار إليه بعلم النحو في

---

(١) من القبائل البربرية لا سيما المرابطين منهم.

(٢) أبو علي الشلوبيني هو عمر بن محمد بن عمر: من كبار العلماء بالنحو واللغة، مولده ووفاته بإشبيلية. من كتبه «القوانين» في علم العربية، ومختصره «التوطئة» و «شرح المقدمة الجزولية» في النحو وغيرها، ولد سنة ٥٦٢هـ وتوفي سنة ٦٤٥هـ. الزركلي: الأعلام ٥/ ٦٢.

عصرنا الذي غرّبت تصانيفه وشرَّقتْ وهو يُقرئ درسه لضحك بملء فيهِ من شدّة التحريف الذي في لسانه، والخاصُّ منهم إذا تكلّم بالإعراب، وأخذ يجري على قوانين النحو استثقلوه واستبردوه، ولكن ذلك مُراعىً عندهم في القراءات والمخاطبات بالرسائل، وعلم الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبلُ علم عندهم، وبه يُتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غُفلٌ مستثقَل، والشعر عندهم له حظّ عظيم، وللشعراء من ملوكهم وجاهة، ولهم عليهم وظائف، والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويوقَّع لهم بالصلات[1] على أقدارهم، إلا أن يختل الوقت ويغلب الجهل في حين ما، ولكن هذا الغالبُ، وإذا كان الشخص بالأندلس نحويًا أو شاعرًا فإنه يعْظُم في نفسه لا محالة ويسخف ويُظهر العُجْب، عادةٌ قد جُبِلوا عليها»[2].

ومن حسن حظنا أن مؤلفات التراجم والتواريخ الأندلسية جادت علينا بذكر طائفة لا بأس بها من هؤلاء العلماء المدرسين الذين تعلم على أيديهم شباب الأندلس، ومن الملاحظ أننا لا نعثر على مصطلح «مدرّس» في ظل الخلافة الأموية، فمؤرخو ذلك العصر مثل ابن القوطية (ت٣٦٧هـ) في كتابه «تاريخ افتتاح الأندلس»، وابن الفرضي (ت٤٠٣هـ) في كتابه «تاريخ علماء الأندلس»، وابن حيان القرطبي (ت٤٦٩هـ) في «المقتبس»، وحتى غيرهم من المتأخرين لم يذكروا مصطلح «مدرس» على معلمي الشبان والفتيان وطلبة العلم من البالغين في ذلك الوقت.

غير أننا نجد مصطلح «معلم» يُدلل على معلم الشباب وكذا الأطفال، وإن كانت ترجمة هؤلاء المعلمين هي من تفصل بين العملين، وقد ذكر ابن الفرضي كثيرًا من هؤلاء المعلمين من ذوي الاختصاصات المختلفة، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: أحمدُ بن إبراهيم بن عبد الرحمن الكلاعي (ت٢٩٩هـ) «كان فَقِيهاً حافِظاً للمسائل، عاقداً للشروط»[3]، وبشر بن سعيد العبدري من «بَعض الثغور الشَّرقية، كان مُعلماً فِقهياً،

---

(١) بالجوائز المالية وغيرها.

(٢) المقري: نفح الطيب ١/ ٢٢١، ٢٢٢.

(٣) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس ١/ ٧٣.

وصَاحب صَلاة بموضِعه»[١]، وأما معلمو الحديث النبوي فهم كُثر منهم مسرور السرقسطي[٢]، وقد ذكر ابن الفرضي أيضًا بعض المعلمات مثل فخر المعلمة (ت٣١٧هـ)[٣]، ومن هؤلاء المعلمين من حاز السبق في تعليم كل العلوم التي كانت يتعلمها طلبة العلم وقتئذٍ، ولا شك أن مثل هؤلاء المعلمين قد كانوا من مشاهير زمانهم، لعل أشهرهم مُهاب بن إدريس العدوي (ت٣٥٢هـ)، «كان عالماً بالفرائض، والحساب، والإعراب، وكان معلماً بالفنون جَميعاً»[٤].

ومثل هؤلاء المعلمين وجدنا المدرسين في الأزمنة اللاحقة لزمن الخلافة الأموية بدءًا من عصر الطوائف حتى انفراط عقد دولة الإسلام في الأندلس، فمنهم من كان مدرسًا لمادة الفقه خاصة المالكي منه وهؤلاء انتشروا في كل المدن والقرى الأندلسية، وكانوا كما ذكر ابن سعيد منذ قليل أهل الرونق والنجابة والاحترام، نجد منهم عثمان بن محمد بن عيسى فقيه ومدرس مدينة مُرسية شرق الأندلس (ت٥٨٠هـ)[٥]، و أحمد بن عبد الرحمن بن عيسى (ت٥٦٠هـ) وهو أحد مدرسي الفقه والشروط والأحكام بمرسية أيضًا[٦]، وغانم بن وليد بن محمد (ت٤٧٠هـ) مدرس الفقه في مدينة مالقة[٧]، ومحمد بن يوسف ابن عطاف (ت٥٠٢هـ) مدرس الفقه والرأي بمدينة ألمرية[٨]، قال عنه القُضاعي: «كان فقيهًا مشاورًا مدرسًا يناظر عليه، ويجتمع في علم الرأي إليه وولي قضاء بلده»[٩]، وفي مدينة دانية نجد مدرسها الشهير يونس بن أبي سهولة بن فرج، الذي كان «فقيها مشاورًا مدرسًا عالمًا بالأحكام»[١٠]

(١) السابق ١/ ١١٤.
(٢) السابق ٢/ ١٣٣.
(٣) السابق ١/ ٣٩٥.
(٤) السابق ٢/ ١٥٢.
(٥) ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة ١/ ١٣٨، ١٣٩.
(٦) القضاعي: التكملة لكتاب الصلة ١/ ٦٥.
(٧) ابن بشكوال: الصلة ص٦٦٩.
(٨) المرية (أو العامرية) مدينة أمر ببنائها الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر لدين الله سنة (٣٤٤هـ)، وجاء اسمها من وظيفتها إذ كانت تتخذ مرأى ومرصدًا لمدينة بجانة، وهي من أهم المدن السياحية والصناعية في جنوب إسبانيا اليوم.
(٩) القضاعي: التكملة ١/ ٣٣٣.
(١٠) السابق ٤/ ٢٢٩.

وهناك مُدرّسو الآداب والعربية أيضًا، مثل محمد بن ميمون القرشي مُدرس سرقُسطة الذي يحكي لنا جانبًا من جوانب تأديب الأسرة لأولادها، وإبعاد كل ما يشغلهم عن طلب العلم، قال: «كانت لي في صبوتي جاريةٌ[١] وكنت مُغرىً بها، وكان أبي رحمه الله يَعذلني فيها، ويَعرِضُ لي بيعها؛ لأنها كانت تُشغلني عن الطلب والبحث عليه[٢]، فكان عذله يزيدني إغراء بها، فرأيتُ ليلة في المنام كأن رجلاً يأتيني في زي أهل المشرق، كل ثيابه أبيض، وكان يُلقي في نفسي أنه الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وكان ينشدني:

تصبو إلى مَي ومي لا تَني ... تَزهى ببلواكَ التي لا تنقَضِي

ونجارك القوم الأُلى ما منهم ... إلا إمامٌ أوصى أو نبي

فاثنِ عِنانك للهدى عن ذي الهوى ... وخَفِ الإله عليك ويحكَ وارعَوِي

قال: فانتبهتُ فَزِعًا مفكرًا فيما رأيته، فسألتُ الجارية: هل كان لها اسم قبل أن تتسمى بالاسم الذي أعرفه؟ فقالت: لا. ثم عاودتها حتى ذكرت أنها تُسمّى بمية، فبِعْتُها حينئذ، وعلمتُ أنه واعظٌ وعظني الله ﷻ به وبشرى»[٣]. واشتُهر في سرقُسطة أيضًا محمد بن إبراهيم بن محمد القيسي (توفي بعد ٤٩٠هـ)، قال عنه القُضاعي: «كان من أهل الأدب واللغة عارفا بهما مدرسا لهما حسن الخط مشاركا في النظم والنثر»[٤].

ومن خلال ما سبق من ذكر بعض تراجم هؤلاء المعلمين والمدرسين في الأعصر المختلفة نستطيع أن نستقرئ حال العلوم والتربية منذ دخول الإسلام في الأندلس وحتى نهاية القرن السابع الهجري تقريبًا، فقد كان المعلمون والمدرسون منتشرين في أرجاء الأندلس، يذهب إليهم طلبة العلم، وينتقون أشهرهم وأعلمهم، وفقًا للاهتمام الجمعي للأمة الأندلسية، وذوقها العام في اختيار ما يحلو لهم من علوم وآداب ومعارف.

---

(١) من الرقيق، وهي ملك اليمين.
(٢) أي تشغله عن العلم.
(٣) القضاعي: التكملة لكتاب الصلة ١/ ٣٢٠.
(٤) القُضاعي: التكملة ١/ ٣٢٨.

المدارس

كما ذكرنا من قبل، فقد تأخر إنشاء المدارس المغربية والأندلسية لمدة قرنين أو أكثر عن مثيلاتها في المشرق، وإن قامت المساجد والمجالس العلمية بالدور ذاته.

فقد خرَّجت المدارس التي بناها المرابطون في المدن والبوادي وخاصة في منطقة سوس مجموعة من العلماء النابهين في تخصصات عِدَّة رفعتهم إلى مصافّ رجال الفكر في العالم الإسلامي. وقد بلغت مدارس سوس(١) على سبيل المثال نحو أربعمائة مدرسة، تحدث محمد المختار السوسي في كتابه «سوس العالمة» عن خمسين مدرسة منها(٢)، وفي «مدارس سوس العتيقة» عن مائة مدرسة منها(٣).

وكانت القبائل هي التي تموِّل هذه المدارس عن طريق تخصيص بعض أعشار محصولاتها الزراعية لها، وتحبيس بعض الأملاك من أجل الصيانة والتموين وتحمُّل تكاليف المدرسة، وكانت القبائل السوسية تتنافس في بناء المدارس بالجبال والسهول، وكانت لكل قبيلة مدرسة أو مدرستان أو ثلاث مدارس، ومن أبرز المدارس التي شيِّدت في عصر المرابطين نذكر «مدارس سبتة، وقد كانت هناك عدة مدارس أخرى بطنجة، وأغمات، وسجلماسة، وتلمسان، ومراكش. وكانت هذه المدارس تأوي علم القيروان وثقافة الأندلس المشهورة، حيث نبغ فيها أعلام كبار، منهم القاضي عياض(٤)، وأبو الوليد بن رشد مؤلف كتاب «المقدمات الأوائل» للمدونة، و«البيان والتحصيل»، إلى آخر كتبه القيِّمة»(٥).

ومن أوائل أمراء الموحدين الذين أنشئوا المدارس في المغرب بكثرة، نجد المنصور

(١) قال الحميري عن سوس: «السوس أيضاً في أقصى بلاد المغرب، وهي مدينة جليلة حاضرة جامعة لكل خير وفضل، وأهلها أخلاط، وهي بلاد السكر ويصنع بها منه كل شيء كثير ويتجهز منه إلى الآفاق، وهي قريبة من أغمات» أي أنها جنوب وسط المغرب. الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ص٣٢٩.

(٢) محمد المختار السوسي: سوس العالمة ص١٥٤-١٦٧.

(٣) محمد المختار السوسي: مدارس سوس العتيقة ص٩٣-١٣٤.

(٤) القاضي عياض: هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي (٤٧٦- ٥٤٤هـ/ ١٠٨٣-١١٤٩م)، كان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. ولي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة، وتوفي بمراكش.

(٥) الحسن السائح: الحضارة المغربية ٢/ ٦٤.

الموحدي (ت٥٩٥هـ)، وقد كان المنصور من الأمراء العلماء، قال الذهبي عن علمه وثقافته نقلاً عن أحد المؤرخين الذين عاصروه ويُسمى تاج الدين بن حمويه: «كانت مجالسه مُزينة بحضور العلماء والفضلاء، تُفْتَتحُ بالتلاوة ثم بالحديث، ثم يدعو هو، وكان يُجيد حفظ القرآن، ويحفظ الحديث، ويتكلم في الفقه، ويناظر، وينسبونه إلى مذهب الظاهر. وكان فصيحًا، مهيبًا، حسن الصورة، تام الخلقه، لا يُرى منه اكفهرار، ولا عن مجالسه إعراض، بزي الزهاد والعلماء، وعليه جلالة الملوك، صنف في العبادات، وله (فتاو)»[١].

وقد قال مؤرخ المغرب الناصري عن بعض المباني والمدارس التي تمت في زمنه: «لما اجتاز المنصور في سفره بأرض سلا[٢] أمر أيضا ببناء مدينة رباط الفتح فأسست سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة وأكمل سورها ورُكّبت أبوابها، وأمر ببناء المسجد الأعظم بطالعة سلا ومدرسة الجوفية»[٣].

وقد ذكر مؤرخ هذه الحقبة ابن أبي زرع في «الأنيس المطرب» أن المنصور الموحدي أكثر من إنشاء المدارس في كل أرجاء دولته، قال: «بنى المساجد والمدارس في بلاد إفريقية والمغرب والأندلس... وأجرى المرتبات على الفقهاء وطلبة العلم كل على قدر مرتبته»[٤].

وكان الإنفاق على طلبة العلم والمعلمين أحد أبرز المظاهر الملازمة لتاريخ التربية الإسلامية، خاصة مع العمل بالأوقاف التي كانت أهم داعم اقتصادي لهذه المنشئات العلمية والتربوية، والتي أفادت طلبة العلم كثيرًا.

ومنذ المنصور الموحّدي لم تتوقف حركة إنشاء المدارس الموقوفة في المغرب، رغبة في نشر العلوم والمعارف بين الطلبة لا سيما الفقراء منهم، ومن أشهر هؤلاء الأمراء يعقوب بن عبد الحق المريني وأولاده من بعده (ت٦٨٥هـ) فقد خصّص الناصري في كتابه «الاستقصا» فصلاً عن بناء مدارس العلم في حاضرة فاس في زمن المنصور يعقوب بن

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٢١/ ٣١٦.
(٢) تقع مدينة سلا على الضفة اليمنى لنهر أبي رقراق عند مصبه في المحيط الأطلسي محاذية بذلك مدينة الرباط عاصمة المغرب.
(٣) الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصا ٢/ ١٩٥.
(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص٢١٧.

عبد الحق المريني وأولاده جاء فيه: «بنى مدرسته التي بفاس مع غيرها، ووقف عليها كُتُب العلم التي بعث بها إليه الطاغية سانجة عند عقد الصلح معه، ووقف عليها غير ذلك، واقتفى أثره في هذه المنقبة الشريفة بنوه من بعده فاستكثروا من بناء المدارس العلمية والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة وأجروا على الطلبة بها الجرايات الكافية، فأمسكوا بسبب ذلك من رمق العلم، وأحيوا مراسمه، وأخذوا بضبعيه، جزاهم الله عن نيتهم الصالحة خيرًا»[١].

وهذه الكُتب التي ذكرها الناصري كانت قد وقعت في يد نصارى الإسبان إثر استيلائهم على مدن الأندلس المختلفة، وكان يعقوب المريني قد هزمهم في أكثر من موقعة، وعقد معهم هدنات كثيرة، وشروطا عدة لا سيما الشروط التي وقّعت سنة ٦٨٤هـ والتي جاء فيها: «أن يبعث إليه بكتب العلم التي بأيدي النصارى منذ استيلائهم على مدن الإسلام فبعث إليه منها ثلاثة عشر حملا فيها جملة من مصاحف القرآن الكريم وتفاسيره: كابن عطية والثعلبي ومن كتب الحديث وشروحاتها كالتهذيب والاستذكار ومن كتب الأصول والفروع واللغة والعربية والأدب وغير ذلك فأمر السلطان رحمه الله بحملها إلى فاس وتحبيسها[٢] على المدرسة التي أسسها بها لطلبة العلم»[٣].

وبدأ الاهتمام بإنشاء المدن الجامعية والفنادق لطلبة العلم، وتجلت هذه المظاهر الجديدة منذ إنشاء أبي سعيد عثمان بن يعقوب المريني (ت٧٣١هـ) وولي عهده من بعده لهذه المدارس قال الناصري: «لما كانت سنة عشرين وسبعمائة أمر السلطان أبو سعيد رحمه الله ببناء المدرسة التي بفاس الجديد فبنيت أتقن بناء وأحسنه، ورتب فيها الطلبة لقراءة القرآن، والفقهاء لتدريس العلم، وأجرى عليهم المرتبات والمؤن في كل شهر، وحبس (أوقف) عليها الرّباع[٤] والضياع ابتغاء ثواب الله؛ ورغبةً فيما عنده، وفي سنة إحدى وعشرين بعدها بنى ولي عهده الأمير أبو الحسن المدرسة التي بغربي جامع الأندلس من

(١) الناصري: الاستقصا ٣/ ١١١.
(٢) أي وقفها وجعلها في خدمة طلبة العلم على سبيل التأبيد.
(٣) الناصري: الاستقصا ٣/ ٦٤.
(٤) قال ابن منظور: الرِّباع هي المنازل. لسان العرب، مادة ربع ٨/ ٩٩.

حضرة فاس، فجاءت على أكمل الهيئات وأعجبها، وبنى حولها سقاية ودار الوضوء وفندقًا لسُكنى طلبة العلم، وجلب الماء إلى ذلك كله من عين خارج باب الجديد أحد أبواب فاس، وأنفق على ذلك أموالاً جليلةً تزيدُ عن مائة ألف دينار، وشحنها بطلبة العلم، وقراء القرآن، وحبس عليها رِباعًا كثيرةً، ورتّب فيها الفقهاء للتدريس، وأجرى عليهم الإنفاق والكسوة، وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة في فاتح شعبان منها أمر السلطان أبو سعيد أيضًا ببناء المدرسة العظمى بإزاء جامع القرويين بفاس وهي المعروفة اليوم بمدرسة العطّارين، فبُنيت على يد الشيخ أبي محمد عبد الله بن قاسم المزوار، وحضر السلطان أبو سعيد بنفسه في جماعة من الفقهاء وأهل الخير حتى أُسّست، وشرع في بنائها بمحضره، فجاءت هذه المدرسة من أعجب مصانع الدول، بحيث لم يبن ملك قبله مثلها، وأجرى بها ماء معينًا من بعض العيون هنالك، وشحنها بالطلبة، ورتّب فيها إمامًا ومؤذنين، وقَوَمة يقومون بأمرها، ورتّب فيها الفقهاء لتدريس العلم، وأجرى على الكل المرتبات والمؤن فوق الكفاية، واشترى عدة أملاك ووقفها عليها احتسابا بالله تعالى»[(١)].

واتسع إنشاء المدارس في ظل بني مرين، فقد أنشأ أبو الحسن علي بن عثمان المريني (ت٧٤٩هـ) مجموعة من المدارس الرائعة، قال الناصري: «بنى رحمه الله عدة مدارس منها المدرسة العُظمى بمرّاكش قبلي جامع ابن يوسف... ومن وقفَ على هذه المدرسة، وتأمّل تنجيدها وتنميقها قدّر هذا السلطان، وعَلِمَ عِظَم أهميته، ومحبته للعلم وأهله، ومنها المدرسة العظمى بمدينة سلا قبلي المسجد الأعظم منها بناها رحمه الله على هيئة بديعة وصنعة رفيعة وأودع جوانبها من أنواع النقش وضروب التخريم ما يحير البصر ويدهش الفكر ووقف عليها عدة أوقاف رصع أسماءها بالنقش والأصباغ على رخامة عظيمة ثم نصب الرخامة بالحائط الجوفي منها كل ذلك محافظة على تلك الأوقاف أن تغير»[(٢)].

ويبدو أن بني مرين ساروا على ذات النهج الذي سار عليه المماليك في مصر، إذ نجد التشابه في النظام الإداري والتعليمي والتربوي واضحًا، وإن كان المماليك أسبق في وضع هذا النظام من المغاربة.

---

(١) الناصري: الاستقصا ٣/ ١١١، ١١٢.

(٢) الناصري: الاستقصا ٣/ ١٧٥.

ولقد تميزت مدارس بني مرين بمراكش وفاس باحتوائها على جملة من العلماء والمدرسين النابهين، وقد لفتت هذه المدارس نظر المؤرخ الأديب لسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ)، فنراه قائلاً في ترجمته للعلامة الفاسي عبد الله بن أبي القاسم بن جزي الكلبي أنه: «خزانة تنفق الأدب إذا كسد، وتُصْلح من أدواته ما فسد، ونفسٌ لا تناسب الجسد، هي حركة في جمود، وبحر مجمود... إن ذُكر النحو أزرى بحِفَاظ بصرته، وسلّ على كافة الكوفيين صوارم نصرته، أو ذُكر البيان، أنسى الخبر العيان... وهو اليوم بمدرسة الحضرة يعرب فيغرب، فيباهي به على المشرق والمغرب، وشعره وإن شغلته عنه شواغل الفنون، مظنة اللؤلؤ المكنون، وشاهد لعناية الله تعالى بالحمأ المسنون، وإيجاد المعدومات بين الكاف والنون»[(١)].

ولقد وجد مدرسون متخصصون يقومون بالتدريس في مدارس المدن المغربية المختلفة، خاصة مدرسة فاس وهي أشهر مدارس القرن السابع والثامن الهجري، فمن جملة هؤلاء إبراهيم بن عبد الرحمن التسولي، وهو أحد شيوخ لسان الدين بن الخطيب، قال عن حلقته وطريقة تأديبه وتعليمه وبعض أخلاقه: «حضرتُ مجالسه بمدرسة عدوة الأندلس من فاس، ولم أر في متصدري بلده أحسن تدريباً منه، كان فصيح اللسان، سهل الألفاظ، موفياً حقوقها... وكان مع ذلك شيخاً فاضلاً، حسن اللقاء، على خلق بائنة من أخلاق أهل مصره[(٢)]»[(٣)].

ولم يكن يُختار لإدارة هذه المدارس غير الأكفاء من العلماء، لا فرق بين أندلسي ومغربي، فالمدرسة المرينية بمدينة سلا المغربية كان رئيسها عالم أندلسي في زمن ابن الخطيب (ت٧٧٦هـ)، وهو العلامة علي بن إبراهيم المالقي نسبة إلى مدينة مالقة في جنوب الأندلس، قال عنه ابن الخطيب: «آية الله في الحفظ، وثقوب الذهن، والنجابة في الفنون، وفصاحة الإلقاء... إمام في العربية، لا يشق فيها غباره، حفظاً وبحثاً، وتوجيهاً واطلاعاً... رحل عن بلده مالقة، بعد التبريز في العدالة والشهرة بالطلب، واستقر

(١) لسان الدين بن الخطيب: الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة ص٩٦.
(٢) أي أهل بلده.
(٣) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ١/ ٣٧٢، ٣٧٣.

بالمغرب، فأقرأ بمدينة أنفا[١]، منوهاً به، ثم بسلا، واستوطن بها، رئيس المدرسة بها، مجهراً بكرسيها، فارعاً بمنبرها، بالواردة السلطانية، يفسر كتاب الله بين العشاءين، شرحاً كثير العيون، محذوف الفضول، بالغاً أقصى مبالغ الفصاحة، مسمعاً على المحال النابية، ويدرس من الغدوات بالمدرسة، دولاً في العربية والفقه، أخذه بزمام النبل، مترامية إلى أقصى حدود الاضطلاع، وحضر المناظرة، بين يدي السلطان، فاستأثر بشقصٍ[٢] من رعيه، وأعجب بقوة جأشه، وأصالة حفظه، فأنمى جراياته، ونوه به»[٣].

أما الأندلس فالمدارس فيها كانت معدومة على أحسن تقدير، ولم تُبن مدارس بها إلا منذ القرن الثامن الهجري، وهي قليلة جدًا، قال المقَّري (ت١٠٤١هـ) نقلاً عن ابن سعيد المغربي (ت٦٨٥هـ) عند حديثه عن حب الأندلسيين للعلماء وذمهم للجهلاء، وانتفاء المدارس من بلادهم: «وأما حال أهل الأندلس في فنون العلوم فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التميز، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعه، ويربأ بنفسه أن يُرى فارغًا عالةً على الناس؛ لأن هذا عندهم في نهاية القبح، والعالم عندهم مُعظّم من الخاصة والعامة، يُشارُ إليه، ويُحال عليه، وينبه قدره وذكره عند الناس، ويُكْرم في جوار أو ابتياع حاجة وما أشبه ذلك، ومع هذا فليس لأهل الأندلس مدارس تُعينهم على طلب العلم، بل يقرءون جميع العلوم فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بباعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه وينفق من عنده حتى يعلم»[٤].

ومع انتفاء وجود المدارس حتى زمن ابن سعيد في القرن السابع الهجري، إلا أن القرن الثامن حمل رغم تضاؤل مساحة الأندلس تطورًا جديدًا حينما أُدخلت المدارس إلى الأندلس، وقد تحدث ابن الخطيب (ولد ٧١٣ وتوفي ٧٧٦هـ) عن عدد من المدارس التي أنشئت في غرناطة وأرباضها والمدن التابعة لها، ومن الملاحظ أنها مدارس موقوفة شارك العامة والخاصة في إنشائها لطلبة العلم، منها المدرسة النصرية التي بُنيت في عهد السلطان

---

(١) إحدى أحياء مدينة الدار البيضاء في وقتنا هذا.
(٢) أي جزء وجانب من اهتمامه. لسان العرب، مادة شقص ٧/ ٤٨.
(٣) ابن الخطيب: الإحاطة ٤/ ١١٧.
(٤) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ١/ ٢٢١.

محمد الغني بالله بن يوسف بن الأحمر (ت٧٩٣هـ)، ومن جملتها أنه بنى مدرسة بها[١]، وثمة مدرسة أنشأها قائد الجيش الغرناطي الخادم رضوان النصري (ت٧٦٠هـ)، قال عنها ابن الخطيب: «أحدث المدرسة بغرناطة، ولم تكن بها بعد، وسبّب إليها الفوائد ووقف عليها الرباع المغلة[٢]، وانفرد بمنقبها، فجاءت نسيجة وحدها بهجة وصدراً وظرفاً وفخامة، وجلب الماء الكثير إليها من النهر، فأبّد سُقيه عليها»[٣].

ومن المدارس الأهلية التي أنشأها بعض أثرياء المسلمين مدرسة المعمم الساحلي واسمه محمد بن محمد بن عبد الرحمن المالقي (ت٧٥٤هـ)، وكان من أغنياء مدينة مالقة، قال: «بنى المدرسة غربي المسجد الأعظم، ووقف عليها الرباع (المنازل)»[٤].

ورغم أفول دولة الإسلام في الأندلس إلا أن البقية التي مكثت تحت الحكم النصراني هناك بعد عام ٨٩٧هـ واستطاعت إلى حد ما أن تتأقلم مع الأوضاع الجديدة، وقد كانت بلاد الأندلس متفاوتة من حيث اضطهاد المسلمين من مدينة لأخرى.

وقد ألحق المؤرخ الإسباني خوليان ريبيرا في كتابه «التربية الإسلامية في الأندلس» صورة لوثيقة هي خاتمة لمجلد يجمع عددًا من الكراسات نسخها التلميذ شبطون الطيرولي في مبنى جامعة المدجنين[٥] في الحي العربي من مدينة سرقسطة[٦]، ونصّها: «كملت المسايل، والحمد لله على ذلك، والصلاة التامة على سيدنا ونبينا ومولانا محمد الكريم، وكان الفراغ منها في مدرسة ربض المسلمين بمدينة سرقسطة في يوم الاثنين، وفي العشر الأوائل من ربيع الآخر ماضية ٨٥١هـ على يدي كاتبها العبد الفقير لربه، الراجي عفوه وغفرانه: التلميذ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن شبطون الطيرولي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. آمين يارب العالمين، لا رب غيره، ولا معبود سواه»[٧].

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة ١/ ٥٠٨.
(٢) أي المنازل المؤجرة التي تأتي الأموال من استئجارها.
(٣) ابن الخطيب: الإحاطة ١/ ٥٠٨.
(٤) السابق ٣/ ١٩١.
(٥) المسلمون الذين تخلفوا في الأندلس تحت حكم النصارى، واحتفظوا بلغتهم ودينهم وإرثهم.
(٦) هي عاصمة مقاطعة سرقسطة وهي أيضا عاصمة منطقة أراغون في شمال شرق إسبانيا، تقع على نهر إيره.
(٧) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس ص١٣٦.



(صورة رقم ٩ قلعة الجعفرية بمدينة سرقسطة).

وما يهمنا في هذه الوثيقة أن المسلمين في سرقسطة في شمال شرق الأندلس – وهي مدينة إسلامية سقطت في يد النصارى قبل هذا التاريخ المذكور في الوثيقة بـ٣٣٠عامًا تقريبًا – كانت لهم مدرسة أي جامعة للعلوم الإسلامية وظلوا بها حتى تم إجلاؤهم نهائيًا عام ١٦٢٢م.

إذن دخلت المدارس إلى الأندلس في فترات متأخرة، وكان لدخولها أكبر الأثر في تطور العلوم وإحيائها، لكن الأندلسيين كما ذكر ابن سعيد من قبل كانوا يتعلمون بوازع نفسي، وباعث شخصي، ومن ثم كان للمجالس العلمية الأثر ذاته الذي عُوّل على المدارس، وفي هذه المجالس تلقى طلاب الحضارة الإسلامية كل ما أرادوه من التربية والتأديب والتعليم، وحتى المناظرات التي أصقلتهم، علميًا وأدبيًا.

المجالس العلمية

كانت المجالس العلمية في المغرب والأندلس بمثابة المدارس في المشرق، وإن لم تنتف هذه المجالس في المشرق مع وجود المدارس والجامعات، ولقد كان لهذه المجالس أبرز

الأثر في تربية الأمة المغربية والأندلسية، ونقول الأمة؛ لأنها لم تتقيد بطبقة معينة من أبناء المجتمع، حيث كانت هذه المدارس «لكل الناس» بلا مبالغة.

فمن أشهر المجالس العلمية، نجد مجالس العلامة سحنون في تونس والقيروان، ولقد ذكر القاضي النباهي في «تاريخ قضاة الأندلس» نتفًا عن مجالس التربية والتعليم، وكيف أن هذه المجالس لم تكن مخصصة للمدرسين فحسب، بل كان للقضاة دور تربوي وتعليمي بجوار الوظيفة الأساسية لهم، قال عن الإمام سحنون المالكي رحمه الله واسمه عبد السلام ابن سعيد (ت٢٤٠هـ) - وكان من أعلم الناس بمذهب الإمام مالك في تونس - عن دوره التربوي: «حصل الناس بولايته على شريعته من الحق؛ ولم يل قضاء إفريقية مثله، ويقال: إنه ما بورك لأحد بعد أصحاب رسول الله ﷺ ما بورك لسحنون في أصحابه؛ فإنهم كانوا أئمة بكل بلدة. وكان الذين يحضرون مجلسه من العباد أكثر من طلاب العلم»[1].

ويؤكد على هذا مؤرخ إفريقية أبو بكر المالكي (ت٤٣٨هـ) في كتابه «رياض النفوس في طبقات علماء القيروان» الذي جاء بذكر تفاصيل مهمة عن مجلس العلامة المالكي سحنون، والتي تُبين لنا التصاقه وقربه من العامة والناس عمومًا في هذه المجالس العلمية المتخصصة، وما يؤكد على ذلك هذه الحكاية التي أسندها المالكي إلى العلامة أبي الحسن القابسي (ت٤٠٣هـ) حيث قال: «أتى رجل إلى سحنون ﷺ، فجلس حتى انصرف الناس وخلا المجلس فأخذ في البكاء، فسأله سحنون وألحّ عليه فيما أوجب ذلك، فذكر له أنه رأى ما استعظمه، فلم يزل به حتى شرح له ذلك، فذكر له أنه رأى كأن القيامة قد قامت وأن الناس قد حُشروا، ثم قال لسحنون: وقد أُتي بك وأنا أعرفك في منامي كما أعرفك في يقظتي. ثم وصف له أنه فُعل به من الأغلال والسرابيل وأصناف الأنكال أمر عظيم، وأنه أُمر به فأُلقي في النار. قال الرائي: فانتبهتُ مذعورًا. فزعموا أن سحنونًا صبّره وسكّنه، وأرسل في طلب رؤساء كنيسة النصارى، فأُتي باثنين منهم، فجلسا، ثم سألهما سحنون، فقال لهما: هل مات لكم أحدٌ في هذا الوقت تُعظّمونه؟ قالا: بلى. ووصفا من حال ميتهم

(١) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس ص٢٩.

شيئًا كثيرًا. فقال لهما سحنون: هل من شأنكم أن تروا في منامكم لميتكم شيئًا؟ قالا: بلى. قال: فهل رأيتما لهذا الميت الذي وصفتما شيئًا؟ فقالا: نعم، جاءت فيه رؤىً كثيرة. ووصفا فيه من الخير والترفيع له أمرًا كبيرًا. فقال: انصرفا. ثم قال للرجل: كيف ترى؟ هل تشكُّ في هؤلاء ومن مات منهم أنه من أهل النار؟ فقال الرجل: لا. فقال له سحنون: فاعلم أن الشيطان يأتي المؤمن بما يُثبّطه ويُنفّره عن الخير ويُمقّته إليه ويُمقّتُ إليه أهله، ويأتي إلى الكافر بما يغبطُ إليه حالهُ ويُثبته على أمره. وإنما رآك تُكثرُ الاختلاف إلينا والائتمام بنا، فأراد أن يخذلك ويصدّك»[1].

ويبدو أن مجالس العلم بالقيروان كانت مفتحة لكل الناس حتى القرن الخامس الهجري، وإن قصةَ دخول عبد الله بن ياسين إلى بلاد الصحراء لتعليم قبائل صنهاجة كتاب الله وشرعه، أصلُها ومبتداها من مجلس علم العلامة القيرواني أبي عمران الفاسي، وقد أفرزت هذه المجالس ثمرة جديدة كانت متمثلة في دولة المرابطين المجاهدين.

ذكر صاحب كتاب «الحُلل الموشية» وهو مصدر مهم لدولة المرابطين والموحدين أنه: لما توفي أبو عبد الله بن تيفاوت قام بأمر صنهاجة من بعده يحيى بن إبراهيم الكدالي[2] فاستمر الأمير يحيى بن إبراهيم على رياسة صنهاجة وحربهم لأعدائهم، إلى أن كانت سنة سبع وعشرين وأربعمائة، فاستخلف على صنهاجة ابنه إبراهيم بن يحيى، وارتحل إلى المشرق برسم الحج، فلما قضى حجّه وزيارته، قَفَل إلى بلاده، فمرّ في عوده بالقيروان، فلقي بها الشيخُ الفقيه أبا عمران الفاسي[3] وحضر **مجلس درسه وتأثر بوعظه**، فرآه الشيخ أبو عمران محبًا في الخير، فأعجبه حاله، وسأله عن اسمه ونسبه وبلده، فأخبره بذلك كله، وأعلمه بسعة بلاده، وما فيها من كثرة الخلق، فقال له الشيخ: وما ينتحلون من المذاهب؟ قال: إنهم قوم غلبَ عليهم الجهلُ وليس لهم كبير علم. فاختبره الشيخُ وسأله عن فروض دينه فلم يجده يعرف منها شيئًا، إلا أنه حريص على التعلم صحيح النية والعقيدة. فقال له الشيخ: وما يمنعك من تعلم العلم؟ فقال: يا سيدي عدم وجود عالم بأرضي وليس في

(١) أبو بكر المالكي: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان ١/ ٣٦٩، ٣٧٠.
(٢) قال الناصري: وكدالة ولمتونة أخوان يجتمعان في أب واحد وكل منهما قبيلة كبيرة يسكنون الصحراء التي تلي بلاد السودان غرب إفريقيا الأن ويليهم من جهة المغرب البحر المحيط أي: المحيط الأطلسي. الاستقصا ٢/ ٦.
(٣) أحد أكابر علماء وفقهاء القيروان في القرن الخامس الهجري.

بلادي من يقرأ القرآن فضلا عن العلم ومع ذلك فأهل أرضي يحبون الخير ويرغبون فيه لو وجدوا من يقرئهم القرآن ويدرس لهم العلم ويفقههم في دينهم ويعلمهم الكتاب والسنة وشرائع الإسلام فلو رغبت في الثواب من الله تعال لبعثت معي بعض طلبتك يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين فينتفعون به ويكون لك وله الأجر العظيم عند الله تعالى إذ كنت سبب هدايتهم، فندب الشيخ أبو عمران تلامذته إلى ذلك فاستصعبوا دخول أرض الصحراء وأشفقوا منها فقال الشيخ أبو عمران ليحيى بن إبراهيم إني أعرف ببلد نفيس من أرض المصامدة فقيها حاذقا ورعا أخذ عني علما كثيرا واسمه وأجاج بن زلو اللمطي من أهل السوس الأقصى أكتب إليه كتابا لينظر في تلامذته من يبعثه معك فسر إليه لعلك تجد حاجتك عنده، فكتب إليه الشيخ أبو عمران كتابا يقول فيه: أما بعد... إذا وصلك حامل كتابي هذا وهو يحيى بن إبراهيم الكداني فابعث معه من طلبتك من تثق بعلمه ودينه وورعه وحسن سياسته ليقرئهم القرآن ويعلمهم شرائع الإسلام ويفقههم في دين الله ولك وله في ذلك الثواب والأجر العظيم، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، فسار يحيى بن إبراهيم بكتاب الشيخ أبي عمران حتى وصل إلى الفقيه وأجاج بمدينة نفيس فسلم عليه ودفع إليه الكتاب وكان ذلك في رجب سنة ثلاثين وأربعمائة فنظر الفقيه وأجاج في الكتاب ثم جمع تلامذته فقرأه عليهم وندبهم لما أمر به الشيخ أبو عمران فانتدب لذلك رجل منهم يقال له عبد الله بن ياسين الجزولي وكان من حذاق الطلبة ومن أهل الفضل والدين والورع والسياسة مشاركا في العلوم فخرج مع يحيى بن إبراهيم إلى الصحراء، ثم بدأت قصة المرابطين المعروفة والمشهورة[1].

وإن كنتُ قد أطلت في ذكر هذه القصة، إلا أن الإطالة لسبب وجيه، وهو معرفة تفاصيل تلك المجالس العلمية التي كانت تدور بين العلماء وعامة الناس، وهذه القصة في عمومها تُشبه قصة العلامة سحنون مع السائل من حيث اهتمام العلماء بتيسير الإجابة على السائل، بل والجهد في سبيل تحقيقها كما نرى من فعل أبي عمران الفاسي رحمه الله مع يحيى ابن إبراهيم الكدالي رحمه الله.

وحتى نقرب الصورة لمعرفة كيفية التدريس والتعليم في تلك المجالس المغربية لنا أن

(١) مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ص١٩، ٢٠.

نرجع للعلامة المقري الجد (ت٧٥٦هـ)، قال عن شيخه عمران بن موسى المشدالي ومجلس علمه، وسعة اطلاعه: «وممن أخذتُ عنه أيضا حافظها ومدرسها ومفتيها أبو موسى عمران بن موسى بن يوسف المشدالي، وكان قد فر من حصار بجاية فنزل الجزائر فبعث فيه أبو تاشفين وأنزله من التقريب والإحسان بالمحل المكين، فدرّس بتلمسان[(١)] الحديث والفقه والأصلين والنحو والمنطق والجدل والفرائض، وكان كثير الاتساع في الفقه والجدل مديد الباع فيما سواهم»، وتعجّب المقري من سعة علمه، وذكر له بعض المسائل الفقهية الغريبة التي استطاع الإجابة عليها، منها: «سئل عمران وأنا عنده عما صُبغَ من الثياب بالدّم فكانت حمُرته منه؟ فقال: يُغسلُ فإن لم يخرج شيءٌ من ذلك في الماء فهو طاهرٌ؛ لأن المتعلّق به على هذا التقدير ليس إلا لونُ النجاسة، وإذا عَسُر قلْعُهُ بالماء فهو عفوٌ وإلا وجبَ غَسْلُه إلى أن لا يخرج منه شيء. قلتُ: في البخاري قال معمر: رأيتُ الزهري يصلي فيما صبغ بالبول من ثياب اليمن وتفسيره على ما ذكره عمران»[(٢)].

وفي الأندلس كانت هناك العديد من المجالس العلمية التي كان يحضرها العامة والخاصة منها مجالس العلامة يحيى بن يحيى الليثي أحد تلاميذ مالك بن أنس، وأحد الناشرين للمذهب المالكي في الأندلس (ت٢٣٤هـ) قال عن مجلسه أبو سعيد المغربي: «تفقه به جماعة لا يحصون وكان مع إمامته ودينه مكينا عند أمراء الأندلس معظما وعفيفا عن الولايات منزها جلت درجته عن القضاء فكان أعلى قدرا من القضاة عند ولاة الأمر هنالك لزهده في القضاء وامتناعه منه»[(٣)].

ومن اللافت أن المنصور بن أبي عامر (ت٣٩٢هـ) مؤسس الدولة العامرية في الأندلس، قال عن مجلس ابن سعيد: «كان له مجلس معروف في الأسبوع يجتمع فيه أهل العلم»[(٤)].

وكان لصاحب الشرطة في الدولة العامرية وهو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم

---

(١) مدينة في شمال غرب الجزائر، عاصمة ولاية تلمسان الآن.
(٢) المقري: نفح الطيب ٥/ ٢٢٤.
(٣) ابن سعيد المغربي: المغرب في حُلى المغرب ١/ ١٦٤.
(٤) السابق ١/ ١٩٩.

الحضرمي (ت٣٩٦هـ) مجلسًا «محتفلاً بوجوه الناس وطلبة العلم»[١].

وانتشرت هذه المجالس في بلدان الأندلس كلها، ففي مدينة جيّان[٢] وجدنا مجلس محمد بن أحمد بن إبراهيم بن جامع (ت٥٤٦هـ)، قال ابن عبد الملك المراكشي بعد حديثه عن إقامة ابن جامع في مدينة فاس المغربية: « تحول إلى بلده جيان، فجلس فيها بمسجده المنسوب إليه للوعظ والقصص وإيراد حكايات الصالحين، ونحا منحى الزهد، وكانت العامة تنتاب مجلسه»[٣].

وفي طُليطلة[٤] اشتهر مجلس إبراهيم بن محمد بن حسين بن شنظير الأموي، الذي يتضح من اسم جده أنه كان من الإسبان الذين أسلموا وهداهم الله للتوحيد والإيمان، قال ابن بشكوال عن حلقة علمه: «كان سُنيا منافراً لأهل البدع والأهواء لا يسلم على أحد منهم، كثير العمل. ما رؤى أزهد منه في الدنيا، ولا أوقر مجلسا منه كان لا يذكر فيه شيء من أمور الدنيا إلا العلم. وكان وقوراً متهيباً في مجلسه لا يقدم أحد أن يتحدث فيه بين يديه ولا يضحك. وكان الناس في مجلسه سواء»[٥].

وفي طُليطلة كذلك اشتهر مجلس العالم الزاهد أحمد بن سعيد بن كوثر الأنصاري (ت٤٠٣هـ) الذي كان يُكرم طلاب علمه الوافدين عليه من أنحاء الأندلس كلها، بتوفير المجلس الدافئ، والمأكل والمشرب لهم طوال فترة مكوثهم معه، وتعلمهم على يديه في فصل الشتاء وكانت تمتد لثلاثة أشهر على الأغلب، وقد حكى لنا أحد تلامذته ويُدعى عبد الله بن سعيد بن أبي عون الذي يقول: « كنت آتي إليه من قلعة رباح[٦] وغيري من المشرق، وكنا نيفاً على أربعين تلميذاً، فكنا ندخل في داره في شهر نونبر (نوفمبر)، ودجنبر (ديسمبر)، وينير (يناير) في مجلس قد فُرش بُسط الصوف مبطَّنات، والحيطان باللبود من

---

(١) ابن بشكوال: الصلة ص١٤٨.

(٢) جيّان: مدينة وعاصمة مقاطعة تقع في جنوب إسبانيا وفي الشمال الغربي لإقليم الأندلس ذاتي الحكم.

(٣) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة ٢/ ٥٨٣، ٥٨٤.

(٤) إحدى مقاطعات إسبانيا، تقع في الجزء الأوسط من البلاد.

(٥) ابن بشكوال: الصلة ص١٥٠.

(٦) قلعة رَبَاح (سميت نسبة إلى رباح، الأمير الذي حكمها في القرن الثالث الهجري) مدينة أندلسية قديمة، تقع بين طليطلة وقرطبة، وهي أطلال اليوم.

كل حول، ووسائد الصوف، وفي وسطه كانون[١] في طوله قامة الإنسان مملوءًا فحماً يأخذ دِفْئَهُ كلُّ من في المجلس، فإذا فرغ الحديث أمسكهم جميعاً[٢]، وقُدِّمت الموائد عليها ثرائد من بلحوم الخرفان بالزيت العذب، وأياماً ثرائد اللبن بالسمن أو الزبد، فتأكل تلك الثرائد حتى نشبع منها، ويقدم بعد ذلك لوناً واحداً ونحن قد رُوينا من ذلك الطعام، فكنا ننطلق قرب الظهر مع قصر النهار ولا نتعشى حتى نصبح إلى ذلك الطعام الثلاثة الأشهر، فكان ذلك منه كرماً وجوداً وفخراً لم يسبقه أحد من فقهاء طليطلة إلى تلك المكرمة»[٣].

وفي مدينة ألمرية اشتُهرت مجالس العلامة أبي الوليد الباجي (ت٤٧٤هـ) – الذي سنقف مع وصيته التربوية بعد قليل – وكانت هذه المجالس تحوي آلافًا من طلبة العلم، قال أحد تلامذته وهو العلامة الحافظ أبو علي بن سُكَّرة: «ما رأيت مثله، وما رأيت على سمته، وهيئته وتوقير مجلسه. وقال: هو أحد أئمة المسلمين»[٤]، وذكر ابن بشكوال أنه «كان يحضر مجلس سليمان بن خلف رحمه الله ثلاثة الآف رجل للسماع منه. وكان له مستملٍ كان صوته أخفض من الرعد. فقيل له: ارفع صوتك لأنا لا نسمع. فقال سليمان بن خلف: إن علو الإسناد لمن زينة الحياة الدنيا. وابتدأ يحدث فقال: حدثنا حماد بن زيد. قال القاضي أبو علي: وغير الباجي يقول: إن سليمان بن خلف كان يحضره أربعون ألف رجل»[٥].

وهناك مجلس العلامة اللغوي أبو علي الصدفي حسين بن محمد بن سُكرة (ت٥١٤هـ) تلميذ أبي الوليد الباجي، كان مجلس علمه بمدينة بلنسية منذ رجوعه من رحلته المشرقية التي استمرت عشر سنوات أو أزيد بقليل، حافلاً بالناس، قال المقّري: «قصد مرسية فاستوطنها وقعد يحدث الناس بجامعها ورحل الناس من البلدان إليه وكثر سماعهم عليه وكان عالما بالحديث وطرقه عارفا بعلله وأسماء رجاله ونقلته وكان

---

(١) الكانون الموقد والمصطلى.
(٢) أي أجلسهم وأبقاهم.
(٣) ابن بشكوال: الصلة ص٧٢.
(٤) السابق ص٣١٩.
(٥) السابق ص٣١٩.

حسن الخط جيد الضبط وكتب بخطه علما كثيرا وقيده وكان حافظا لمصنفات الحديث قائما عليها ذاكرا لمتونها وأسانيدها ورواتها وكتب منها صحيح البخاري في سفر وصحيح مسلم في سفر وكان قائما على الكتابين مع مصنف أبي عيسى الترمذي»(١)، وقد لازم مجلسه هذا عددٌ كبير من طلبة العلم، منهم عبد الرحمن بن أحمد بن إبراهيم الأنصاري الذي كان ملازمًا لأبي علي الصدفي، حتى «اختصّ به، وهو أثبتُ الناس فيه، وأعلمهم بحديثه، وأحفظهم لأخباره وحكايته، وأضبطهم لأسمعته ورواياته، وهو كان القارئ عليه لما يسمع منه، وقلما فاته مجلس من مجالسه طول حياته»(٢).

وظلت هذه المجالس العلمية حتى انقضت دولة الإسلام في الأندلس، وقد ذكر ابن الخطيب في «الإحاطة» مجالس عدة لكثير من علماء غرناطة وألمرية ومالقة وغيرها، منها مجلس الزيات الكُلاعي أحمد بن الحسن (ت٧٢٨هـ) وكان شاعرًا أديبًا، قال عنه وعن مجلسه ابن الخطيب: « يُذكّر بالسلف الصالح، في حُسن شيمته، وإعراب لفظه، مزدحم المجلس، كثير الإفادة، صبوراً على الغاشية»(٣).

وفي مالقة وُجدت مجالس ابن حفيد الأمين محمد بن أحمد الغساني (ت٧٤١هـ) في الفقه والفروع، قال عنه ابن الخطيب: « كان من أهل العلم والفضل والدين المتين، والدؤوب على تدريس كتب الفقه استظهر كتاب «الجواهر» لابن شاس، واضطلع بها، فكان مجلسه من مجالس الحفاظ، حفاظ المذهب، وانتفع به الناس، وكان معظماً فيهم، متبركاً به، على سنن الصالحين من الزهد والانقباض وعدم المبالاة بالملبس والمطعم»(٤).

وفي مالقة أيضًا وجدت مجالس الشعر والأدب لأديبها الظريف ابن صفوان محمد بن أحمد (ت٧٤٩هـ)، قال ابن الخطيب عن مجلسه: « أخذ عنه ببلده، وتبرك به، جلة، وكان يحضر مجلسه علماء، منهم شيخ الشيوخ الأعلام، أبو القاسم الكسكلان، وأبو الحسين الكواب، والأستاذ الصالح أبو عبد الله القطان، وصهره الأستاذ أبو عبد الله بن قوال

---

(١) المقري: نفح الطيب ٢/ ٩١.
(٢) القضاعي: التكملة ٣/ ٢٧.
(٣) ابن الخطيب: الإحاطة ١/ ٢٨٨.
(٤) السابق ٣/ ٦٤، ٦٥.

والعاقد الناسك أبو الحسين الأحمر وغيرهم»[١].

ولا يمكن لنا في هذا المقام الضيق أن نستعرض ولو قدرًا يسيرًا من أخبار وتفصيلات وأعداد هذه المجالس العلمية التي تنوعت في المجالات المختلفة كما مر بنا، وظلت هذه المجالس تؤدي دورها في تربية وتثقيف أبناء الأمة المغربية والأندلسية، حتى مع وجود المدارس والجامعات، وكانت إحدى روافد التربية الإسلامية في المغرب والأندلس، ويا ليتها بيننا الآن، نستمتع بها، ونستظرف بآدابها، وننهل من علمها.

المكتبات القرطبية ودورها التربوي

هذا الإبداع الأندلسي ما كان ليظهر وينتشر، ويترك الأثر في أبناء الحضارة إلا بوجود عوامل مساعدة، ألهبت الحماسة، ونشرت المعارف والعلوم، وقدمت الميراث الثقافي في صورة ميسرة لمن أراد أن يستكمل المسيرة التربوية والثقافية والحضارية للإسلام عامة.

لقد كانت المكتبات هي المحاضن المناسبة لهذا التراث الماضي الذي استفاد به الأندلسيون وشغفوا به، حتى كانت المنطلق لإظهار علوم جديدة، أكملت المنظر العام للثقافة الأندلسية. وبحسبنا في هذه الصفحات القليلة أن نقف مع الكتب والمكتبات في قرطبة وحدها لنعلم مقدار عظمة ومجد هذه المدينة العريقة.

المكتبة الأموية

ما أن استقرت أحوال الأندلس تحت حكم عبد الرحمن الداخل (ت ١٧٢هـ)، حتى بدأ الاهتمام بالعلوم والثقافة والتربية، ففي عهد محمد بن عبد الرحمن الأوسط (ت٢٧٣هـ) بدأ المؤرخون يُشيرون إلى المكتبة الأموية كواحدة من أشهر مكتبات قرطبة، واشتهر عبد الرحمن الناصر (ت٣٥٠هـ) بحب الكتب، وبلغت شهرته الآفاق حتى وصلت إلى بيزنطة، فحين أراد إمبراطورها قسطنطين السابع أن يستميل الخليفة الأندلسي، فكر أن يهدي عبد الرحمن الناصر أحب شيء إلى قلبه: كتابًا جديدًا لم يعرفه من قبل، فأرسل إليه كتاب ديسقوريدس في الطب «مصور الحشائش بالتصوير الرومي

(١) السابق ٣/ ٦٠.

العجيب، وكان الكتاب مكتوباً بالإغريقي الذي هو اليوناني، وبعث معه كتاب هروسيس صاحب القصص، وهو تاريخ للروم عجيب»[١].

وفي ذلك الحين كان اثنان من أبناء عبد الرحمن الناصر، وهما: الحكم ومحمد، قد بدءا دراستهما تحت إشراف مؤدبين وعلماء كان لهم شهرة واسعة، ومن ثم استيقظت هوايتهما، حتى إن خوليان ريبيرا ذلك المؤرخ الإسباني الكبير كان يقول عنهما: «إن مكتبة أبيهما لم تعد تشبع نهمهما، وتنافس كلاهما أيهما يستطيع أن يسبق الآخر في تكوين مكتبة أدق اختيارًا وأكثر عددًا، وبعد فترة توفي الأمير محمد، وورث أخوه الحكم مكتبته، وبوفاة عبد الرحمن الناصر والدهما أخذ الحكم مكتبته، وجمع المكتبات الثلاث في واحدة، وأصبحت هذه مكتبة القصر، وكان أسلافه من قبله قد أحاطوها بكل رعايتهم»[٢].

ولقد كان يعمل في مكتبة القصر دون توقف، أمهر المجلدين في الأندلس، إلى جانب آخرين جيء بهم من صقلية وبغداد، ومعهم جمهرة من الرسامين والمزوقين والمنمقين، فكانوا يزخرفون الكتب بالزخارف الجميلة، بعد أن نسخها أدق الخطاطين لتقديمها إلى لجنة من كبار العلماء تقوم بمعارضتها وتصحيحها، وتدفع لهم الدولة مرتباتهم في سخاء.

وقد ذكر ابن الفرضي طائفة من هؤلاء العلماء الذين كانت مهمتهم تنحصر في مراجعة الكتب ومعارضتها وتصحيحها في المكتبة الأموية في قرطبة والزهراء، منهم الرباجي محمد بن يحيى الأزدي، قال عنه ابن الفرضي: «كان فَقِيهاً، إماماً، موثوقاً، أخذ كتاب سيبويه رواية عن ابن النّحاس، وكان جَيّد النظر، دقيق الاسْتِنْبَاط، حاذقاً بالقياس. نظر النّاس عنده في الإعراب، وأدَّب عند الملوك، وَاسْتَأدَبه أمير المؤمنين الناصر ﷺ لابنه المغيرة، ثم صار إلى خدمة المُستَنْصِر بالله في مقابلة الكتب وتوسع له في الجراية. وكان رجُلاً صَالِحاً متديناً. وتُوفِّيَ (رحمه الله): في شهر رمضَان سنة ثمان وخمسين وثلاث مائة»[٣].

وكان من بين هؤلاء المعارضين والمصححين الأديب اللغوي محمد بن الحسين

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا ص٤٩٣.
(٢) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس ص١٥٦.
(٣) ابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، تحقيق عزت العطار ٢/ ٧١.

الفهري القرطبي، وهو ناسخ ووراق، وقد تقدم أقرانه في حفظ الأدب والعلم باللغات، وقد استعمله الحكم المستنصر في مهمة علمية لمكتبته؛ فقد «تولى مع رفيقه محمد بن معمر الجياني نسخ ما لم يهذبه أبو علي القالي من تأليفه الذي سماه: البارع وتهذيبه مع أصوله التي بخطه وخطهما عما كتب بين يديه، وكان هو قد عمل فيه من سنة خمسين إلى أن توفي لسبع خلون من جمادى الأولى سنة خمس وخمسين (وثلاثمائة)، وصحح منه كتاب الهمزة وكتاب العين، فلما كمل الكتاب، وارتفع إلى الحكم المستنصر بالله وأراد أن يقف على ما فيه من الزيادة على النسخة المجتمع عليها من كتاب العين، فبلغ ذلك إلى خمسة آلاف وست مائة وثلاث وثمانين كلمة»[1].

ومن الغريب والطريف أن الدولة كانت تستخدم الخطاطات من النساء في المكتبات والخزائن العامة، فقد كانوا مشتهرين بحذق هذه الصنعة، فعلى سبيل المثال اشتهرت الخطاطة الأندلسية لُبنى، وكانت كاتبة للخليفة الحكم المستنصر (ت٣٦٦هـ)، قال عنها ابن بشكوال: «كانت حاذقة بالكتابة، نحوية شاعرة، بصيرة بالحساب، مشاركة في العلم، لم يكن في قصرهم أنبل منها، وكانت عروضية، خطاطة جداً. وتوفيت سنة أربع وسبعين وثلاث مائة»[2]. وهناك «مزنة: كاتبة الخليفة الناصر لدين الله. كانت حاذقة في أخط النساء، توفيت سنة ثمان وخمسين وثلاث مائة»[3] هناك فاطمة بنت زكرياء بن عبد الله الكاتب المعروف بالشبلاري، فهي كاتبة ابنة كاتب، قال عنها ابن بشكوال: «كانت كاتبة جذلة متخلصة عمرت عمراً كثيراً واستكملت أربعاً وتسعين سنة تكتب على ذلك الكتب الطوال، وتجيد الخط، وتحسن القول. ذكرها ابن حيان وقال: توفيت سلخ جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وأربع مائة. ودفنت بمقبرة أم سلمة وشهدها جمع الناس ماتت بكراً رحمها الله»[4].

ويصف لنا العلامة ابن حزم (ت٤٥٦هـ) ضخامة المكتبة الأموية، بحديثه الذي أجراه

---

(١) أبو عبد الله القضاعي: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس ١/ ٢٩٨.
(٢) ابن بشكوال: الصلة، تحقيق إبراهيم الإبياري ٣/ ٩٩٢. ترجمة رقم ١٥٤١.
(٣) السابق، ٣/ ٩٩٢. ترجمة رقم ١٥٤٢.
(٤) ابن بشكوال: السابق ٣/ ٩٩٤. ترجمة رقم ١٥٤٨.



مع القائم بأعمالها في عهد الحكم المستنصر ويُدعى تليد الفتى، قال ابن حزم: «وأخبرني تليد الفتى - وكان على خزانة العلوم بقصر بني مروان بالأندلس - أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط»[1]. أي أن عدد فهارس المكتبة الأموية كان ٢٢٠٠ ورقة فيها أسماء المؤلفات فقط، وهذا دليل عظيم على مقدار ضخامة تلك المكتبة الملكية.

والحق أن تشجيع الناصر (ت٣٥٠هـ) ومن بعده ابنه الحكم المستنصر (ت٣٦٦هـ) للعلماء والأدباء والفقهاء من كل صنف ونوع، قد ضخّم المكتبة الأموية ضخامة جعلتها أعظم المكتبات في أوربا في ذلك الوقت، فقد كان للحكم المستنصر «وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التواليف، ورجال يوجههم إلى الآفاق عنها. ومن وراقيه ببغداد محمد بن طرخان، ومن أهل المشرق والأندلس جماعة. وكان مع هذا كثير التهمّم بكتبه والتصحيح لها والمطالعة لفوائدها، وقلما تجد له كتاباً كان في خزانته إلا وله فيه قراءة ونظر من أي فن كان من فنون العلم يقرؤه ويكتب فيه بخطه - إما في أوله أو آخره أو في تضاعيفه - نسب المؤلف ومولده ووفاته والتعريف به، ويذكر أنساب الرواة له، ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده، لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن. وكان موثوقاً به مأموناً عليه. صار كل ما كتبه حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم، ينقلونه من خطه ويحاضرون به. قلتُ (أي ابن الأبّار): وقد اجتمع لي من ذلك جزء مقيد مما وجد بخطه، ووجدتُ أنه يشتمل على فوائد جمة في أنواع شتى، وكان قد قيد كثيراً من أنساب أهل بلده، وكلف أهل كور الأندلس أن يلحقوا كل عربي أُخمل ذكره قبل ولايته، وأن يصحح نسبهم أهل المعرفة بذلك، ويؤلف من الكتب، ويرد كل ذي نسب إلى نسبه، وفرج ذلك بالعلم فتم له من ذلك ما أراد، ونفع الله بكرم قصده البلاد والعباد»[2].

مكتبات القرطبيين

إن مما يلفت الانتباه أن المكتبات كان لها دور عظيم في مسيرة التربية والتثقيف في

---

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس ٢/ ٢٠٣.

(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٢٠٣.

الأندلس قاطبة، وفي قرطبة خاصة ولم تكن المكتبات والخزائن حكرًا على الأسرة الحاكمة الأموية في قرطبة أو من بعد ذلك في عصر ملوك الطوائف أو المرابطين أو الموحدين أو عهد ملوك الطوائف الثاني أو في عهد الدولة النصرية في غرناطة، لقد انتشرت المكتبات في كل أرجاء الأندلس، وفي كافة الأوقات، قال ول ديورانت عن عدد المكتبات في الأندلس وحال علمائها: «كان في الأندلس الإسلامية وحدها سبعون مكتبة عامة، وظل النحاة، وعلماء اللغة، وأصحاب الموسوعات، والمؤرخون موفوري العدد والثراء»(١).

فمن جملة المكتبات التي اشتهرت في قرطبة، وكانت ملكًا لأحد أعرق وأرهب القضاة في تاريخ الأندلس، نجد مكتبة أبي المطرف بن فطيس، عبد الرحمن بن محمد بن عيسى (ت٤٠٢هـ)، وكانت أعجوبة من عجائب قرطبة بلونها الأخضر في كل شيء، وهذا من الطرافة والجمال و«الديكور» الراقي الذي تمتع الأندلسيون به، وقد وصفها النباهي بقوله: «كان له بداره مجلس عجيب الصنعة، حسن الآلة، ملبس كله بالخضرة؛ جدراته وأبوابه، وسقفه وفرشه وستوره ونمارقه، وكل ذلك متشاكل الصفات، قد ملأه بدفاتر العلم ودواوين الكتب التي ينظر فيها ويخرج منها؛ وبهذا المجلس كان أنسه وخلوته رحمه الله»(٢).

وكان ابن فطيس رحمه الله له «ستة وراقين ينسخون له دائماً، وكان قد رتب لهم على ذلك راتباً معلوماً (أُجرة)، وكان متى علم بكتابٍ حسنٍ عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه، وبالغ في ثمنه. فإن قدر على ابتياعه وإلا انتسخه منه وردَّه عليه»(٣). وكان له تقليد صارم، وحب زائد لكتبه ومكتبته، حتى إن حفيده يحكي عنه أنه «كان لا يعير كتاباً من أصوله البتة، وكان إذا سأله أحد ذلك وألحف عليه أعطاه للناسخ فنسخه وقابله ودفعه إلى المستعير فإن صرفه وإلا تركه عنده»(٤).

ومما يُدلل على كبر حجم هذه المكتبة، وغلاء الكتب التي كانت تحويها، ما أجبر

---

(١) ول ديورانت: قصة الحضارة ٥/ ٤٧٣٨.
(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص٨٨.
(٣) ابن بشكوال: الصلة ٢/ ٤٦٧. ترجمة رقم ٦٨٩.
(٤) السابق ٢/ ٤٦٨.

أولاده وأحفاده على بيعها في زمن الفتنة في قرطبة، فقد ظلت كُتبها تُباع مدة عام كامل، قال ابن بشكوال: «أخبرني حفيده أبو سليمان (أي حفيد ابن فطيس) أنه سمع عمه وغير واحد من سلفه يحكون أن أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتب جده هذا مدة عام كامل في مسجده في الفتنة في الغلاء، وانه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية»[١].

مكتبات الفقراء

والعجيب أنه لم تكن الأسرة الحاكمة أو الأسر الغنية الميسورة وحدها تستمتع بترف تكوين مكتبات غنية، وإنما نجد أن هذه الهواية حتى بين طبقات المجتمع الأشد تواضعًا، فمن هؤلاء معلم مغمور يمضي حياته كلها بين الصبيان يعلمهم آيات القرآن الحكيم وبعض الأحاديث النبوية، قال القضاعي عن حزم وولده وابنته ومكتبهم الصغير الذي يعلمون فيه الأطفال: «كان هو وابنه محمد وابنته تجمعهم في تعليمهم دار واحدة»[٢]، وهذا الرجل لا ينتسب لأسرة ابن حزم الشهيرة المعروفة التي منها الإمام ابن حزم رحمه الله.

لقد كان هذا المعلم المغمور يشتغل ساعات فراغه في نسخ الكتب التي يعيرها له أصدقاؤه، ورغم أن ظروفه لا تتيح له ترف أن يستخدم لها خازنًا لكن ذلك لا يعني أنها كانت مهملة، أو غير مرتبة، أو يجهل قيمتها، وكان أدباء قرطبة يغبطونه على دقة مخطوطاته، وروعة بعضها، وندرة البعض الآخر، وقد أحضرها في رحلة له من المشرق استهدف بها هذه الغاية، ويمكن أن تراه في ملابس متواضعة، ويتناول طعامًا أشد تواضعًا، ولكن مكتبته تعكس بوضوح إلى أي حد يمكن أن يبلغ حب الكتب الجيد بصاحبه حتى عند أصحاب الدخول المحدودة، والأرزاق المتواضعة[٣].

منافسة مستعرة!

لقد اهتم القرطبيون بالمكتبات والكتب اهتمامًا زائدًا، حتى كان إنشاء مكتبة في

---

(١) السابق ٢/ ٤٦٨.

(٢) القضاعي: التكملة لكتاب الصلة ١/ ٢٣١.

(٣) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس ص١٦٥.

البيوت أحد المظاهر الدالة على وجوب الاحترام والتوقير لذلك الشخص بين الأندلسيين، ويحدثنا الحضرمي أحد جماعي الكتب، وطلاب العلم عن منافسة بينه وبين رجل آخر في كتاب بحث عنه كثيرًا بقوله: «أقمتُ مرة بقرطبة، ولازمتُ سوق كتبها مدة، أترقبُ فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء إلى أن وقع وهو بخط جيد، وتسفير مليح، ففرحت به أشد الفرح، فجعلت أزيدُ في ثمنه فيرجع إلي المنادي بالزيادة علي، إلى أن بلغ فوق حدّه، فقلتُ له: يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي؟ قال: فأراني شخصًا عليه لباس رياسة. فدنوت منه وقلت له: أعز الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده. قال: فقال لي: لستُ بفقيه ولا أدري ما فيه، ولكني أقمتُ خزانة كُتُب، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيتُه حسن الخط، جيد التجليد استحسنته، ولم أُبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير. قال الحضرمي: فأحرجني وحملني على أن قلتُ له: نعم لا يكون الرزق كثيرًا إلا عند مثلك، يُعطي الجوز من لا عنده أسنان، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب، وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً، وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه!»(١).

لقد كانت قرطبة بحق عاصمة الأندلس في الكتب والمكتبات، وقد أثرت هذه الطفرة المعلوماتية في أهلها، حتى وسم الأندلسيون بأنهم أهل الكتب، قال ابن سعيد المؤرخ كلمات مهمة عن شغف القرطبيين بالكتب: « قال والدي: وهي أكثر بلاد الأندلس كتبًا، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعيين والرياسة حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب، وينتخب فيها، ليس إلا لأن يقال: فلان ليس عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به»(٢).

وبعدُ فهذه جولة سريعة في مكتبات قرطبة وحدها في العصر الأموي، تُدلل لنا على جمال الصورة الثقافية، وأثر التربية الإسلامية في تكوين الذوق العام الذي جعل

---

(١) المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ١/ ٤٦٣.
(٢) السابق ١/ ٤٦٢، ٤٦٣.

القرطبيين شغوفين بهذه الدرجة بالمكتبات، ولا يمكن أن نفهم هذا الشغف إلا بالاستمرار في قراءة هذا الفصل الذي يرسم - إلى حد ما - الصورة العامة للتربية الإسلامية في الأندلس!

الرحلة في طلب العلم

كدأب طلاب العلم في المشرق، أحسّ المغاربة والأندلسيون بضرورة الرحلة في طلب العلم، وكانت هذه الرحلات غالبًا ما تكون بهدف الحج ثم التفرغ للعلم أثناء وبعد الرحلة في بلاد المشرق، فطالب العلم الأندلسي والمغربي أمامه طريقان: إما طريق البحر الذي يأخذه من أحد موانئ الأندلس أو المغرب حتى ينزل إلى الإسكندرية وبعدها القاهرة ثم يركب النيل حتى يصل إلى ميناء عيذاب المصري على البحر الأحمر، فيعدو الناحية الأخرى ليصل إلى مدينة جدة، ومن ثم مكة المكرمة ثم ينتقل شمالاً ناحية المدينة المنورة ثم يتجه لبلاد العراق أو الشام حسب رأيه وغايته وهدفه، فيكون قد أدّى حجه وتفرغ لاستكمال مسيرته العلمية، وهذا الطريق سار فيه الرحالة الأندلسي ابن جبير البلنسي (ت٦١٤هـ) وغيره كثير. وإما طريق البر فينتقل من الأندلس إلى المغرب إلى تلمسان والجزائر إلى بجاية والقيروان وقابس والمهدية ثم طرابلس ثم الإسكندرية ثم القاهرة ثم غزة فبيت المقدس فدمشق إن تسنى له زيارتها ثم يُعرّج جنوبًا إلى المدينة المنورة ثم مكة المكرمة وهذا الطريق سار فيه الرحالة ابن رشيد السبتي (ت٧٢١هـ) وغيره كثير.

وفي كل مدينة من هذه المدن نجد طالب العلم المغربي والأندلسي حريصًا على الأخذ من كبار علماء هذه المدينة ذهابًا وإيابًا، ولا نستغرب إن علمنا أن رحلات علمهم كانت تمتد إلى بضع سنوات، وتراجم الأندلسيين والمغاربة مليئة بأمثلة هؤلاء الذين أنستهم حلاوة العلم وطلبهم الغربةَ عن الأهل والديار والأصحاب.

وتأتي أهمية طلب العلم والارتحال إليه لاسيما إلى بلاد المشرق في مصر والشام والحجاز والعراق واليمن في بعض الأحيان إلى الثقافة والعلم الغزير الذي تمتع به المشارقة، فلقد رأى المغاربة والأندلسيون أن المشرق مهبط الوحي، ومنزل العلم، وموطن السادات من العلماء، وهذا الرأي لا مشاحة فيه، فهذا العلامة الأندلسي أبو بكر

الطرطوشي (ت٥٢٥هـ) يترك بلاده في الأندلس ليستقر به المقام في المشرق، خاصة مدينة الإسكندرية المصرية لأنه رأى أن العلم في المشرق أعظم وأرقى بكثير من المغرب والأندلس، يحكي عنه الحافظ أبي بكر بن العربي (ت٥٤٣هـ) أنه سمعه يقول: «لم أرحل من الأندلس حتى تفقهتُ ولزمتُ الباجي مدةً فلما وصلتُ إلى بغداد دخلتُ المدرسة العادلية، فسمعتُ المدرس يقول مسألةٌ إذا تعارض أصل وظاهر فأيها يحكم؟ فما علمتُ ما يقولُ ولا دريتُ إلى ما يشير حتى فتح الله وبلغ بي ما بلغ»[١].

ويتضح من هذا النظام التعليمي في المشرق أنه كان متقدمًا عن مثيله في المغرب والأندلس في القرن الخامس الهجري كما يُقرر الطرطوشي رحمه الله، رغم كونه صحب علامة الفقه في الأندلس أبا الوليد الباجي (ت٤٧٤هـ)!!

ولذلك حرص علماء وفقهاء المغرب على تدوين هذه الملاحظات التي تحضُّ على الرحلة والتعلم على العلماء الراسخين، فنجد العلامة أبا إسحاق الشاطبي (ت٧٩٠هـ) يقول: «إنَّ من أمَّارات العالم.. أن يكون ممَّن ربَّاه الشُّيوخ في ذلك العلم لأخذه عنهم وملازمته لهم، فهو الجدير بأن يتَّصف بما اتَّصفوا به من ذلك، وهكذا كان شأن السَّلف الصَّالح، فأوَّل ذلك ملازمة الصَّحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ، وصار ذلك أصلاً لمن بعدهم، فالتزم التَّابعون في الصَّحابة سيرتهم مع النَّبي ﷺ حتَّى فقهوا، وحسبك من صحَّة هذه القاعدة أنَّك لا تجد عالماً اشتهر في النَّاس الأخذ عنه إلاّ وله قدوةٌ اشتهر في قرنه بمثل ذلك...»[٢].

ولم يكن هذا الأمر ليفوت على العلامة ابن خلدون (ت٨٠٨هـ)؛ فقد دوّن هذه الملاحظة القيمة في مقدمته الرائعة بقوله: «إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيدُ كمال في التعلم؛ والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلون به من المذاهب والفضائل تارةً علمًا وتعليمًا وإلقاءً، وتارة محاكاة وتلقينًا بالمباشرة، إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشدُّ استحكامًا وأقوى رسوخًا، فعلى قدر كثرةِ

(١) الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ١/ ١٧٦.
(٢) الشاطبي: الموافقات ١/ ١٤٢ – ١٤٤.

الشيوخ يكونُ حصولُ الملكات ورسوخها، والاصطلاحات أيضاً في تعليم العلوم مخلطة على المتعلم، حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم، ولا يدفع عنه ذلك إلا مباشرته لاختلاف الطرق فيها من المعلمين، فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيده تمييز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طُرقهم، فيها فيجرد العلم عنها، ويعلم أنها أنحاء تعليم، وطرق توصل، وتنهضُ قواه إلى الرّسوخ والاستحكام في المكان، وتصحح معارفه وتميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتها من المشيخة عند تعددهم وتنوعهم، وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية، فالرحلة لا بد منها في طلب العلم؛ لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»[١].

ومن ثم كانت رحلة الحج - كما ذكرنا - التي يقوم بها المغاربة والأندلسيون بمثابة رحلة العمر والعلم للكثرة منهم، ولم يكن ثمة وقت مخصص لهذه الرحلة، فمنهم من قضى ثلاثة أعوام كابن جبير مثلاً، ومنهم من قضى ثلاثة عشر عامًا كأبي الوليد الباجي ينهل العلم من علمائه وشيوخه، ومنهم من قضى عمره كله في المشرق مثل أبي الفضل المُرسي محمد بن عبد الله (ت٦٥٥هـ)، قال عنه ابن الدمياطي نقلاً عن ابن النجار وابن الدبيثي، في ترجمة تثير كوامن الاحترام والتقدير لرجل جاب المغرب والمشرق: «محمد بن عبد الله بن محمد من أهل مُرسية من بلاد الأندلس، قدم علينا بغداد شابًا طالبًا للعلم قافلاً من مكة سنة خمس وستمائة، وأقام يسمع من شيوخنا الحديث، ويقرأ الفقه والخلاف والأصلين بالمدرسة النظامية، ثم إنه سافر إلى خراسان وسمع بنيسابور وهراة، وحدّث ببغداد بكتاب (السنن) لأبي بكر البيهقي عن منصور بن عبد المنعم الفراوي. وكان من الأئمة الفضلاء في جميع فنون علم الحديث وعلوم القرآن والفقه والخلاف والأصلين والنحو واللغة، وله قريحة حسنة، وفهم ثاقب، وتدقيق في المعاني، وله مصنفات في جميع ما ذكرناه من العلوم، وهو مشتغل بذلك في جميع أوقاته، وله النظم والنثر المليح، ومع ذلك فهو زاهد متورع، حسن الطريقة، متدين، كثير العبادة، متعفف، نزيه النفس، قليل المخالطة للناس، ما رأيت في فنه مثله»[٢].

(١) ابن خلدون: المقدمة ص٥٤١.
(٢) ابن الدمياطي: المستفاد من ذيل تاريخ بغداد ١/ ١٥.

وثمة رحلات كثيرة أخرى لأهل المغرب والأندلس نجدهم فيها لا يمرون على بلد إلا وينهلون من علم أبنائه مثل ابن جبير والعبدري وابن بطوطة وابن رشيد السبتي والعياشي وغيرهم آلاف آخرين.

ولكن بحسبنا أن نقف مع واحد أو اثنين من هؤلاء الذين أثّرت الرحلة العلمية في مستواهم العلمي والتربوي، الأول هو العلامة الطرطوشي السكندري: لقد كان محمد بن الوليد الطرطوشي الإمام السكندري العالم (ت٥٢٥هـ) من جملة الطلاب الأندلسيين النابهين، تتلمذ على يد العلامة أبي الوليد الباجي (ت٤٧٤هـ) ثم قرر الارتحال للعلم، والحق فإن قصته التي ذكرها أحمد بن يحيى بن عميرة الضبي (ت٥٩٩هـ) في كتابه «بُغية المتلمس في تاريخ رجال أهل الأندلس» من أجمل وأظرف ما قرأت، وهي قصة تؤكد على أهمية الرحلة للعلم بالنسبة لأهل الغرب الإسلامي، كما تُدلل على أن ديار الإسلام هي الوطن الأكبر لهؤلاء المغاربة والأندلسيين، وسنرى فيها وعي المجتمع الإسلامي والمصري في ظل الحكم العُبيدي الشيعي، وبحثهم عن العلماء، ودأبهم في تحصيل العلم.

قال ابن عميرة نقلاً عن العلامة ابن العربي: «سمعت الحافظ أبا بكر الطرطوشي يقول: لم أرحل من الأندلس حتى تفقهت ولزمت الباجي مدة فلما وصلت إلى بغداد دخلت المدرسة العادلية فسمعت المدرس يقول مسألة إذا تعارض أصل وظاهر فأيها يحكم؟ فما علمت ما يقول ولا دريت إلى ما يشير حتى فتح الله وبلغ بي ما بلغ. أقام في رحلته مدة ثم انصرف يريد مصر وكان له غرض في الاجتماع مع أبي حامد الغزالي يجعل طريقه على البيت المقدس، فلما تحقق أبو حامد أنه يؤمّه حاد عنه، ووصل الحافظ أبو بكر فلم يجده فقصد جبل لبنان وأقام هناك مدة وصحب به رجلاً يعرف بعبد الله السايح من أولياء الله المنقطعين إلى الله تعالى. ثم أراد الحافظ أبو بكر أن يقصد أرض مصر فعرض على أبي محمد السائح صحبته والمشي معه، وقال له: أنت هاهنا لا تلقى أحداً ولا يلقاك وإن متّ لم تجد من يواريك وفي مخالطة الناس ومقابلتهم ونشر العلم وحضور الجماعة في الجمعة ما لا يخفى عليك. فقال له عبد الله: أنا هاهنا آكل الحلال، وأعيش في المباح دون تقلف[1] من ثمر هذه الأشجار، ولا أجد في غير هذا الموضع من المباح ما أجد فيه. فقال

---

(١) انتزاع.



له الحافظ أبو بكر: إن تنظر مصر موضعاً يعرف برشيد[1] فيه شيئان مباحان: الملح والحطب تقيم به ويكون عيشنا من هذين المباحين. فقال له عبد الله: أنت لا يتركك الناس، وأفارق موضعي وأفارقك، فعاهده أن لا يفارقه وركبا الطريق إلى مصر حتى وصلا إلى رشيد وأقاما هناك، إذا احتاجا إلى قوت حوّجا من حطب أو ملح فباعا ما يحملانه من ذلك على ظهورهما وتقوّتا بثمنه، وبقيا هناك مدة إلى أن قتل العبيدي صاحب مصر جماعة من فقهاء أهل الإسكندرية لسبب يطول شرحه ولم يبق بها من يُشار إليه، وسمع أهل الإسكندرية بكون الفقيه برشيد فركب إليه قاضيها ابن حديدة وجماعة من أهلها. فلما وصلوا إلى رشيد سألوا عنه فلم يجدوا من يعرفه إلا بعض الفقراء هنا قال لهم: أنا أدلكم عليه اقعدوا هنا، فكأني به قد وصل، فقعدوا ساعة ووصل الفقيه من الشعرا وعلى ظهره حُزمة حطب وصاحب معه فقال لهم: هذا هو، ووضع الحزمة بالأرض وأخبروه بما طرأ عليهم.... وباحتياج أهلها إليه وبما له في قصدهم من الأجر فقال لهم: قد علمت ذلك ولكني لا أفارق صاحبي هذا بوجه، وأشار إلى عبد الله السائح لأني سُقته من موضعه وعاهدته أن لا أفارقه فدونكم، فإن ساعدني فأنا ناهض معكم فكلموه. فقال: أنا لا أمنعه لكني أقيم هنا. فقال الحافظ أبو بكر: وأنا لا أفارقه. فتضرعوا إلى عبد الله فقال لهم: أنا هنا أعيش في الحلال وآكل المباح ولا أجد هذا عندكم. فقال له القاضي: إن صاحب صقلية دمره الله يؤدي جزية في كل عام لأهل الإسكندرية ثلاثمائة قفيز من الشعير وكذا وكذا، فخذ الشعير تتقوت به وتصرفه في منافعك. فقال: أنا لا أحتاج إلى أكثر من رغيف في كل ليلة فضمنوا له ذلك. وأقبل معهم إلى الإسكندرية، ووفوا لأبي محمد السائح بما قالوه وصنعوا له من الشعير عدة أرغفة ووضعوها له في حبل فكان يفطر كل ليلة منها على رغيف ويلزم بيته لا يبرح منه. واشتمل أهل الإسكندرية على الحافظ أبي بكر، وقعد للتدريس، ونفع الله به كل من قرأ عليه وانتشر علمه. وكانت بالإسكندرية امرأة متعبدة هي خالة أبي الطاهر بن عوف فخطبته وتزوجها وبنى بها في المدرسة، وكان لها ابن من أهل الدنيا كثير التخليط فصعب ذلك عليه وعمد إلى خنجر واستتر في

---

(١) مدينة في أقصى شمال مصر، يلتقي فيها أحد فرعي النيل بالبحر المتوسط، وهي تابعة الآن لمحافظة البحيرة المصرية.

المدرسة، فلما أقبل الليل قصد البيت الذي كانت فيه أمه مع الفقيه فلم يجد فيه أحداً ووجد كل واحد منهما قد قام إلى ورده، وسمع صوت الفقيه يقرأ في الصلاة، فأمَّ الصوت وخنجره في يده، فلما قرب منه وهو عازم على قتله، حالت بينه وبينه سارية من سواري مساكن المدرسة، وضرب فيها بوجهه وخر مغشياً عليه، والفقيه لا يشعر. فلما طلع الفجر نزل إلى المدرسة فصلّى الصبح ودرّس، وتصرّفت زوجه في أثناء ذلك فوجدت ابنها مُتَجندلاً لا يعقل فكلمته فلم يكلمها. فلما فرغ الفقيه من التدريس صعد إلى منزله فأعلمته زوجه بمكان ابنها، فصعد نحوه فوجده على تلك الحال فجرد يده على وجهه، وتفل وتكلّم بكلمات ففتحت عينيه، فلما أبصر الفقيه قال له: هات يدك، فأنا تائب إلى الله تعالى، لا عصيته بعد اليوم أبداً، ولا تركتك في هذا الموضع، انتقل إلى دار أهلك فاسكنها وحسُنت توبة الابن بعد ذلك. أخبرني شيخي أبي بكر المفضل عبد المجيد بن دليل قال: كنتُ أبيتُ أكثر الليالي بمدرسة الحافظ أبي بكر فسمعتُه ذات ليلة قد قام إلى ورده على عادته وافتتح من سورة الصافات حتى بلغ إلى قوله تعالى ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ[١]﴾ ولم يزل يردد هذه الآية ويبكي إلى أن طلع الفجر. ولقد أخبرني أنه رآه في اليوم الذي توفى فيه وعليه فروته التي ساقها معه من طَرطُوشة[٢]. وكانت وفاته في سنة خمس وعشرين وخمسمائة. روى عنه جماعة من الحفاظ منهم: الحافظ أبو بكر بن العربي، وأبو علي الصدفي، وأبو الطاهر بن عوف وغيرهم. وتواليفه كثيرة منها «التعليقة في الخلافيات» في خمسة أسفار. وله كتاب يعارض به كتاب «الأحياء» رأيتُ منه قطعة يسيرة. وألف «سراج الملوك» في مجلس كان بينه وبين صاحب مصر يطول ذكره. وكان أوحد زمانه علماً وورعاً وزهداً لم يتشبث من الدنيا بشيء، إلى أن توفى وصلى عليه»[٣].

وثمة قصص مشابهة لقصة الطرطوشي الأندلسي الذي رحل من الأندلس إلى المشرق واستوطنها، لكن هناك من رحل من القيروان إلى المشرق ثم رجع للقيروان ثم رجع للمشرق مرة أخرى ثم استقر به الحال في الأندلس، وقصة هذا الراحل الذي لم يستقر إلا

(١) (الصافات: ٢٤).
(٢) هي مدينة تقع شمال شرق الأندلس على البحر المتوسط، وهي قريبة من مدينة بلنسية، سقطت في يد نصارى إسبانيا سنة ٥٤٣هـ.
(٣) ابن عميرة الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ١/ ١٧٨، ١٧٩.

في أخريات عمره في قرطبة هي نموذج لحالة طالب العلم الذي عانى في طلبه هذا حتى أصبح من أكابر علماء عصره في مجال تخصصه، هذا الرجل هو مكي بن أبي طالب بن مختار المقرئ (ت٤٣٧هـ)، ذكر حكايته ابن بشكوال في كتابه «الصلة» بقوله: «قال صاحبه أبو عمر أحمد بن محمد بن مهدي المقرئ: كان من أهل التبحر في علوم القرآن والعربية، حسن الفهم والخلق، جيد الدين والعقل، كثير التأليف في علوم القرآن، محسناً لذلك، مجوداً للقراءات السبع، عالماً بمعانيها. وولد لتسع بقين من شعبان سنة خمس وخمسين وثلاث مائة، وكان مولده بالقيروان. ثم أخبرني أنه سافر إلى مصر وهو من ثلاث عشرة سنة في سنة ثمان وستين وثلاث مائة، واختلف[1] بمصر إلى المؤدبين في الحساب، ثم رجع إلى القيروان وكان إكماله لاستظهار القرآن بعد خروجه من الحساب وغيره من الآداب في سنة أربع وسبعين وثلاث مائة، وأكمل القراءات سنة ست وسبعين، ثم نهض إلى مصر ثانية بعد إكماله القراءات بالقيروان في سنة سبع وسبعين وثلاث مائة، حجّ تلك السنة حجة الفريضة عن نفسه، ثم ابتدأ بالقراءات على أبي الطيب في أول سنة ثمان وسبعين، فقرأ عليه بقية سنة ثمان وبعض سنة تسع، ورجع إلى القيروان وقد بقي عليه بعض القراءات، ثم عاد إلى مصر ثالثة في سنة اثنتين وثمانين فاستكمل ما بقي عليه في سنة اثنتين وبعض سنة ثلاث. ثم عاد إلى القيروان في سنة ثلاث وثمانين وأقام بها يقرئ إلى سنة سبع وثمانين، ثم خرج إلى مكة فأقام بها إلى آخر سنة تسعين وحج أربعة حجج متوالية نوافل، ثم قدم من مكة سنة إحدى وتسعين إلى مصر ثم قدم من مصر إلى القيروان في سنة اثنتين، ثم قدم إلى الأندلس في رجب سنة ثلاث وتسعين، ثم جلس للإقراء بجامع قرطبة فانتفع على يديه جماعات، وجوّدوا القرآن، وعظم اسمه في البلدة وجل فيها قدره.. وقد نزل أبو محمد مكي بن أبي طالب المقرئ أول قدومه قرطبة في مسجد النخيلة في الرقاقين عند باب العطارين فأقرأ به، ثم نقله المظفر عبد الملك بن أبي عامر[2] إلى جامع الزاهرة وأقرأ فيه

---

(١) أي أكثر التعلم والرحال إلى المعلمين.

(٢) ثاني أمراء الأندلس من الأسرة العامرية كان في أيام أبيه (المنصور) ينوب عنه في الحجابة للمؤيد الأموي (هشام بن الحكم) بقرطبة. ثم كان مع أبيه في غزوته التي مات بها (في مدينة سالم) ولما شعر أبوه بدنو أجله رده إلى قرطبة وأوصاه بضبطها، فأسرع إليها وجاءه نعي أبيه، فدخل على المؤيد، فأخبره، فخلع عليه وكتب له بولاية الحجابة مكان أبيه (سنة ٣٩٢ هـ) فقام بأمور الدولة كبيرها وصغيرها، وأسقط عن البلاد سدس الجباية، وتلقب بسيف الدولة « الملك المظفر بالله »، توفي سنة ٣٩٩هـ.

حتى انصرمت دولة آل عامر. فنقله محمد بن هشام المهدي إلى المسجد الجامع بقرطبة وأقرأ فيه مدة الفتنة كلها إلى أن قلده أبو الحزم بن جهور الصلاة والخطبة بالمسجد الجامع بعد وفاة القاضي يونس بن عبد الله. وكان قبل ذلك يستخلفه القاضي يونس على الخطبة، وكان ضعيفاً عليها على أدبه وفهمه. وبقي خطيباً إلى أن مات رحمه الله. وكان خيراً فاضلاً، متواضعاً، متديناً، مشهوراً بالصلاح وإجابة الدعوة. من ذلك ما حكاه عنه أبو عبد الله الطرفي المقرئ قال: كان عندنا بقرطبة رجلٌ فيه بعض الحدة وكان له على الشيخ أبي محمد مكي المقرئ تسلط. كان يدنو منه إذا خطب فيغمزه، ويحصي عليه سقطاته. وكان الشيخ كثيراً ما يتلعثم ويتوقف. فجاء ذلك الرجل في بعض الجمع وجعل يحد النظر إلى الشيخ ويغمزه، فلما خرج ونزل معنا في موضعه الذي كان يقرأ فيه قال لنا: أمِّنوا على دعائي. ثم رفع يديه وقال: اللهم اكفينه، اللهم اكفينه، اللهم اكفينه فأمنا. قال: فأقعد ذلك الرجل وما دخل الجامع بعد ذلك اليوم»[(١)].

فهذا المقرئ الذي رحل إلى مصر ثلاث مرات متتاليات في أعوام مختلفة ليكمل دراسته وحفظه لكتاب الله ﷻ، ثم انتقاله لمكة المكرمة ومكوثه فيها لأعوم خمسة يُدلل بلا ريب على أن الرحلة لطلب العلم كانت جزءًا أصيلاً من الحياة الفكرية والعلمية ثم التربوية التي هي جماع ذلك كله.

ومن ثم، كان الشوق للمشرق، والتعلم على أيدي علمائه الأجلاء حلم يرواد جُل الأندلسيين والمغاربة، ولنا مع الحافظ الأندلسي أبي الحسن بن مؤمن (ت٥٩٧هـ) أبرز المثل على ذلك، فهو يعبّر عن حبه لشيخه بهذه القصيدة التي نظمها قبل أن يلقاه: قال أبو الحسن علي بن مؤمن: لما اجتمعتُ بالحافظ أبي الطاهر السلفي[(٢)] ودخلتُ إليه في منزله أكرمني وأبدى لي مبرة وإقبالاً، وأثنى على أهل الأندلس خيراً ثم سألني عن حوائجي، فذكرتُ له مقاصدي، وإن جُلّ قصدي بتلك البلاد لُقياهُ والأخذ عنه، فأنعم بذلك ووعدني بكل خير؛ ثم أنشدته أبيات كنتُ رويتها وأنا بالبحر في مدحه وهي هذه:

---

(١) ابن بشكوال: الصلة ص٩١٠، ٩١١.

(٢) أحد أعلام الحديث النبوي الشريف في القرن السادس الهجري، جاءه صلاح الدين الأيوبي وتعلم على يديه وسمع منه وهو سلطان مصر، توفي سنة ٥٧٦هـ.

ظمئـتُ فهـل لي في مـواردِكُم رِيُّ وهـل لي في أكنـاف عـزّكم فَيُّ
وقـد طُفْـتُ في الآفـاقِ عـلى أنْ أَرَى بِهَـا أَحَـداً والحـيُّ مـا إنْ بـهِ حَـيُّ
قصـدتُ إلـيكم مِـنْ بِـلادٍ بَعِيـدةٍ وأنصب جِسْمي بالسّرى نحوكم طَيُّ
لعلّـك تَجْلُـو عـن فُـؤَادِي صَـدَاءَهُ فقـد مـدّ إطنابـاً بـه الجهـلُ والعـيُّ
وَتَقْبسـني كفّـاكَ مِـنْ شَرعِ أَحْمَـد كواكـبُ أبـدتها خُراسـانُ والـرِّيُ
وحَاشَـاكُم مـن أن يضـيعَ لـديكُمُ رَجَـائِي أو يَخْشَـى عَـلَى حَـاجَتِي لَيُّ
أَبَـا طـاهر أَحْـرَزتَ دِيـنَ محمـدٍ ونَاهِيـكَ فَخْـراً لا يُماثِلُـه شَي
فأَوْضـحتَ مِـنْ عِلـمِ الحديثِ مَعَالماً وبيّنـت مَوْقُوفـاً ومـا هُـو مَـرويُّ
وعَلَّمْتَنَـا نَقْـدَ الرِّجَـالِ وميْـزَهُم وَمنْ كَانَ ذا جَرحٍ وَمَنْ هُوَ مَرضيُّ
وَمِنْ أَجْلِ حفْظِ الدّينِ سُمّيتَ حَافِظَاً فَـلا زِلـتَ مَحْفُوظـاً وَقَـدرُكَ مَرعِـيُّ

فزاد من إكرامي وبِرّي؛ لأنه كان كثير الاهتزاز للشعر[١].

تلك هي الرحلة في طلب العلم، لا سيما المشرقية منها، كانت أصلاً من أصول التربية الإسلامية للمغاربة والأندلسيين.

آثار التربية المغربية والأندلسية

إن آثار التربية المغربية والأندلسية عديدة متنوعة، تجلت على كافة أطياف المجتمع المغربي، ولقد بدأت هذه الآثار تؤتي أكلها منذ فترة مبكرة من دخول الإسلام لهذه البلدان، منها المشاركة في الأحداث العامة، فإنه لما دخل موسى إفريقية (تونس)، وجدها قد قحطت قحطا شديداً؛ فأمر الناس بالصيام والخروج إلى المصلَّى، الرجال على حدة، والنساء على حدة، والصبيان على حدة، وكذلك جميع البهائم مع أصنافها. فاجتمعوا في موضع واحد، ودعا الله تعالى، ودعا الناس معه، وبكى، وبكوا، وبكى الصبيان والنساء، وصاحت البقر والعجل والغنم والخرفان وأهل الذمة. فأقاموا كذلك حتى انتصف

(١) ابن عبد الملك: الذيل والتكملة ١/ ٢٦٢، ٢٦٣.

النهار. ثم خطب الناس؛ فلم يلبث أن سقوا سقيًا شافيًا[(١)].

فمشاركة كافة أطياف المجتمع في الاستسقاء يرمز بلا شك إلى المشترك الذي يجمع هؤلاء، وهو المجتمع الذي يعيشون فيه، ويحرصون على استقراره وأمنه وطيب العيش فيه، وهذه ثمرة من ثمرات التربية الإسلامية التي لم تفرق بين أحد وآخر، خاصة الأطفال الصغار والنساء كما رأينا، وذلك في أحلك المواقف وأصعبها.

وللتعرف على أي مدى وصلت فيه الأمة الأندلسية إلى قمة سامقة في العلوم والمعارف، في كافة الطبقات، وللتقرب من الأمثلة التربوية الجادة التي لم تقل يومًا عن نظيراتها في المشرق، ننظر إلى هؤلاء الذين حكموا الأندلس في كافة أعصرها حتى أفول نجمها، لنعلم عن قرب الزاد التربوي والتثقيفي الذي وصل إليه هؤلاء آنئذٍ، صحيح ألا ثمة علاقة طردية ملحوظة بين السياسة والتربية والتثقيف، لكن نظرة على بلاط الأمراء والوزراء تقرب لنا المنظر العام للتربية بكافة أقسامها وفروعها في تلك الأعصر.

يقول المؤرخ الإسباني خوليان ريبيرا عن قصة التقدم التربوي لكافة طبقات المجتمع الأندلسي: «عندما جاء الأمويون إلى الأندلس وجدوا أنفسهم في حاجة لأن يعتمدوا بالتناوب على البربر آونة وعلى العرب أخرى، وأن يجذبوا إليهم بقية الشعب من أهل الذمة مسيحيين ويهود، ولم يقصروا ثقتهم على طائفة بعينها أو على أفراد معينين لا يتجاوزونهم، وأي إنسان يمكن أن يصبح موضع التقدير ما دامت تؤهله لذلك صفاته ومواهبه، فالمقاتل للحرب، والعالم للسلام، وساد الأمن وعم الهدوء، وبسط ظلاله على كل الناس أواخر الدولة الأموية، وأدى ذلك إلى ازدهار التعليم، وكان حتمًا على الجميع أن يتعلموا، يستوي في ذلك الشريف الذي ينتسب في أعرق الأسر، والعادي في غمار الناس... وهكذا رأينا بين أمراء الأسرة الأموية نفسها، وبين ملوك الطوائف ومن بعدهم من تميزوا بحبهم للمعرفة، وفاقوا غيرهم من رعاياهم، وقدموا لنا مثلاً قليل النظير بين الأمم، فكان بين أمراء الأسر الملكية في بطليوس وطليطلة وسرقسطة ودانية والمرية وإشبيلية وغيرها من وقفوا أنفسهم على دراسة العلم، وفي وقت واحد تقريبًا»[(٢)].

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ٢/ ١٩.

(٢) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس ص١٠٣.

ويؤكد على هذا المستشرق الإسباني إيميليو غرسية غومث الذي يقول: كان لكل أمير من أمراء الطوائف ميزة اختص بها دون جيرانه، فامتاز المتوكل صاحب بطليوس بالعلم الغزير، وامتاز ابن ذي النون صاحب طليطلة بالبذخ البالغ، واختص المقتدر ابن هود صاحب سرقسطة بالعلوم، وبزَّ ابن طاهر صاحب مُرسية أقرانه بالنثر الجميل المسجوع، أما الشعر فكان أمرًا مشتركًا بينهم جميعًا، يَلقى منهم كل رعاية، ولكن عناية بني عباد أصحاب إشبيلية به كانت أعظم وأشمل[١].

ولنتوقف مع إحدى أُسر الطوائف التي ظهرت الآثار التربوية جالية واضحة عليهم، هذه الأسرة هي بنو الأفطس في بطليوس في شمال غرب ووسط غرب الأندلس، وهي أجزاء ليست بالقليلة من إسبانيا والبرتغال الآن، قال الذهبي في ترجمة المظفر بن الأفطس (ت٤٦٠هـ): «كان رأسًا في العلم والأدب والشجاعة والرأي.. وله تأليف كبير في الآداب على هيئة «عيون الأخبار» لابن قتيبة، يكون عشر مجلدات.. وللمظفر تفسيرٌ للقرآن، وكان مع استغراقه في الجهاد لا يفتُر عن العلم، ولا يترك العدل، صنع مدرسةً يجلس فيها كل جمعة، ويحضره العلماء»[٢].

ويُكمل الولد مسيرة أبيه في العلم والأدب، قال الذهبي عن المتوكل بن الأفطس: «ولما توفي المظفر بعد السبعين وأربع مئة أو قبلها، قام في الملك بعده ولده الملقب بالمتوكل على الله أبو حفص عمر بن الأفطس صاحب بطليوس ويابرة وشنترين وأشبونة[٣]، فكان نحوًا من أبيه في الشجاعة والبراعة والأدب والبلاغة»[٤].

ومن الآثار التي نلمسها ونجد فيها آثار العلم والتربية، نجدُ المناظرات العلمية بين الأقران، وما كان يتجلى فيها من العلم والمواهب الرائعة، والعقلية الأندلسية الجذابة، فمن أشهر هذه المناظرات ما كان بين ابن حزم (ت٤٥٦هـ) وكان قد رُبي ونشأ في القصور الملكية، وأبي الوليد الباجي (ت٤٧٤هـ) وكان من أسرة متوسطة الحال؛ فقد حُكي عنهما

---

(١) إيمليو غرسية غومث: الشعر الأندلسي، وهذه الفقرة أضافها العلامة الطاهر مكي لكتاب خوليان ريبيرا السابق ص١٠٣.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٩٥- ٥٩٦.

(٣) هي مدينة لشبونة عاصمة دولة البرتغال اليوم.

(٤) السابق ١٨/ ٥٩٦.

أن أبا الوليد قال لابن حزم: « أنا أعظم منك همةً في طلب العلم؛ لأنك طلبته وأنت مُعان عليه تسهرُ بمشكاة الذهبِ، وطلبتُهُ وأنا أسهرُ بقنديل بائتِ السوق. فقال ابن حزم: هذا الكلام عليك لا لك؛ لأنك إنما طلبتَ العلمَ وأنت في تلك الحال؛ رجاءَ تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبتُهُ في حين ما تعْلَمه وما ذكرتَه فلم أرجُ به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة. فأفحَمَهُ»[1].

هذا الحوار بين ابن حزم وأبي الوليد الباجي صورة واضحة على أن التنافس في العلم بين مختلف الطبقات في الأندلس لم يُخطئ طريقه... لقد كان المستقبل اللامع، والوظيفة المرموقة تنتظر الشابّ في اللحظة التي يبدأ فيها تعلّم مبادئ الفقه والنحو والأدب، ما دام يجتهدُ ويأخذُ بأسباب الطلب، فالطريق إلى الوظائف مفتوح أمام الناس جميعًا، ويستطيع أي فرد أن يحقق طموحه بالعمل[2].

ونقف الآن مع إحدى هذه الحالات المبدعة التي تجلت عليها آثار التربية الإسلامية، وأقصدُ العلامة أبي محمد بن حزم رحمه الله، الذي يُمثّل واسطة عقد الحضارة الأندلسية، وسنرى آثار التربية الإسلامية عليه من خلال مؤلفاته التي كتبها في فترات مختلفة من عمره.

ابن حزم ثمرة التربية الأندلسية!

الأندلس الجوهرة المفقودة، وعلماؤها يواقيت ولآلئ، وقصة التربية والعلم فيها، هي الترجمة الواقعية لأبنائها لاسيما من ارتقوا في مدارج العلم، وأصبحت لهم المرقبة العليا، والمرقاة الفضلى بين أبناء عصرهم، وهذه قصة عالم تشّنفت الأسماع بذكره، وتعطرت كتب الطبقات والتواريخ بترجمته، وتلذذت العقول بمؤلفاته، إنه الإمام العلامة ابن حزم، الرجل الذي تربى في كنف النساء حتى البلوغ والشباب؛ يقول عن هذه المرحلة التي أثرت في تكوينه العلمي والثقافي، والتي تُدلل على أن النساء شقائق الرجال في التربية والتقويم والتثقيف: «لقد شاهدتُ النساء وعلمتُ من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري،

---

(١) المقّري: نفح الطيب ٢/ ٧٧.
(٢) ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس ص١٠٤.

لأني رُبّيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تبقّل وجهي؛ وهنّ علمنني القرآن ورويّنني كثيراً من الأشعار ودربنني في الخط»[1].

لقد كان ابن حزم رحمه الله فريدًا عجيبًا في حياته العلمية والنفسية والتربوية، إنه تجربة تستحق الدرس والبحث لسبر أغواره ومعرفة أسراره، وما يلي مقالٌ كنت قد كتبته لمجلة الوعي الإسلامية الكويتية، أرى من المفيد ذكره هنا لنعلم قصة التربية في الأندلس في القرن الخامس الهجري من خلال العلامة أبي محمد بن حزم (ت٤٥٦هـ).

لقد كان من المفارقات التي لا أنساها أن أتعرّف على إمامنا أبي محمد بن حزم أول ما أتعرف من خلال كتابه «طوق الحمامة في الألفة والأُلّاف»، ذاك الكتاب الرائع الذي يرسم لنا الأثر النفسي والفكري والعاطفي الذي عايشه ابن حزم في فترة مراهقته وشبابه.

وقدّر الله لي أن أدرس تاريخ الأدب الأندلسي على يد علامة كان – و لا يزال – على قدم راسخة، وقريحة متوقدة في هذا العلم المهم، وأقصد أستاذي وأستاذ أساتذتي الطاهر مكي – أطال الله في عمره، ونفعنا بعلمه – ذاك الرجل الذي صال وجال في الأندلس؛ حيث نال درجة الدكتوارة من جامعاتها، وأخذ العلم على كبار مفكريها وعلمائها، وأتقن اللغة الإسبانية كأنه رجل من رجالاتها، وكان لكتابه «دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة» دور آخر في تقريب الأوضاع الاجتماعية والأدبية لأسلافنا الأندلسيين، حتى لكأنك حين تقرأ هذا الكتاب تعيش على سهل من سهول قرطبة أو طليطلة أو إشبيلية... تنتظر أقرانك الأندلسيين للذهاب إلى حلقات الإمام ابن حزم أو ابن شهيد أو الباجي أو غيرهم.

وقد ذهبت أيام دار العلوم، وبقيت تجربة ابن حزم التي كانت تراودني بين الفينة والأخرى، وكان السؤال الذي يجول بخاطري: كيف لهذا الأصولي الظاهري المتشبث برأيه أنْ يكتبَ كتابًا كطوق الحمامة قد يصفه من لا يفقه تاريخ التراث الإسلامي بأنه كتاب خلاعة ومجون، بل قد يصفه آخرون بأنه منتحل على لسان ابن حزم؟!

(١) ابن حزم: طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس ص١٦٦.

من اللافت أن «طوق الحمامة» ليس مجرد كتاب يعبث بالعواطف، ويهيج القلوب، إنه كما يقول أستاذنا الطاهر مكي: «لا تكاد تمضي خطوات مع ابن حزم في طوق الحمامة حتى تجد نفسك أمام فيض من ذكرياته، عن نفسه وعن أصدقائه، وآخرين مجهولين، وكلهم من العشاق: زفراتهم حارة، وأحاسيسهم صادقة، يخلطون المداد بالدمع أو الريق، ويستخدمون في التراسل الحمام والعيون والرسل، ويعانون من الوشاة، ويموتون من الحب، وهو إلى جانب ذلك معرض حافل بالحديث عن شيوخ ابن حزم، والشخصيات العامة في قرطبة، وبالإشارات التاريخية، والأحداث المهمة، والحفلات الخاصة، وتخطيط العاصمة ومعمارها، ومساكن آل حزم ومستواها، وكلها تتحرك بالحياة، وتمضي متماسكة مثل عناقيد العنب، وهو قبل ذلك كله سيرة ذاتية للمؤلف، خطّها بقلمه، واعترافات مخلصة ألقى بها في جرأة وصدق غير معهودين في الفكر العربي على أيامه وما بعدها إلى أيامنا»[1].

كان «طوق الحمامة» تجربة حية لحياة شاب أندلسي أُشرب روح الأندلس وحضارتها، تلك الحضارة التي احتلت محتليها كما يقول الإسبان فكيف بالأندلسي المولد والهوى والممات؟!

إن نظرة لأحد أبواب هذا الكتاب: كتاب «مراسلة الأحباب»، يُعْلمنا كيف كانت مشاعر ابن حزم متقدة مشتعلة ملتهبة لا يوقف سيلها إلا مداد القلم، وسلوة الأسطر؛ فبعد حديثه عن باب المراسلة بالعين، وكلامه الذي يبدو كدليل لكل محب عاشق في كل زمان، ينتقل إلى هذا الباب، فترى أشعاره انعكاسًا لأعماق نفسه، يقول:

جَوابٌ أتاني عَنْ كِتابٍ بعثْتُه ... فسكَّن مهتاجًا وهيَّج ساكنًا

سَقَيتُ بدمْعِ العيْنِ لما كتَبْتُه ... فِعَالَ مُحبٍّ ليس في الودّ خائنا

فما زال ماءُ العينِ يمحو سُطُورَهُ ... فيا ماءَ عيني قد محوت المحاسِنا

هذا الولَهُ والعشق من ابن حزم الشاب، كان إذا قُرئ في عصره، وتدبره المتدبرون لعلموا أن ثمة أديبًا ستنجبه الأندلس قريبًا، لكن مساره قدّره الله بغير ذلك؛ فقد ذكر عبد

(١) ابن حزم: طوق الحمامة، تحقيق: الطاهر أحمد مكي ص٤٥، ٤٦.

الواحد المراكشي في كتابه «المعجب في أخبار المغرب» وقد ألفه في غربته عن المغرب - إذ كان منفيًا على أقل تقدير- فجاءت الأخبار في هذا الكتاب محايدة بعيدة عن التعصب- قال عن ابن حزم: إنه «صنف في الفقه والحديث والأصول والنحل والملل، وغير ذلك من التاريخ وكتب الأدب والرد على المخالفين له، نحوًا من أربعمائة مجلد، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة، وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في مدة الإسلام قبله إلا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري»[1].

وإذا أردنا إنعام النظر، وإجالة الفكر في المرحلة الثانية والوسطى في حياة هذا الرجل، فهي «استبداده بعلم الظاهر» كما يقرر المراكشي، أي اتكائه في مسائل الفروع على مذهب الظاهرية، فابن حزم اطّرح مذهب الإمام مالك الذي هو المذهب المعبر عن الغرب الإسلامي كله (الأندلس والمغرب)، وكان له قصب السبق، واليد الطولى في نشر هذا المذهب في بلاد الأندلس، حتى صار له أتباع وأنصار.

وكتابه «المحلى» يمكن أن نلمس فيه بكل وضوح مرحلة اتقاد العقل، وبزوغ العبقرية الأندلسية في القرن الخامس الهجري، فالكتاب جامع لمسائل الفقه وأصوله فضلاً عن الحديث عن الرجال وتقييماته العبقرية لهم، وهو الرجل الأندلسي الغربي البعيد، حتى إن الذهبي وابن حجر من بعده وهم من المشارقة قد اعتمدوا عليه، وساروا على خطواته في تعديل الرجال وجرحهم، ولا يمكن أن نتغاضى عن هذه الرؤية الأصولية الرياضية الثاقبة، التي نراها بوضوح في مقدمة المحلى؛ إذ يقول: «إنكم رغبتم أن نعمل للمسائل المختصرة التي جمعناها في كتابنا الموسوم بالمحلى شرحًا مختصرًا نقتصر فيه على قواعد البراهين بغير إكثار؛ ليكون مأخذه سهلاً على الطالب والمبتدئ، ودرجًا له إلى التبحر في الحجاج، ومعرفة الاختلاف، وتصحيح الدلائل المؤدية إلى معرفة الحق مما تنازع الناس فيه، والإشراف على أحكام القرآن، والوقوف على جمهرة السنن الثابتة عن رسول الله ﷺ، وتمييزها مما لم يصح، والوقوف على الثقات من رواة الأخبار، وتمييزهم من غيرهم،

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص٩٤.

والتنبيه على فساد القياس وتناقضه، وتناقض القائلين به»[١].

وبكل وضوح وبساطة تتملكني الدهشة والتعجب، فكيف خرج «طوق الحمامة» ذلك الكتاب العاطفي الأدبي الرائق و «المحلى» ذلك الكتاب الأصولي الحديثي الفقهي ذي الرؤية الجديدة تمامًا على المحيط الأندلسي خاصة والإسلامي عامة، من مشكاة واحدة، ومن رجل واحد، أليس في الاختلاف البين، والبعد الواضح بين المجالين أن يوجد من قد يشكك في نسبتها إلى ابن حزم؟

قد يتبادر ذلك إلى من جهل ابن حزم؛ فإذا كان عصر الموسوعات العلمية في تاريخ الفكر الإسلامي قد ظهر بعد وفاة ابن حزم بما يقارب ثلاثة قرون في مصر المملوكية، إلا أن الموسوعية التأليفية، والعقلية المتدفقة قلما تجدها في تاريخنا الإسلامي إلا في ابن حزم وأضرابه من المغاربة والمشارقة.

وللأسف كانت غزارة مؤلفاته، وأولية بعضها، ومناظراته الحادة سببًا في ظلمه من الحاقدين والمغرضين وأرباب السلاطين الذين لا يرون إلا أنفسهم أهلٌ لكل شيء، حتى إن ابن حزم رحمه الله قد ضاق بهم ذرعًا، وعرّض بنفسه وبعلماء الأندلس الراسخين في رسالته الشهيرة «فضل الأندلس وذكر رجالها»؛ بقوله: «أزهدُ الناس في عالمٍ أهله، وقرأت في الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال: لا يفقد النبي حرمته إلا في بلده... ولا سيما أندلسنا، فإنها خُصت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير ما يأتي به، واستهجانهم حسناته، وتتبعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدة حياته، بأضعاف ما في سائر البلاد. إن أجاد قالوا: سارقٌ مغير، ومنتحل مدع، وإن توسط قالوا: غثٌ بارد وضعيف ساقط، وإن باكر الحيازة لقصب السبق قالوا: متى كان هذا ومتى تعلم وفي أي زمان قرأ ولأمه الهَبَل!! وبعد ذلك إن ولَجَت به الأقدار أحد طريقين: إما شفوفاً بائناً يعليه على نظرائه، أو سلوكاً في غير السبيل التي عهدوها، فهنالك حمي الوطيس على البائس، وصار غرضاً للأقوال، وهدفاً للمطالب، ونصباً للتسبب إليه، ونهباً للألسنة، وعرضةً للتطرق إلى عِرْضه، وربما نحل ما لم يقل، وطُوِّق ما لم يتقلد، وأُلحق به ما لم يفه به ولا

---

(١) ابن حزم: المحلى، ١/ ٢.

اعتقده قلبه، وبالحرى، وهو السابق المبرز إن لم يتعلق من السلطان بحظ، أن يسلم من المتالف، وينجو من المخالف. فإن تعرض لتأليف غمز ولمز، وتعرض وهمز، واشتط عليه، وعظم يسير خطبه، واستشنع هين سقطه، وذهبت محاسنه، وسترت فضائله، وهتف ونودي بها أغفل، فتنكُسُ لذلك همته، وتكل نفسه وتبرد حميته، وهكذا عندنا نصيب من ابتدأ يحوك شعراً، أو يعمل رسالة، فإنه لا يفلت من هذه الحبائل، ولا يتخلص من هذا النصب، إلا الناهض الفائت، والمطفف المستولي على الأمد»(١).

ويبدو أن العظماء من علماء الحضارة الإسلامية كابن حزم وابن رشد والغزالي وابن تيمية وغيرهم كانوا على موعد مع إحراق مؤلفاتهم، وقد تجمعت في ابن حزم عوامل عدة، منها: تنديده بولاية خلف الحصري للخلافة بإشبيلية، ومعارضة بعض الفقهاء له وسعيهم لدى السلطان للإيقاع به وإثارة العامة ضده، فضلاً عن هواه الأموي ومعارضته لأمراء الطوائف ومن ثم التقت أغراضهم مع ما كان يرمى إليه المعتضد بن عباد، فكانت واقعة إحراق كتبه على مسمع ومرأى من الناس ومنه(٢).

ولقد صدق أبو العباس بن العريف – أحد الصالحين بالأندلس – حين قال: لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان؛ فقد كان ابن حزم رحمه الله، لا يتوانى في تقريع كل مناظر له، خاصة إذا كان ممن لم يؤت من العلم إلا قليلاً فضلاً عن قدماء العقل والفكر والثقافة، وظل ابن حزم على نهجه ومنواله حتى قرر في نهاية عمره أن يعتزل حياة الجهد والمناظرات والاضطهاد إلى حياة الهدوء والتأليف في قريته الصغيرة منت لشم من وديان ولبة في جنوب غربي الأندلس(٣).

ويمكن أن نلحظ بكل وضوح مدى النضج العقلي والفكري الذي وصل إليه في هذه المرحلة الأخيرة من عمره من خلال إحدى رسائله المهمة وهي «رسالة في مداواة النفوس»، فهذه الرسالة كما يقول علامة التحقيق الأندلسي الدكتور إحسان عباس رحمه الله: «تبدو هذه الرسالة نوعًا من المذكرات والخواطر التي دونت على مرّ الزمن، وكانت

---

(١) ابن حزم: مجموع الرسائل، / ١٧٧، ١٧٨.
(٢) ابن حزم: مجموع الرسائل ٣/ ٢٠- ٢٥.
(٣) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ١/ ٥٦٨.

حصيلة التجربة المتدرجة، ولعل أكثرها إنما دوّن في سن كبيرة؛ لأنها تُشير إلى الهدوء والنضج في محاكمة الناس والأشياء، وتمثل مفارقة وتكملة لطوق الحمامة، وخروجاً على بعض الأحكام التي جاءت في الطوق أو تطويراً لها. ففي هذه الرسالة يقدم ابن حزم نظرته في الحياة على نحو فلسفي أو فكري. فإذا نظر إلى الحياة الاجتماعية وجدها تقوم على محور واحد، أحد طرفيه موجب والثاني سالب، أما الطرف الموجب فاسمه «الطمع» ومعناه بهذا التعميم: المحرك أو الدافع الداخلي الذي يوجه الفرد نحو هذا الشيء أو ذاك. فالطمع أصل في كل المظاهر الاجتماعية التي نراها من حب وطموح وحياة مادية وغير ذلك. وإذا أخذنا الحب مثلاً لنفسره على مبدأ الطمع وجدنا أنواعا من الحب تختلف في الظاهر، وترجع كلها إلى أصل واحد هو «الطمع فيما يمكن نيله من المحبوب»[1]. فإذا كان الطمع بهذه القوة في حياة الأفراد فمن الطبيعي أن ينشأ عنه « الهم » وهو الظرف السالب في محور الحياة الاجتماعية. ويصف ابن حزم جميع أدوار الحياة ومظاهرها بأنها محاولة لطرد الهم، وأن الناس جميعا يتفقون في هذه الغاية سواء في ذلك المتدين ومن لا دين له، والخامل والزاهد والفيلسوف العازف عن اللذات وغيرهم. فطالب المال يكد في سعيه ليطرد «هم الفقر»، والساعي وراء الشهرة يجري إليها ليطرد «هم الخفاء والخمول»... أما الشيء الذي يقتلع الهم من جذوره دون أن يثير بين عناصر المجتمع هماً جديداً فهو ما يستخلصه ابن حزم رحمه الله من خلال تجربته الفريدة بقوله: «فاعلم أنه مطلوب واحد، وهو طرد الهم، وليس إليه طريق واحد، وهو العمل لله تعالى، فما عدا هذا فضلال وسخف»[2].

بهذه القناعة الفلسفية العميقة، وبهذه التجربة الحياتية الصاخبة عاش ابن حزم أخريات عمره في الريف الأندلسي، بعيدًا مضطهدًا، ومن الغريب أن يصب كل اهتمامه في إخراج كل ما يمكن إخراجه من مؤلفات، رغم كونها لم «تتجاوز عتبة داره»[3].

توفي ابن حزم رحمه الله عام ٤٥٦هـ، بعد تجربة تستحق أن تُدرس، وحياة تستوجب

(١) رسائل ابن حزم ١/ ٣٢٥.
(٢) السابق ١/ ٣٣٨.
(٣) مقدمة طوق الحمامة ص٣٢.



التوقف أمامها كثيرًا، فإذا اعتبرنا أن تجربة ابن حزم في الإصلاح العلمي والثقافي والتربوي قد مرت بثلاث مراحل: الأولى هي مرحلة التعرف على الآخر، والمرحلة الثانية مرحلة الاحتكاك بالآخر، والمرحلة الثالثة والأخيرة هي مرحلة الابتعاد أو الإقصاء عن الآخر، لعلمنا أن أوليته وتناول العلماء الراسخين لحياته ومؤلفاته بكثير من الإكبار والإجلال، وكثير من النقد واللوذعية تستلزم منا أن نستلهم منه كل ما يمكن تقديمه لطلاب العلم فضلاً عن المتعالين الذين يملئون الدنيا ضجيجًا وصياحًا ونقيقًا، فقصة ابن حزم من خلال مؤلفاته وكتبه تؤكد لنا أن الأمة الأندلسية وهي في أقسى ظروفها كانت تملك الإبداع والموهبة والعلم الراسخ من خلال أعلام كابن حزم وابن شهيد والباجي وابن رشد الجد والحفيد وابن العربي ومئات بل آلاف غيرهم.

نساءٌ مُشارِكَات

هؤلاء النساء اللاتي تعلم ابن حزم على أيديهن، وتثقف بثقافتهن لم يكونوا أقل من الرجال علمًا وأدبًا وثقافة، وآثار التربية الإسلامية في الأندلس تجلت عليهم بكل فن، حتى إن المؤرخ الأديب أحمد بن محمد المقري (ت١٠٤١هـ) بعد حديثه عن أدباء وبلغاء الأندلس من الرجال يفرد للنساء فصلاً جذّابًا في كتابه الرائق، فيقولُ: «وإذا وصلتُ إلى هذا الموضع من كلام أهل الأندلس، فقد رأيتُ أن أذكر جملة من نساء أهل الأندلس اللاتي لهن اليد الطولى في البلاغة كي يُعلم أن البراعة في أهل الأندلس كالغريزة لهم حتى في نسائهم وصبيانهم»![1]

وذكر عددًا كبيرًا منهن، مثل: بثينة بنت المعتمد بن عباد وأمها الشاعرة الأميرة اعتماد الرُّميكية، وكانت بثينةُ هذه مثل أمها في الجمال والنادرة ونظم الشعر، ولما أُحيط بأبيها[2] ووقع النهب في قصره، كانت من جملة من سُبي، ولم يزل المعتمد والرّميكية عليها في ولهٍ دائمٍ لا يعلمان ما آل إليه أمرها، إلى أن كتبت إليهما بالشعر المشهور المتداول بين الناس بالمغرب، وكان أحد تجار إشبيلية اشتراها على أنها جارية سرّية[3] ووهبها لابنه فنظر من

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٤/ ١٦٦.

(٢) أي وقع في أسر دولة المرابطين.

(٣) أي مملوكة من جملة الرقيق، وهي حرة.

شأنها وهُيئت له، فلما أراد الدخول عليها امتنعت، وأظهرت نسبها، وقالت: لا أحل لك إلا بعقد النكاح[1] إن رضي أبي بذلك. وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها وانتظار جوابه فكان الذي كتبته بخطها من نظمها ما صورته:

اسمع كلامي واستمع لمقالتي ... فهي السلوك بدت من الأجياد
لا تنكروا أني سبيتُ وأنني ... بنتٌ لملك من بني عباد
ملك عظيم قد تولى عصره ... وكذا الزمان يؤول للإفساد
لما أراد الله فرقة شملنا ... وأذاقنا طعم الأسى عن زاد
قام النفاق على أبي في ملكه ... فدنا الفراق ولم يكن بمراد
فخرجت هاربة فحازني امرؤ ... لم يأت في إعجاله بسداد
إذ باعني بيع العبيد فضمني ... من صانني إلا من الأنكاد
وأرادني لنكاح نجل طاهر ... حسن الخلائق من بني الأنجاد
ومضى إليك يسوم رأيك في الرضى ... ولأنت تنظر في طريق رشادي
فعساك يا أبتي تعرفني به ... إن كان ممن يرتجى لوداد
وعسى رميكية الملوك بفضلها ... تدعو لنا باليمن والإسعاد

فلما وصل شعرها لأبيها وهو بأغمات[2] واقع في شراك الكروب والأزمات سر هو وأمها بحياتها ورأيا أن ذلك للنفس من أحسن أمنياتها إذ علما مآل أمرها وجبر كسرها إذ ذلك أخف الضررين وإن كان الكرب قد ستر القلب وأشهد على نفسه بعقد نكاحها من الصبي المذكور وكتب إليها أثناء كتابه مما يدل على حسن صبره المشكور:

بُنيّتي كُوني به برةٌ ... قَد قَضَى الوقتُ بِإسْعَافِهِ[3]

---

(١) الزواج.

(٢) أغمات قرية مغربية أمازيغية تاريخية عريقة تقع جنوب وسط المغرب بالقرب من مُراكش بها ضريح المعتمد بن عباد بها، قضى بها بقية أيام عمره هو وزوجه مأسورًا.

(٣) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٤/ ٢٨٤، ٢٨٥.





(صورة رقم ١٠ قصر المعتمد بن عباد في إشبيلية).

وعكس قصة بثينة التي سعت لموافقة والديها على زواجها بالفتى المصون الآنف الذكر، وجدنا بعض أشياخ الأندلس يسعون لتزويج بناتهن العالمات من تلاميذهم النجباء، مثل أسماء بنت سليمان بن نجاح المقرئ، وهي وأبوها من مدينة بلنسية شرق الأندلس، قال القُضاعي عن قصة زواجها، واختيار أبيها لزوجها الطالب النبيه: «روت عن أبيها كثيرًا وشاركته في بعض شيوخه، وهي التي زوجها (أبوها) من أحمد بن محمد، فتىً كان يقرأُ عليه، وكان فاضلاً مُقلاً، فأعجَبَهُ سَمْته، وقال له يومًا: أتحب أن أزوجكَ بِنتي؟ فخَجِل الفتى وذكر حاجةً تمنعُهُ، فزوّجها منه، ونَظَرَ لها في دارٍ، وزفّهَا إليه»[1].

وقد ذكر المؤرخ الكبير ابن بشكوال في «الصلة» مجموعة من هؤلاء النسوة اللاتي أثَّرن في الحياة الاجتماعية في الأندلس في العصر الأموي بها، ذكر منهن عائشة بنت أحمد القرطبية، قال عنها: لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يعدلها علمًا وفهمًا وأدبًا وشعرًا وفصاحةً، تمدح ملوك الأندلس وتُخاطبهم بما يعرض لها من حاجةٍ، وكانت حسنة

(١) القُضاعي: التكملة ٤/ ٢٥٤.

الخطِّ تكتُبُ المصاحف، وماتت عذراء لم تنكح سنة أربعمائة، وهي من عجائب زمانها وغرائب أوانها وأبو عبد الله الطبيب عمها، ولو قيل إنها أشعر منه لجاز، ودخلت على المظفر ابن المنصور بن أبي عامر وبين يديه ولدٌ فارتجلت[1]:

أراكَ اللهُ فيـــه مَـــا تُريـــدُ ... وَلا بَرِحَـــتْ مَعَالِيـــه تَزِيـــدُ
فَقَـــدْ دَلّـــتْ مَخَايِلُـــهُ عَـــلَى مَـــا ... تُؤَمِّلُـــهُ وطَالعُـــهُ السّـــعِيدُ
تَشَـــوّقَتْ الجيـــادُ لـــه وَهـــزّ الـــ ... حُسامُ هَـوىً وَأشْرَقَـتِ البُنُـودُ
فَسَـــوفَ تَـــراهُ بَـــدرًا في سَـــماءٍ ... مِـــن العليـــا كَواكبـــه الجُنُـــودُ[2]

وتجلت ثقافة المرأة الأندلسية وأدبها في معرفة أمور الفقه والفتاوى والنوازل التي كان يعجز بعض العلماء والفقهاء عن حلها، قال المقري: «حكي أن بعض قضاة لوشة[3] كانت له زوجة فاقت العلماء في معرفة الأحكام والنوازل وكان قبل أن يتزوجها ذكر له وصفها فتزوجها وكان في مجلس قضائه تنزل به النوازل فيقوم إليها فتشير عليه بما يحكم به فكتب إليه بعض أصحابه مداعبا بقوله:

بِلوشَـــةَ قَـــاضٍ لـــه زوجَـــةٌ ... وَأحْكَامُهَـــا في الـــورَى مَاضِـــيَهْ
فَيـــا لَيْتَـــهُ لم يَكُـــنْ قَاضِـــيًا ... وَيَالَيْتَهـــا كَانْـــتِ القَاضِـــيهْ

فأطلع زوجتَه عليه حين قرأَهُ فقالت ناولني القلم فناولها فكتبت بديهة:

هُـــوَ شَـــيخُ سُـــوءٍ مُـــزْدَرَى ... لَـــهُ شُـــيوبٌ عَاصِـــيهْ
كَـــلاَّ لَـــئِن لم يَنْتَـــهِ ... لنَســـفَعًا بالناصِـــيهْ

وسمعتُ بعض أشياخنا يحكي القضية عن لسان الدين بن الخطيب وأنه هو الذي كتب يداعب زوج المرأة فكتبت إليه:

إنّ الإمامَ ابن الخَطِيبِ ... لَـــهُ شُـــيُوبٌ عَاصِـــيهْ[4]

---

(١) أي قالت الشعر دون تحضير مسبق، وإعمال للذهن.
(٢) ابن بشكوال: الصلة ص٩٩١، ٩٩٢، و المقري: نفح الطيب ٤/ ٢٩٠.
(٣) لَوشَة مدينة أندلسية تقع في مقاطعة غرناطة جنوبي إسبانيا. تطل على نهر الشنيل.
(٤) المقري: نفح الطيب ٤/ ٢٩٣ – ٢٩٥.

ولا نحسبُ أن المرأة كانت حبيسة البيوت، منقطعة مع هذا الحسِّ المرهف في الأدب والشعر وغيره، فقد رأينا مشاركتها في الفقه وعلومه، بل واستحواذها على النسخ والكتابة كما مرّ بنا عند الحديث عن مكتبات قرطبة ودور النساء في عملية النسخ والطباعة والمقابلة، لكن على الجانب الواقعي الحياتي كانت المرأة شريكة الرجل في الأحداث العامة وحتى الخاصة.

وهنّ كثيرات لا يستوعب المقام ذكر طائفة ولو قليلة منهن، فمنهن الأميرة الأموية البهاء بنت الأمير عبد الرحمن الأوسط (ت٣٠٥هـ)، قال عنها القُضاعي: «كانت من خير نسائهم، من أهل الزهد والعبادة والتبتل، وكانت تكتبُ المصاحف وتحبسها (أي توقفها على المساجد)، وكان لها رغبة في الفضل والخير، وهي التي يُنسب إليها مسجد البهاء في مساجد ربض الرُّصافة توفيت في رجب سنة خمس وثلاثمائة لأول ولاية الناصر فلم يتخلف أحدٌ عن جنازتها»[١].

ومنهن من كانت تعمل بمجال الكتابة والإنشاء وهو من المجالات والوظائف المرموقة في كل الدول الإسلامية، مثل «زمرد الكاتبة الحاذقة»[٢]، ومنهن الأميرة «مرجان أم الحكم المستنصر بالله كانت أديبة لطيفة المقاصد»[٣].

ومنهن من كان زوجها يتعلم على يديها، مثل حبيبة بنت عبد العزيز بن موسى (ت٥٠٦هـ) قال القُضاعي: « سمعت أبا عمر بن عبد البر وكتبت عنه من تواليفه وأبا العباس العذري وسمع زوجها أبو القاسم بقراءتها عليهما وكانت جيدة الخط ضابطة لما كتبته دَيِّنة»[٤].

ومنهن من أخذت العلم على زوجها، مثل أم شُريح المقرئ إحدى معلّمات القرآن الكريم في مدينة إشبيلية جنوب الأندلس في القرن الخامس الهجري، قال عنها القُضاعي: «كانت تُقرِئُ القرآن لمن خَلَفَ عليها، خَلْفَ سِتْرٍ بحرف نافع، أَخَذَت عَن زَوْجها أبي عبد

(١) القُضاعي: التكملة ٤/ ٢٤٣.
(٢) السابق ٤/ ٢٤٦.
(٣) السابق ٤/ ٢٤٦.
(٤) السابق ٤/ ٢٥٤.

الله بن شُريح، وكان أبو بكر عياض بن بقي ممن قَرَأ عَليها في صِغره، وكان يفخر بذلك، ويُذاكر به ابنها شُريحًا، ويقول: قرأتُ على أبيك وأمك فلي مزيةٌ على أصحابك، وماتَّةٌ[١] لا يمتُّ بمثلها أحدٌ إليك. فيُقِرُّ له الشيخ ويصدقه»[٢].

ومنهن الداعية الواعظة التي كانت تجوب البلاد لوعظ النساء، وهذه من الأدوار التي قلما قرأنا أو سمعنا بها، مثل رشيدة الواعظة؛ فقد كانت «تجول في بلاد الأندلس تعظ النساء وتذكرهن وكان لها صيت واتصاف بالخير»[٣].

ومنهن معلمة القصور هي وبناتها سيدة بنت عبد الغني بن علي الغرناطية (ت٦٤٧هـ)، قال القُضاعي: « نشأت بمرسية وتعلمت القرآن وبرعت في ذلك وجاد خطها وعلمت في ديار الملوك عمرها كله إلى أن أصابتها زمانة أقعدتها بدارها نيفا على ثلاثة أعوام وخلفتها على التعليم بنتان لها كبرى وصغرى وكانت قد لقيت أبا زكرياء الدمشقي بغرناطة وبها علمت القرآن أول ما ترشحت لذلك ثم انتقلت إلى مدينة فاس ثم عادت إلى غرناطة ولحقت بتونس فعلمت بقصرها أيضا وكتبت بخطها كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي من أصل أبي زكرياء المذكور ولم تزل قائمة على التلاوة ومحافظة على الأدعية والأذكار والسعي في الخيرات والتوفر على أعمال البر والإيثار بها تملك وفك الرقاب من الأسر إلى أن توفيت رحمها الله بتونس»[٤].

ومما سبق لا نستغرب حينما نرى النساء في المغرب يخرجن في الجنازات على سبيل المثال خلف الرجال، ويؤدين دورهن في هذا الجانب، مثل جنازة الفقيه عبد الله بن محمد ابن علي بن ذي النون الحجري (ت٥٩١هـ) في مدينة سبتة[٥]، وكان صالحًا عالمًا يحبه الناس جميعًا، قال أحد تلامذته ويُسمى الفقيه محمد بن غاز عن ابنة عمته « وكانت من الصالحات أنها استحيضت حيضة شديدة وتمادى بها ذلك زمانًا وأنها لما سمعت بموت

(١) أي صلة وقرابة.

(٢) القضاعي: التكملة ٤/ ٢٥٥.

(٣) السابق ٤/ ٢٥٩.

(٤) السابق ٤/ ٢٦٥.

(٥) هي مدينة مغربية محتلة من إسبانيا، ذات حكم ذاتي مساحتها قرابة ١٨,٥ كم^2 وتقع أقصى شمال المغرب على البحر المتوسط.

أبي محمد بن عبيد الله أشفَقَت من أن لا تحضرَ الصلاةَ عليه ودفنه لما رجت في ذلك من الثّواب فَقَالت: اللهم إن كان هذا الرجل عندك من الصالحين فارفع ما بي حتى أشهد الصلاة عليه فاستُجيبت دعوتها، وحضرت ما سألت، وارتفع عنها بعد ذلك دم الاستحاضة، ولم يرجع إليها إلى أن توفيت»[1].

ومن أراد الاستمتاع والاستزادة ومعرفة الدور التربوي الذي لعبته المرأة المغربية والأندلسية فعليه مراجعة كتاب القُضاعي الذي اعتمدت عليه كثيرًا في الحديث عن النساء في المغرب والأندلس، فهو كتاب ظريف في بابه، جميل في عرضه، وهو «التكملة لكتاب الصلة» لابن بشكوال.

حضارةٌ احتلت محتليها!

ما يُدلل على المكانة العليا التي وصلت فيها الأندلس لأعلى مراحل العلوم والفنون، وما يؤكد أن أبناء هذه الأمة أنما رُبوا على الجمع بين الثقافتين العلمية والشرعية، وما يجعلنا منبهرين بقصة هذا العالم المسلم الذي أدهش وأبهر المحتل المنتصر الغاصب، والذي استمسك واستعصم بتلابيب الإسلام الحنيف، رغم إغراءات الملك القشتالي فرناندو الثالث الذي استولى على مُرسية في شرق إسبانيا، يجب أن نرجع لكتاب العلامة المقري التلمساني «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب» الذي قال عن الطبيب المهندس، صاحب اللغات المتعددة العالم محمد بن أحمد بن أبي بكر القرموطي[2] المرسي[3] أنه كان «من أعرف أهل الأندلس بالعلوم القديمة: المنطق والهندسة والعدد والموسيقى والطب، فيلسوفًا طبيبًا ماهرًا، آية الله في المعرفة بالأندلس، يُقرئ الأمم بألسنتهم وفنونهم التي يرغبون فيها وفي تعلمها، ولما تغلب طاغية الروم على مُرسية عرفَ له حقه، فبنى له مدرسة يُقرئ فيها المسلمين والنصارى واليهود، وقال له يومًا: وقد أدنى منزلته - لو تنصّرتَ، وحصلت الكمال كان لك عندي كذا وكنت كذا؟ فأجابه بما أقنعه، ولما خرج من عنده قال لأصحابه: أنا عمري كله أعبد إلهًا واحدًا، وقد عجزتُ عما يجب له، فكيف

(١) القُضاعي: التكملة لكتاب الصلة ٢/ ٢٧٨.
(٢) ذكره ابن الخطيب بأنه محمد بن أحمد الرقوطي المرسي.
(٣) نسبة إلى مدينة مُرسية شرق الأندلس.

حالي لو كنتُ أعبدُ ثلاثة كما طلب الملك مني؟»[١]، وقال فيه ابن الخطيب: «كان الطلبة يغشون منزله المعروف له، فتعلم عليه الطب والتعاليم وغيرها، إذ كان لا يجاري في ذلك. وكان قوى العارضة، مضطلعاً بالجدل، وكان السلطان يجمع بينه وبين منتابي حضرته، ممن يقدُم منتحلاً صناعة أو علماً، فيظَهر عليهم (أي يتغلب)، لتمكنه ودالته»[٢].

وقصة هذا العالم تشبه إلى حد ما قصة العلامة الإدريسي الذي قرّبه ملك صقلية النورماني، واستفاد بعلمه وأدبه، وهي تُشبه قصة آلاف العلماء المسلمين اليوم المنتشرين في أقطار غير أقطارهم، تستفيد منهم الأمم، ولا يقدرهم أبناء جلدتهم إلا عند موتهم أو حصولهم على جائزة من الجوائز العالمية!

نماذج راقية لرد الجميل!

كلما أمعنتَ النظر في تراث الأندلس والمغرب، وتاريخ رجالاتها كلما لاح لك في أفق المعرفة كل جديد نافع، وثمة نوع من المؤلفات انتشر في الأندلس والمغرب انتشارًا واضحًا، أُطلق على هذا النوع اسم «البرامج»، وهذا النوع من التآليف طريف شغف به علماء الأندلس وطلابها أيما شغف، وكان يُطلق على هذه التآليف في بعض الأحيان اسم «فهرسة»، وللأسف فقد ضاع كثير من هذه البرامج والفهارس ولم يبق منها إلا النذر اليسير، وحسبنا في التدليل على طرافة وجمال هذه المؤلفات، وأنها انعكاس جلي لمكانة العلم والعلماء في تلك الأوقات، بل هي رد للجميل، ووضع للعلماء في مكانتهم المرموقة، وتخليد ذكرهم فيها، فضلاً عن كونها وثيقة تُخلد مقدار العلوم والآداب والفنون التي تحصّل عليها العالم في فترة فتوته وشبابه، فهذه المؤلفات كان يُسجل فيها العالم ما قرأه من مؤلفات في مختلف العلوم، ذاكرًا عنوان الكتاب واسم مؤلفه، والشيخ الذي قرأه عليه أو تحمله منه، وسنده إلى المؤلف الأول، وربما ذكر خلال ذلك المكان الذي كان موضعًا للدرس، والتاريخ الذي بدأ فيه الدراسة أو ختمها، وكانت بعض هذه البرامج تهتم اهتمامًا زائدًا بالشيوخ، وتفرد لهم جانبًا فيه حديث عنهم، وعن حياتهم ومنزلتهم العلمية، دون أن تتجاوز في ذلك القصد والاعتدال، فالبرنامج إذن سجل يكشف المنابع الثقافية

---

(١) المقري التلمساني: نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب ٤/ ١٣٠.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة ٣/ ٦٨.

التي ارتوى منها العالم، والأصول التي اعتمد عليها، والتي كانت بغير شك مراجع له فيما ألفه من كتب.

إننا في هذه الكتب أمام تلاميذ الحضارة الإسلامية وهم يتحدثون عن أساتذتهم الذين لقوهم وأخذوا عنهم العلم، وحديث هذا شأنه – أيًا كان اختلافه بين الإيجاز والإطناب – له قيمة المستند المباشر الذي يحمل في ثناياه، ويكمن خلفه شعور نفسي يمتد أثره إلى القارئ لتلك الكتب؛ خلافًا لأكثر كتب التراجم العامة التي تفصل حُجب الزمن بين المترجم والمترجم له، والتي يكون النقل فيها عن طريق غير مباشرة[1].

وقد كان شعور الوفاء بين طالب العلم الذي أضحى عالمًا بعد ذلك وشيخه من جانب، وحنينه إلى عهد الدرس والطلب من جانب آخر، من العوامل التي دفعت بعض العلماء إلى كتابة براجهم، وقد عبّر العلامة أبو الحسن الرعيني[2] الإشبيلي المولد، التلمساني الوفاة (ت٦٦٦هـ) في برنامجه بقوله: «أثبتُّ في هذا البرنامج ما لم يفلته ذكري، وأوردت ما لم يرتب فيه فكري، من أسماء الأشياخ الذين لقيتهم وأخذت عنهم، والإفصاح ببعض ما استفدته منهم، وإن كان قد أتى على كثير من ذلك ما يختص به الإنسان من نسيان، وذهاب معظم المقيد والمستفاد، بالتردد في الأسفار والتحول عن الأوطان، وفرقته شذر مذر هوائج الفتن وحوادث الزمان... ومما حثّني على إثبات ذلك واكتتابه، وحداني إلى إيراده واجتلابه ما حدثني به الشيخ الصالح أبو الحسن علي بن أحمد الغافقي أذنًا، قال القاضي أبو الفضل عياش بن موسى اليحصبي...قال: سمعت القاضي أبا علي الصدفي يقول: سمعتُ أبا محمد رزق الله بن عبد الوهاب التميمي الإمام رحمة الله عليه يقول: يقبح بكم أن تستفيدوا بنا ثم تذكرونا ولا تترحموا علينا» ويقول الرعيني: «وحدثني الفقيه الجليل أبو الحسن بن القاضي أبي عبد الله بن زرقون، نا أبي رحمه الله عن

---

(١) عبد العزيز الأهواني: كتب برامج العلماء في الأندلس ص٨٩– ٩٥، مقال بمجلة المخطوطات العربية– المجلد الأول – القاهرة، ١٩٥٥م.

(٢) هو علي بن محمد بن علي، ويقال له ابن الفخار، من بني الحاج: أديب أندلسي، من الكتاب العلماء. كان أبوه فخارًا. وولد هو وتعلم في إشبيلية. واستقضي على مذهب مالك في مورو قرب إشبيلية (سنة ٦١٥هـ) وغلبت عليه الكتابة، فتنقل في الأعمال الديوانية بين غرناطة وإشبيلية ومرسية. وتوفي بمراكش. الزركلي: الأعلام ٤/ ٣٣٣.

أبي عبد الله بن غلبون.. سمعتُ محمد بن إسحاق بن راهويه يقول: سمعتُ أبي يقول: قلّ ليلة إلا وأنا أدعو لمن كتب عنّا وكتبنا عنه، فجدد الله رحمته ورضوانه على كل من أخذنا عنه من المشيخة الأعلام، وجمعنا بهم وبأسلافهم في دار السلام بمنه»[1].

ولقد وجد ابن الفخار رحمه الله هذا التقدير والاحترام والحب من تلامذته عندما شاخ وأصبح عالمًا تُشدُّ له الرحال، فمن جملة تلاميذه ابن عبد الملك الأنصاري (ت٧٠٣هـ) صاحب الموسوعة الشهيرة «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة» وهي موسوعة في تراجم أهل الأندلس والمغرب، قال ابن الزبير[2] (ت٧٠٨هـ) وهو شيخ ابن عبد الملك الأنصاري، في افتخار ابن عبد الملك بشيخه ابن الفخار الرعيني، وشغفه بتعليقه على كتابه الخاص: «كان الكاتب أبو الحسن الرعيني يستحسنُ أغراضه، ويستنبل منازعه، وكتب له على بعض كتبه بخطه بـ»صاحبي ومحل ابني«؛ لفتاء سنّه، وفائقَيْ نباهة خاطره، وذكاء ذهنه، وكان يفخر بذلك»![3]

وهناك برامج وفهارس أخرى، أشهرها فهرسة ابن خير الإشبيلي (ت٥٧٥هـ) التي كُتبت في القرن السادس الهجري؛ وتُعتبر هذه الفهرسة من أوسع الفهارس التي وصلتنا عن الأندلسيين من حيث ضخامتها وكثرة ما ورد فيها من أسماء لكتب، وهناك برنامج ابن مسعود الخشني (ت٥٤٤هـ)، وقد اهتم فيه بذكر الكتب والمؤلفات التي سمعها وقرأها، وهناك فهرسة ابن عطية المحاربي الغرناطي (ت٥٤١هـ) الذي يهتم فيها اهتمامًا زائدًا بذكر شيوخه، والجميل أنه يبتدئ بذكر معلمه الأول وهو أبوه[4].

---

(١) إبراهيم شبوح: تحقيق برنامج شيوخ ابن الفخار الرعيني ص١١٤. مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الخامس – القاهرة، ١٩٥٩م.

(٢) الحق أن هذا مما يُعجبُ ويندهش له، بل ويدلل على تواضع العلماء، فابن الزبير وهو أستاذ وشيخ ابن عبد الملك يُفرد له تعريفًا وترجمة في كتابه «صلة الصلة»، وهذا لعمري دليل جديد على عظمة وروعة الحضارة الإسلامية، التي لا يستنكف علماؤها فيذكرون نجباء تلاميذهم في مؤلفاتهم ومعاجمهم ومذكراتهم، رغم صغر سنهم، وقلة مشاربهم مقارنة بهؤلاء الشيوخ.

(٣) ابن الزبير: صلة الصلة، نقلاً عن عبد العزيز الأهواني، مقال بعنوان «صلة الصلة لابن الزبير، والذيل والتكملة لابن عبد الملك» ص٨، ٩. ضمن منشورات مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية – مدريد، ١٩٥٥م.

(٤) الأهواني: السابق.



وثمة تجربة حية تشبه إلى حد كبير البرامج والفهارس، هذه التجربة بطلها ابن رشيد الفهري محمد بن عمر السبتي (ت٧٢١هـ) المولود في سبتة[1] بالمغرب، لقد رحل ابن رشيد وهو شاب يافع إلى المشرق لأداء فريضة الحج، وكعادة المغاربة في ذلك الوقت حرص على أن يلتقي بكبار شيوخ عصره لينهل من علومهم، وكان يدون ملاحظاته في بطائق صغيرة، أو بصورة تعليقات على المصنفات التي كان يحملها معه، ليُخرج لنا في نهاية المطاف كتابًا رائعًا ماتعًا سمّاه «ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة» أي ما جمعه من الفوائد في وجهته التي قصد بها الحج أولاً، لا سيما أسماء الشيوخ والعلماء والأساتذة الذين قابلهم، وأخذ منهم.

ونستطيع أن نحدّد خطّ سير رحلة ابن رُشيْد من خلال قراءتنا ما تبقى منها، فقد خرج رحّالتنا من مدينة سبتة قاصدًا الحج سنة(٦٨١هـ)، وعمره سبعة وعشرون عامًا، وأقام بألمرية المدينة الأندلسية مدّة من الزمان لقي فيها الوزير الأديب ابن الحكيم، وتوطّدت أواصر الصداقة بين الرجلين، ورافقه في رحلته إلى الحج، فيمّم رحّالتنا شطر مدينة تونس عن طريق تلمسان وبجّاية، ومنها تحوّل إلى الإسكندرية، ثمّ القاهرة التى وصلها سنة (٦٨٤هـ)، ورحل من القاهرة إلى دمشق متوجّها إلى المدينة المنوّرة، ثمّ إلى مكّة المكرمة.

وبعد أداء فريضة الحج عاد أدراجه إلى القاهرة فالإسكندرية سنة(٦٨٥هـ)، ومنها ركب البحر إلى طرابلس الغرب، فالمهدية بديار إفريقية فوصلها في ربيع الأول من تلك السنة، وبلغ تونس في ربيع الثاني، وأقام بها عاماً كاملاً، ثمّ توجّه إلى مدينة بونه (عنابة الآن)، ومنها أبحر إلى مالقة ورندة والجزيرة الخضراء، ثم انتهى به المطاف إلى مدينة سبتة في جمادى الثانية سنة (٦٨٦هـ) أي أن رحلته العلمية والشرعية استمرت خمس سنوات متصلة.

في هذه السنوات الخمس لاقى ابن رشيد المئات من الشيوخ في كل تلك المدن التي نزل بها، وهذا وللحق نموذج لطريقة التعليم والتثقيف في ذلك العصر، وكان اهتمام

(١) المحتلة الآن من إسبانيا.

طلاب العلم بتدوين هذه المصنفات رغبة في تذكر هؤلاء الشيوخ والعلماء، ليدعوا لهم، ويترحموا عليهم، فضلاً عن أنها تأريخ للمناظرات، وحلقات العلم، وطريقة الدرس في ذلك الزمن، والقصة الآتية التي يرويها الطالب المغربي عن شيخه المصري تقي الدين بن دقيق العيد (ت٧٠٢هـ) الفقيه المصري الشافعي الشهير ترسم لنا لوحة فنية رائعة عن قصة العلم في القرن السابع الهجري، وتُبين كيفية التواصل والتلاقي بين أبناء الحضارة الإسلامية شرقية وغربية، بل تُظهر لنا ذكاء الطالب النبيه ابن رشيد، وعلم الشيخ المصري ابن دقيق، قال: «لقيتُ الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد أول يوم رأيته بالمدرسة الصالحية، وقد عُرضت عليه ورقة سُئل فيها عن البسملة في قراءة فاتحة الكتاب في الصلاة، وكان السائل فيما ظننته مالكيا، فمال الشيخ ﷺ في جوابه إلى قراءتها للمالكي، خروجا من الخلاف في إبطال الصلاة بتركها، وصحتها مع قراءتها، فقلتُ له يا سيدي: اذكر في المسألة ما يشهد لاختياركم، فقال: وما هو؟ فقلتُ: ذكر أبو حفص، وأوردتُ قول الميانشي، فغلطتُ وقلتُ: ابن شاهين. قال (أي الميانشي المالكي):صليتُ خلف الإمام أبي عبد الله المازري التونسي العلامة، فسمعته يقرأ: {**بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين......**}، فلما خلوتُ به قلتُ له: يا سيدي! سمعتك تقرأ في صلاة الفريضة كذا، فقال لي: أو تفطنت لذلك يا عمر، فقلتُ له: يا سيدي أنت إمام ولا بد أن تخبرني؟ فقال لي: اسمع يا عمر، قول واحد في مذهب مالك، أن من قرأ بسم الله الرحمن الرحيم في الفريضة لا تبطل صلاته، وقول واحد في مذهب الشافعي: أن من لم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم بطلت صلاته، فأنا أفعل مالا تبطل به صلاتي في مذهب إمامي، وتبطل في تركه بمذهب الغير، لكي أخرج من الخلاف. فتركني شيخنا حتى استوفيتُ الحكاية، وهو مصغ لذلك، فلما قطعتُ كلامي، قال هذا حسن، إلا أن التاريخ يأبى ما ذكرت، فابن شاهين لم يلق المازري، فقلتُ إنما أردت الميانشي، فقال: الآن صحَّ ما ذكرته»[1]

ودون الخوض في شرح الخلاف الفقهي بين المالكية والشافعية في الجهر بقراءة البسملة في صلاة الفريضة، إلا أننا نلحظ عدة أشياء: أولها: نباهة الطالب وذكائه واستيعابه لأصل المسألة. ثانيها: هدوء الشيخ وثقته، وتربيته للسائل بالموقف. ثالثها:

---

(١) ابن رشيد السبتي: ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة ٣/ ٢٤٠.

إبداء القناعة الشخصية والاجتهاد في العلم. رابعها: حفظ ابن رشيد آراء شيوخه بسلسلة السند. خامسها: علم الإمام ابن دقيق العيد ورسوخه في الفقه وعلم الرجال وطبقاتهم وتواريخ حيواتهم وموتهم، ومن لاقى مَنْ مِن الشيوخ والعلماء.

بل وأعجب من ذلك أن ترى الرجل يفرد مؤلفًا خاصًا بشيخه، يُعدد فيه مناقبه، وأهم سماته ومميزاته، وأثر العلوم والثقافة فيه، وأثره في عصره وتلامذته، وهذه النماذج من المؤلفات للحق لم تكن في المغرب فقط، فقد وجدت لها أمثلة كثيرة في المشرق الإسلامي أيضًا، فمن جملة هذه المؤلفات كتاب لطيف ممتع حققه الأسباني «فرناندو دي لا جرانخا» عنوانه «تحفة المغترب ببلاد المغرب» كتبه في القرن السابع الهجري التلميذ النجيب أحمد بن يحيى الأزدي الفشتالي، وهذا الكتاب يعد نموذجًا راقيًا لرد الجميل للشيخ المترجم له وهو أبو مروان عبد الملك بن إبراهيم بن بشر القيسي اليحانسي، والمحتوى الأساسي لهذا الكتاب يبدأ بفصل واسع يروي فيه المؤلف ما كان قد حدثه به شيخه أبو مروان عن توبته ورجوعه إلى الله في مقتبل عمره، وشروعه في حياة الزهد والتقشف بدون وساطة أي شيخ، بالإضافة إلى تفاصيل أخرى طريفة حول ظروف تأديته الحج لأول مرة، واللافت أن هذه المعلومات وهذه المناقب التي أوردها القشتالي عن شيخه، كان قد سأله مجموعة من تلاميذ ومحبي الشيخ أن يكتب لهم حياة شيخهم ومناقبه في كتاب جامع؛ فالرغبة كانت جماعية في المقام الأول.

قال الفشتالي في أول كتابه: «إنه قد سألني قبل هذا الآن جماعة من الإخوان، أن أؤلف لهم ما رأيت أو بلغني عن أهل هذا الزمن، من كرامات الشيخ أبي مروان عبد الملك بن إبراهيم بن بشر القيسي – جمعنا الله وإياه في جنة الرضوان، ونفع بخدمته، إنه جواد منان، فلم يخلُ خاطري لذلك المعنى، وقيّد من ذلك بعض الناس نبذًا مما له عنّا، إلى أن رأيت أن أكون أولى حق بهذا الشأن يعنى، لئلا نكون فرطنا في جمع مآثر سيدنا وأضعنا»[1].

هذه المؤلفات الرائعة نماذج أخاذة لتخليد ذكرى المعلم بذكر نبذة عنه، وعن مؤلفاته وعلمه وثقافته، وبين ثنايا هذه التراجم وهؤلاء الأعلام، يرى القارئ لهذا التراث العظيم

(١) القشتالي: تحفة المغترب ببلاد المغرب، تحقيق فرناندو دي لا جرانخا ص١٧. مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية – مدريد، ١٩٧٢.

حضارة راقية، كانت الأخلاق هي الدستور المحرك والضابط للعلاقة بين الأفراد والجماعات فيها، لا سيما الطبقة العالمة منهم، وما هذه المؤلفات إلا تعبيرًا صادقًا عن علاقة الدفء والحب بين الشيخ وتلميذه!

الإمام الباجي والتربية بالوصية

لنقف الآن مع أحد أهم مظاهر التربية في الأندلس، وهي نموذج الوصايا التربوية التي حفلت بها المؤلفات الأندلسية، وهذه الوصايا يكتبها الفقيه أو العالم لأولاده يحثُّهم فيها على طاعة الله واتباع نهجه، ويحدد فيها طبيعة العلاقة بينهم وبين العباد، وعلى الجملة فهي وصايا تربوية في المقام الأول، وتأتي وصية الإمام أبي الوليد الباجي من أوائل هذه الوصايا، حتى إن لسان الدين بن الخطيب الذي ولد بعده بقرنين ونصف تقريبًا حرص على تقليد هذه الوصية لما فيها من الخير، وإن كانت وصية ابن الخطيب تتميز بأسلوبه المسجوع المعهود عليه.

وليس ثمة شك في مقالة المؤرخ الكبير حسين مؤنس حينما قرر أن قمة المنحى العلمي والثقافي للأمة الأندلسية إنما كان بين منتصف القرن الخامس ومنتصف القرن السادس الهجريين؛ ذلك لأنه على الرغم من الشرذمة السياسية التي عاشتها الأندلس آنئذ في ظل حكم أمراء الطوائف؛ إلا أن المجال العلمي والمعرفي كان له منحىً آخر غير المنحى السياسي للأندلسيين؛ فخلال هذه الأعوام المائة وصل التأليف في شتى ضروب العلوم في الأندلس إلى ذروته، وإذا نحن درسنا ما ظهر من الأعمال قبلها تبينا أنها تمهيد أو خطوات نحو النضوج الذي ظهر خلالها، وما ظهر بعدها كذلك كان نسجًا على طراز ما ظهر فيها، فيما خلا استثناءات لا تضعف هذا الرأي.

الباجي ورحلة علمه

والإمام أبو الوليد الباجي هو سليمان بن خلف بن أيوب (٤٠٣ - ٤٧٤هـ) أحد المجددين والمبدعين في تاريخ التراث الإسلامي بصفة عامة، والأندلسي بصفة خاصة، فقد أخذ عن كبار علماء عصره من المشارقة والمغاربة؛ وصاحب كبارهم وأعلامهم مثل العلامة المشرقي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) الذي أنشد للباجي قوله:

إذا كُنْتُ أعلمُ عِلْمًا فإنّ جميع حياتي كساعةْ
فلِمَ لا أكونُ ضَنِينًا بِهَا وأَجْعَلُهَا في صَلاحٍ وَطَاعةْ

وكثيرًا ما تأملتُ كلام العلامة ابن حزم – وهو يكبر الباجي بعشرين سنة – عن الباجي بإعجاب واندهاش، فابن حزم رغم مناظراته الحادة والشهيرة مع الباجي وتفوق الأخير عليه في كثير منها، إلا أنه لم يكن يتوانى في إظهار إعجابه، بل وشغفه بآراء ومؤلفات أبي الوليد الباجي، منها أن ابن حزم قال: «لو لم يكن لأصحاب المذهب المالكي بعد عبد الوهاب (البغدادي) إلا مثل أبي الوليد الباجي لكفاهم»[١]، ولا غرو في ذلك، فقد حُق لابن حزم ولكافة القارئين لتراثنا أن يُعجبوا بفكر وإرث أبي الوليد الباجي الذي ظل في رحلة علمية للمشرق استمرت ثلاثة عشر عامًا، رجع بعدها إلى موطنه في الأندلس بعلم غزير ظل الرائح والغادي يتحدث عنه، ويتناول مؤلفاته بتقدير وإمعان، فضلاً عن مساجلاته ومناظراته التي ذاعت شهرتها في آفاق الأندلس، ولا عجب إذن أن يحضر مجالسه ثلاثة آلاف إنسان للسماع والتدوين كما ذكر ابن بشكوال في الصلة[٢]، ويُقبض رحمه الله وهو أعلم عصره علمًا وديانة كما يقرر الضبي[٣].

مع الوصية

عثر على هذه الوصية الأستاذ الدكتور جودة عبد الرحمن هلال ضمن مجلد يحتوي على عدة رسائل وهي الرابعة منها، بمكتبة الأسكوريال الشهيرة بإسبانيا، وهذه الوصية تقع في اثني عشرة ورقة من الحجم المتوسط، وقد كُتبت هذه الرسالة بعد وفاة الباجي ب٢٧٥ سنة؛ أي سنة ٧٤٩هـ، وقد حققها الدكتور جودة تحقيقًا جيدًا ونشرها بمجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، عام ١٩٥٥م، وهي في المجلد الثالث من ص١٧ إلى ص٤٧ لمن أراد الإفادة بها.

وموضوع هذه الوصية يهتم بتربية النشء الجديد تربية صحيحة، ولم تكن هذه

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب٢/ ٦٨، ٦٩.
(٢) ابن بشكوال: الصلة ص٣١٨، ٣١٩.
(٣) الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ٢/ ٣٨٦.

الرسالة موجهة إلى ابنية فحسب، بل يقصد بها شباب الأمة في عصره، والأجيال اللاحقة بعده، وقد تدارسها العلماء ودرسوها لتلاميذهم وأبنائهم، وأخذ أفكارها وحور أسلوبها وأوصى بها أبناءه: لسان الدين بن الخطيب.

قسّم الإمام الباجي وصيته إلى قسمين: الأول منها يتناول فيه الشئون العامة للدين، وما يتطلبه من واجبات والتزامات، وقد جعل رحمه الله المعرفة والعلم أساسًا لتلك الواجبات والالتزامات، ولعل أبرز الأمور التي تناولها الباجي في هذا القسم من الوصية: التنبيه والتأكيد على ضرورة الاستمساك بالمذهب المالكي، ثم الحذر كل الحذر من دراسة علوم المنطق والفلسفة إلا بضوابط معينة، وحديثه عن دراسة الفلك والتنجيم والضوابط التي تحدد هذا.

أما القسم الثاني والأخير من الوصية فيشتمل على وصايا ومواعظ عظيمة، رسم فيها الباجي الخطوط الرئيسة للعلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وبينه وبين إخوانه وعشيرته وجيرانه، بل وبينه وبين الدولة والمؤسسات الرسمية فيها. من أجل هذا كان لتلك الوصية أثر كبير في الوسط العلمي الذي كان يعيش فيه المؤلف، حيث تعدى تأثير هذه الوصية من ولديه اللذين أُنشئت الوصية من أجلهما إلى قلوب التلاميذ الذين احتلوا مكان الأستاذ، يقرءونها في حلقات الدروس، ويحاضر بها في المجالس العلمية، ومن الأدلة على ذلك ما يرويه ابن الأبار أن أبا إسحاق بن جمعة القاضي كان يحدث بوصية الباجي لابنيه عنه، ويحدثنا أيضًا أن إبراهيم بن أحمد بن جماعة قاضي مدينة دانية ثم قاضي شاطبة قد كانت له رواية عن أبي على الصدفي تلميذ الباجي، وناوله أبو علي المذكور وصية أبي الوليد الباجي، بل ويؤكد الدكتور جودة أن تأثير الوصية لم يكن مقصورًا على أولاد الباجي وتلامذته بل تعدى ذلك بصورة واضحة إلى العصور المتأخرة حتى زمن لسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ) الذي كتب وصية شبيهة إلى حد كبير بما كتبه الباجي من قبله بثلاثة قرون![(١)]

والحق أن هناك سؤال ملح، وهو: لماذا كتب الإمام الباجي هذه الوصية التربوية

(١) جودة عبد الرحمن هلال: مقدمة لوصية القاضي أبي الوليد الباجي لولديه ٣/ ١٧، ٢٣، ٢٤. مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية – مدريد، ١٩٥٥.

لأولاده وهو بينهم، يعلمهم ويربيهم ويُشرف على كل ما يتعلق بهم، خاصة وهم في بدايات سن التكليف كما يبدو من الرسالة؟

هذا السؤال يجيب عليه بقوله: «إنكما لما بلغتما الحدَّ الذي قرُب فيه تعيُّن الفروض عليكما، وتوجه التكليف إليكما، وتحققتُ أنكما قد بلغتما حدَّ من يفهم الوعظ ويتبين الرشد ويصلح للتعليم والعلم، لزمني أن أقدم إليكما وصيتي، وأظهر إليكما نصيحتي، مخافة أن تخترمني منيةٌ، ولم أبلغ مباشرة تعليمكما وتدريبكما وإرشادكما وتفهيمكما؛ فإن أنسأ الله تعالى في الأجل، فسيتكرر النصح والتعليم، والإرشاد والتفهيم. ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] بيده قلوبكما ونواصيكما، وإن حال بيني وبين ذلك ما أتوقعه وأظنه من اقتراب الأجل وانقطاع الأمل، ففيما أرسمه من وصيتي، وأبينه من نصيحتي، ما إن عملتما به ثبتُّما على منهاج السلف الصالح، وفزتما بالمتجر الرابح، ونلتما خير الدنيا والآخرة»(١).

وينطلق الباجي بأسلوب واضح، ولغة رصينة بعيدة عن التعقيد تُناسب الموصي إليهم، يبدؤها بالحديث عن الإيمان بالله وأركان الإسلام في فقرات تبين الغرض والمقصد من هذه الأصول، ثم يعقب رحمه الله حديثه عن هذه الأصول والأركان بقوله: «واعلما أنكما إنما تصلان إلى أداء هذه الفرائض، والإتيان بما يلزمكما منها، مع توفيق الله لكما بالعلم الذي هو أصل الخير، وبه يتوصل إلى البر، فعليكما بطلبه، فإنه غنى لطالبه، وعزٌّ لحامله، وهو مع هذا السبب الأعظم إلى الآخرة، به تُجتَنَبُ الشبهات، وتصح القربات... والعلم سبيل لا يُفضي بصاحبه إلا إلى السعادة، ولا يقصر به عن درجة الرفعة والكرامة، قليله ينفع، وكثيره يُعلي ويرفع، كنز يزكو على كل حال، ويكثر مع الإنفاق، ولا يغصبه غاصب، ولا يُخَاف عليه سارق ولا محارب»(٢).

بل ويحضُّ الباجي ولديه ليكونا من زمرة العلماء، وهذا لن يتحصل إلا بالتعب والسهر، ثم يوضح لهم الأسباب التي جعلته يختار لهما هذه الفئة من الناس بقوله: «انظرا أي حالة من أحوال طبقات الناس تختاران، ومنزلة أي صنف منهم تؤثران؟ هل تريان

(١) وصية الباجي: ٣/ ٣٠. مجلة المعهد المصري بمدريد ١٩٥٥م.
(٢) السابق ٣/ ٣٤.

أحدًا أرفع حالاً من العلماء، وأفضل منزلة من الفقهاء؟ يحتاج إليهم الرئيس والمرءوس، ويقتدي بهم الوضيع والنفيس..وإليهم يلجأ في أمور الدين، وما يلزم من صلاة وزكاة وصيام وحلال وحرام، ثم مع ذلك السلامة من التبعات، والحظوة عند جميع الطبقات؛ والعلم ولاية لا يُعزل عنها صاحبها، ولا يعرى من جمالها لابسها، وكل ذي ولاية وإن جلت، وحرمة وإن عظُمت، إذا خرج عن ولايته أو زال عن بلدته أصبح من جاهه عاريًا، ومن حاله عاطلاً غير صاحب العلم، فإن جاهه يصحبه حيث سار، ويتقدمه إلى جميع الآفاق والأقطار، ويبقى بعده في سائر الأعصار»[1].

ولا ينس أبو الوليد نُصْح ولديه بضرورة التخلق بالأخلاق العامة والحسنة، فيقول رحمه الله: «عليكما بالأمر بالمعروف وكونا من أهله، وانهيا عن المنكر واجتنبا فعله، وأطيعا من ولاه الله أمركما ما لم تدعيا إلى معصية فيجب أن تمتنعا منها، وتبذلا الطاعة فيما سواها. وعليكما بالصدق فإنه زين، وإياكما والكذب فإنه شين، ومن شُهر بالصدق فهو ناطق محمود، ومن عُرف بالكذب فهو ساكت مهجور مذموم، وأقل عقوبات الكذاب ألا يُقبل صدقه ولا يتحقق حقه، وما وصف الله تعالى أحدًا بالكذب إلا ذامًا له، ولا وصف الله تعالى أحدًا بالصدق إلا مادحًا له ومرفعًا به، وعليكما بأداء الأمانة، وإياكما والإلمام بالخيانة... أوفيا الكيل والوزن، فإن النقص فيه مقت، لا ينقص المال بل ينقص الدين والحال، وإياكما والعونَ على سفك دم بكلمة، أو المشاركة فيه بلفظة، فلا يزال الإنسان في فسحة من دينه ما لم يغمس يده أو لسانه في دم امرئ مسلم...» إلى غير ذلك من تحذيره إياهم للزنا ومعاقرة الخمر وأكل مال اليتيم والظلم والحسد والفواحش والغيبة والنميمة وشهادة الزور والرشوة والغناء[2].

ولا ينس الباجي في وصيته أن ينبه كل منهما إلى حق أخيه، وصلة الرحم بينهما، فيقول: «أما القسم الثاني مما يجب أن تكونا عليه وتتمسكا به، فأن يلتزم كل واحد منكما لأخيه الإخلاص والإكرام، والمراعاة في السر والعلانية، والمراقبة في المغيب والمشاهدة، وليلزم أكبركما لأخيه الإشفاق عليه، والمسارعة إلى كل ما يحبه، والمعاضدة فيما يؤثره،

---

(١) وصية الباجي ٣/ ٣٥.
(٢) السابق ٣/ ٣٧، ٣٨.

والمسامحة لكل ما يرغبه، ويلتزم أصغركما لأخيه تقديمه عليه، وتعظيمه في كل أمر بالرجوع إلى مذهبه، والاتباع له في سره وجهره، وتصويب قوله وفعله، وإن أنكر منه في الملأ أمرًا يريده، أو أظهر إليه خطأً فيما يقصده، فلا يظهر إنكاره عليه، ولا يجهر في الملأ بتخطئته، وليبين له ذلك على انفراد منهما، ورفق من قولهما فإن رجع إلى الحق وإلا فليتبعه على رأيه فإن الذي يدخل عليكما من الفساد باختلافكما أعظم مما يحذر من الخطأ مع اتفاقكما ما لم يكن الخطأ في أمر الدين، فإن كان في أمر الدين فليتبع الحق حيث كان، وليثابر على نصح أخيه وتسديده ما استطاع، ولا يحل يده عن تعظيمه وتوقيره»[١].

كما يحذرهما من الدنيا وغرورها فيقول: «إياكما والاستكثار من الدنيا وحطامها، وعليكما بالتوسط فيها، والكفاف الصالح الوافر منها، فإن الجمع لها، والاستكثار منها مع ما فيه من الشغل بها، والشغب بالنظر فيها، يصرف وجوه الحسد إلى صاحبها، والطمع إلى جامعها، والحنق على المنفرد بها»[٢].

والجميل أن الباجي رحمه الله لا ينس أن هناك أصولاً يجب على ولديه أن يرجعا إليها إذا فقدوا هذه الوصية، فيقول رحمه الله: «فإن فقدتما وصيتي هذه، ونسيتما معناها، فعليكما بما ذكر الله تعالى في وصية لقمان لابنه فإن فيها جماع الخير. وهي: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۞ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۞ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٧- ١٩] وإني لأوصيكما وأعلم أني لن أغني عنكما من الله شيئًا ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧] وهو حسبنا ونعم الوكيل»[٣].

لا شك أن هذا تطواف سريع في هذه الوصية الرائعة التي يجب أن تكتب بمداد من الذهب، فكل مربٍ فاضل، وكل أب مشفق على ولده، وكل أم تسعى إلى تربية أبنائها تربية إسلامية سديدة..عليكم جميّعا أن تعودوا لهذه الوصية الرائعة، وأن تقرؤها جميعها

---

(١) وصية الباجي ٣/ ٤٠.
(٢) السابق ٣/ ٤٤.
(٣) السابق ٣/ ٤٧.

لتعلموا أن تسنم المسلمين للذروة العليا لم يكن من فراغ، وإنما كان عبر مراحل طويلة من التربية والتقويم والتعليم، وما الإمام الباجي إلا مظهر من مظاهر العظمة الإسلامية الخالدة.

ومما يلفت الانتباه أن علماء وفقهاء ومربي الأندلس انتهجوا نهج الباجي في التوصية لأولاده بما عنّ له من نصائح وآداب وأوامر ونواهٍ، فحتى العصور المتأخرة في الأندلس وجدنا من يكتب الوصايا لأولاده يحثُّهم فيها على الالتزام بشرع الله ونهجه، أشهرهم لسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ) فله وصية رائعة، تُشبه في مضمونها وصية الباجي لولديه، غير أن أسلوب ابن الخطيب المعهود عليه في استخدام المحسنات البديعية قد أبعده عن مقصده في بعض الأحيان.

وهذه الوصية جاء بها الأستاذ أحمد زكي صفوت في كتابه «جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة»، نقتبس منها سبب كتابته لهذه الوصية، حيث قال رحمه الله: «اعلموا هداكم الله تعالى الذي بأنواره تهتدي الضلال وبرضاه ترفع الأغلال وبالتماس قربه يحصل الكمال إذا ذهب المال وأخلفت الآمال وتبرأت من يمينها الشمال أني مودعكم وإن سالمني الردي ومفارقكم وإن طال المدى وما عدا مما بدا فكيف وأدوات السفر تجمع ومنادي الرحيل يسمع ولا أقل للحبيب المودع من وصية محتضر وعجالة مقتصر ورتيمة تعقد في خنصر ونصيحة تكون نشيدة واع مبصر تتكفل لكم بحسن العواقب من بعدى وتوضح لكم من الشفقة والحنو قصدي حسبما تضمن وعد الله من قبل وعدي»[(١)].

ونراه موصيًا أولاده بضرورة طلب العلم والسعي له: «اعلموا أن بالعلم تستعمل وظائف هذه الألقاب وتجلى محاسنها من بعد الانتقاب فعليكم بالعلم النافع دليلا بين يدي السامع، فالعلم مفتاح هذا الباب والموصل إلى اللباب والله ﷻ يقول: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [الزمر:٩]، والعلم وسيلة النفوس الشريفة إلى المطالب المنيفة وشرطه الخشية لله تعالى والخيفة وخاصة الملإ الأعلى وصفة الله في كتبه التى تتلى والسبيل في الآخرة إلى السعادة وفي الدنيا إلى النحلة

(١) أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب ٣/ ١٨٨.

عادة والذخر الذي قليله يشفع وكثيره ينفع لا يغلبه الغاصب ولا يسلبه العدو المناصب ولا يبتزه الدهر إذا نال ولا يستأثر به البحر إذا هال من لم ينله فهو ذليل وإن كثرت آماله وقليل وإن جم ماله وإن كان وقته قد فات اكتسابكم وتخطى حسابكم فالتمسوه لبنيكم واستدركوا منه ما خرج عن أيديكم وأحملوهم على جمعه ودرسه»[1].

وهذه الوصية التربوية مفيدة، أنصح القراء بمراجعتها في كتاب الأستاذ أحمد زكي السابق، فهي خريطة تربوية مهمة، فضلاً عن أهميتها الأدبية.

التربية في صقلية الإسلامية

إن تاريخ صقلية الإسلامي يكاد يشابه نظيره في الأندلس فقد شهدت الفتح الإسلامي على يد القاضي أسد بن الفرات المكلف من لدن الأغالبة أمراء تونس عام ٢١٢هـ، وشهدت عصرها الذهبي أيام الفاطميين العُبيديين ووزرائهم الكتاميين الصنهاجيين، ودام الحكم الإسلامي فيها لقرنين ونصف قبل أن يغلبهم النورمان (النورمانديون) في القرن الخامس الهجري، إلا أن الوجود الإسلامي ظلّ هناك لقرن آخر ونصف تحت حكم النورمان، اتّسم أول الأمر بالتسامح فسمحوا للمسلمين بإقامة شعائرهم على أن يخطبوا في الجُمع للخليفة العباسي البعيد الضعيف وألا يخطبوا للخليفة الموحّدي القريب القوي، إلا أن الأمور تغيرت آخر الأمر إلى الاضطهاد حتى انتفضت المقاومة وتمت الدعوة في الصلاة للموحدين، وانعزل المقاومون بعد ذلك في الجبال (كما حدث في البشرّات[2] بالأندلس) بزعامة المرابط ابن عبّاد، ثم ما لبث أن انهزم المسلمون ليتم تهجير أغلبهم إلى الشمال الإفريقي والأندلس و بعضهم إلى الجنوب الإيطالي وبقي من بقي منهم في صقلية مخفيًا إسلامه.

ولما زار الرحالة الشهير ابن حوقل صقلية في القرن الرابع الهجري، دُهش لانتشار الحركة العلمية والثقافية فيها، وللمستوى العالي في التربية في هذه الجزيرة التي كانت من أهم الثغور الإسلامية في البحر المتوسط، فقد دُهش لكثرة المساجد في بلرم (بليرمو)

(١) أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب ٣/ ١٩٤، ١٩٥.

(٢) هي جبال تبعد عن غرناطة مسافة ٦٠كم.

وحدها، وكانت بلرم يومئذ هي العاصمة ومجتمع أهل الأدب ومنتجع طلاب العلم من سائر أنحاء صقلية، فنشاط الحركة التعليمية فيها كان سبباً في الاستكثار من المساجد وانضاف إلى هذا ما قاله ابن حوقل من التكاثر بها، وأصبح غرض كل واحد من بناء المسجد «أن قال مسجد فلان لا غير»[١]. والحق أنه في هذه المساجد وفي المكاتب كثر المعلمون، حتى كان منهم في بلرمُ ما لا يقل عن ثلاثمائة معلم، وهذا عدد ضخم مقارنة بعدد السكان، يُدلل على مقدار انتشار التعليم في هذه المدينة وحدها فما بالنا بباقي الجزيرة.

ومع كل ذلك فقد كان يزاول مهنة التدريس كثير من أعيان البلاد، ويتخرج في المدارس كثير من أولاد السراة والأغنياء[٢]. وقد أطلعنا ابن حوقل على صورة راقية من صور الكتاب حين حدثنا عن واحد منها لم يكن ينفرد بالتعليم فيه معلم واحد بل يدرس فيه خمسة معلمين لهم من بينهم رئيس هو مدير الكتاب[٣].

هذه الكثرة في عدد المعلمين والمساجد والمكاتب تشير إلى نشاط تعليمي واسع، ومهما تكن الأسباب التي أدت إلى كثرة المعلمين، فالذي لا شك فيه أن المعلم في هذا العصر كان شخصية طاغية الأثر في حياة الناس، وكان أهل صقلية يرون المعلمين أنهم «أعيانهم ولبابهم وفقهاؤهم وأرباب فتاويهم وعدولهم، وبهم وعندهم يقوم الحلال والحرام وتعقد الأحكام وتنفذ الشهادات وهم الأدباء والخطباء»[٤]. وقد رأى ابن حوقل من هؤلاء المعلمين من يتولى خطبة الجمعة، وعرف منهم العدول، وسمى من توصل من بينهم إلى منصب القضاء. فكان هؤلاء المعلمون هم الذين يوجهون الرأى العام في أمور الدين والدنيا[٥].

والحق أن الفصل الذي عقده العلامة المحقق إحسان عباس في كتابه الرائع «العرب في صقلية»، وعنون له «هجرة الكتب إلى صقلية» من أجمل ما قرأتُ عن رحلة الكتب وقصتها في هذه الجزيرة الغناء، وهو يُشير إلى التزام الصقليين بالتربية الإسلامية في هذا الثغر المضطرب، وهو فصل أقتبسُ منه قوله: «كانت الكتب التي يتداولها الطلبة

---

(١) ميشيل أماري: المكتبة الصقلية ص٧.
(٢) ابن حوقل: صورة الأرض ص١٢٧.
(٣) السابق ص١٣٠.
(٤) السابق ١/ ١٢٧.
(٥) إحسان عباس: العرب في صقلية ص٩٠.

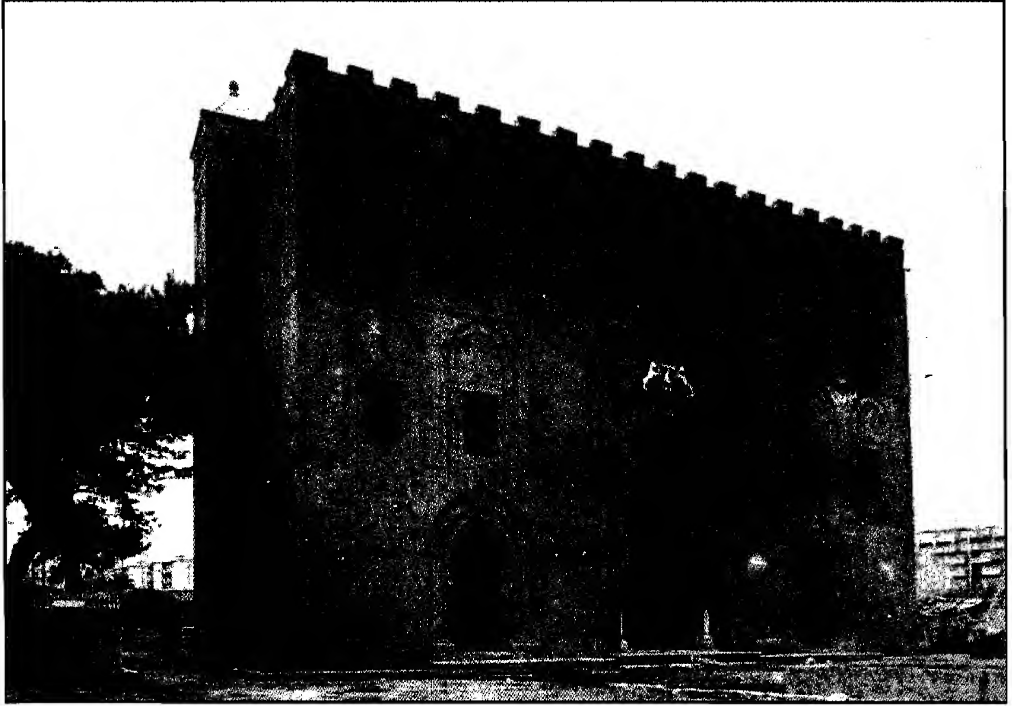
والأساتذة مما يرد على الجزيرة من بلاد المشرق والأندلس والقيروان أو مما يؤلفه الأساتذة أنفسهم. وإذا استطعنا أن نعرف الكتب الواردة التي راجت في صقلية، أو أمثله منها على الأقل، كان كذلك خير معين لنا على تصور الثقافة السائدة في الجزيرة، وعلى مدى الامتزاج والتفاعل في تلك الثقافة. وقد كانت الكتب ترحل كالناس في بطء وتتحرك من مكان إلى آخر في أناة، وربما كان انتقال كتاب من بلد إلى آخر حدثاً يستحق التاريخ. فليس بغريب أن يصرح ابن القطاع الصقلي حين سأله المصريون عن كتاب «الصحاح» للجوهري بان الكتاب لم يصل إليهم في صقلية[١].

ويحدثنا ابن رشيق أن أول من أدخل كتاب «اليتيمة» للثعالبي إلى القيروان (وهو من الكتب الأدبية الشهيرة) هو أبو الفضل محمد بن عبد الواحد البغدادي سنة ٤٣٩هـ[٢]، ولما رحل ابن البرِّ الصقلي إلى المشرق كان كتاب اليتيمة أحد مروياته عن شيخه أبي محمد إسماعيل بن محمد النيسابوري، وعنه تلقاه في صقلية تلميذه ابن القطاع[٣].

وقد دخلت «المدونة» في الفقه المالكي عند فتح صقلية أو بعيد ذلك بقليل، وكان كل نشاط الفقهاء يدور حولها اختصاراً وشرحاً، وبياناً لما فيها من غريب، ونسجاً على منوالها. وظل الأمر كذلك حتى آخر أيام العرب في صقلية. وبديهي أن الموطأ كان يدرس في صقلية أيضاً ويقوم بتدريسه محدثون أعلام، مثل الفقيه السمنطاري، وكان الطلبة لكثرة دروج الاسم على أفواههم يلفظونه بغير الهمز. ويستعملون إلى جانبه كتاب «الملخص» وهو كتاب ألفه القابسي ولخص فيه ما اتصل إسناده من حديث الموطأ، وكان الطلبة يسمونه الملخَّص بالفتح مع أن صاحبه سماه الملخِّص بالكسر[٤]. وألف ابن جعفر القصري كتاباً سماه «تجديد الإيمان وشرائع الإسلام» يشتمل على نيف وستين جزءاً وفيه بحث في المعجزات فدخل صقلية وقرأه الناس[٥].

---

(١) القفطي: إنباه الرواة ١/ ٥٣٦.
(٢) ابن بسام: الذخيرة ٤/ ٦٨.
(٣) ابن ظافر، بدائع البداية ١/ ٩٢.
(٤) ابن مكي: تثقيف اللسان نسخة الآستانة الباب ٣٦.
(٥) ابن بشكوال: الصلة رقم ٣٧٩.



(صورة رقم ١١ قلعة عزيزة باليرمو في صقلية).

وفي القرن الخامس وردت إلى صقلية نسخة من كتاب «التقريب» وهو كتاب اختصر به البرالي البلنسي (البريلي بخط ابن بشكوال) كتاب المدونة وجمع فيه أقوال أصحاب مالك حتى قال فيه بعضهم: من أراد أن يكون فقيها من ليلته فعليه بكتاب البريلي، وقرأه عبد الحق شيخ فقهاء صقلية في عصره وأراد أن يشتريه فلم يتيسر له ثمنه، فباع حوائج من داره واشتراه[١]، فلما عرف أهل صقلية ذلك زادت قيمة الكتاب في أعينهم، فأقبلوا عليه وتنافسوا في اقتنائه»[٢].

وفي فترة أفول الإسلام في صقلية في أواخر القرن السادس الهجري مرّ الرحالة الأندلسي ابن جبير حينما كان متجهًا لأداء فريضة الحج، وقد مرّ بمجموعة من هذه المدن، فوجد حال المسلمين فيها متفاوت ما بين السماحة والاضطهاد، ففي العاصمة والمدن الكبرى التي يبسط النورمانديون عليها سلطانهم فإن المسلمين ينعمون ببعض السعة في

(١) ابن فرحون: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ص١١٣.
(٢) إحسان عباس: العرب في صقلية ص٩٢- ٩٤.

أداء دينهم، وتربية أولادهم على الإسلام وآدابه، قال عن مسلمي العاصمة: «وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الإيمان، يُعمرون أكثر مساجدهم ويقيمون الصلاة بأذان مسموع، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى، والأسواق معمورة بهم وهم التجار فيها، ولا جُمُعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي، ولهم بها قاض يرتفعون إليه في أحكامهم، وجامع يجتمعون للصلاة فيه ويحتفلون في وَقِيدِه في هذا الشهر المبارك، وأما المساجد فكثيرة لا تحصى، وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن»[1].

لكن في مدينة أخرى تسمى «أطرابنش» وجد ابن جبير اضطهاد المسلمين فيها من قبل النصارى، ومع ذلك وجدهم مستمسكين بدينهم، يحاولون بكل ما أُوتوا من قوة أن يُربوا أولادهم على الإسلام، حتى إن أحدهم كان يسأل الحجاج المسافرين أن يأخذ أحد بناته ليزوجها من ترضاه لدينها، وتأمن معه على نفسها، رغم علمه أنه لن يراها ثانية، وهذا أعظم التضحية في سبيل الإسلام، قال ابن جبير: « ومن أعجب ما شاهدناه من أحوالهم التي تقطع النفوس إشفاقًا، وتُذيبُ القلوبُ رأفةً وحنانًا أن أحد أعيان هذه البلدة وجّه ابنه إلى أحد أصحابنا الحُجّاج راغبًا في أن يقبل منه بنتا بكرًا صغيرة السن قد زاهقت الإدراك، فإن رضيها تزوّجها وإن لم يرضها زوّجها ممن رضي لها من أهل بلده، ويُخرجها مع نفسه راضيةً بفراق أبيها وإخوتها طمعًا في التخلص من هذه الفتنة، ورغبة في الحصول في بلاد المسلمين. فطابُ الأب والإخوة نفسًا لذلك لعلهم يجدون السبيل للتخلص إلى بلاد المسلمين بأنفسهم إذا زالت هذه العَقْلةُ المقيدة عنهم. فتأجّر هذا الرجل المرغوب إليه بقبول ذلك وأعنّاه على استغنام هذه الفرصة المؤدية الى خير الدنيا والآخرة. وطال عجبُنا من حال تؤدي بإنسان إلى السماح بمثل هذه الوديعة المعلقة من القلب وإسلامها إلى يد من يغرّبها، واحتمال الصبر عنها ومكابدة الشوق إليها، والوحشة دونها، كما أنا استغربنا حال الصبية، صانها الله، ورضاها بفراق من لها رغبة في الإسلام واستمساكا بعروته الوثقى، والله عز وجل يعصمها ويكفلها ويؤنسها بنظم شملها

(١) رحلة ابن جبير ص٢٧٣.

ويجمل الصنع لها بمنه. واستشارها الأب فيما هم به من ذلك فقالت له: إن أمسكتني فأنت مسئول عني»[(١)]

هذا حال التعليم والتربية في صقلية الإسلامية على وجه الاختصار وتقريب الصورة، وكتاب العلامة إحسان عباس «تاريخ العرب في صقلية» خير معين لمن أراد أن يعلم حال التربية والتعليم والآداب في صقلية الإسلامية، وهناك كتاب «تاريخ صقلية الإسلامية» لعزيز أحمد وهو جيد، ومن أهم المؤلفات والمراجع التي تناولت حال الحضارة الإسلامية في صقلية كتاب ميشيل أماري واسمه «المكتبة الصقلية» وهو عبارة عن نصوص عن صقلية الإسلامية مستخرجة من المصادر العربية في التاريخ والجغرافيا والتراجم والأدب.

* * *

(١) رحلة ابن جبير ص٢٨١.

الخاتمة

وبعدُ، فما سبق هو إجلاء لبعض جوانب التربية في الحضارة الإسلامية، وحسبي أن أكون صادقًا مع نفسي ومع القارئ الكريم حينما جعلت عنوان هذا الكتاب «رحلة في تاريخ التربية الإسلامية» فالرحلة لا تشبه بأي حال الظعن والإقامة والاستمرارية، وإنما يختطف فيها المشاهد أبرز اللقطات، وأهم المعالم، وأبرز السمات، وهذا ما مرّ بنا في الكتاب.

ولا أدعي مرة أخرى أنني أحطتُ ولو قليلاً بتاريخ التربية في الحضارة الإسلامية، فمثل هذا الأمر لابد وأن يكون له مشروعه المستقل الذي يهتم بإجلاء مظاهر وبواطن التربية في كل عصر من أعصر الحضارة الإسلامية، ليتم إخراجها للقارئ بشيء من البسط والتوضيح والتدليل، وأسأل الله أن يُهيئ لي الجهد والوقت والعلم لإتمام مثل هذا المشروع الحيوي المهم.

وأسأل الله ﷻ أن يتقبله بقبول حسن، وأن يجعله سببًا لمغفرة الذنب، وستر العيب، وعملاً صالحًا يأجرني عليه في الدنيا والآخرة، كما أسأل القارئ العزيز أن يتقبل هذا العمل بصدر رحب، وألا ينساني في دعائه.

وإذا وجد القارئ الكريم ثمة خطأ أو إشكال أو خلل في أي من هذا العمل فليبادر مسرعًا بإرسال ما تجلّى له من عيب، فإنما أكون شاكرًا له، حامدًا لجهده، وذلك على البريد التالي:

mshabanayob@yahoo.com

والحمد لله أولاً وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، وصلى اللهم على محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

محمد شعبان أيوب

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- إبراهيم السكران: مقال بعنوان «تأنيث الصبيان» موقع ملتقى الخطباء على الانترنت: http://khutabaa.com.
- إبراهيم بن علي القيرواني: زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق صلاح الدين الهواري، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية.
- إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، تحقيق مجمع اللغة العربية، دار الدعوة - مصر.
- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا. منشورات دار الحياة - بيروت.
- ابن أبي الدنيا: قرى الضيف - ابن أبي الدنيا، أضواء السلف الطبعة: الأولى ١٤١٨هـ- ١٩٩٧م.
- ابن أبي الدنيا، الصمت وآداب اللسان مجلد، دار الغرب الإسلامي.
- ابن أبي حاتم الرازي: الجرح والتعديل، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، المكتبة الملكية - المغرب.
- ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي: المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد - الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.
- ابن الأبار: الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس الطبعة الثانية، دار المعارف - القاهرة، ١٩٨٥م.
- ابن الأثير الجزري: جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، دمشق، ١٣٨٩ = ١٣٩٢هـ.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري: الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- ابن الجزري: الزهر الفاتح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح، تحقيق محمد عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ٢٠٠٦م.



- ابن الجزري، محمد بن محمد: غاية النهاية في طبقات القراء، تحقيق ج برجستراسر، دار الكتب العلمية – بيروت، ٢٠٠٦م.
- ابن الجعد، علي بن الجعد: المسند، تحقيق عبد المهدي بن عبد القادر، مكتبة الفلاح، الطبعة الأولى – الكويت.
- ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٥٨هـ.
- ابن الجوزى، عبد الرحمن بن محمد: الموضوعات، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية – المدينة المنورة، ١٩٦٦م.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ = ١٩٧٣م.
- ابن الدمياطي، أحمد بن أيبك: المستفاد من ذيل بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت.
- ابن السبكي، عبد الوهاب بن علي: معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وآخران، مكتبة الخانجي – القاهرة، ١٩٩٣م.
- ابن الطقطقا، محمد بن علي: الفخري في الآداب السلطانية، دار صادر – بيروت.
- ابن العديم، عمر بن أحمد: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر – بيروت.
- ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ومحمود الأرناؤوط، دار ابن كثير - دمشق، ١٤٠٦هـ.
- ابن الفرضي: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، تحقيق عزت العطار. مطبعة المدني – القاهرة، الطبعة الأولى١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- ابن القيم: الوابل الصيب، تحقيق محمد عبد الرحمن عوض، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب: الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، تحقيق محمد جميل غازي، مطبعة المدني – القاهرة.
- ابن المطهر، مطهر بن طاهر المقدسي: البدء والتاريخ، تحقيق كليمان هوار، دار صادر – بيروت.

- ابن النجار البغدادي، محمد بن محمود: ذيل تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت.
- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق: الفهرست، دار المعرفة - بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- ابن بسام، علي بن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب – ليبيا.
- ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك: الصلة، تحقيق إبراهيم الإبياري دار الكتاب المصري، الطبعة الأولى – القاهرة، ١٩٨٩م.
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله: رحلة ابن بطوطة، دار صادر – بيروت.
- ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة.
- ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية – بيروت.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: منهاج السنة النبوية، تحقيق محمد رشاد سالم، الناشر: مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى.
- ابن جبير، محمد بن أحمد: رحلة ابن جبير، دار صادر - بيروت.
- ابن حبان: أبو حاتم محمد بن أحمد التميمي البستي: الثقات، تحقيق السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- ابن حبان، المجروحين، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار الوعي - حلب.
- ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتاب العربي - بيروت.
- ابن حجر العسقلاني: رفع الإصر عن قضاة مصر، تحِقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي – القاهرة، ١٩٩٨م.
- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
- ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، دار الفكر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.
- ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ، تحقيق محمد عبد المعيد خان، دار



الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٦هـ.

- ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد عبد المعيد خان، مجلس دائرة المعارف العثمانية – حيدر أباد، الهند.
- ابن حجر: تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية – بيروت.
- ابن حزم: طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للنشر – بيروت، ١٩٨٠م.
- ابن حزم: طوق الحمامة، تحقيق الطاهر أحمد مكي، دار الهلال، الطبعة الثانية – مصر، ١٩٩٤م.
- ابن حزم: مجموع الرسائل، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية – بيروت.
- ابن حزم، المحلى، تحقيق أحمد محمد شاكر، إدارة الطباعة المنيرية، الطبعة الأولى– مصر، ١٣٤٧هـ.
- ابن حوقل، أحمد بن علي: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة – بيروت.
- ابن خزيمة، محمد بن إسحاق النيسابوري: صحيح ابن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م.
- ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الرابعة.
- ابن خلدون، المقدمة، تحقيق علي عبد الواحد وافي، مطبعة دار الشعب.
- ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ١٩٩٤م.
- ابن رجب الحنبلي، عبد الرحمن بن أحمد: جامع العلوم والحكم، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
- ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق عبد الرحمن العثيمين، مكتبة العبيكان – الرياض.
- ابن رشيد السبتي، محمد بن عمر: ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة، تحقيق محمد الحبيب الخوجة، دار الغرب الإسلامي.
- ابن رشيق القيرواني، الحسن بن رشيق: العمدة في محاسن الشعر، دار الفكر – بيروت.
- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن منيع: الطبقات الكبرى، تحقق إحسان عباس، دار صادر –

بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.

- ابن سعيد المغربي، علي بن موسى: المغرب في حلى المغرب، دار الكتب العلمية – بيروت.
- ابن سعيد المغربي، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار المعارف – مصر، ١٩٤٥م.
- ابن طولون، محمد بن طولون: مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، دار الكتب العلمية – بيروت.
- ابن عبد الملك المراكشي، محمد بن محمد: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، الطبعة الأولى – بيروت، ١٩٦٥م.
- ابن عدي الجرجاني، عبد الله بن عدي: الكامل في ضعفاء الرجال، تحقيق يحيى مختار غزاوي، دار الفكر – بيروت، ١٩٨٨م.
- ابن عذاري المراكشي، أحمد بن محمد: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار الثقافة – بيروت.
- ابن عساكر، علي بن الحسن: تاريخ دمشق، تحقيق علي شيري، دار الفكر – بيروت، ١٩٩٨م.
- ابن فرحون، إبراهيم بن علي: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، طبعة ١٣٣٠هـ.
- ابن فضلان، أحمد بن عباس: رحلة ابن فضلان، تحقيق سامي الدهان، دار صادر – بيروت.
- ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم: المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، الطبعة الرابعة – القاهرة.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.
- ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني: سنن ابن ماجه، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر – بيروت.
- ابن مكي، عمر بن خلف: تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت.
- ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، دار الفكر – بيروت.

- ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري: لسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- أبو العباس الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب - الدار البيضاء، ١٩٩٧م.
- أبو بكر الدينوري: المجالسة وجواهر العلم، دار ابن حزم، الطبعة الأولى - بيروت، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.
- أبو بكر المالكي، عبد الله بن محمد: رياض النفوس في طبقات علماء القيروان، تحقيق بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ١٩٩٤م.
- أبو داود، سليمان بن الأشعث: سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.
- أبو طاهر السلفي، أحمد بن محمد: معجم السفر تحقيق عبد الله عمر البارودي، المكتبة التجارية - مكة المكرمة.
- أبو عبد الله القضاعي: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة - لبنان، ١٩٩٥م.
- أبو عبد الله بن عسكر، وأبو بكر ابن خميس: مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار، تحقيق عبد الله المرابط الترغي، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- أبو يعلى، أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي: مسند أبي يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ = ١٩٨٤م.
- الآبي، منصور بن الحسين: نثر الدرر، تحقيق خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية - بيروت، ٢٠٠٤م.
- إحسان عباس: العرب في صقلية، درا الثقافة، الطبعة الأولى - بيروت، ١٩٧٥م.
- أحمد بن أبي بكر البوصيري: إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، تحقيق أحمد معبد عبد الكريم، دار الوطن - الرياض، ١٩٩٩م.
- أحمد بن حنبل أبو عبد الله الشيباني: المسند، مؤسسة قرطبة - القاهرة.

- أحمد بن حنبل: كتاب الزهد، تحقيق نور سعيد، دار الفكر - بيروت، ١٩٩٢م.
- أحمد بن محمد الصاوي: حاشية الصاوي على الشرح الصغير، دار المعارف -القاهرة.
- أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب، المكتبة العلمية - بيروت.
- آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة محمد عبد الهادي أبي ريدة، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٩٨م.
- إسماعيل بن محمد العجلوني: كشف الخفاء ومزيل الالتباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، مكتبة حسام الدين القدسي، ١٣٥١هـ.
- الأصفهاني، حسين الراغب: محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، منشورات مكتبة الحياة - بيروت.
- أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، مكتبة العبيكان - الرياض.
- البخاري: الأدب المفرد، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.
- البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل: التاريخ الصغير، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار المعرفة - بيروت.
- البخاري: التاريخ الكبير، تحقيق محمد عبد المعيد خان - حيدر أباد، الهند.
- البخاري، الجامع الصحيح المختصر، تحقيق مصطفى ديب البُغَا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ - ١٩٨٧.
- بدر الدين العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، تحقيق عبد الله محمود، دار الكتب العلمية - بيروت، ٢٠٠١م.
- بدر الدين العيني، محمود بن أحمد: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، دار الكتب المصرية - القاهرة، ٢٠٠٣م.
- برهان الدين بن مفلح، إبراهيم بن محمد: المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الرشد - السعودية.
- البزار، أحمد بن عمرو: مسند البزار، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.
- البكري الدمياطي، أبو بكر بن محمد شطا: حاشية إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين لشرح قرة العين بمهمات الدين، دار الفكر - بيروت.

- البيهقي: السنن الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.
- البيهقي: القضاء والقدر، تحقيق علي بن عبد العزيز، مكتبة الرشد – السعودية.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: شعب الإيمان، تحقيق محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠.
- تاج الدين السبكي، عبد الوهاب بن علي: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر للطباعة والنشر، ١٤١٣هـ.
- الترمذي، محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي: الجامع الصحيح، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- جميل حمداوي: المدارس العتيقة بالمغرب بحث منشور بمنتدى سوس العالمة على الانترنت، على الرابط: www.royalluxe.com.
- جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠م.
- الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله: تسمية من أخرجهم البخاري ومسلم وما انفرد كل واحد منهما، تحقيق كمال الحوت، دار الجنان – بيروت.
- الحسن السائح: الحضارة المغربية، منشورات عكاظ.
- حسين بن علي الصيمري: أخبار أبي حنيفة وأصحابه، عالم الكتب – بيروت، ١٩٨٥م.
- الحِميري، محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.
- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، تحقيق مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٧م.
- الخطيب البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي: تقييد العلم، تحقيق يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية – ١٩٧٤م.
- الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق محمود الطحان، مكتبة المعارف - الرياض، ١٤٠٣هـ.
- خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ترجمة الطاهر مكي. الطبعة الثانية، دار المعارف – القاهرة، ١٩٩٤م.
- خير الدين الزركلي: موسوعة الأعلام، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.

- الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن: سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الذهبي: تذكرة الحفاظ، إعانة وزارة معارف الحكومة العالية الهندية، دار إحياء التراث العربي.
- الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق حسين الأسد، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ = ١٩٩٣م.
- الذهبي: مختصر تاريخ الدبيثي، دار الكتب العلمية – بيروت.
- الذهبي: معجم الشيوخ، دار الفكر – بيروت.
- الذهبي: معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق بشار عواد وشعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى – بيروت، ١٤٠٤هـ.
- الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني، دار الكتب العلمية – بيروت.
- الرافعي، عبد الكريم بن محمد: التدوين في أخبار قزوين تحقيق عزيز الله العطاري، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٩٨٧م.
- الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، دار ابن حزم - بيروت.
- الزمخشري، محمود بن عمر: ربيع الأبرار وفصوص الأخبار، تحقيق طارق السيد، دار الكتب العلمية – بيروت.
- زيجريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون، دار صادر - بيروت، الطبعة العاشرة، ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.
- سبط ابن الجوزي، يوسف قزأوغلي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان - شيكاغو ١٩٠٧.
- السخاوي: الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، تحقيق إبراهيم باجس، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
- السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.



- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن: المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية – بيروت.
- السرخسي، أبو بكر محمد بن حسن: شرح السير الكبير، مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد – الهند، الطبعة الأولى، ١٣٣٥هـ.
- سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، دار النهضة العربية – القاهرة، ١٩٧٦م.
- السمعاني، عبد الكريم بن محمد: التجبير في المعجم الكبير، تحقيق منيرة ناجي سالم، رئاسة ديوان الأوقاف – بغداد ١٩٧٥م.
- السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر: تاريخ الخلفاء، مطبعة السعادة – مصر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى، ١٣٧١هـ – ١٩٥٢م.
- السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، طبع عيسى الحلبي – مصر.
- السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، دار الفكر – دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- الشاطبي، إبراهيم بن موسى الغرناطي: الموافقات، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- شرف الدين الإربلي، المبارك بن أحمد: تاريخ إربل، تحقيق سامي بن سيد خماعد الصقار، وزارة الثقافة – العراق، ١٩٨٠م.
- الشوكاني: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تحقيق محمد حسن حلاق، دار ابن كثير – دمشق.
- الشوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تصحيح وضبط أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية – بيروت.
- الصالحي الشامي، محمد بن يوسف: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق عادل أحمد. عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.
- الصفدي، خليل بن أيبك: نكث الهميان في نكت العميان، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت.
- الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، دار الفكر المعاصر – بيروت.

- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: الوافي بالوفيات، تحقيق أوتغريد فايترت، المعهد الألماني، ١٩٩٧م.
- الصلابي: الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، دار المعرفة – بيروت.
- الصلابي: الدولة الزنكية، دار المعرفة – بيروت.
- الصيرفيني، إبراهيم بن محمد: المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور، تحقيق خالد حيدر، دار الفكر – بيروت، ١٤١٤هـ.
- الضبي، أحمد بن يحيى بن عميرة: بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق روحية السويفي، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٩٧م.
- ضياء الدين بن الأخوة: معالم القربة في طلب الحسبة، دار الفنون – كمبردج انجلترا.
- الطبراني: المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة العلوم والحكم - الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ = ١٩٨٣م.
- الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد: المعجم الأوسط، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، و عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين - القاهرة، ١٤١٥هـ.
- الطبري: تهذيب الآثار، تحقيق علي رضا بن عبد الله، دار المأمون للتراث، ١٩٩٥م.
- الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ = ١٩٦٧م.
- الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة: شرح معاني الآثار، تحقيق محمد زهري النجار، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ.
- عبد الحميد الشرواني: حواشي الشرواني على تحفة المحتاج بشرح المنهاج، دار الفكر - بيروت.
- عبد الحي الكتاني: التراتيب الإدارية، دار الكتاب العربي – بيروت.
- عبد الرحمن بن محمد الدباغ: معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، مكتبة الخانجي – مصر.
- عبد الرحمن بن نصر الشيزري: نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- عبد الرزاق أبو بكر بن همام الصنعاني: مصنف عبد الرزاق، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣.

- عبد السلام بن محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويات الواردة في شخصية عمر بن الخطاب وسياسته الإدارية ﷺ، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية.
- عبد العزيز الأهواني: التربية في الإسلام، دار المعارف – مصر.
- عبد القادر بدران: منادمة الأطلال ومسامرة الخيال تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي – بيروت، ١٩٨٥م.
- عبد الملك العصامي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، دار الكتب العلمية – بيروت.
- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان. إصدارات لجنة إحياء التراث الإسلامي، التابعة للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية – مصر، بدون.
- عبد بن حميد، أبو محمد بن نصر الكسي: المنتخب من مسند عبد بن حميد، تحقيق صبحي البدري السامرائي، ومحمود محمد خليل الصعيدي، مكتبة السنة - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.
- العبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد بن الحاج: المدخل، دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
- عطية محمد سالم: شرح الأربعين النووية: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية: http://www.islamweb.net.
- علي الجزنائي: جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية – المغرب.
- علي الصلابي: عمر بن عبد العزيز، دار المعرفة – بيروت.
- علي بن أنجب بن الساعي: مختصر تاريخ الخلفاء، المطبعة الأميرية – مصر، ١٣٠٩هـ.
- علي بن ظافر، بدائع البداية، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة.
- عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين تراجم مصنفي الكتب العربية، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: إحياء علوم الدين، دار المعرفة - بيروت.

- الفشتالي: تحفة المغترب ببلاد المغرب، تحقيق فرناندو دي لا جرانخا. مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية – مدريد، ١٩٧٢.
- الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مطبعة دار المأمون، الطبعة الرابعة، ١٣٥٧هـ.
- القابسي، علي بن محمد: الرسالة المفصلة، تحقيق أحمد خالد، الدار التونسية للطباعة والنشر – تونس.
- قاسم بن قطلوبغا: تاج التراجم في طبقات الحنفية، تحقيق عبد الفتاح الحلو، دار الرفاعي – الكويت.
- القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق محمد سالم، دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٨م.
- القزويني، زكريا بن محمد: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر – بيروت.
- القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تصحيح محمد أمين الخانجي، دار السعادة – القاهرة، ١٣٢٦هـ.
- القفطي، علي بن يوسف: إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب – القاهرة، ١٩٥٠م.
- القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الفكر – دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
- لسان الدين بن الخطيب: الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة – بيروت، ١٩٦٣م.
- مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمانة، دار الرشاد الحديثة – المغرب.
- الماوردي، أبو الحسن علي: الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي تحقيق: علي محمد عوض – عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.
- المتقى الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ضبط وتصحيح بكري حياني، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.



- مجلة آفاق الثقافة والتراث – دبي.
- مجلة المخطوطات العربية – القاهرة، ١٩٧١م.
- مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية – مدريد، ١٩٥٥.
- مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية – مدريد، ١٩٥٥م.
- مجلة معهد المخطوطات العربية – القاهرة، ١٩٦١م.
- مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الخامس – القاهرة، ١٩٥٩م.
- مجير الدين العليمي: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، تحقيق: عدنان يونس عبد المجيد، مكتبة دنديس – عمّان، ١٤٢٠هـ.
- محمد المختار السوسي: سوس العالمة، مؤسسة بنشرة للطباعة والنشر، الطبعة الثانية – الدار البيضاء، ١٩٨٤م.
- محمد المختار السوسي: مدارس سوس العتيقة – المغرب.
- محمد بن أحمد عليش: منح الجليل شرح مختصر خليل، دار الفكر – بيروت، ١٤٠٩هـ.
- محمد بن نصر الروزي: مختصر قيام الليل وقيام رمضان وقيام الوتر، اختصرها المقريزي، دار حديث أكادمي – فيصل أباد، باكستان، ١٩٨٨م.
- محمد بن يعقوب الفيروزأبادي: البُلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تحقيق محمد المصري، جمعية إحياء التراث الإسلامي – الكويت، ١٤٠٧م.
- محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس – بيروت.
- محمد عادل عبد العزيز: التربية الإسلامية في المغرب، الهيئة العامة المصرية للكتاب – القاهرة، ١٩٨٧م.
- المزي، يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج: تهذيب الكمال، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرح عفيف حاطوم، دار صادر – بيروت.

- مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- المعافى بن عمران: الزهد، تحقيق عامر حسن، دار البشائر، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.
- معجم ابن المقرئ، تحقيق عادل سعد، مكتبة الرشد، ١٤١٩هـ.
- المقدسي المشاري: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي - القاهرة.
- المقري التلمساني، أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس دار صادر - بيروت، ١٩٦٨م.
- المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي - القاهرة، ١٩٩٨م.
- المقريزي، أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي: السلوك لمعرفة دول الملوك، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.
- المناوي، محمد عبد الرءوف بن علي: فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.
- موقع لواء الشريعة، على الرابط: http://www.shareah.com.
- ميشيل أماري: المكتبة الصقلية، دار صادر - بيروت.
- النباهي، علي بن عبد الله: تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة الطبعة الخامسة، دار الآفاق الجديدة - بيروت، ١٩٨٣م.
- النجم الغزي، محمد بن محمد: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، دار الآفاق الجديدة - بيروت.
- النسائي، أحمد بن شعيب: سنن النسائي الكبرى، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ = ١٩٩١م.
- النعيمي، عبد القادر: الدارس في تاريخ المدارس، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٠م.
- النويري، أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية - بيروت، ٢٠٠٤م.

- ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود الهيئة العامة المصرية للكتاب – القاهرة، ٢٠٠١م.
- اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- ياقوت بن عبد الله الحموي، أبو عبد الله: معجم البلدان، دار الفكر – بيروت.
- اليوسي: المحاضرات في اللغة و الأدب، دار الغرب الإسلامي – بيروت.

***

فهرس موضوعات

* * *



كيف ربى المسلمون أبناءهم

مؤسسة اقرأ
للنشر والتوزيع والترجمة

الإدارة: 10 ش أحمد عمارة بجوار حديقة الفسطاط - القاهرة
ت: 25326610 محمول: 01121202470
مكتبة اقرأ - الأزهر: شارع البيطار خلف الجامع الأزهر - القاهرة
ت: 25142167 محمول: 0110503367
مكتبة اقرأ - جامعة القاهرة: 4 ش حلمي - بين السرايات - الجيزة
ت: 37604696 محمول: 0110503368
iqraakotob@yahoo.com